



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ



أبعاد الفكر الوحدوي
وتأثيراته في واقع الحياة
السياسية والاقتصادية والاجتماعية
في بلاد الرافدين
2500-539 ق.م

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ
القديم

إشراف الدكتورة:
ليلي بومريش

تقديم الطالب:
الطيب زين العابدين

لجنة المناقشة :

- 1- الأستاذ الدكتور: بلقاسم رحماني رئيسا
جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله
- 2- الدكتورة: ليلي بومريش مشرفا ومقررا
جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله
- 3- الدكتورة: بنت النبي مقدم
جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله
- 4- الدكتورة : كاهينة قبايلي
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة
- 5- الدكتور: أحمد ثليجي
جامعة زيان عاشور - الجلفة
- 6- الدكتورة: جميلة خالفي
جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة

- السنة الجامعية: 2018 - 2019



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ



أبعاد الفكر الوجداني وتأثيراته في واقع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الرافدين.

2500-539 ق.م

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ
القديم

إشراف الدكتورة:
ليلي بومريش

تقديم الطالب:
الطيب زين العابدين

لجنة المناقشة:

- 1- الأستاذ الدكتور: بلقاسم رحمانى رئيسا
جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله
- 2- الدكتورة: ليلي بومريش مشرفا ومقررا
جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله
- 3- الدكتورة: بنت النبي مقدم عضوا مناقشا
جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله
- 4- الدكتورة: كاهينة قبائلي عضوا مناقشا
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة
- 5- الدكتور: أحمد ثليجي عضوا مناقشا
جامعة زيان عاشور - الجلفة
- 6- الدكتورة: جميلة خالفي عضوا مناقشا
جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة

-السنة الجامعية: 2018 - 2019

شكر وتقدير

يسعدني وأنا أقدم بحثي هذا أن أحمد الله عزّ وجلّ و أشكره،
إذ منّ عليّ بفضلله ورحمته، وأعانني على إتمام هذا البحث، فأساله
الثبات والتوفيق.

أخص بالشكر الجزيل الأستاذة المشرفة الدكتوراه بومريش ليلي
والتي أولت عناية واهتماماً كبيرين لهذا الموضوع منذ كان مجرد فكرة،
وبدّلت من وقتها جهداً كبيراً رغم مشاغلها الجمّة، وساعدتني كثيراً من
خلال الملاحظة والتوجيه والتقويم المتواصل لهذا العمل، مما كان
له أكبر الأثر في إخراج هذه الدراسة، فألف شكر إليك أستاذتي المحترمة.
كما أوجه شكري إلى أعضاء لجنة المناقشة لتفضلها بقبول مناقشة هذا
العمل. كما أوجه شكري إلى كل من قدم لي يد العون لإنجاز هذا العمل
من داخل وخارج البلاد، وبخاصة أساتذة وموظفي قسم التاريخ، بالإضافة
إلى عمال المكتبات وخاصة عمال مكتبة بوزريعة والمكتبة الوطنية.

فيألى كل هؤلاء ألف شكر وامتنان.

الإهداء

إلى أبي الحاج المبخوت زين العابدين رحمه الله وأمي الغالية فاطنة
ضيف الله.

إلى كل أفراد العائلة، الإخوة (بولنوار - البشير - خالد - فيصل)،
والأخوات (بركاهم - نورة - يمينة).

إلى الزوجة والأستاذة هاجر منير.

إلى أستاذ اللغة والترجمة زين العابدين بوزيد .

إلى سكان مدينة الهامل.

إلى أصدقائي الذين أعتز بصداقتهم.

إلى كل من أشرف على تعليمي من الطور الابتدائي إلى الجامعي.

أهدي هذا العمل.

مقدمة

تعد بلاد الرافدين أولى حضارات الشرق الأدنى القديم التي سعت إلى توجيه جهودها ومكتسباتها من أجل تحقيق مشروع الوحدة القومية بين مختلف أقاليمها المتباينة، إذ شكّل وصول العديد من الشخصيات الحاكمة إلى سدة السلطة ظهور مجموعة من المبادرات وجهود متواصلة خلال فترات حكمهم الهادفة إلى تحقيق واقع وحدوي.

هذا الواقع الذي اصطدم بالعديد من الخلفيات التي أعاقَت استكمال واستمرار مشروعه الوحدوي في كل مرحلة من مراحل تاريخها، نظراً لاحتوائها على أقاليم جغرافية متنوعة، وأجناس وثقافات مختلفة الأصول، مصبوغة بعبادات وتقاليد، ولغات خاصة بها، وفي المقابل لها أطماع توسعية من أجل السيطرة على أكبر رقعة جغرافية بالمنطقة، تقوم على أساس الترابط وتحقيق الوحدة مراعية في ذلك المصلحة العامة، التي تبعتها عن مرحلة التبعر القبلي والعصبي والولاء للدولة المدينة كوحدة مستقلة بذاتها، خاصة وأنها منطقة مستهدفة تاريخياً، حتى يومنا هذا.

لذا اخترت الغوص في طيات هذا الموضوع الشائك، حول: "أبعاد الفكر الوحدوي وتأثيراته في واقع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الرافدين (2500-539 ق.م)".

وقد غطّت الدراسة إطاراً زمانياً طويلاً، نظراً لطبيعة الموضوع الذي يعالج مشروع الفكر الوحدوي، الذي بدأت تتجسد مظاهره منذ نهاية العصر السومري القديم حوالي 2500 ق.م، وحتى نهاية العصر البابلي الحديث في 539 ق.م، لذا كان علينا تتبع مدى استمرارية هذا المشروع، فلم تأتي هذه الدراسة للبحث في التعاقب السياسي لدول العراق القديم، باعتبار أن الذي حصل هو تغير سياسي بزوال دولة وقيام أخرى، بقدر دراسة تناقل هذا المشعل الفكري الذي عاشته أقوام ودول المنطقة، أما الإطار المكاني فهو بلاد الرافدين، كونها مركز استقطاب، ومحل اهتمام لدى دول الشرق الأدنى القديم، فإعادة قراءة تاريخ هذه الفترة والمنطقة ومنجزاتها الحضارية بمنظار فكري للتأكيد على محاولة زعماء الوحدة اختراق الأطر القبلية والمدينية للمجتمع، ومحاولة نقله من اتجاه التجزئة الأرضية إلى المحافظة على الوحدة المكانية، وحتى أجزاء معتبرة من جغرافية دول الجوار.

تركزت أسباب اختياري لهذا الموضوع ميولي واهتمامي الخاص بهذا النوع من الدراسات الفكرية، وإلى العديد من النقاط أهمها:

✓ الظروف التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية بشكل عام والعراق بوجه خاص، حيث استهدفت القوى الغربية إرثه وتاريخه بواسطة السلب والنهب، والمؤسف أن تدمير آثار بلاد الرافدين والمكتشفات والمواقع الأثرية، قد يُعزى سببه إلى الدور الحدودي الذي لعبه هذا البلد في الشرق الأدنى القديم، فضلاً عن طمس الهوية التاريخية القديمة للمنطقة، و بما أنها مثلت مركز ثقل وحدوي قديماً وحديثاً، فكان استهدافها عبر التاريخ يعنى استهداف وحدة المشرق عموماً.

✓ بروز موضوع فكرة الدولة القطرية في الأبحاث المتخصصة في التاريخ القديم، باعتبارها من المشكلات التي تحاول تضخيم التاريخ القطري على حساب التاريخ الحدودي للشرق الأدنى، وبذلك يتحوّل عامل التاريخ المشترك من عامل توحيد للمجتمع وملهم لها في استعادة وحدتها ودورها الحضاري إلى شاهد زور يدعم تلك النزاعات في الكتابات التاريخية.

✓ محاولة إثبات امتداد هذا الفكر في التاريخ القديم من الناحية النظرية والواقعية كونه حقيقة تاريخية ممتدة في أزمنة التاريخ القديم، فكان النموذج حول ذلك "بلاد الرافدين"، كونها شكّلت البادرة الأولى في ظهور الأنظمة السياسية التي تحمل سلوكاً معيناً وفكراً يتأرجح بين من يدعوا بأفضلية الانقسام والانفصال، وبين من يدعو إلى التماسك الحدودي في شتى المجالات بالمقارنة مع نظيراتها في دول العالم القديم.

إذ يعد هذا الموضوع من الدراسات المهمة والحيوية في تاريخ بلاد الرافدين، وقد تكون متابعة هذه المواضيع في العراق حالياً لا تزال في بداية الطريق، فحسب اطلاعي أنّ هذا المشروع الفكري خصصت لجله ندوة علمية حضرها العديد من الأكاديميين والباحثين العراقيين موسومة بـ "وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين"، التي عقدتها دائرة التراث العربي والإسلامي في الجمع العلمي العراقي سنة 2000م، وتمّ نشرها في 2001م، وتمّ الإقفال على هذا الموضوع إلى حدّ الساعة دون أن تخصص رسائل وأطاريح لهذا الموضوع، لذا فإن أهمية هذه الدراسة تأتي من أنّ هذا الموضوع هو الحامل الأكثر أهمية لشتى مجالات الفكر إن لم يكن الوحيد، فهذه الدراسة لم تكن إلاّ إسهاماً في تعزيز معرفتنا بالجوانب الفكرية للعقلية السياسية في العراق القديم المجابهة لشتى أنواع سياسة الانقسام باستحداث فكر يدعو إلى الوحدة، وبالرغم من صعوبة توظيف هذا الفكر نظراً لما يعيقه

من ثورات مثلثها فئات ثورية في عدة مدن ودول رافدية في الداخل، علاوة على التوغل والتدخل الخارجي، نجدهم يعمدون على فرضه زمناً طويلاً لتحقيق الغايات الإنسانية المادية والمعنوية.

هذا إلى جانب أن الموضوع يتطلب دراية واسعة وإلماماً بمختلف جوانبه عبر محطاته التاريخية تبعاً لمصالح وطموحات حكام بلاد الرافدين، والقيام بعملية الإسقاط التاريخ لهذا الفكر على الفترة المراد دراستها، ومعرفة ما إذا كان هذا التوجه الحدودي قد أدى إلى إسقاط أو دمج حضارات بمقوماتها المختلفة في حضارة واحدة من خلال إضعافها لتصبح ضمن مجال حيوي واحد يتمتع بسيطرة محلية ونفوذ دولي على كافة أنحاء البلاد وعالم الشرق الأدنى القديم.

وبناء على ما تقدّم ذكره حول أهمية هذا الموضوع وصعوبة الخوض في غماره، نظراً لتشعبه وامتزاج عناصره استوقفتنا إشكالية أساسية تتمحور حول مدى مساهمة الفكر الحدودي لحكام بلاد الرافدين من حيث أبعاده في تحقيق النفع والمصلحة العامة لواقع البلاد ودول الجوار وكيفية مساهمته في دفع المنطقة إلى الاتحاد للوحدات المنفصلة من المجتمعات الجزأة المحلية والدخيلة عليها والتأثير على واقعه السياسي والاقتصادي والاجتماعي؟

وقد تفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات تتمثل فيما يلي:

- ما المقصود بالفكر الحدودي؟ وهل كانت للعوامل الجغرافية في العراق القديم دور وأثر في تفعيل مشروع الوحدة؟
- هل ساهم التركيب السكاني في بناء وحدة العراق القديم؟ أم أنها ظاهرة إثنية تنافسية تسعى إلى التعايش دون التوحد؟
- ما هي الأسباب التي جعلت التجارب الحدودية تتكرر في العراق القديم في كل مرحلة تاريخية من حالة تجزئة إلى حالة وحدة؟ وما هي عوامل تذبذب هذا الفكر في ظل المعوقات المحلية والدولية؟
- هل استطاع الفكر الحدودي الذي تبناه حكام بلاد النهرين في طابعه الاقتصادي أن يتعدى مشاكل النزاع على الأراضي الزراعية؟ في حين هل يمكننا اعتبار مشاريع الري عاملاً عزّز مشروع الوحدة، وحدّاً من صراعات المدن حول المياه النهرية؟
- هل ساهم الانفتاح الصناعي الذي أعقب عمليات التوسع خارجاً والتوحد إلى تدعيم وتنظيم المبادلات التجارية المحلية والدولية؟

• هل شكلت الطبقية في ظل الوحدة بين الفئات الحاكمة والحكومة وحدة أضرار أم اتفاق؟ وإلى أي مدى ساهم التراث الأسطوري والمراثي والأناشيد الوحدوية في تعزيز مشاعر وأحاسيس الوحدة؟

ولدراسة الموضوع اعتمدت بالدرجة الأولى على المنهج التاريخي الوصفي، للوصول إلى الجوانب الموضوعية في إطارها التاريخي من خلال قراءات متعددة للنصوص الوحدوية، حتى يتسنى لي وضع تصور تاريخي حول تتبع مراحل تطور هذا الفكر، ثم التزمت المنهج التحليلي للوقوف على بعض نقاط قوة وضعفه، ومن أجل الإحاطة بكل جوانب الدراسة، قسمت خطة الموضوع إلى أربعة فصول مسبوقة بمقدمة ومدخل وخاتمة في آخر هذه الدراسة.

■ في المدخل الموسوم بـ : **قراءة في مصادر الدراسة،** تضمن معاينة لمختلف المصادر المادية الأثرية التي تحمل إشارات واضحة لهذا الفكر، كما كان للمصادر الكتابية وخاصة التي تناولت الجوانب الدينية والأدبية والتشريعية الدور والأثر نفسه في هذا المجال، فضلاً عن نصوص وحوليات حكام بلاد الرافدين المختلفة عبر مراحل وحدتها، إذ لم تمثل تلك النصوص جانباً نظرياً فحسب، بل كانت الجانب المفعّل لواقع السياسة الرافدية القديمة، بالإضافة إلى ذلك نذكر الكتب المقدسة التوراة والإنجيل (العهد القديم والجديد) وما حوته أسفارها المتعددة.

■ **والفصل الأول: المعنون بجغرافية وأساسيات الفكر الوحدوي،** فقد ذكرت فيه المفهوم والأساليب، ونماذج من الحضارات القديمة تبنت الفكر الوحدوي، والتسميات المختلفة للمنطقة والتي عبّرت بدورها عن امتدادها الواسع للوحدة عبر مراحل تاريخ المنطقة القديم، فضلاً عن أساسيات الوحدة من الموقع وما اشتمل عليه من مقومات مختلفة، كالأنهار والمناخ السائد بها، والمجموعات السكانية للأمم الفاعلة في مجال عملية التوحيد، من خلال عرض أصول الأقوام السومرية والجزيرية (الأكدية-البابلية-الأشورية-الكلدانية)، إذ أن لكل أصل خصوصيته السياسية.

■ **الفصل الثاني: السياسة الوحدوية وتحدياتها،** قمت بدراسة تحليلية لِمراحل الحركات الوحدوية انطلاقاً من الأبعاد التنظيمية للقرية والمدينة، إلى تتبع تطورات الحراك

السياسي بدء بنظام الدولة المدينة، ثم مراحل الدولة الموحدة بنوع من التفصيل والبيان، كما تناولت مظاهر الفكر الحدودي نظراً لأهميته، ومنها الألقاب الحدودية لما تضيفه من صبغة سياسية على الامتداد الجغرافي، إذ كان تطورها له علاقة بمسألة الوحدة محلياً ودولياً، ولو أن الخطابات الحدودية لحكام العراق القديم قد حظيت هي الأخرى بنصوص من حيث طبيعتها السياسية والحربية، علاوة على دورها في مجال خطاب العدالة، كما عرضنا بالتحليل نماذج من نصوص التحديات الحدودية التي عبّرت هي الأخرى عن اتجاهات وحدوية على الصعيد المحلي والدولي.

■ **الفصل الثالث: جاء تحت عنوان الفكر الحدودي في ظل الحياة الاقتصادية، درسنا فيه الأبعاد الزراعية باعتبار أن الأراضي الزراعية بمحاصيلها ومشاريع تعميم الري عماد الحياة الاقتصادية وعامل تعزيز للوحدة أو التجزئة في نفس الوقت، يليها الأبعاد الصناعية التي تأرجحت بين سياسة الاحتكار وسياسة الانفتاح الصناعي باستخدام أساليب التوحيد في طابعه العسكري خدمة للمنطقة الرافدية، علاوة على الأبعاد التجارية المختلفة كالإصلاحات الاقتصادية من توحيد الضرائب، ووحدة في المكييل والأوزان، وأخيراً التجارة بنوعها الداخلي الذي يعمل على تعزيز العلاقات التجارية بين مختلف مدن وأقاليم الاتحاد الرافدي، والخارجي الذي يسعى في العديد من محطاتها التاريخية إلى فرض سلطتها وتصدير منتجاتها مقابل الحصول على منتجات وخبرات دول الجوار.**

■ **الفصل الرابع: الموسوم بمظاهر الفكر الحدودي في المجتمع الرافدي، حاولت توضيح الحياة الأسرية للمجتمع الرافدي مع مسألة الطبقة في ظل هذا الفكر، مع معالجة قضية الحريات الاجتماعية، منها حري الرأي، واللغة، والدين، والتراث الحدودي الغالب على الحياة في طابعها العام، ولعل أهم عناصره الأساسية الأناشيد و الرموز الوطنية و الأساطير الحدودية ومراثي المدن و الدول.**

ولتحقيق هذه الدراسة والإجابة عن التساؤلات المطروحة سابقاً، اعتمدت على مجموعة من

المصادر والمراجع أهمها:

﴿القرآن الكريم﴾: باعتباره مفتاح للبحث عن العديد من الأحداث التي شهدتها أرض الرافدين، سواء تعلق الأمر بالأنبياء أو بالإشارة إلى مدينة معينة مثل "بابل"، أو حادثة "الطوفان" إذ اعتمد السكان هذا المصطلح الأخير من باب التشبيه حال تعرضهم لاعتداء أجنبي، وإن وجدنا في نصوصه ما يدعوا إلى الوحدة مع مراعاة مسألة الاختلاف داخل وخارج إطار الوحدة بمفهومها العام سواء من خلال التعارف بين الأمم أو التعامل والتفاهم مع الشعوب.

﴿العهد القديم﴾: احتوى هو الآخر نصوصا كثيرة يمكن توظيفها في الموضوع مُشكلة نتائج العقاب التي تعرضت له الأمم بشكل عام وبلاد الرافدين بوجه خاص جراء عدم تمسكها بمضامين هذا الفكر، بل ويلاحظ في نصوصه الهادفة إلى الوقوف ضد الطموحات الوحدوية خلال عهد الآشوريين والبابليين بما يخدم مصالح اليهود خلال انطوائهم تحت لواء التوسع الرافدي ومحاولة كسر هذه المشروع بالتحالف مع الفرس.

كما اعتمدت على ما جاء ذكره هيرودوت (484-425 ق.م)، أشهر مؤرخي الإغريق، الذي ألّف كتابه "التواريخ"، وقسمه إلى تسع أجزاء، تحدث في الجزء الأول منه عن بابل وأشور، باعتبار أنّ هذا المؤرخ كانت له زيارة إلى هذه البلاد، وعَلَى ما ذكره نظيره الجغرافي سترابون (57 ق.م-24 م) الذي ترك لنا فصلاً عدة من كتابه في الجغرافيا، وقد وصف في الجزء السادس عشر منه جغرافية بلاد آشور وبابل وهو ما يجعل كتابه ذا أهمية كبيرة مع كتاب هيرودوت التاريخي، ومصادر أخرى منها "المكتبة التاريخية" للمؤرخ ديودور الصقلي الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد وقدم وصفا لبعض المسائل السياسية خلال مرحلة الوحدة الآشورية، والاقتصادية وبخاصة في مجال الاهتمام بمشاريع الإرواء، إذ وجدناها تخدم الموضوع نوعاً ما، و كتاب أورسيوس المشهور والمعروف بـ "تاريخ العالم" إذ ذكر في بعض صفحاته وصفاً هاماً حول التقدم الملحوظ لحكم بابل الوحدوي مع وصف نهاياته.

والى جانب هذه المصادر، فقد اعتمدت أيضاً على جملة من المراجع المهمة التي تناولت هذه الحقبة بالتفصيل، منها كتابات المؤرخين العراقيين، كمؤلفات المؤرخ وعالم الآثار "طه باقر" وأبرزها: "مقدمة في تاريخ الحضارات"، كتاب سامي سعيد الأحمد: "العراق في التاريخ"، وكتاب فاضل عبد الواحد علي "سومر أسطورة وملحمة" وكتاب "عبد الله الحلو" "صراع الممالك في التاريخ السوري

القديم مابين العصر السومري وسقوط المملكة التدمرية"، وكتاب "الشرق الأدنى القديم" "لقيس حاتم الجنابي"، وكتاب "حضارة العراق" الصادر سنة 1985م عن نخبة من مؤلفي العراق، بالإضافة إلى العديد من المجلات ولعل أهمها "مجلة سومر" الصادرة عن مديرية الآثار العراقية، هذا علاوة على كتب أخرى عديدة العربية منها والمترجمة، كما اعتمدت على بعض الكتب الأجنبية باللغتين الفرنسية والانجليزية ومنها: كتاب "العراق القديم لمؤلفه جورج رو - Georges Roux, Ancient Iraq" -، وكتاب "السومريون- تاريخهم وثقافتهم وخصائصهم" لصمويل كريم نوح .Samuel Kramer Noah , **The Sumerians -Their History Culture And Character** وكتابات "دانيال دايفيد لوكمبيل" ومن أهمها الجزء الأول والثاني لمؤلفه السجلات القديمة في آشور وبابل - Daniel David Luckenbill, **Ancient Records of Assyria and Babylonia**

في الأخير ما أريد الإشارة إليه هو غياب وحتى شبه انعدام للدراسات التي تناولت موضوع الفكر الوحدوي في حضارة العراق القديم كروية تاريخية، بحيث لم يحدد لهذا الفكر مفهوم يتوافق وطبيعة الفترة المدروسة مع أنه أحد دوافع اختياري لهذا الموضوع، إلا أننا حاولنا إعطاء صياغة ومفهوم يتلاءم وطبيعة تلك الفترة تبعاً لما تمليه الأحداث التاريخية، دون أن ننسى بأنه موضوع متشعب لا ينحصر في ظاهرة واحدة بل يشمل كل الجوانب الحضارية.

كما أنّ عملية الإسقاط الفكري لهذا الموضوع على المنظومة السياسية المختلفة في العراق القديم وعلى جانبيها الاقتصادي والاجتماعي، إنما يحتاج إلى مادة نصية تدعم وتعزّز وجوده، إذ تختفي في بعض مراحل تاريخ المنطقة، وقد يعزى السبب في انعدامها بشكل تام، أو أنها مازلت تحظى بالبحث الأثري، ومنها نقص النصوص الاقتصادية والاجتماعية لبعض فترات تاريخها.

وقد حاولنا الإحاطة بكل الجوانب المشرقة لهذا الفكر كحقيقة تاريخية، وصياغة الأحداث التاريخية بمنظار الباحث والمفكر في التاريخ القديم. ولا يفوتني أخيراً أن نتقدم بالشكر إلى أستاذتي المشرفة الدكتورة ليلي بومريش التي كانت سنداً لي بتوجيهاتها القيمة لاستكمال دراسة موضوعي، كما لا أنسى أستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور بلقاسم رحمان، كما أتقدم بالشكر للجنة المناقشة على قبولها إثراء الموضوع وتثمينه.



المدخل:

قراءة في مصادر الدراسة

تعد بلاد الرافدين من بين دول العالم القديم التي سعت لتحقيق أبعاد هذا الفكر الوجداني والعيش في سلام، وإذا ما حاولنا دراسة أهداف هذا الفكر ومدى فعاليته عبر محطاته التاريخية، فالأولى بنا البحث في المصادر والمخلفات الأثرية لسكانها القدماء، والتي تنقسم إلى نوعين، الآثار المادية والنصوص الأدبية، وبما أنّ معلوماتنا عن الأنظمة الوجدانية القديمة وأساليبها مستمدة من هاذين المصدرين الرئيسيين، فالآثار المادية التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية والنصوص المسمارية ذات العلاقة، يمكن الاستعانة بها في معاينة التطور الكبير في مختلف جوانب هذا الفكر بأبعاده في عالم العراق القديم وجواره الحضاري، بينما تبقى النصوص الأدبية المصدر الأساسي للتعرف على أنظمة الحكم من خلال النصوص المسمارية لزعماء الوحدة في تاريخ المنطقة، كونها تعكس الواقع التاريخي خلال كل حقبة، علاوة على نصوص المصادر الدينية من التوراة والقران الكريم ودورها في تعزيز هذا المبدأ عبر هذه العصور.

I- قراءة في مصادر العراق المحلية:

أشار بعض الباحثين إلى أنّ كتابة التاريخ ارتبطت بالكتابة الكلاسيكية، لاسيما اليونانيين منهم، مع الإجحاف بحق حضارات الشرق القديم*، لاسيما حضارة العراق القديم، بعدّها من الحضارات التي اعتمدت الأسطورة في سرد أحداثها التاريخية، إلّا أنّ المكتشفات الأثرية لآلاف من الرقيم الطينية باللغات القديمة، السومرية منها أو الجزيرية (الأكدية، البابلية والأشورية)، قد عكست للكثير منهم عن أصالة الحس التاريخي والأمانة بنقلها للأحداث والوقائع، وتوثيقها بشكل دوري ومُعاصر للفترة تقريباً، وتدوين الكثير من الإنجازات الملكية والوقائع السياسية والاجتماعية، كسيرة ذاتية للملوك والأمراء، مع كتابات أخرى جديرة بالأهمية، كتبت ووثقت من

* يتكون هذا المجال الجغرافي الكبير من ثماني مناطق رئيسية، تشمل إيران (بلاد فارس)، العراق (بلاد النهرين)، الأناضول (تركيا)، بلاد الشام (سوريا-لبنان-فلسطين-الأردن)، ودول الخليج العربي (الكويت-البحرين-قطر-دولة الإمارات العربية المتحدة-سلطنة عمان)، شبه الجزيرة العربية-اليمن، وأخيراً مصر بسبب موقعها الفريد بين الشرق وشمال قارة إفريقيا... الخ- للمزيد أنظر: علي رمضان عبده، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته منذ فجر التاريخ حتى مجيء حملة الإسكندر الأكبر "إيران-العراق"، ج1، دار نهضة الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص5.

Stéphanie Anthonioz, *L'eau, enjeux politiques et théologiques*, Koninklijke Brill / Leiden, The Netherlands, 2009, pp 2-4.

أجل التأريخ آنذاك لإحداث ماضية تخليداً وافتخاراً بها، وبشكل واقعي وموضوعي إلى حد ما وبأسلوب الراوي أو المؤرخ⁽¹⁾.

لذا ينبغي أن نشير إلى أن قراءة الكتابات المسمارية ودراسة اللقى والبُنى الأثرية قد تمَّ على يد الاستشراق الغربي، فمن هذا الاستشراق ما أصاب، ومنه ما أخطأ، والمشكلة أن الباحثين العرب إما نقلوا ما كتبه الاستشراق، أو رفضوا ما طرحه المستشرقون، وقليلاً ما نجد باحثاً وقف وقفة نقدية مما طرحه الاستشراق إلا لمأماً، وقد يُسبب الكثير منها نوعاً من الغموض، والفوضى المعرفية التي يصعب الانفلات من براثنها⁽²⁾، إذ أن الأبحاث والدراسات التاريخية الرصينة والعلمية، والمستندة إلى حقائق أثرية، من وثائق وعمائر وفنون واعتقادات وإلى ما هنالك، أكدت على وجود وحدة حضارية متجانسة، في المشرق العربي القديم، مؤسسة على أبعاد جغرافية واجتماعية واقتصادية وروحية واحدة، أدت إلى وحدة في المصالح والحياة بين جَنَاحِي المشرق الرافدي والشامي، كمثال تاريخي على الوحدة⁽³⁾.

وإزاء هذه الحقيقة كان لابد للباحثين الحديثين إن أراد احدهم معرفة شكل النظام السياسي وأسلوب الحكم في العصور المبكرة من تاريخ العراق أن يستعين بالنصوص المسمارية⁽⁴⁾، الزاخرة بمكوناتها المعنوية والفكرية، كونها تكشف عن أسلوب الفكر العراقي القديم الحيوي والمتنوع، من خلال المزج الفكري للعديد من الثقافات التي انصهرت في بوتقة أرض الرافدين، ولكون هذا الأخير نقطة استقطاب وإلهام لهذه الثقافات يسهولها وجبالها وأنهارها، فقد استقي هذا الفكر معطياته ومقوماته من المحيط البيئي للعراق وطبيعته التي تميّزت بالتنوع والتغير، علاوة عن التطرف في بعض المظاهر، ليكون نبعاً ومنهلاً مؤثراً في الحضارات الأخرى⁽⁵⁾.

(1) - أثير أحمد حسين، الموضوعية في كتابة التاريخ بأسلوب الشخص الثالث عند العراقيين القدماء، مج11، ع21، مجلة أبحاث ميسان، بغداد، 2015، ص176.

(2) - بشار خليف، نشوء فكرة الألوهية "مقاربة تاريخية فكرية"، مر: محمد محقل، ط1، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2011، ص69.

(3) - بشار خليف، دراسات في حضارة المشرق العربي القديم، ط1، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2004، ص7-8.

(4) - معاذ حبش خضر العبادي، المجالس في العراق القديم في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، بغداد، 2012، ص10.

(5) - أثير أحمد حسين، المرجع السابق، ص176.

وبما أنّ البعثات الأثرية الغربية، درست آثار المنطقة بشكل مجزأ، حسب تخصصها، ما أدى إلى تجزئة قراءة تاريخ هذه المنطقة، فقد صار لزاماً على أي باحث أن يجمع كل ما تمّ إنجازه، ومن ثم إعادة قراءته وفق رؤية شمولية، وبذلك يمكن تحقيق الغاية المرجوة من أي عمل بحثي موضوعي وعلمي⁽¹⁾ من خلال تحريره من هيمنة الدراسات الاستشراقية التي لا تخلو في حالات تقل أو تكثر، تهدف إلى استحداث القطيعة⁽²⁾.

1-المخلفات المادية:

مما يؤكد وحدة التراث الحضاري القديم في جميع أنحاء العراق القديم، العثور على المخلفات الحضارية المتشابهة للعديد من العصور التاريخية في كافة أنحاء المنطقة، فالدور الحضاري لفخار العبيد* نجده منتشراً في شمال ووسط وغرب أنحاء البلاد وجنوبها في نفس الفترة التاريخية، وألواح الكتابة المسمارية المكتشفة في العصر البابلي القديم نجدها أيضاً منتشرة في قصور⁽³⁾ نينوى الواقعة على ضفاف الفرات⁽⁴⁾. وقلعة "كركوك"***و "أربيل"***، وهذا ما تؤكده القطع الأثرية

(1) - بشار خليف، (دراسات في حضارة المشرق...)، المرجع السابق، ص8-9.

(2) - مجلة المؤرخ العربي، نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي "البيان الختامي للندوة"، ع39، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1988، ص366.

* يضم دور العبيد: 1/ دور العبيد الأول ويُسمى دور إيردوا، 2/ دور العبيد الثاني ويُعرف باسم فخار الحاج محمد القريب من الوركاء ورأس العَمِيّة و القريب من كيش أيضاً، وقد عاش (أهل العبيد) في شمال العراق، إلا أنهم كانوا يُسيطرون على الجزء الجنوبي من العراق القديم، فكانت ثقافتهم أولى الثقافات التي انتشرت بالمنطقة، إذ كانوا أكثر الفلاحين تقدماً، فضلاً عن الصناعات الفخارية والأبنية المعمارية، ولعل أهمها المعابد لأهميتها من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حيث كانت النواة الأولى لأنظمة الحكم المعروفة ب (حكومة العبيد)...الخ- للمزيد أنظر: عدنان مكي عبد الله، نشأة وتطور القرية في العراق، مج39، ج1+2، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد، 1983، ص60-61.

(3) - سلمان خيرى وجعفر حسين، العوامل الأساسية في وحدة العراق السياسية، مج14، ع5، مجلة تكريت للعلوم الإنسانية، بغداد، 2008، ص247-250.

(4) - Diodore de Sicile, **Bibliothèque Historique**, tra par M.Ferd.hofer, tome1, Charpentier Libraire éditeur, Paris, 1846, II, IV.

** كركوك، منطقة في شمال العراق، اشتهرت تاريخياً منذ العهدين الآشوري والبابلي، وقد أطلق عليها الساسانيون اسم "كرمان" والساميون "بيت جرمانى" - للمزيد أنظر: هنري س. عبودي، معجم الحضارات السامية، ط2، دار جُرس بُرس، لبنان، 1991، ص714.

*** (أربيل-Erbil): تقرب حوالي 90 كلم من مدينة الموصل، مثلت مركزاً هاماً لعبادة الآلهة عشتار: للمزيد أنظر: Marie-Josèphe Seux, **Littérateur Ancienne du Proche Orient -Hymnes et prières aux dieux de Babylonie et d'Assyrie**, les éditions du Cerf, paris, 1976, p 33.

المعروضة في متحف اللوفر في باريس، وفي المتاحف التاريخية العراقية، و منها مسلة حمورابي* (1750-1792 ق.م)، التي تعرضت نصوصها للتشويه أو المسح، كونها تدعوا إلى المحافظة على وحدة البلاد والتصدي للأعداء، إذ لاحظ الباحثون الأثريون أنّ سبع أعمدة قد مُسحت من الكتابة المسمارية الموجودة في شريعته من قبل العيلاميين⁽¹⁾.

وكما أنّ التاريخ المشترك، وقدرة القادة السياسيين، كان لهما الفضل في وحدة البلاد وتحقيق المنجزات الحضارية العظيمة، وصدّ الأخطار الخارجية التي تعرضت لها البلاد، فقد كانت المخلفات الأثرية من النُصب الدينية والمعابد العراقية بمثابة مصادر لتعزيز الوحدة ومقاومة الانفصال⁽²⁾.

إذن كان للمخلفات الحضارية المادية والثقافية الدور الكبير والفعال في وحدة بلاد الرافدين السياسية وجذب السكان إلى هذه الوحدة، فالآثار الشاخصة في شمال العراق وجنوبه تؤكد على وحدة الفن، البناء، الهندسة، الري... الخ، علاوة على المآثر الحضارية الأخرى التي كشفت عنها الكثير من الدراسات الحديثة والتي تعكس وحدة التراث الحضاري العراقي القديم عبر مختلف عصوره التاريخية، بما فيها الأجناس التي عاشرت العراقيين بدافع التفاعل الحضاري والمصالح المشتركة أو أي رابطة حضارية أخرى، رغم اختلافها عن سكان بلاد الرافدين من حيث التكوين أو الصفات البشرية⁽³⁾.

ومن هذا المنطلق فقد تضمنت النصوص الأثرية المكتوبة على الألواح الطينية معلومات عن أنظمة الحكم، وطبيعة العلاقات بين المؤسسات السياسية من جهة، والدينية من جهة ثانية، وأفراد المجتمع وجماعته من جهة أخرى، وكان أحد أوجه العلاقة التفاعلية بين الفكر والواقع في هذه الحضارات، وانعكاس واقعها الاجتماعي والاقتصادي على أفكارها وبخاصة ما يتعلق بالناحية السياسية، وتجسّد الوجه الآخر لهذا التفاعل في تحريك الفكر للواقع ودوره في تغييره وإعادة

* أصبح "حمورابي_Hammourabi" ملكاً بعد وفاة والده "سين موباليت" 1793-1812 ق.م، تولى شؤون الحكم وهو صغير في السن "ما بين 18- و 20 سنة"، شهد عصره العديد من الحملات والحروب على مدن بلاد الرافدين بهدف توحيدها، للمزيد حول إنجازاته أنظر:

Barbara A. Somervill, **Great Empires of the Past: Empires of Ancient Mesopotamia**, Chelsea House publishers, U.S.A , 2010, p 38-40.

(1) - سلمان خيري وجعفر حسين، المرجع السابق، ص 247-250.

(2) - المرجع نفسه، ص 253.

(3) - نفسه، ص 249.

تشكيله والتأثير فيه في دورة متواصلة ومتتابعة، وتشمل العوامل المادية التي أثرت في النتاج الفكري لحضارات الرافدين وتحكمت فيها عناصر البيئتين الطبيعية والبشرية التي كان تنوعها واختلافها أيضاً أساساً لتنوع الحضارات، وتعدد دياناتها وألهتها، واختلاف قيمها ومعتقداتها وتقاليدها مما كان سبباً لانقسام الدول الناشئة في هذا الإقليم، وحروبها المستمرة حتى غدت ظاهرة عدم الاستقرار الاجتماعي- السياسي من ظواهره التاريخية المميزة، وفرض على حضاراته ودولها الاهتمام بقوتها وقدرتها العسكرية، وهو ما عكسته طبيعة العديد من حضاراته من حيث الخصائص والمنجزات، مثلما كان تتابع الحضارات وتقلب أنظمة الحكم في إطار الحضارة الواحدة انعكاساً آخر لظاهرة عدم الاستقرار والتغير المستمر في بلاد الرافدين⁽¹⁾.

2- النصوص الأدبية:

تعد النصوص الأدبية المكتوبة بالمسمارية من بين النصوص التي تضم تراث فكرياً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، لاشتمالها على الأعمال الأدبية والملاحم والأمثال والحكم والنصوص، بل والأساطير المعززة لوحدة البلاد.

وتُمثل هذه النصوص المسمارية أيضاً أروع ما تركه العراقيون القدماء من ظواهر حضارية نقلت إلينا معلومات كثيرة، ومتنوعة عن الأساليب الحياتية بمختلف مجالاتها، إذ استطاع الباحثون من خلالها التعرف على النظم القانونية والأعراف والتقاليد السائدة آنذاك، وعلاقة الناس بالسلطة الحاكمة، وكيفية تعامل الأقوام فيما بينهم اجتماعياً واقتصادياً وعلى مختلف المستويات، إلا أن المآخذ التي تؤخذ على هذه النصوص المكتوبة، أنها قد تكون غير دقيقة أو غير صادقة في كل ما دُوّن فيها، وبالتالي لا بد من محاولة تسليط الضوء على مدى مصداقية مضامينها، ومعرفة ما ورد فيها من معلومات بشكل دقيق، مع دعوة الباحثين من أجل إعادة النظر في فحوى تلك النصوص، ووضع الحقائق في نصابها وتفنيد كل معلومة غير دقيقة وضعها الباحثون الغربيون، الذين دفعتهم دوافع وأهواء دينية وعرقية لإثبات ما ورد ذكره في العهد القديم⁽²⁾.

(1) - عبد الرضا حسين الطعان وآخرون، موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ط1، دار الروافد الثقافية "ناشرون"، بيروت، 2014، ص54.

(2) - عبد الله علي محمد التميم، النصوص المسمارية ومصادقيتها، ع3، مجلة آداب الفراهيدي، بغداد، 2010، ص343.

يُشير بعض الباحثين لاسيما ضمن الدراسات التاريخية، إلى اعتماد العراقيين القدماء في كتابتهم التاريخية على الجانب الأسطوري، باستخدام الأسطورة في التأريخ، وتقمص أحداثها بالرداء اللاهوتي، إلا أن المتخصص سيكون على دراية كبيرة، من خلال تحليل النصوص بأبعادها الحقيقية، الفرق بين النص الأسطوري والنص التاريخي، فضلاً عن الفرق بين الحس التاريخي الكبير في توثيق الأحداث المهمة، والموضوعي في القسم الأعظم منها، لاسيما تلك التي خصصت من أجل كتابة التاريخ، بتوثيق أحداث ماضية مألوفة حدثت على أرض الواقع، ووقائع سياسية واجتماعية من أجل تخليدها والافتخار بها، ومابين النصوص الأخرى التي تناولت محاور فكرية مختلفة لغرض إشباع الفكر العراقي القديم المتنوع، والتي أصبحت عند الباحثين مادة مهمة لتأريخ حضارة بلاد الرافدين، وهي مفارقة مهمة يجب تسليط الضوء عليها، أي التفريق مابين المصادر التاريخية القديمة لتأريخ الحضارة من قبل الباحثين، ومابين النصوص التي كان القصد منها كتابة التاريخ وتدوين الأحداث الماضية⁽¹⁾.

ولو رجعنا إلى نصوص العراق القديم وكتابات المسمارية، سومرية كانت أم أكادية، بابلية أم آشورية، لوجدنا الشعور بوحدة أرض الرافدين وتكاملها الحضاري والجغرافي والاقتصادي والسياسي، بل الشعور بوحدة المنطقة وتناظرها الحضاري من البحر الأسفل (الخليج العربي)* في الشرق إلى شواطئ البحر العلوي (البحر المتوسط) في الغرب، كان هاجساً بارزاً لشعب العراق القديم وقياداته عبر التاريخ، تُعزّزه وحدة الأرض والمصير المشترك في مواجهة الأخطار والتحديات القادمة من وراء الحدود الشمالية والشرقية بالذات، وقد سعى إلى هذا الهدف الوحدوي بإصرار وبتضحيات كبيرة قادة عراقيون بارزون منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، عُرفوا واشتهروا من

(1) - أثير أحمد حسين، المرجع السابق، ص 177-178.

* أطلقت المصادر العراقية القديمة من سومرية وأكادية أسماء عديدة على الخليج العربي، ومنها البحر الأحمر وبحر شروق الشمس والبحر الأسفل والنهر المُر وبحر شروق الشمس الكبير، وبحر بلاد الكلدانيين، وسماه بعض كتاب اليونان البحر الأثيري (الأحمر)، ربما معتبرين إياه جزءاً من بحر العرب الذي أطلق عليه البحر الأحمر، ويقع الخليج العربي جغرافياً بين شبه الجزيرة العربية غرباً، وفارس شرقاً ومضيق هرمز وخليج عمان جنوباً والعراق شمالاً- للمزيد أنظر: قيس حاتم الجنابي، تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2014، ص 164-165؛ محمود شاكر، موسوعة تاريخ الخليج العربي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2003، ص 6.

خلال النصوص التي تركوها أمثال كتابات لوكال زاكيزي* (2400-2371 ق.م)⁽¹⁾، وأشهرهم وأبعدهم أثراً سرجون الأكادي** (2371-2316 ق.م)، وأكثرهم شهرة المشرع البابلي الكبير حمورابي⁽²⁾، فضلاً عن عدد من القادة الآشوريين العظام، أمثال كتابات⁽³⁾، سرجون الثاني (721-705 ق.م)⁽⁴⁾، وابنه سنحاريب (705-781 ق.م)، و أسرحدون (681-669 ق.م)⁽⁵⁾، وأشور بانيبال (669-629 ق.م)، أعظم ملوك البلاد الآشورية⁽⁶⁾، وأخيراً نبوخذنصر*** الكلداني

* **Lugalzagesi**: ملك سومري استولى على معظم بلاد سومر قبل ظهور الإمبراطورية الأكادية، بدأ كحاكم لمدينة "أوما" الواقعة شمال غرب لجش، استولى في البداية على هذه الأخيرة وعلى أوروك، لكن طموحاته تم قطعها من قبل سرجون الأكادي الذي هزمه وأخذ سجيناً للمزيد أنظر:

Dan Nadro, **Ancient Mesopotamia**, Green haven Press, U.S.A, 2007, p 169-170.

(1) - بهنام أبو الصوف، **قراءات في الآثار والحضارات القديمة**، مر: الأب ألبير أبونا، منشورات دار نجم المشرق، بغداد، 2008، ص 8.

** تُحدد قائمة الملوك 56 سنة لحكم هذا الملك القوي الذي يعود إلى أواخر الألف الثالث ق.م، وقد تركت هذه المدة من الحكم أثرها في تاريخ وآداب وسياسة بلاد النهرين، وفي شأنه ذكرت الأساطير قصة ولادته وكيفية ظهوره للملكية وحكمه الطويل في بلاد النهرين وأسيا الصغرى، وإدعاءه بالمنطقة الممتدة من البحر السفلى وجزره حتى البحر العلوي وجزره، أي من دلمون إلى قبرص، وقد شكّل بدوره الأهداف السياسية إلى العديد من بُناة إمبراطورية العراق القديم لمن جاء بعده في الحكم، للمزيد أنظر:

Leo Oppenheim, **Ancient Mesopotamia-Portrait of a Deal Civilization**, The University Chicago Press, U.S.A, 1977, p 413 ; Sabatino Moscati, **L'Orient avant les Grecs (Les Civilisations de la Méditerranée antique)**, presse Universitaire de France, Paris, 1963, p70 ; Kathleen Kuiper, **Mesopotamia : the world's earliest civilization**, Britannica Educational Publishing, New York, 2011, p 54.

(2) - Léon Homo, **histoire D'orient**, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1945, p78.

(3) - بهنام أبو الصوف، المرجع السابق، ص 8.

(4) - حياة إبراهيم محمد، **نبوخذ نصر الثاني (604-562 ق.م)**، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد، 1983، ص 38.

(5) - بهنام أبو الصوف، المرجع السابق، ص 8.

(6) - Jean Bottéro, **Mesopotamia: Writing-Reasoning and the Gods**, Trans by Zainab Bahrani and Marc Van de Mieroop, the University of Chicago Press, U.S.A, 1992, p 289.

*** **Nabuchadnezzar**: ملك بلاد بابل، خلف أباه "نابوبلاسر-Nabopolassar" في الحكم، واستطاع الحصول على التحرر من التسلط الآشوري، وفي الوقت الذي شرعت بلاد بابل أثناء حكم والده تتولّى الوظائف العسكرية والسياسية، استطاع نبوخذنصر أن يقود البلاد إلى أوج القوة في الشرق الأدنى القديم بعد انتصاره على الفرعون (نيخو الثاني) عند منطقة كركيمش (605 ق.م)، وبذلك استطاع توسيع السيادة البابلية خاصة نحو الجهة الغربية باتجاه مدن أورشليم وصور... الخ. للمزيد أنظر: p 411, Leo Oppenheim, Op.Cit.

البابلي (604 - 562 ق.م)⁽¹⁾، وبالتالي يمكن اعتبار هذه النصوص في نظرنا، والتي تتضمن بين أسطرها دعوة إلى الوحدة دليل مُعزّز ومناهض لكل محاولات التسلط والتفتيت طيلة فترات تاريخها القديم.

كما أن قراءة مضامين النصوص المسمارية، وفك رموزها قد تمّ بعد جهود مضيئة، ومع الأهمية التي تحظى بها، إلّا أنّ معظمها يُمثل وجهة نظر السلطة الحاكمة وكهنتها، إذ أنّها كُتبت بأمر أو توجيه من السلطة الحاكمة، فهي تعكس وجهة نظرها وتُعبّر عن نظرتها إلى الأمور والقضايا المختلفة، فالقوانين المدونة تعبّر عن الوضع القانوني المثالي الذي أراد الملك أن يُطبقه على البلاد، والقصص والأساطير الدينية تعبّر عن الأفكار الدينية التي أراد الكهنة نشرها بين الناس، وهكذا بالنسبة للمراسيم والتعليمات الملكية وأحجار الحدود والمسلات ونصوص الأبنية التذكارية والحوليات وجداول الملوك وغيرها، وربما كانت هذه الحقيقة هي وراء غياب أسماء الأشخاص الذين ألّفوا تلك النصوص، ولهذا غابت عنا آراء الأفراد العاديين من سكان البلاد وأفكارهم ونظرتهم إلى مختلف شؤون الحياة الدينية وبخاصة السياسية منها، إذ لم يكن بالطبع يُسمح لأحدٍ بأن يكتب وينشر آراء تتقاطع مع آراء السلطة الحاكمة وكهنتها، أو تتعارض معها، كما لم يكن من المتعارف عليه أن يكتب موضوعات عامة تعبّر عن وجهة نظره إلّا استثناء، ومع ذلك، فإن هناك عدداً من أصناف النصوص المسمارية دُوّنت من قِبَل أفراد عاديين تُعبّر عن شؤونهم الخاصة ولاسيما الاقتصادية والاجتماعية وممارساتهم اليومية، فقد دأب العراقيون القدماء على تدوين معظم شؤونهم القانونية وحرصوا على توثيقها محافظة لحقوقهم وضبط علاقاتهم الاجتماعية، تاركين أعداداً كبيرة من عقود البيع والرهن والإيجار والزواج والطلاق والتبني وتقسيم التركة وغيرها من الوثائق الهامة، كما أنّ هناك عدداً من الرسائل الشخصية والمذكرات تعبر عن كاتبها⁽²⁾.

(1) Jane R.Mcintoch, *Ancient Mésopotamia (new perspectives)*, ABC-CLIO, Santa Barbara, - (1) California, 2005, p 336.

(2) - عامر سليمان، اللغة الأكادية "البابلية والأشورية"، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، الموصل، 2005، ص 12-13.

أ- النصوص السومرية:

إن قوائم الملوك (King Lists)*، وبخاصة قائمة الملوك السومرية، كانت من أبرز المصادر التي عرّفتنا بفهم العراقيين القدماء للتأريخ، وزودتنا تلك القوائم بأسماء الكثيرين من الملوك وسنوات حكمهم، وفي بعض الأحيان أسماء عواصمهم، ولم تخلو مثل تلك القوائم من الإشارة إلى أحداث تاريخية وبخاصة تلك الأحداث المتعلقة بالحروب والانتصارات، فكان ينص في قائمة الملوك السومرية مثلاً على ضرب مدينة ما أو بلد ما بالسلاح، ونقل الملوكية إلى مدينة أو بلد آخر، وبالرغم من ذهاب بعض الباحثين إلى أنّ العراقيين القدماء لم يعرفوا حدثاً تاريخياً فاصلاً يُمكن بمُوجبه معرفة مدى عمق الامتداد التاريخي لهذا البلد، إلا أننا نرى ويكُل وضوح أنّ كاتب تلك القوائم يشير إلى الطوفان باعتباره الحدث الفاصل ما بين السلالات التي حكمت قبل حدوثه والسلالات التي جاءت بعده، وتجدر الإشارة إلى أنّ العديد من الأمور المتعلقة بهذه القائمة لا تزال غامضة، وكَمثال على ذلك نُشير إلى الأرقام الكبيرة لِسَنَى حُكم بعض الملوك وعدم ذكر بعض السلالات الحاكمة، وكل ما نستطيع قوله بهذا الخصوص أنّ سَنَى الحُكم الكثيرة ربما تخص سلالات وليس الحاكم المذكور فقط، أما بالنسبة لإغفالها ذكر بعض السلالات التي عُرِفَت من خلال التنقيبات الأثرية، فيمكن أن يكون السبب هو ما كان قائماً من عداوة وحروب بين تلك السلالات والسلالات التي جاءتنا من تلك القائمة، وبالرغم من كل هذا وذاك تبقى هذه الوثيقة الخاصة بتدوين التأريخ الأوّل من نوعها في العالم⁽¹⁾.

وفي التاريخ فإنّ السومريين الموكلين بحفظ الوثائق الخاصة بالقصور والمعابد قد لاحظوا ودوّنوا شتى أنواع الحوادث المهمة في الحقل السياسي والعسكري، ولكن كل ذلك لم يُوصِلهم إلى كتابة تاريخ منسق، مترابط، مفهوم، وبما أنّ الكاتب السومري كان مفتقراً إلى المبدأ المكتشف حديثاً من أنّ عملية التأريخ عملية متغيرة على الدوام، و كان جاهلاً بأسلوب التعميم الشامل

* حملت لنا الكتابات المسمارية جداول للسلالات والملوك الذين حكموا بلاد العراق القديم، كجداول سلالة الملوك السومرية والبابلية والآشورية، ومنها أيضاً جداول لملوك بابل ومُعاصريهم من ملوك آشور في أعمدة متوازية، ويُمكن الاستدلال بفترات حُكم الملوك في بلدان أخرى مُعاصرين لملوك بلاد الرافدين، كملوك مصر القديمة وملوك فارس وملوك ماري في سوريا... الخ- للمزيد أنظر: قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص105.

(1)- فاروق ناصر الزاوي، العلوم والمعارف "حضارة العراق"، ج2، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985، ص272-273.

المتبع في التاريخ، فلم يكن بمقدوره أن يسير في طريقة كتابة التاريخ بمقتضى وجهة النظر الحديثة الخاصة بمصطلح التاريخ. ومع أنه ليس غريباً إذا أخفق الكتبة السومريون في إنتاج الطراز الحديث في طرق تدوين التاريخ إلا أنه يبدو من الغرابة يمكن إذا علمنا حتى أنواع الكتابات التاريخية التي شاعت لدى العبرانيين واليونانيين كانت غير معروفة في بلاد "سومر"، فَمَا مِنْ أَحَدٍ من الكتبة السومريين، على ما نعلم حتى الآن، من بذل المسعى الواعي لكتابة تاريخ سياسي لبلاد سومر، أو لآلية دويلة من الدويلات المكونة منها. وكما أن أرباب الأدب والكتبة السومريين خلقوا ثم طوّروا عدداً من أبواب الأدب كالأساطير والأمثال السائرة، والرسائل وغيرها، فإنّ عدة أبواب من الكتابات والتصانيف الأدبية، ولاسيما الملاحم والمراثي، قد استعملت المادة التاريخية ولو يحدود ضيقة، أما أن يُهيأ ويصنّف تاريخ مترابط مفهوم، إما يدافع حب التعلم أو حتى يدافع أغراض الدعاية، فهي فكرة يبدو أنها لم تلقى اهتماماً بذهنية المدرسين والكتبة السومريين مطلقاً، ولعلّ أقرب الوثائق ذات الصلة بالتاريخ ما يعرف بالكتابات النذرية والمنقوشة على التماثيل والمسلات والمخروطات وألواح الطين، إلا أنّ الحوادث التاريخية الواردة فيها إنما ذكرت على أنها نتاج عرضي بالنسبة إلى الغرض الأساسي من كتابتها، وفوق ذلك فإن مثل هذه النقوش الكتابية إنما تُدون أحداث معاصرة ومنفردة ذكرت في غاية الإيجاز والاختصار⁽¹⁾.

بقى الأدب السومري مزدهراً لأكثر من ألف عام حتى نهاية العهد الألف الثالث وبداية الألف الثاني، لكنه بدأ ينحسر تدريجياً أمام تعاظم اللغة الأكادية وانتشار أدبها الذي استفاد كثيراً من التراث السومري وموضوعات أدبه وغنى نصوصه وبراعة أساليبه التعبيرية، ثم أضاف إليه وطوره بما يتلاءم مع ظروف الحياة الأكادية الجديدة والمتغيرات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية، وما هذا التأثير إلا شكل من أشكال الثقافة الحضاري الذي وُسم بطابعه الشعوب الرافدية عامة على اختلاف عروقتها وتباين ألسنتها⁽²⁾.

(1) - كريم صمويل نوح، من ألواح سومر، تر: طه باقر، مر: أحمد فخري، مكتبة المثنى، بغداد، 1956، ص 90-92.

(2) - باسم ميخائيل جبور، ملاحم تاريخية من الأدب الأكادي، الهيئة العامة للكتاب، بغداد، (د.ت)، ص 12.

و مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد انتقلت النصوص الكتابية لتتحدث عن أغراض دنيوية كمديح الملوك ووصف بطولاتهم، ولعل أهمها ملحمة الملك جلجامش* باعتبارها أشهر ملاحم الملوك السومريين⁽¹⁾.

ب- النصوص الأكادية:

يلاحظ في العصر الأكادي عن الملحمة التاريخية أنها جنس مستقل من أجناس الأدب الأكادي، وهي نص أدبي يستقي مادته الرئيسية من حوادث تاريخية حدثت في فترات متباعدة، ومناطق مختلفة من أرض بلاد الرافدين جنوباً وشمالاً، ونستطيع أن نُعرفها بقولنا "وثيقة تاريخية مُغلّفة بدثار أدبي بارع، هدفها تخليد مآثر الملوك والإشادة بانتصاراتهم"⁽²⁾.

تسعى هذه الملاحم في نهاية الأمر لإبراز المواقف البطولية للملوك والأمراء، تخليداً لذكراهم وافتخاراً بهم كإحدى الرموز الوطنية والاجتماعية، وبعد أن تجاوز الإنسان، لاسيما العراقي القديم، في المراحل الحضارية الأولى، التمجيد الإلهي واعتماد اللاهوت رمزاً لأبعاده الفكرية والمعنوية فقد بدأ بالبحث عن الحقائق والوقائع الملموسة لتدوينها وتخليدها كنوع من الهوية التاريخية، لترتقي بتفاصيلها ووقائعها الكثيرة لحدثات سياسية،حربية،مفاوضات، قرارات وغيرها⁽³⁾.

ج- النصوص البابلية والأشورية:

إن أهم النصوص التاريخية التي وضعت طبقاً لترتيب الملوك البابليين تختلف اختلافاً بيناً من ناحية إنشائها عن الوثائق المماثلة في سومر وأكاد، فلقد كان الملك البابلي فوق كل شيء راعي شعبه في النصوص، يعنى عناية خاصة يذكر ما قام به من أعمال ليُقر النظام في دولته وليدفعها إلى

* ملك أوروك الأسطوري، يرمز إلى الشجاعة، البطولة، الوفاء، التعاون، اكتشاف المجهول، البناء والعمران، البحث عن الخلود، القوة والصمود، الذكاء و الحكمة، قوة السلاح، الغضب... الخ، ومؤلف الملحمة الشهيرة المعروفة باسمه، التي تُشيد بمحاولة بلوغه مرتبة الحي الذي لا يموت، كان من أهم أساليبه في الحكم محاولته تسخير رجال ونساء مدينته في بناء أول سور مدينة في العالم... الخ-للمزيد أنظر: نجاح بكة، دراسات في ملحمة جلجامش "بحث اجتماعي- تاريخي- تحليلي لتاريخ العراق من خلال الملحمة"، دار الطريق للنشر والتوزيع، بغداد، 2002، ص9؛ أنطوان مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تر: توفيق سليمان، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1967، ص156؛

Tom Head, *Ancient Mesopotamia*, Abdo Publishing Company, U.S.A, 2015, p 17.

(1)-باسم ميخائيل جبور، المرجع السابق، ص 12.

(2)- نفسه، ص2.

(3)- أثير أحمد حسين، المرجع السابق، ص187-188.

التقدم والازدهار وليحميها من أعدائها حيث تدعو الضرورة إلى ذلك، أما الملك الأشوري فقد كان على العكس من ذلك محارباً وكان مثله الأعلى أن يوسع الأقاليم، ولم تكن للنقوش المنتشرة في قاعات قصره أهداف سوى تمجيد شخصياً، وكانت النصوص التي تصحب النقوش تشيد بمجده، وقلماً كان يذكر شيء من الكوارث التي تنتاب الحكم، فإن ذكرت مثل هذه الأحداث فإنما كان ذلك على أساس أنها أمور لا قيمة لها، حين لا يُستطاع تحويلها إلى نجاح باهر⁽¹⁾، الأمر الذي يعني أن النصوص البابلية كانت تقف موقف الدفاع عن الوحدة في شتى مجالاتها، بخلاف النصوص الآشورية التي ازدادت حدتها الحدودية بالتوسع.

فكانت النصوص وتحديدًا النقوش البابلية تشير خاصة إلى مآثر الملوك وأعمالهم وحروبهم ومنشآتهم، أما النقوش الآشورية التي اتصف أسلوبها بالأبهة والمبالغة المفرطة، فقد أضفت على الأدب التاريخي لوناً حربياً لا مثيل له في أدب بابل إلا في القليل النادر، فملوك الوحدة كانوا يشجعون الأدب الذي يشيد بأجسادهم ويتحدث عن انتصاراتهم، وقلماً كانوا يسمحون بذكر شيء عن الكوارث والانتفاضات أو الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي كانت تنتاب البلاد أثناء حكمهم⁽²⁾.

وهناك في هذا الصدد من يذهب إلى القول أن النصوص التاريخية العراقية القديمة كانت سرداً للاحداث تدور بين البشر وليس كالأساطير أو القصص، ذات الحكمة التي تتعدى الواقع والمألوف، ويحكمها خيال وذاتية الكاتب أو الراوي، بأحداث ما بين البشر والآلهة أو الآلهة مع بعضهم البعض، الغرض منها التسلية، والترفيه والحكمة أو تفسير لرؤى فلسفية معينة⁽³⁾، ثم إن مما يزيد من أهمية هذه النصوص المسمارية حقيقة أنها أصلية لم تمتد إليها يد التحريف والتغيير كغيرها من النصوص القديمة، إذ أنها ظلت مطمورة في بطون التلّول الأثرية لآلاف السنين، وربما اختفى بعضها في بطون تلك التلّول بعد تدوينها بمدة وجيزة⁽⁴⁾.

(1) - ل-ديلابورت، بلاد ما بين النهرين "الحضارتان البابلية والآشورية"، تر: محرم كمال-مر: عبد المنعم أبو بكر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997، ص345.

(2) - برهان الدين دلو، حضارة مصر و العراق "التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي والثقافي والسياسي"، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1989، ص324.

(3) - أنير أحمد حسين، المرجع السابق، ص178.

(4) - عامر سليمان، المرجع السابق، ص12.

II- كتابات المؤرخون الكلاسيكيون:

كانت المعلومات التاريخية عن بلاد الرافدين مستقاة مما ورد من أخبار متفرقة حوتها⁽¹⁾ مؤلفات المؤرخين القدماء أمثال برعوشا(بيرسوس)⁽²⁾ الكاهن البابلي⁽³⁾ والمؤرخ الوطني للعصر المتأخر من التاريخ البابلي، وهو كاهن كلداني عاش في عهد الإسكندر المقدوني واستطاع أن يُطالع الوثائق القديمة لبلاده، ولم يصلنا الأصل المفقود لسوء الحظ، ولكن حُفظت مقتبسات منه في المصادر اليونانية، وكذلك المؤرخون⁽⁴⁾ القدماء أمثال ديودور الصقلي "Diodore de sicile" الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد⁽⁵⁾ مؤلفاً مجلداً تحت عنوان " المكتبة التاريخية-Bibliothke"⁽⁶⁾، كحَصيلة لِتجواله الذي دام من حوالي (90 ق.م إلى 21 ق.م)، وقد تألّف هذا العمل من أربعين كتاباً، وَصَلْنَا منها كاملة الكُتب مِن الأول وحتى الخامس، ومن الحادي عشر وحتى الكتاب العشرين، وما تبقى وصلتنا مجزأة، وقد وضع في كُتبه هذه تاريخ الشرق الأدنى القديم، علاوة على تاريخ اليونان والرومان منذ قدم العصور وحتى القرن الأول قبل الميلاد، وتحتل المعلومات عن حياة الملكة سميراميس وعن الحروف المسمارية الآشورية على الرُقيمات الفخارية مكاناً واسعاً في مؤلفه⁽⁷⁾.

أما هيرودوت الهالكارناساسي (484-425 ق.م)⁽⁸⁾ الذي قام بالسفر و التّرحال الطويل إلى مواقع الحوادث التاريخية لِيَتَحَقَّقَ بِنَفْسِهِ مما وصله من أخبار تمهيداً لِتَدْوِينِهَا بِأَسْلُوبِهِ الخاص، وبِثَقَّة المؤرخ الوثائق من صحة الخبر الذي يسوقه أو ما أقرب إلى الصحة، وقد سار الكتاب اليونان والرومان ومن لحقهم من الكتاب الأوروبيين على خطاه، لذا أُطلق على شخصه تسمية "أبو

(1) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 101.

(2) - برهان دلو الدين، المرجع السابق، ص 201.

(3) - فريدريك ديليتش، بابل والكتاب المقدس، تر: إيرينا داود، ط 1، دار العلم، دمشق، 1987، ص 77.

(4) - برهان دلو الدين، المرجع السابق، ص 201.

(5) - الأب سهيل قاشا، تاريخ الفكر في العراق القديم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2008، ص 7.

(6) - أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم "العراق-إيران-آسيا الصغرى"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص 54.

(7) - ك.ماتيف و أ.سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة، تر: حنا آدم، مطبعة دار المجد، دمشق، 1991، ص 155-156.

(8) - الأب سهيل قاشا، المرجع السابق، ص 7.

التاريخ"⁽¹⁾، يليه سترابون الجغرافي (58 ق.م-21 م)⁽²⁾، الذي قدم وصفاً جغرافياً حول عاصمة الآشوريين القديمة في الجزء السابع عشر من مؤلفه الموسوم بالجغرافيا⁽³⁾.

III- الكتب المقدسة:

احتلت التوراة والقران الكريم في حقل الكتب الدينية أهمية خاصة كمصادر تزودنا ببعض المعلومات عن تاريخ حضارة العراق القديم، وذلك لما انضوت عليه من نصوص مختلفة ذات صلة بموضوع بحثنا، إذ تأتي التوراة في مقدمة مصادر العراق القديم قبل الكشف عن آثاره عن طريق التنقيبات، فقد تناولت أسفارها طائفة من الأخبار عن بلاد الرافدين وتأريخها، نتيجة التأثيرات الحضارية التي خلفتها حضارة وادي الرافدين على العبرانيين الذين اقتبسوا عنها أشياء كثيرة في حقل الأساطير والقصص والمعارف، فضمّوها في توراتهم منذ بدء الخليقة، وإلى جانب هذه التأثيرات الحضارية نشأت بين العبرانيين وسكان بلاد الرافدين القدمات صلات مباشرة، اتسم بعضها بالعداء والبغض من جراء الضربات الشديدة التي وجهها الملوك الآشوريون للعبرانيين، ولاسيما في عهد الإمبراطورية الأخيرة، مما جعل مُدوّنِي أسفار التوراة يُفردون فصولاً مطوّلة عن تلك العلاقات⁽⁴⁾.

وكذلك يُقال في علاقات اليهود بالإمبراطورية البابلية الكلدانية، ولاسيما في عهد نبوخذنصر الثاني المشهور الذي أزال الدولة اليهودية من الوجود ودّمر أورشليم، وكان صاحب السّبي المشهور (596 و 586 ق م)، وما استتبع ذلك السّبي من بقاء اليهود في بلاد بابل ردحاً من الزمن، فازدادت تأثيرات حضارة وادي الرافدين عليهم، بحيث أنّ أسفارهم التي وصلت إلينا في شكلها الأخير، إنّما تمّ تدوينها في بلاد بابل (مابين القرنين السادس والخامس ق م)، ودوّن التلمود اليهودي المعروف بالتلمود البابلي في بلاد بابل (القرن السادس ق م)، بيد أن أخبار التوراة لا تزال من المصادر التي يمكن الرجوع إليها بشرط تطبيق أصول النقد التاريخي عليها، والنظر بعين

(1) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 23.

(2) - الأب سهيل قاشا، المرجع السابق، ص 7.

(3) - ك. مانيث و أ. سارونوف، المرجع السابق، ص 155.

(4) - العهد القديم: سفر الملوك الأول والثاني وأسفار الأنبياء.

الاعتبار إلى تعصب مدوني التوراة وتحيزهم والتشهير بأعدائهم من ملوك بابل وأشور⁽¹⁾، ولعل الأهمية الكبيرة التي أولاها كثير من الباحثين في دراسة التشابه والتداخل النصي بين شريعة حمورابي وشريعة التوراة، يجعل دراسة هذه الأخيرة ضرورة من أجل دراسة الفكر الوجداني وبيان تطوره⁽²⁾.

لكن في هذا المجال لا بدا من الأخذ بعين الاعتبار الأدلة والبراهين على تحريف أهل الكتاب للتوراة وغيرها من الكتب المتقدمة، والآيات القرآنية كثيرة في ذلك ومنها⁽³⁾ قول الله تعالى: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ"(91)"⁽⁴⁾.

وفي الكتاب المقدس نجد تفسيراً للوحدة، وبالتحديد في القصة الشهيرة التي تحكي بناء برج بابل * حيث¹ «وَكَانَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً. 2 وَحَدَّثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ. 3 وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَلُمَّ نَصْنَعُ لِبْنًا وَنَشْوِيهِ شَيْئًا». فَكَانَ لَهُمُ اللَّبْنُ مَكَانَ الْحَجَرِ وَكَانَ لَهُمُ الْحُمْرُ مَكَانَ الطِّينِ. 4 وَقَالُوا: «هَلُمَّ نَبْنِ لِنَفْسِنَا مَدِينَةً وَبَرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لِنَفْسِنَا اسْمًا لِئَلَّا نَتَّبَدَّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ». 5 فَانْزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبَرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا. 6 وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ

(1) - طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة "تاريخ العراق القديم"، ط2، دار المعلمين العالمية، بغداد، 1995، ص 115.

(2) - أحمد خالد عبد المنعم، حمورابي "دراسة تاريخية"، ط1، جامعة عين شمس، بغداد، 2015، ص 22.

(3) - محمود بن عبد الرحمان قدح، الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في انحرافهم "عرض ونقد"، ع111، مجلة الجامعة الإسلامية، (د.ب)، (د.ت)، ص 318.

(4) - سورة الأنعام: (الآية 91).

* عُرِف اسم برج بابل باسمه (إيمنانكي-Etemenanki) الذي يعني حرفياً "المعبد مصطبة السماء والأرض"، ويحتل أرضاً فسيحة تتوسط مدينة بابل القديمة (على الضفة الشرقية من الفرات)، ويمكن القول أن البرج مربع الشكل يزيد طول ضلعه قليلاً عن 91.5 متر، ويتكون من سبع طبقات، والزاجح أن برج بابل قد شُيِد في العصر البابلي الحديث على أسس قديمة بعد أن تعرض إلى التخريب، وربما قد يكون ذلك على يد سنحاريب أثناء غزوه بابل، فأعاد تجديده الملك "نبوبلاصر" وأكمل به شكله النهائي ابنه الشهير الملك "نبوخذنصر"، وإلى الجنوب من البرج يقع معبد مردوخ إله مدينة بابل الشهير والمعروف بمعبد "إيساكيل" التي تحمل معنى "المعبد ذو القمة الشاهقة" - للمزيد أنظر: فاضل عبد الواحد علي، من سومر إلى التوراة، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1996، ص231.

لِجَمِيعِهِمْ وَهَذَا ابْتَدَأُوهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. 7 هَلُمَّ نَنْزِلْ وَتُبَلِّلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ. 8 فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ 9 لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «بَابِلَ» لِأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلَّلَ لِسَانَ كُلِّ الْأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ⁽¹⁾، فما الذي يمكن أن يعنيه الاسم هنا سوى أنه يمثل الجوهر والرمز المركزي لهوية سياسية رافدية؟ وما الذي يمكن أن يعنيه الخوف من التشتت على وجه الأرض كلها سوى الرغبة الجارحة في الاندماج والانصهار الوحدوي⁽²⁾.

وفي نظرنا يمكن أن تكون العبارات الواردة في سفر التكوين "الأرض كلها لساناً واحداً- لغة واحدة- شعب واحد"، إنَّما تعبر عن هوية الإنسان المتمثلة في المحيط الذي يعيش فيه، فإذا نزعنا منه الأرض نزعنا هويته ووحدته، كما تشير إلى وحدة الكلمة و إلى وحدة اللغة، ووحدة الشعب، وبالتالي يمكن تصنيف هذه النصوص الدينية التوراتية وغيرها ضمن مضامين الفكر الوحدوي لتاريخ العراق القديم.

عندما بنى البابليون برج بابل أحدث ذلك تأثيراً سلبياً غير مستحب لدى اليهود، إذ بدا رمزاً للغطرسة الوثنية، واعتبروا الدافع لبنائه رغبة محمومة لتعظيم الذات، وفي هذا الصدد اعتبر شاكر شاهين هذا البناء الأسطوري (المقدس) جزءاً لا يتجزأ من تكوين المجتمع العراقي القديم، إذ يتمثل بالآلهة التي تتوارى خلفها الظواهر الطبيعية القاهرة، ويتم تقديس الآلهة بتشديد المعابد الفخمة لها وتقديم القرابين والأضاحي والتوسل بها ونسج الأساطير التي تُخلدها، ولا يقل المقدس التاريخي أهمية في تكوين المجتمع العراقي القديم لصياغة الوعي التاريخي المعاصر، فبينما يكون المقدس هم الآلهة، يكون المقدس هم البشر من الأبطال الحاملين لكلمة الإله المقدسة، وقد تمَّ أدلجة كلمة الإله أسطورياً وتاريخياً لأغراض سلطوية سياسية غالباً ما تبيح سفك الدماء بتأويل هذه الكلمة عن طريق شرعيتها، ويمكن الافتراق على أنَّ الآلهة لم تتمكن من السيطرة على تأويل الملوك للكلمة الإلهية لأنهم أصلاً اخترعوا نخبة متحالفة من الملوك، في حين يكون أبطال التاريخ قد تصدوا لتأويل كلمة الإله لأغراض المنافع السياسية، وبما أنَّ المقدس يشتمل على التعظيم

(1) - سفر التكوين: (11: 1-2-3-4-5-6-7-8-9).

(2) - يان أسمن، الذاكرة الحضارية "الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى"، تر: عبد الحليم عبد الغني رجب، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص276.

والتحريم وهو يرتبط بالدين بصورة وثيقة، فإنّ هناك مقدس لا يرتبط بالدين ولكن بنوع العلاقة التي تربط الفرد والجماعة بجماعات أخرى، وإن كان أصل التقديس يبقى دينياً، فالتقديس هنا يشمل العشيرة والسلطة والسياسة وهو مقدس اجتماعي، إذ يتم تحويل التقديس من الحقل الديني إلى الاجتماعي عن طريق التعظيم والتحريم، و هنا يقُدس الفرد عشيرته ويحيطها بهالة من التعظيم والتهويل ويمنع المساس بشخصيتها، كما تحيط الدولة نفسها بالحرّم وتمنع الإنسان من التعرض لشخص الحاكم⁽¹⁾.

ويمكن أن نعزو سبب ما تذكره التوراة سلفاً إلى الحقد الدفين الذي يحمله اليهود في قلوبهم على التوسعات العسكرية للملك البابلي نبوخذنصر وما تحمله من غايات وأهداف ولعلّ أسر اليهود ونقلهم إلى بابل ربما لاستخدمهم في العمل على بناء زاقورة بابل⁽²⁾.

وفي هذا الصدد أورد "أوروسوس" في مصدره التاريخي قول "هروشيئش": "فمهما عمل في الدنيا أو صنع بأيدي أهلها، مما يجلّ عند الناس ويعظم في أعينهم، يكفي شاهداً على خرابه ودالاً على زواله خراب مدينة بابل المتقدمة في السلطان، والمتقدمة في الخراب، والتي تركت سلطانها لغيرها، وخلفت الملك لمن جاء بعدها تراثاً موروثاً على شرط الزوال وعلى سنة الخراب، وهب مدينة "بخت نصر" التي يتوعدها الله على لسان "أشعيا النبي" و"أراميا النبي" في كتاب ديوان الأنبياء الذي يتفق عليه ويتعارف فيه اليهود والنصارى"، ويقول مخاطباً لها وهي في عنفوان عزّها "إنك أذلت الأمم، وهدمت المدائن، وجمعت الأموال، وأفشيت المغارم، واستخدمت العوام، وأهلكت الأقوام - لذلك سأبعث عليك من لا يكفيه أخذ مالك حتى يقتل الملك، ولا يبغي على أطفالك، ثم - يحدث - فيك خراباً باقياً تكونين فيه خاوية ومقفرة سرمداً، لا يأوي إنسي ولا ينزل فيك، وتكون الدنيا مسكونة وأنت قفرة لا يسكنك إلاّ الوحوش، ولا يأوي إليك إلاّ السباع والثعابين"⁽³⁾.

(1) - شاكراً شاهين، العقل في المجتمع العراقي بين الأسطورة والتاريخ، ط 1، دار التنوية للطباعة والنشر، بيروت، 2010، ص ص 134-136.

(2) - أحمد حبيب سنيد الفتلاوي، زاقورة ايتمانكي "برج بابل"، مج 1، ع 11، مجلة العلوم الإنسانية، بغداد، 2012، ص 112.

(3) - أوروسوس، تاريخ العالم، تر-تح: عبد الرحمان بدوي، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982، ص 176.

أشارت وتوافقت أيضاً النصوص التوراتية والقرآنية حول حادثة الطوفان، التي أصابت قوم سيدنا نوح عليه السلام، والتي يُعزى سببها إلى غياب التوحيد الديني كسبب رئيسي و إلى غياب الوحدة بمعانيها ومضامينها المختلفة كسبب مُكْمَل للأوّل، إذ تقول التوراة «6 فَحَزَنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. 7 فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ: الْإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ. لِأَنِّي حَزَنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ». 8 وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ... 11 وَفَسَدَتِ الْأَرْضُ أَمَامَ اللَّهِ وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ ظُلْماً. 12 وَرَأَى اللَّهُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الْأَرْضِ. 13 فَقَالَ اللَّهُ لِنُوحٍ: «نَهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي لِأَنَّ الْأَرْضَ امْتَلَأَتْ ظُلْماً مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الْأَرْضِ. 14 اصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكَاً مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ. تَجْعَلُ الْفُلْكَ مَسَاكِينَ وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ بِالْقَارِ. 15 وَهَكَذَا تَصْنَعُهُ: ثَلَاثِمِئَةَ ذِرَاعٍ يَكُونُ طُولُ الْفُلْكَ وَخَمْسِينَ ذِرَاعاً عَرْضُهُ وَثَلَاثِينَ ذِرَاعاً ارْتِفَاعُهُ...»⁽¹⁾.

جدير بالذكر، ووفقاً لبعض فقرات الإصحاح الواردة في سفر التكوين تؤكد الرواية التوراتية على أنّ الفساد والشر البالغ⁽²⁾، وانحراف القوم عن سواء السبيل كان السبب في الطوفان⁽³⁾ الذي داهم مُدناً من مدن العراق القديمة، وتناقلت خبره الأجيال، واتسع أمره في أذهانها، إذ غمر مساحات كبيرة من العراق الجنوبي، وخرب مدنه ومزارعه، وأهلك خلقاً كثيراً⁽⁴⁾، فأصبحت بذلك حادثة الطوفان من ضمن الحوادث التي شَبَّهَ بها العراقيون القدماء الدمار الذي يصيب المدن بفعل الغزوات الخارجية⁽⁵⁾.

(1) - سفر التكوين (6: 6-7-8-9-11-12-13-14-15).

(2) - كارم محمود عزيز، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، ط1، مكتبة النافذة، مصر، 2006، ص228.

(3) - محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم "العراق"، ج4، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، ص97.

(4) - فؤاد جميل، الطوفان في المصادر السومرية- البابلية- الآشورية- العبرانية، المركز الأكاديمي للأبحاث، العراق، 2014، ص44.

(5) - أسامة عدنان يحيى، الآلهة في رؤيا الإنسان العراقي القديم "دراسة في الأساطير"، دار الصداقة، فلسطين، 2004، ص265.

وفي القرآن الكريم قول الله تعالى: " وَأَوْحِيَ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) " ⁽¹⁾.

وعلاوة على ما سبق، فلقد كان العبرانيون الذين وقعوا في الأسر، والذين تُسميهم الكتابات المسمارية باليهود، الدور الأكبر في تكوين الدولة اليهودية المعروفة الآن، إذ استمر كهنتهم بممارسة شعائرتهم الدينية، وبتحرير أهم فصول التوراة أثناء وجودهم في بابل، ويجمع الباحثون على أن الديانة اليهودية كما هي معروفة الآن قد ولدت من أثناء الأسر في بابل، وأن الأسفار الأولى التي تبدأ بها التوراة قد أخذت شكلها الذي جاءتنا به من خلال وجود اليهود في الأسر الذي استمر قرابة نصف قرن وانتهى عام 539 ق.م، ومما لاشك فيه أنه كان للكهنة الدور الأساسي في تدوين هذه الأسفار التي كتبوها باللغة العبرية المعروفة بآرامية التوراة، وأنه كانت لهم معرفة واسعة بالنصوص السومرية والبابلية، وعلى هذا النحو كان الأسر البابلي فرصة ثمينة لرجال الدين اليهود مكنتهم من الاطلاع مباشرة على الوثائق المسمارية المدونة باللغتين السومرية والبابلية، الخاصة بخلق الكون والإنسان والحياة والموت والثواب والعقاب، وعلى المفاهيم والقيم الاجتماعية السائدة في بابل، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تأثر مدوني التوراة بالموثوث السومري البابلي بشكل مباشر، وبالتالي إلى دخول كثير من مفاهيمهما إلى الأسفار التوراتية ⁽²⁾.

أخيراً، كان الباحثون في التاريخ القديم حتى أواسط القرن التاسع عشر يعتمدون في دراسة تاريخ العراق القديم بالدرجة الأساس على ما ورد من قصص وأخبار في عدد من أسفار العهد القديم حول ملوكها الذين احتكوا باليهود، وعلى ما ذكره الكتاب الكلاسيكيون من يونان ورومان عن زيارتهم المفترضة إلى المنطقة وما سمعوه من روايات وقصص عن العصور الغابرة، كما أشار الباحثون إلى الرحالة و السُّواح العرب والأجانب عن مشاهدات أثناء زيارتهم المنطقة

(1) -سورة هود، (الآيات: 36-40).

(2) -فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص192.

ووصفهم لآثارها الشاخصة ونقلهم ما سمعوه من قصص وروايات شعبية عن تاريخ المنطقة القديم دون تدقيق أو تمحيص، وكما هو واضح فإنّ جميع هذه المصادر لا تقدم صورة دقيقة عن تاريخ العراق القديم، إذ يتصف بعضها بالتحيز وعدم الموضوعية، مثل أسفار العهد القديم، وبعضها الآخر بالمبالغة والخيال، وعندما حُلّت رموز الكتابة المسمارية في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي من عصرنا الحديث وتُت قِراءة كثير من النصوص المسمارية المدوّنة على ألواح الحجر والطين، نجدها قد وفّرت للباحثين مصدراً جديداً وغزيراً بمعلوماته، وغني بتفاصيله ومعاصراً أحياناً للأحداث والتطورات السياسية خلال العصور التاريخية، حيث غدت هذه النصوص المدوّنة بلغاتها المختلفة من سومرية وأكادية المصدر الأول والأساس الذي يعتمد عليه عند كتابة تاريخ العراق القديم⁽¹⁾.

ويبدو أنّ المجتمعات في التاريخ القديم وكما بيّنته المصادر أنهم كانوا يؤمنون بأهداف مصيرية بين الدول والممالك التي تريد الاستقلالية والتحرر من التبعية، وبين من تريد التقدم والسيادة عليها في إطار الوحدة الكبرى، إذ وقف العالم القديم كما هو الحال اليوم على مفترق الطرق، بين من تتقاذفه أمواج الانقسام مشكلة مصدر تهديد للشعوب والأمم والحكومات والدول القديمة من دون نتيجة، وبين من تتجاذبه فكرة الوحدة من جهة أخرى من خلال دفعه للرضوخ لإرادة القوة الأقوى، وقد تكون المسافات الجغرافية أحد فاعليات هذه الحركات الحدودية كون الدول في الحضارات القديمة تريد أن تنمو لتحقيق الوحدة الجغرافية الكبرى بالاعتماد على أساليب هذا الفكر الحدودي.

ومن هذا المنطلق حاولنا إلقاء الضوء على هذا الجانب الذي يدخل في صميم تحول ساحة الشرق الأدنى القديم للصراع المستمر، إذ ينطلق موضوع بحثنا من رؤية مفادها توظيف هذا النوع من المواضيع في الأبحاث ذات الصلة بالتاريخ القديم، ليس من منظور رؤية معاصرة فحسب، وإنما الاستفادة من العبر والتجارب والأحداث التاريخية في تحقيق فرضية بحثنا وإسقاطها على عالم العراق القديم وجواره الحضاري، إذ وجدت دورها في إحداث المتغيرات الإقليمية، رغم وجود تحديات تحاول قديماً وحديثاً الحيلولة أمامه وإمكانية التأثير عليه لما يصنعه هذا الفكر من متغيرات في واقع دول العالم القديم، فشكّلت بذلك بلاد الرافدين منطقة استقطاب لمختلف شعوب بلاد

(1) - عامر سليمان، المرجع السابق، ص 11-12.

الشرق القديم الأدنى والأقصى، لا لكونها منطقة عبور أساسية، وإنما لما حظيت به من مميزات طبيعية وجغرافية، وبما أنّ حضارات شعوبها قد حظيت بنماذج تبنت الفكر الوحدوي على مختلف الأصعدة، فالقول أنها الفريدة من نوعها أمر يصعب إثباته، أما أن تكون السبّاقة في هذا المجال من حيث الفاعلية في تحقيقه، فهو أمر لا يمكن إنكاره، إذ قليلة هي تلك البلدان التي يمكن أن تحظى بأسباب نمو محلية وطموحات دولية في الشرق الأدنى القديم، كونها تسير نحو عملية فرض نفسها بنفسها حال انعدام أسلوب التعايش والاحتكاك في طابعه السلمي.

الفصل الأول:
جغرافية و أساسيات
الفكر الوحدوي

أشارت الكتابات التاريخية قديماً وحديثاً إلى تجارب الشعوب الوحدوية عبر مراحلها التاريخية، مُحاولَة في ذلك الانتقال من حالة التفكك والتجزئة إلى نوع من الوحدة، التي سيكون لها تأثير في مختلف مجالات الحياة، إذ حاولت الكثير من الأمم التعايش فيما بينها لتحقيق مبدأ التفاهم العام داخل منظومة سياسة واقتصادية واجتماعية موحدة سواء بين الشعوب المتقاربة أو المتباعدة في أنماطها الحضارية، حيث قطعت العديد من الحضارات مراحل مهمة في النمو والبناء لتصل إلى مرحلة متقدمة من الوحدة فيما بينها، نتج عنها خسائر مادية وبشرية، لكن كُلت في المقابل بثمار النجاح في تطعيم وامتزاج ثقافات وحضارات الأمم القديمة، وانطلاقاً من هنا نجد أنفسنا أمام مصطلح حديث نوعاً ما يتمثل في "الفكر الوحدوي" نحاول تتبع تداعياته في تاريخ دول العالم القديم.

I- ماهية الفكر الوحدوي:

1- المفهوم:

يعتبر الفكر الوحدوي بمثابة حركة توحيدية أو تضامنية فيما بين شعوب الحواضر، تتم في الغالب باستخدام القوة العسكرية المنظمة⁽¹⁾ التي تُعطي الإحساس بالاتساع وتجاوز الحدود والأطر المختلفة⁽²⁾، وقد تأخذ صورة المعارك الفكرية ضد قوى التجزئة الإقليمية للأنظمة القطرية، التي تنطلق من التناقض بينها وبين دولة الوحدة، وتعمل على توسيع هذا الأخير على حساب الواقع الأول بالسماح للإقليميين ومختلف دُعاة الانقسام باتخاذ المبادرة في تجميد طاقتها أو الانزلاق نحو التجزئة⁽³⁾.

يرمي هذا المبدأ في ظاهره العام إلى توحيد البلاد وإبراز شخصية الشعوب المتقاربة في جنسها وطبائعها وأهدافها، وإذا كان عمل الوحدة يتم في الغالب باستخدام أسلوب القوة والقهر أو بالحوار والمعاهدات، فإنها تجعل الحواضر بحالة من التأهب والتحسين والاستعداد العسكري⁽⁴⁾،

(1) - عفيف بهنسي، التراث الأثري السوري، مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2014، ص 46.

(2) - جهينة حامد حساني، القراءة العلامة لبنية التوحيد في الحضارة الرافدينية، مج 21، ع 90، مجلة كلية التربية الأساسية، بغداد، 2015، ص 236.

(3) - نديم البيطار، المثقفون والثورة "كتاب الوحدة"، سلسلة ثقافتنا القومية، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، المملكة المغربية، 1987، ص 315-316.

(4) - عفيف بهنسي، المرجع السابق، ص 46.

وبطبيعة الحال يكون للقوى السياسية الداخلية الفضل في تأكيد الوحدة من خلال خلق فرص الاحتكاك فيما بينها على الصعيد السياسي والعسكري والاقتصادي⁽¹⁾، الذي يُعبر عنه بوحدة الآمال والآلام، أما المنظور الديني للوحدة فإنه ينطلق أساساً من ركيزة العقيدة الواحدة، وهي الركيزة التي تُبنى عليها غيرها من الركائز، فالعقيدة الواحدة كفيلة بصياغة الثقافة المشتركة، والتاريخ المشترك، والشعور بوحدة المصير⁽²⁾، فمن خلال النظر في النصوص القرآنية التي يتصل معناها بالوحدة نجد⁽³⁾ قول الله تعالى: "إِنَّ هَٰذَا أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَاجِعُونَ (93)"⁽⁴⁾، وقوله تعالى: (وَإِنَّ هَٰذَا أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53))"⁽⁵⁾.

ومما يتصل أيضاً بالمعاني والمشاعر الوحدوية قوله تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)"⁽⁶⁾، وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))"⁽⁷⁾، فمبدأ الإصلاح والتعارف من شأنه إحداث التفاهم⁽⁸⁾ بين الأمم والشعوب قديماً وحديثاً للتوحد في شتى المجالات، كما أن شعور الناس بوحدة المصير يدفعهم باتجاه التوحد، إلى تجاوز الخلافات، لذا

(1) - محمد خليفة حسن أحمد، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 40.

(2) - محمد عيدان أحمد الديلمي، الوحدة بين المنظور القومي والمنظور الإسلامي، ع 12، مجلة العلوم الإسلامية، جامعة تكريت، بغداد، 2012، ص ص 1-17.

(3) - نفسه، ص 19.

(4) - سورة الأنبياء، (الآية: 92-93).

(5) - سورة المؤمنون، (الآية: 52-53).

(6) - سورة الحجرات، (الآية: 10).

(7) - سورة الحجرات، (الآية: 13).

(8) - لكن وفي المقابل لم يغفل القرآن الكريم عن الاختلاف الذي لا يتمشى والوحدة كحقيقة واقعية عبر التاريخ، فكانت ولا زالت سنة الله في خلقه حول هذا الشأن، ومنها قول الله عز وجل في سور هود ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ 118﴾، وبالتالي قصت سنة الخالق في خلقه أن يختلفوا، دون أن يكونوا جماعة واحدة، وعلى ملة واحدة، ودين واحد، وأن تنتوع استعداداتهم واتجاهاتهم - للمزيد أنظر: خليل رجب حمدان الكبيسي، مرتكزات العلاقات الوحدوية بين المسلمين ومقوماتها، ع 12، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإسلامية، بغداد، 2012، ص 16.

كان لهذا الشعور الوحدوي أثره البارز في عملية التوحيد وصهر كامل طاقات المجتمع وتوجيهها باتجاه الخطر المخلق بها⁽¹⁾.

وفي هذا الصدد أجمع معظم رواد الفكر العربي الوحدوي على أنّ عمليات التوحيد للشعوب والأمم التي قامت عبر التاريخ قد تمت بأسلوبين رئيسيين:

الأول: الأسلوب العسكري وهو التوحيد الذي يتم بالقوة.

الثاني: الأسلوب السلمي وهو التوحيد الذي يتم بالتراضي والتوافق⁽²⁾.

من هذا المنطلق، يقودنا موضوع الفكر الوحدوي وحيويته في التاريخ القديم إلى استعراض وتقديم بعض العيّنات من الحضارات التي لعبت دوراً بارزاً في هذا المصير (الوحدة)، معتمدة على أحد الأسلوبين السالف ذكرهما في توحيد الشعوب.

2- أساليب الوحدة:

ليس من شك أن العصور التاريخية القديمة قد حفلت بأحداث مختلفة ترتبط بعلاقات الدويلات بعضها ببعض، سواء عن طريق الحروب أحياناً والمصاهرة والعلاقات السياسية أحياناً أخرى، أو غير ذلك مما كان من الأسباب الجوهرية التي تؤدي إلى تحقيق⁽³⁾ وحدة بين الدول سابقة لئوانها في تاريخ الحضارات القديمة⁽⁴⁾.

فمثلاً نجد أنّ المتخصصين في تاريخ الشرق الأدنى حين يؤرخون لتاريخ المنطقة يركزون على التاريخ السياسي⁽⁵⁾ لمجموعات الشعوب التي عاشت داخل منطقة جغرافية واحدة متشابهة في ظروفها المناخية، الأمر الذي ساعد على اختلاط شعوب المنطقة بعضها ببعض، وقد كان لحركة الهجرة المستمرة من قلب شبه الجزيرة العربية دور كبير في اندماج هذه الشعوب وانصهارها في بوتقة واحدة وتقريب المسافات بين ساكن الصحراء وساكن الوديان، هذه الوحدة الجغرافية

(1) - محمد عيدان أحمد الديلمي، المرجع السابق، ص 1-17.

(2) - مصطفى نوبصر، أساليب توحيد الأمم وصددها في أدبيات رواد الفكر القومي العربي الوحدوي، ع 4، مجلة أفكار وأفاق، جامعة الجزائر (2)، 2013، ص 193.

(3) - محمود شاكر، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم، ج 1، دار أسامة، عمان، 2002، ص 156.

(4) - أندريه إيمار وآخرون، تاريخ الحضارات العام "روما وإمبراطوريتها"، تر: فريد م. داغر و فؤاد ج. أبو ربحان، ج 2، منشورات عويدات، بيروت، 1964، ص 14.

(5) - محمد خليفة حسن أحمد، المرجع السابق، ص 25.

للمنطقة دعمتها عوامل تاريخية شهدت ظهوراً متوالي لقوى وإمبراطوريات سياسية من داخل المنطقة ومن خارجها، نجحت إلى حدٍ ما في توحيد تلك المنطقة سياسياً وقد خرجت هذه الشعوب السامية* من هذه التجارب بوعي وفكر تاريخي مشترك، أدى إلى إحساس متقارب بأولية العلاقات ومصيرها المشترك⁽¹⁾.

ولما كانت التحركات البشرية تحمل أساليب حضارية مادية ومعنوية مختلفة إلى حدٍ كبير عن الأساليب والقيم والأفكار التي تؤمن بها العناصر القاطنة، نتج تبعاً لهذا الاختلاط نوع من الصدام الحضاري - إن صح التعبير - في تلك المجتمعات بين العناصر البشرية الوافدة والأصلية، وصلت إلى درجة التنافس، وفي بعض الأحيان إلى درجة التصادم والحروب⁽²⁾.

وبالنظر أيضاً إلى تاريخ الأمم القديمة التي تبنت لغة مشتركة واحدة لم تمكنها هذه اللغة من حفظ دماء البشرية على الدوام، فقد وقعت العديد من الحروب، وأُريقَت فيها الدماء بين أبناء الأمة الواحدة، والتاريخ القديم شاهد على ذلك⁽³⁾، كما سببت التقلبات السياسية التي لم تكن بالضرورة نتيجة ضغوط داخلية، بل في كثير من الأحيان نتيجة أسباب خارجية⁽⁴⁾ تغيير نظام الحكم وانتقاله من حاكم لآخر، فهذا الأسلوب الذي اعتمد على الانفراد بالخصوم ومراكز القوى الواحدة تلو الأخرى، ومن ثم السيطرة عليها بتحالف الدويلات مع بعضها ضد واحدة، ومن ثم التحالف مع أخرى ضد ما يعتبره عدو مشترك، ثم الانفراد بآخر الحليفات لتحقيق الوحدة⁽⁵⁾، ومن هذا المنطلق كانت تعتمد أساليب الوحدة على شق صفوف التجمع المعادي وإخضاع الدول

* ظهرت تسمية (الساميين) للمرة الأولى عام 1781م في دراسة قام بها المستشرق الألماني (شلوتزر-Schlozer)، وقد أخذها عن التوراة التي تُرجع الخليقة إلى آدم وذريته، ومنهم سام و حام و يافث أولاد نوح، مُبيناً أنّ البشر كانوا على لسان واحد، ثم تفرقت الألسن بَترق أنسال هؤلاء الأبناء على مختلف مناطق العالم، للمزيد أنظر: توفيق بَرو، تاريخ العرب القديم، ط2، دار الفكر، دمشق، 1996، ص39؛

Georges roux, *Ancient Iraq*, third édition, Penguin books, Iran, 2000, p147.

(1) - محمد خليفة حسن أحمد، المرجع السابق، ص40.

(2) - نبيلة محمد عبد الحليم، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص41.

(3) - محمد عيدان أحمد الديلمي، المرجع السابق، ص10.

(4) - أحمد مجيد راضي الشمري، التقلبات السياسية في الشرق الأدنى القديم للفترة 1200-911 ق م، مذكرة ماجستير، جامعة واسط، بغداد، 2016، ص7.

(5) - عارف أحمد إسماعيل المخلافي، دراسات في تاريخ الشرق القديم "العراق وبلاد الشام"، ط1، ج2، المنتدى الجامعي للنشر والتوزيع، صنعاء، 2002، ص81.

الداخلية فيه منفردة كل على حدا⁽¹⁾، وبهذا الأسلوب استهدفت الذاكرة الحضارية، التي لم يكن هدفها انقراض الجماعات العرقية والإبادة الجسدية أكثر من كونه مسألة نسيان حضاري جماعي، فمسألة الإبادة وحدها لا تقضي على الجماعات أكثر من الإبادة الحضارية المتمثلة في النسيان الحضاري العام⁽²⁾.

وبهذا الشكل وجدت القبائل المستقرة، التي أقامت القرى والمدن والممالك نفسها مضطرة بحكم ظروف بيئتها إلى إنشاء قوات مسلحة مهمتها الحفاظ على منجزات مجتمعتها ضد أطماع المغيرين من المجتمعات البدوية المتجولة والمجتمعات المستقرة على حد سواء، وقد كانت تحاول تدمير الكيان السياسي وأحياناً الكيان الحضاري لعدوتها من الدول والممالك القائمة، وقد نجح كثير منها في ذلك، وهكذا أجهضت تطلعات شعوب في دول عديدة كانت أهلاً لتستلم زمام القيادة السياسية، فالحضارات القديمة لم تكن دائماً وليدة التطور السلمي، بل كانت في كثير من الأحيان نتيجة لصراعات المجتمعات فيما بينها⁽³⁾.

أ- أسلوب التوحيد العسكري:

- في مصر:

كانت مصر قبل عملية التوحيد، مقسمة إلى أقاليم منتشرة في مصر العليا ومصر السفلى، عُرِفَت هذه الأجزاء السياسية في العصور التالية بالمصطلح اليوناني (نومي) أو (نوموس)، الذي يعني إقليم، ولا يعلم عدد هذه الوحدات الإقليمية بالضبط قبل أن يوحد ملك مصر "مينا" القطر المصري بما فيهم مملكتي الشمال والجنوب في مملكة واحدة، لكن الظاهر أن عددها بلغ ما يقارب (42) إقليم، منها (22) في مصر العليا و(20) إقليم في مصر السفلى عندما تمت وحدة البلاد، وقد كان لكل إقليم من هذه الأقاليم كيانه الخاص من حيث الديانة والإله والرمز الديني والسياسي، انتهجت فيه مصر الأسلوب العسكري لتوحيد هذه الأقاليم، التي خضعت لنظام واحد⁽⁴⁾، ولقب الحاكم

(1) - ك. ماتيف و أ. سارونوف، المرجع السابق، ص 189.

(2) - يان أسمن، المرجع السابق، ص 300-301.

(3) - توفيق سليمان، دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة من أقدم العصور إلى عام 1190 ق.م. "بلاد ما بين

النهرين - بلاد الشام"، ط 1، دار دمشق، سوريا، 1985، ص 9-10.

(4) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 156-157.

الأوحد للإقليم المُوحد والشعب الواحد⁽¹⁾، نفسه "موحد القطرين" و"سيد القطرين"⁽²⁾، وبالتالي كان الأسلوب الوحدوي العسكري عاملاً هاماً في نهضة مصر الفرعونية في شتى نواحي الحياة. إضافة لما سبق، كان النيل في حياة مصر الفرعونية مركزاً توحيدياً ومستلزماً اقتصادياً ساهم بدوره في خلق حياة اجتماعية واحدة بعقائد وقيم ومصالح واحدة، ولا بد لوجود موحد كهذا من سلطة سياسية تحكمه، وتكون هي الأخرى ذات طبيعة مركزية واحدة وموحدة، وكان كل من البحر والصحراء عوامل توحيدية مضافة إلى جانب النهر، فيقدر ما كان النهر عامل جذب مركزي نحو الداخل، كان البحر والصحراء عاملين طرد عن المركز الداخلي، وخلقت كل هذه العوامل مجتمعة الكيان الاجتماعي الواحد والروح الحضارية الواحدة، والسلطة السياسية ذات الطابع الواحد من جهة والمركزي من جهة ثانية، حيث أضفى موقع مصر الجغرافي المحاط بالبحر شمالاً وشرقاً وبالصحراء جنوباً وغرباً طابع الوحدة على حياتها وفكرها وعقائدها، وأخيراً سلطتها التي اتخذت بدورها طابع الحكم المركزي الواحد⁽³⁾.

- عند الإغريق:

كان للجوانب الجغرافية في بلاد اليونان تأثيرها في النظام السياسي، فلم تشكل طبيعتها امتداداً سهلياً منبسطاً كما هو الحال في مصر أو الجزء الأكبر في بلاد الرافدين مثلاً، وإنما نجدها ذات طبيعة وعرة في عمومها، تشغل فيها الجبال الجزء الأكبر من سطحها، كما أن الأنهار الموجودة بها تفتقد سهولة الجرى، مما يجعلها عوامل فصل بدلاً من أن تكون عوامل وصل، لذلك نجد أن تضاريس بلاد اليونان تعمل على تقسيم السكان إلى مجتمعات صغيرة، تطورت فيما بعد لتصبح كياناتاً قائماً بذاته، لكن لا تتسع مساحته في أغلب الأحيان لأكثر من مدينة واحدة تحيط بها مجموعة من القرى، وقد يكون لها ميناء، وهكذا قام في بلاد اليونان في عصورها القديمة "نظام الدولة المدينة"، وبقي هذا النظام السياسي سائداً حتى عصورها المتأخرة، وكانت الاتحادات والأحلاف التي اتخذت الطابع العسكري هي أبعد أنماط الوحدة فيها⁽⁴⁾.

(1) - عبد الرضا حسين الطعان وآخرون، المرجع السابق، ص 46.

(2) - محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارة الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1987، ص 27.

(3) - عبد الرضا حسين الطعان وآخرون، المرجع السابق، ص 43-44.

(4) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 261.

كان هدف المدن اليونانية الإسهام في إشاعة نوع من الوحدة الحضارية في حوض البحر المتوسط⁽¹⁾، وفي إطار هذه الوحدة الحضارية اتصل المجتمع اليوناني مع المجتمع الروماني وتداخل معه حضارياً إلى حد كبير، وفي مجال الحديث عن اليونان فقد كانوا مثل الفينيقيين شعباً من المهاجرين والتجار، فقد بدأت منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد البدايات الأولى لموجات الهجرات التي استقرت منذ القرن الثامن قبل الميلاد بعدد كبير من جاليات هذا الشعب على شواطئ القارات الثلاثة المطلة على البحر المتوسط، وهكذا ظهر في هذه الشواطئ عدد من المدن التي أقامها المهاجرون على نسق المدن اليونانية الموجودة في بلاد اليونان، ونقلوا إليها نظم تلك المدن وعاداتها وتقاليدها⁽²⁾.

وفي الواقع فإن المتأمل للنشاط الحضاري الذي قام في البحر الأبيض المتوسط يلمس تداخل هذه الحضارات، وامتزاجها أو التقاءها في كثير من الأحيان، وبشكل عام كانت مركزاً لوحدة حضارية حتى وإن لم تكن متجانسة تماماً في كافة مناطقها، فهي على أقل تقدير متكاملة، وفي كل الأحوال يظهر فيها اتصال يكاد يكون دائماً فيما بين هذه المناطق، وقد كان هذا الوضع نتيجة ظروف أدت إلى سهولة المواصلات بين الشواطئ المختلفة للبحر المتوسط وبالتالي إلى سهولة الاحتكاك بين سكانها⁽³⁾.

3- في روما:

لم تسر روما على نظام دولة المدينة، ولم تتبع في التنظيم السياسي أسلوباً واحداً، وإنما تطورت طريقة معالجتها لهذه المشكلة، حيث تطورت الظروف والملابسات التي أحاطت بدورها⁽⁴⁾ بالرومان باعتبارها آخر إمبراطورية من إمبراطوريات العصور القديمة، بالإضافة إلى أنها تمكنت من تحقيق وحدة سياسية ضمت الإرث الحضاري للحضارات القديمة أجمع من مصرية وعراقية وإغريقية⁽⁵⁾.

(1) - لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان "مقدمة في التاريخ الحضاري"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991، ص32-33.

(2) - نفسه، ص32.

(3) - نفسه، ص26-27.

(4) - إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الروماني، ط1، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 1996، ص48.

(5) - محمد ثامر مخاط وآخرون، التطور التاريخي لقانون حقوق الإنسان في الحضارات القديمة والوسطية، مج2، مجلة الباحث، جامعة كربلاء، بغداد، 2012، ص3.

هذه التوسعات العسكرية الوحدوية الخارجية والقوية التي عرفتتها روما⁽¹⁾، جعلتها من الناحية الجغرافية تضم قبائل وشعوب مختلفة في إطار ما يسمى بالوحدة الرومانية، ونظراً لوجود كثير من الشعوب تحت ظل هذه الوحدة، والتي لم تُشعرهم بالارتياح لسيادة روما، كونهم يمتلكون تقاليد ومقومات خاصة بهم، كاليونانيين و الأتروسكيين والغالين مع احتفاظهم بلغاتهم الخاصة، لذلك لم يكن اتحادهم من الأمور السهلة على روما التي لاقت صعوبة كبيرة في ذلك، فبقوا شعوباً متفرقة لكل شعب لغته الخاصة وتقاليد ومميزات⁽²⁾.

وإذا كان الرومان لم يسهموا في ميدان الفكر بقسط مقبول بحيث يصبح في انتشاره نوع من الربط والتوحيد بين شواطئ البحر المتوسط، إلا أن نظام حكمهم أسهم بشكل وافر في هذا الاتجاه بظهور أنظمة قامت عليها حقوق المواطنة الرومانية فكانت حوض مسرحها الأساسي، إذ كان هذا النظام من المرونة بحيث استطاع أن ينسجم مع أغلب شعوب الإمبراطورية، لينتفع به أبناء هذه الشعوب في حدود وعلى درجات متفاوتة، فكان دون شك عامل تقريب وربط بينهم⁽³⁾، فعلى الرغم من انعدام الوحدة الجنسية بين سكان الإمبراطورية، إلا أن اللغة الرسمية السائدة في أنحاء المنطقة هي اللغة اللاتينية، فكانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم الشعب المتفوق والسيد⁽⁴⁾.

ب- أسلوب التوحيد السلمي:

في هذا المجال نجد أنفسنا عندما نُشير إلى أسلوب التوحيد السلمي نَعكس أُسس ومقومات الوحدة بين الشعوب التي تعتمد على القواسم الإنسانية المشتركة، وفي هذا يرى الباحث "يان أسمن" أن التوحيد بين الأفراد في الداخل وتقاربهم الشديد بعضهم من بعض يؤديًا إلى تقوية الحواجز تجاه الخارج، ويمكن ملاحظة هذه الآلية نفسها في مصر القديمة، فقد أثبتت أحداث أعمال الحفريات أن حضارة ما قبل التاريخ التي كانت موجودة في كل من مصر العليا ومصر الدنيا، كل منهما ينتمي إلى حضارة أكبر وأوسع تختلف عن الأخرى، فمصر العليا كانت تنتمي إلى الحضارة

(1) - أندريه إيمار وآخرون، المرجع السابق، ص 14-15.

(2) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 330.

(3) - لطفي عبد الوهاب يحيى، المرجع السابق، ص 33-34.

(4) - أ.ب.تشارلز ورث، الإمبراطورية الرومانية، تر:رمزي عبده جرجس، مر: محمد صقر خفاجة، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1999، ص 61.

الإفريقية، ومصر الدنيا إلى حضارة الشرق الأدنى، وبتوحيد القطرين، ظهر تكوين سياسي كبير جمع في داخله مختلف التكوينات الحضارية والعرقية لوادي النيل، حيث اختفت المترابطة الحضارية الكبرى، وينطبق الشيء نفسه على بلاد الرافدين أيضاً، إذ كانت تمثل في فجر التاريخ بالاشتراك مع الشرق الأدنى القديم مركزاً لموطن حضاري كبير، يمتد في الغرب إلى حدود الأناضول ومصر، وفي الشرق حتى وادي نهر الهندوس في الهند⁽¹⁾.

بينما يرى "الدليمي" أن التاريخ المشترك يُمثل الركيزة الأساسية من ركائز وحدة المجتمع، كونه يُحفز أبناء الأمة الواحدة إلى تخطي العقبات، وباعتبار أن هذه الركيزة حافلة بالمفاخر والأجاء، فإن التاريخ قادر على تحفيز الأمة وزرع الشعور الوجدوي بينها، لكن يجب محاربة الدواعي التي تؤدي إلى ولادة تاريخ أسود يشته الوحدة، فالتاريخ سلاح ذو حدين من جهة فعله وتأثيره في الناس، فهو ذو أثر إيجابي وعامل من عوامل الوحدة حينما يكون مُشرقاً، وذو أثر سلبي حينما يسجل الصفحات المشينة من تاريخ البشر، وبالتالي يشترط في الفكر الوجدوي صياغة وصناعة تاريخ ينسجم مع أبناء المجتمع حتى يشكل حافزاً نحو التلاحم المصري⁽²⁾، إذ تأخذ الوحدات في التعاون أو التمازج في وحدات أكبر حتى تصل إلى الوحدة الكبرى⁽³⁾.

يقول "صمويل كريم نوح" بأن الملوك والأمراء الحاكمون في الولايات والإمارات المنفصلة كثيراً ما يؤسسون فيما بينهم الاتصالات السلمية والودية، وهكذا كانوا يتجهون إلى تأليف ما يصح تسميته بالطبقة الأرستقراطية الدولية، التي لم يكن لأعمالها وآرائها وأفكارها سوى القليل من الأوجه المشتركة مع مصالح رعاياها⁽⁴⁾، لكن عندما تجتمع مجموعات إثنية، وتتكتل في بناء سياسي إثني كبير، أو عندما تتداخل مجموعات عرقية مع مجموعات سياسية عرقية أخرى عن طريق الهجرة، أو عن طريق مجموعة تغطي على مجموعة أخرى حضارياً وتغطيها وتعلو فوقها، عندئذ تنشأ مشاكل الاندماج أو ما يعرف باسم مشاكل التراكم الحضاري، وفي هذه الحالة يكتسب التكوين الحضاري الجنس المسيطر وتسيّد فوق كل الأعراق الأخرى، وتتصاعد حضارة هذا الجنس لتصبح

(1) - يان أسمن، المرجع السابق، ص 285-286.

(2) - محمد عيدان أحمد الدليمي، المرجع السابق، ص 13-14.

(3) - عمر صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى "بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة"، ط 1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مصر، 1998، ص 185.

(4) - كريم صمويل نوح، المرجع السابق، ص 332-333.

حضارة عليا، وتهتمش بدورها باقي التكوينات الحضارية الأخرى التي اعتلتها وارتفعت فوقها، وقد صاحب هذا الأمر أشكال تنظيمية سياسية⁽¹⁾.

ومن الحالات المشهورة للاندماج في العالم القديم، حالة الاندماج التي حدثت بين البابليين والأشوريين، والاندماج الذي حدث بين الإغريق والرومان⁽²⁾، فهذه الروح الموحدة ولدها الإحساس بالخطر العام⁽³⁾.

يبقى أمامنا الحاجة إلى الوحدة والترابط حسب الظروف التي تميز كل حضارة، وتبدو لنا المشكلة في مبدأ الأمر لدى الفينيقيين، حيث كان يسود الحكم الذاتي دويلات مُدُنهم، وهو ما يُصعب تمييز الروابط القائمة بين هذه المدن من جهة، وبين البيئة المحيطة بها من جهة ثانية، فالمشكلة لا تقف عند هذا الحد⁽⁴⁾، لأنّ الواضح من جغرافية المدن الفينيقية انعكاسها على الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لوقوعها على الساحل في شريط ممتد من الشمال إلى الجنوب (رأس شمرا، أوغاريت، بيبلس "جبل"، صيدا، صور، عكا...الخ)، فمن الناحية السياسية وقعت هذه المدن (الدويلات)، في طريق القوى العظمى المتطلعة للسيادة مثل مصر وبلاد الرافدين، فحينما كانت تلجأ إلى الاتحاد فيما بينها لمواجهة أخطار خارجية، كان الاتحاد أو التحالف لا يستمر طويلاً وينتهي بمجرد زوال الخطر⁽⁵⁾.

فالحضارة الدّاخلة لتراكيب حضارية اجتماعية غير متجانسة في داخلها ليست تعويضاً عن نقص أو حاجة⁽⁶⁾، إذ أنّ لكل مجتمع من المجتمعات البسيطة أسس ومقومات يقوم عليها، ويقدر فاعلية هذه الأسس وتأثيراتها على الأفراد الذين يعيشون في كنف ذلك المجتمع، يقدر ما ينعكس ذلك على وحدة المجتمع، فكلما كانت الأسس فاعلة كلما صهرت في بوتقتها كل أشكال ومكونات

(1) - يان أسمن، المرجع السابق، ص 271-272.

(2) - نفسه، ص 283-284.

(3) - ثوركليد جاكوبسن وآخرون، ما قبل الفلسفة "الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى"، ط2، تر: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص 132.

(4) - سبتيانو موسكاتي، الحضارة الفينيقية، تر: نهاد خياطة، مطابع دار العلم، دمشق، 2000، ص 14.

(5) - محمد على سعد الله، في تاريخ الشرق الأدنى "مصر - سوريا القديمة"، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2001، ص 241.

(6) - يان أسمن، المرجع السابق، ص 273-274.

المجتمع على اختلاف ألوانه وأشكاله المكونة⁽¹⁾ للتماسك الشعبي⁽²⁾، وبما أن التكوين الطبوغرافي في مناطق الشرق القديم قد أدى دوراً حاسماً في تحديد لون الحضارات التي نشأت فيها وبالتالي في قدرة هذه الحضارات على الصمود ثم الاستمرار خلال الصراع الحاد الذي نشب بين شعوبها بغية تسلم زمام القيادة السياسية⁽³⁾ في عالم الشرق الأدنى القديم الذي تجاذبت مركز الثقل فيه بلاد الرافدين⁽⁴⁾، فسيكون المنهج المتبع هو المضاد نظراً للتشويه الكبير الذي مارسه الكثير من المؤرخين حتى الوطنيين منهم ذوي النوايا الحسنة، إذ أنهم قسّموا تاريخ العراق القديم إلى مراحل وحسب الدول الحاكمة⁽⁵⁾.

إنّ عدم المراعاة لهذه الأساليب في عمليات التوحيد الرأمية إلى التطلع نحو التعبير السياسي بالوحدة سواء في الشرق أو الغرب، كما هو شائع في الكتابات التاريخية من أن الوحدة السياسية تعترضها عوائق الاتجاهات العلمية والفكرية والدينية، فيبدو من خلال مطالعتنا المتعددة للعديد منهم أنّ القاعدة السياسية هي التجزئة لتواريخ الأمم والشعوب خصوصاً الشرق الأدنى القديم، وبذلك يكون الاستثناء هو الوحدة التي لم يبق منها سوى الوحدة الحضارية.

وبما أنني أعالج موضوع هذه الدراسة من زاوية فكرية، أو بالأحرى في ضوء نظرية وحدوية جامعة للظاهرة الوحدوية في التاريخ القديم بشكل عام وصولاً إلى موضوع أبعاد الفكر الوحدوي في العراق القديم ومدى تأثيراته بشكل خاص، يكون لزاماً على الدراسات الحالية أن تجد سياقها العام في هذه المواضيع من خلال تجارب التاريخ الوحدوية أن تبحث في حقل التاريخ القديم حول هذه التجارب التي كانت تنتقل فيها مجتمعات مجزأة وكيانات سياسية مستقلة من حالة تجزئة إلى حالة وحدة، توحى في الأساس بوجود تاريخ لهذا الفكر، فطبيعة عملية التوحيد تحاول أن تفرض نفسها في العالم القديم، وعلى هذا الأساس اتخذت بلاد الرافدين النموذج الرائد، ذلك أنّ

(1) - محمد عيدان أحمد الديلمي، المرجع السابق، ص 6.

(2) - توركلويد جاكوبسن وآخرون، المرجع السابق، ص 132.

(3) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص 17.

(4) - أندريه إيمار وآخرون، المرجع السابق، ص 102.

(5) - سليم مطر، العراق سبعة آلاف عام من الحياة" تاريخ مختصر وشامل من العصر الحجري حتى العصر الحديث"،

ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013، ص 19.

التكوينات الحضارية القديمة التي تعرضت لها والساعية إلى تأسيس وتوظيف هذا النوع من الفكر الوحدوي كانت معرضة بدرجة كبيرة للانحياز، فدمج أو ضم العدد كبير من المجتمعات غير المتجانسة بشكل أو بآخر في نسق موحد، كانت في الأساس المشكلة المركزية عبر التاريخ.

II- أساسيات الوحدة:

إن البحث في الموقع الجغرافي لبلاد الرافدين قد يساعدنا في معرفة المواصفات التي من شأنها أن تُعزز الوحدة بحسب طبيعة مكوناته، سواء من حيث مساحتها الجغرافية، أو تركز سكانها، أو طبيعة سهولها وجبالها، ومدى بعدها وقربها من بعضها البعض، ومدى ارتباط الدول والشعوب المحيطة بها من مختلف الاتجاهات، كما لعبت أسماء دولها عبر مراحل تاريخها القديم دورها في لفت انتباه المجتمع محلياً وخارجياً، إلى مدى أهميتها في مجال الوحدة رغم قصر مساحتها التي تطورت بفعل ظروف معينة، ومع أنه ليس هناك ما يرغم المجتمعات الرافدية ولا يجبر المدينيات على التطور والسير نحو الوحدة سوى مميزات المنطقة والمخاطر البيئية المحدقة بها ونوع المناخ والأطماع الخارجية للوصول إلى مياهها (دجلة والفرات)، إذ مثّلت مجموعة من العوامل دافعاً حاسماً في بلورة الأفكار الوحدوية وعملت على تطورها، ندرجها فيما يلي:

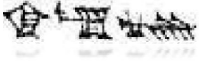
1- التسميات:

تقتضي دراسة ومعرفة أصل التسميات التي عُرفت بها بلاد الرافدين من حيث جذورها التاريخية توضيح العلاقة الموجودة بينها وبين موضوع هذه الدراسة، إذ من الأمور المسلم بها أن هناك أواصر وثيقة ومتداخلة بين الفكر الوحدوي من الناحية التاريخية وبين أسمائه الإقليمية التي ارتبطت بإطارها الجغرافي ومحدودية مكانه، وإذا كان الهدف في هذا المجال هو البحث في أسمائه، والبحث في الموقع وأهميته، فقد تكون حدوده الحالية هي نفسها الحدود التاريخية القديمة، أو العكس، بناء على ما تملّيه الدراسات والأبحاث المختلفة، لذا أصبح من المهم توضيح البنية الجغرافية، حتى يتسنى لنا أن ندرك العناصر الفاعلة في تكوين وحدته، إذ شاع وذاع كل اسم منها في مرحلة معينة من مراحل الوحدة التاريخية للمنطقة، وكاد يشمل اللفظ المنطقة برمتها، بسبب مركز ثقل ذلك الإقليم ومدى فاعليته في مجال الوحدة، فمن الصعب أن تكتمل المعرفة التاريخية لهذا الموضوع بدون المعرفة الجغرافية، فهو لا يساعدنا في فهم تاريخها السياسي وفقط، بل ومدى

تأثير ذلك الموقع في سير أحداثه التاريخية في مجال الوحدة مع ربطه بالحدودية الاسمية والمكانية لأقاليمه.

أطلقت على بلاد الرافدين عدة تسميات مختلفة، منها ماله علاقة بأسماء المناطق التي ظهرت فيها حضاراتها، مثل بلاد سومر في الجنوب وبلاد أكاد في الوسط، كما ظهرت تعابير أخرى مثل بلاد بابل وبلاد آشور⁽¹⁾.

فإذا أخذنا اسم سومر أو "شومر" فهو الاسم القديم الذي أطلق على جنوب بلاد الرافدين⁽²⁾، وعلى وجه التحديد منطقة السهل الرسوبي*، كما أطلقت عليها أقوام الجزيرة العربية اسم "مات شوميريم"، بينما هناك من يعتبر "شومر" كلمة أكادية⁽³⁾ مشتقة من الكلمتين "شينا ومعناها اثنان" وكلمة "نار ومعناها نهر"، وبذلك يكون معناها "أرض النهرين"⁽⁴⁾. بينما أطلق عليه العبرانيون⁽⁵⁾ بلاد "الكشديم"⁽⁶⁾ وسهل شنعار الوارد⁽⁷⁾ في النصوص المسمارية

بصيغة⁽⁸⁾ (Ki-en-ge - )⁽⁹⁾، وتكتب لدى الباحثين والمؤرخين العرب بصيغة "كى - ان - جى" حاملة في معناها "البلاد السيدة"، ففي العهد القديم نجده يتكرر في إصحاحات عديدة، منها⁽¹¹⁾ وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ السَّيِّدَ يُعِيدُ يَلَهُ ثَانِيَةً لِيَقْتَنِي بِقِيَّةَ شَعْبِهِ الَّتِي بَقِيَتْ وَمِنْ مِصْرَ وَمِنْ فَتْرُوسَ وَمِنْ كُوشَ وَمِنْ عِيلَامَ وَمِنْ شِنْعَارَ وَمِنْ حَمَلَةَ وَمِنْ جَزَائِرَ

(1) - عمر صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 111.

(2) - وديع بشور، سومر وأكاد، (د-د-ن)، دمشق، 1981، ص 33.

* سهل واسع تكوّن من التقاء نهري دجلة والفرات عندما يصلان إلى منطقة (هيت-سامرا)، ويبلغ طوله (650 كلم) من الشمال إلى الجنوب، ويختلف عرضه ما بين (140 و 40 كلم) - للمزيد أنظر: عارف أحمد إسماعيل المخلافي، المرجع السابق، ص 11.

(3) - عبد الحكيم الذنون، الذاكرة الأولى "دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القديم لبلاد الرافدين"، ط 2، دار المعرفة، دمشق، 1993، ص 24.

(4) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 95.

(5) - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 24.

(6) - مكسيمليان شتريك، خطط بغداد وأنهار العراق القديمة "دراسة خطية تاريخية"، تر - خالد إسماعيل علي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1986، ص 19.

(7) - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 24.

(8) - نفسه.

(9) - فوزي رشيد، قواعد اللغة السومرية، ط 1، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، 2004، ص 25.

الْبَحْرِ))⁽¹⁾ وفي موضع آخر ((2) وَسَلَّمَ الرَّبُّ يَدَيْهِ يَهُوْيَاقِيمَ مَلِكَ يَهُودَا مَعَ بَعْضِ آيَةِ بَيْتِ اللَّهِ فَجَاءَ بِهَا إِلَى أَرْضِ شِنْعَارَ إِلَى بَيْتِ إِلَهِهِ وَأَدْخَلَ الْآيَةَ إِلَى خِزَانَةِ بَيْتِ إِلَهِهِ))⁽²⁾... الخ

أما مصطلحي آشور فالقصد بها عند هيردوت كامل البلاد، حيث ذكر أنها "تضم-أي آشور- عدة مدن كبيرة لكن بابل الأكثر شهرة و الأقوى"⁽³⁾، وربما هذا ما يُفسر إطلاق الإغريق اسم "بابلونيا" و"آشور" دون تفريق على منطقة بلاد الرافدين القديمة، ثم أخذوا يفرقون بعد ذلك تدريجياً بين المعاني الدقيقة لكل من الاسمين واحتفظوا باسم بابلونيا للمنطقة التي يصب فيها نهر دجلة والفرات⁽⁴⁾، أما مصطلح "السوبارتو" فقد كان يطلق على موطن الآشوريين قبل استيطانهم به⁽⁵⁾، والذي يعني "بلاد الشمال"⁽⁶⁾.

كما اختلف المؤرخون أيضاً في تحديد الأصول الأولى التي اشتقت منها كلمة "العراق" وقابله عدم الاتفاق في تحديد معناها⁽⁷⁾، حيث هناك من يرى أنها ذات صلة بالكلمة السومرية "أونوك" أو "أوروك*" التي تعني "المستقر"⁽⁸⁾، والواردة في العهد القديم بصيغة "أرك"⁽⁹⁾، وكذا سُميت بها المدينة المشهورة "الوركاء"، إلا أنه مع ذلك لم يطلق أي من هذه التسميات على القطر كله⁽¹⁰⁾، بينما يعتبر آخرون كلمة عراق عربية الأصل معناها الشاطئ، وباعتبارها شاطئاً لنهري دجلة

(1) - سفر أشعيا، (11-10 : 11).

(2) - سفر دانيال، (1 : 1-2).

(3) - Hérodote, **Histoires**, Livre I, traduit par : Legrand, Les belles lettres, Paris, 1932, 178.

(4) - مكسيمليان شتريك، المرجع السابق، ص 19 .

(5) - طه باقر، المرجع السابق، ص 166.

(6) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 94.

(7) - عمر صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 112.

* تعرف أيضاً باسم الوركاء، من أهم السلالات السومرية الشهيرة، تقع في محافظة ذي قار، وتبعد عن مدينة أورب 36 كلم، ظهرت بها الكتابة بالخط المسماري، وكما مثلت مركزاً لعبادة الآلهة "عشتار" فقد كانت موئلاً لعبادة الإله ((أنو))، من أبرز ملوكها هو الملك الخامس "جلجامش"... الخ - للمزيد أنظر قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 124-125؛ Marie Joseph Seux, Op.Cit, p 35.

(8) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 96.

(9) - سفر التكوين: (10:10).

(10) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 96.

والفرات أطلق عليها هذا الاسم، لكن في المقابل يُرجح بعض الباحثين أن أصلها الأجنبي الذي يعنى "إبراء" والحامل لمعنى الساحل وقد عُرِبَت إلى إيراك ثم عراق⁽¹⁾.

لكن ما تجدر الإشارة إليه أن أول استعمال لاسم العراق قد ورد في أواخر العهد⁽²⁾ الكاشي الذي أعقب عهد سلالة بابل الأولى (1894-1595 ق.م)، حيث أطلق على موضع أو مقاطعة اسم "أريقا-Ariqua" وذلك في وثيقة مسمارية من نفس الفترة المذكورة، وتُميل بعض الآراء إلى اعتباره اسماً سومرياً دارجاً يعنى الموطن⁽³⁾، وإن كان يرجح بأنها كلمة فارسية تعنى السواد أو السهل أو البلاد السفلى، فهذا ما جعل بعض المفسرين العرب يطلقون على القسم الجنوبي من العراق "السواد"، أما القسم الشمالي اسم "الجزيرة"⁽⁴⁾.

كما أطلق الكاشيون* أيضاً لفظة "كاردويناش"⁽⁵⁾ على بلاد بابل، لتعني بلاد الإله "دونياش" المعبود القومي لهم، واستمرت هذه التسمية لعصور متأخرة، أما تسمية "عبر النهر" فهي من "أبرناري"، وقد أطلقها الإخمينيون على العراق وقسم من سوريا حتى حدود فلسطين في أثناء

(1) - تقي الدباغ وآخرون، البيئة الطبيعية والإنسان، حضارة العراق، ج1، دار الحرية، بغداد، 1985، ص 13-14.

(2) - محمد أيوب الشناوي، الدين في الحضارات الشرقية القديمة وأثره على الديانات السرية والفلسفية لدى اليونان، ط1، دار الحضارة للنشر والتوزيع، مصر، 2002، ص110.

(3) - عبد الحميد زايد، الشرق الخالد "مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى منذ أقدم العصور حتى عام 323 ق م"، دار النهضة العربية، القاهرة، 1966، ص1؛ عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم "مصر - العراق"، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004، ص745.

(4) - أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص22.

* اشتق اسمهم من الكلمة البابلية (كشو) التي ربما تعنى القوة والبأس، وربما كان اسماً لإلههم القومي، ويُرجح أن يكون الكاشيون قد نزحوا من المنطقة الوسطى في جبال زاغروس، وربما كان نزوحهم بسبب ضغط أقوام أخرى، فلم يستطع هؤلاء اختراق بابل وأشور فاتجهوا نحو الشمال باتجاه غرب الفرات الأوسط واستوطنوا في منطقة (خانة أو خانات) -عانة حالياً-، واستقروا بها لفترة من الزمن، ثم انحدروا نحو بابل مُستغلين الغزو الجثي عام 1595 ق.م، وبيدوا أن تحالفاً قد نشأ بين الحثيين والكاشيين من أجل غزو بابل، وهذا ما يُفسّر انسحاب الحثيين من البلاد...الخ- للمزيد أنظر قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص142.

(5) - طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات "الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين"، ج1، دار الوراق، بيروت، 2009، ص501.

احتلالهم للعراق⁽¹⁾، بينما أُطلق على البقعة التي يكتنفها دجلة والفرات عند الكلدانيين باسم "بيت نهراواتا" أو "بيت النهرين"⁽²⁾.

بينما عند الكتاب الإغريق نجد اسم "بلاد ما بين النهرين" أو "ميزوبوتامي - La Mésopotamie"⁽³⁾ في الفترة ما بين القرن الرابع والقرن الثاني قبل الميلاد، حيث كان هذا المصطلح يطلق في البداية على المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، وعندما شاع استعماله لدى الكتاب الأوروبيين امتد ليشمل أكثر من مناطق العراق الحالي حيث لازال المؤرخون يستعملونه عند الكلام عن تاريخ العراق القديم⁽⁴⁾.

غير أنّ بعض الكتاب الإغريق لاحظوا قصور لفظ "ميزوبوتاميا" ليحل محله لفظ "باربوتاميا-Parapotamia" أي خارج النهرين أو ما حولهما، لكن الأحسن أن نقول بلاد النهرين⁽⁵⁾، وهو في حد ذاته مصطلح وارد في التوراة بصيغة "أَرَامِ النَّهْرَيْنِ"⁽⁶⁾، ولهذا الشأن ذهب الباحث "ستيفان بيرتمان-Stephen Bertman" إلى القول بأنّ التسمية الأولى خاطئة، لكون العديد من المدن تقع خارج هاذين الرافدين⁽⁷⁾.

إلى جانب هذه التسميات التاريخية، نجد تسميات أخرى تطلق على العراق، وهي ذات مدلول جغرافي يفضل الباحثون استخدامها في التاريخ القديم والحضارة، وأكثر هذه التسميات شيوعاً هي "بلاد واد الرافدين" دجلة والفرات من أعاليهما حتى مصبيهما إلى الخليج العربي، وهي تسمية جغرافية تؤكد وحدة المنطقة التاريخية والحضارية، وبالتالي تكون هذه التسميات وإن اختلفت في مدلولها الجغرافي، إلا أنّ أرضها لم تكن بها حواجز طبيعية تعيق الاتصالات مع بعضها،

(1) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 94-95.

(2) - أدي أشير، تاريخ كلدوا، مج 1، دار سركيس أغا جان، بغداد، 2007، ص 17.

(3) - Sherman Hollar, **Ancient Civilization-Mesopotamia**, Britannica Educational Publishing, New York, 2012, p 10; Katherine Reece, **Ancient Civilization- The Mesopotamians Conquerors of the Middle East**, Rourke, Florida, 2004, p 6; Tom Head, Op.Cit, p 21.

(4) - عمر صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 111-112.

(5) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 567.

(6) - سفر التكوين، (10:24).

(7) - Stephen Bertman, **Handbook to Life In Ancient Mesopotamia**, University of Windsor, U.S.A, 2003, p 4.

بل إن أجزاءها مترابطة بمسالك كانت لها بشكل عام أثارها الحضارية التي شكلت الوحدة العضوية للشعب والوحدة السياسية للبلاد على مرّ اختلاف العصور⁽¹⁾.

وإذا كان الملاحظ في غالبية أسماء بلاد الرافدين التاريخية أنها لا تحمل معنى الوحدة الجغرافية الكبيرة، فإننا نلاحظ ارتباط أغلبها بمدلول إقليمي يحمل معنى الوحدة الجغرافية الصغيرة، ومع أنها تفيدنا من الناحية المعرفية، فهي لا تكفي دون ربطها مع أهمية موقع البلاد الجغرافي بالنسبة لمنطقة الشرق الأدنى القديم، وبتعبير الجغرافية السياسية تتعرض الدول والشعوب ذات الأسماء الإقليمية بسبب موقعها إلى ضغط الأقاليم المجاورة أو المتاخمة لها، فقد يحدث أن يتحقق نجاح أحد الأقاليم في مجال الوحدة، ويتبعه سقوط بفعل ضغط الأقوام المتحالفة أو المتاخمة من الخارج، وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن كل إقليم يحمل طموحا وحدويا لما يحتله من موقع محمي داخل العالم الوجدوي.

2-خاصية الموقع الجغرافي:

إن استثمارنا في دراسة مزايا الموقع الجغرافي لبلاد الرافدين، فضلاً عن اتصاله مع سائر البلدان المحيطة به والتعرف على مميزاته، يُتيح لنا فهم العلاقة الترابطية بينه وبين دول الجوار، وفهم مسألة الوحدة في طابعها العام، سواء أكانت فكرة محلية امتد نفوذها نحو مختلف أجزاء المنطقة ثم انتشر خارجي، ما يجعلنا نؤمن بالبعد الجغرافي للعراق القديم ودوره في صياغة الفكر الوجدوي لدى دول الجوار بحيث يحصل التوحد بينها وبين تلك الجغرافيا، أم أن البلدان المحيطة بها ساهمت وإلى حد بعيد وبخصائصها الجغرافية وعلاقاتها في فتح مساحتها وإدراج أقاليمها ضمن هذه الوحدة.

وإذا كانت غايتنا البحثية دور الموقع الجغرافي ومدى فاعليته للتأثير على الكيان السياسي الموحد وعلاقته بالدول الأخرى، فإن إدراجنا لدراسته جغرافياً تكمن في تتبع تغيرات حدودها الجغرافية عبر مراحلها التاريخية من السومرية والأكادية وإلى غاية المرحلة البابلية الحديثة، كونها مركز ثقل المنطقة المستمر حتى وقتنا الحالي، لما لموقعها وسط هذا الجوار الجغرافي والحضاري من أهمية، حتى يسهل علينا إيضاح نتائج البعد الجغرافي في توحيد المنطقة الوجدية بوجه خاص

(1)- جابر إبراهيم خليل، البيئة الجغرافية وأثرها في وحدة حضارة بلاد الرافدين " ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين"، مطبعة المجمع العلمي، 2001، ص 14-15.

والشرق الأدنى بوجه عام، دون إغفال خصائص هذا الموقع من تضافر الجهود لخلق إقليم موحد يمتد نحو نطاق جغرافي كبير.

يلاحظ في المجتمع الذي يعيش في إطاره الجغرافي العميق (الوطن الضيق)، ليس كالبلاد الواسعة الممتدة التي تُثمر عقلية تعاونية ومقدرة على التعايش مع الآخرين، إذ أن البلاد الضيقة كثيراً ما نجد لها مسرحاً لضيق الأفق والحركات الانعزالية والاستعداد لرفض الآخر وعدم القدرة على التعايش معه، خاصة إذا أضيف لضيق المساحة عوامل جغرافية مرافقة مثل قساوة الطبيعة الجغرافية التي تعيق بدورها الاتصال وتساعد على الانغلاق، وبالتالي تكون تربة خصبة للأفكار العدائية والشك بالآخرين⁽¹⁾، نفس الشيء ينطبق على النطاق الجغرافي الجنوبي خلال المرحلة السومرية القديمة في الاتجاه نحو التوحيد الجغرافي للبلاد، رغم امتدادها نحو عيلام* شرقاً وماري** غرباً⁽²⁾، لكن هذا الدور استمر أثره العميق في الحقبين⁽³⁾ الأكادية والتي تمتعت فيها بنوع من الهيمنة على الرقعة الجغرافية نفسها⁽⁴⁾، التي سادت أيضاً عصر الإحياء السومري⁽⁵⁾، إذ حظيت خلالها رقعة بلاد الرافدين بالاتساع، واشتمالها على أقاليم واسعة ومن بينها بلاد عيلام

(1) - سعدون شلال، **الفهم الجغرافي للصراع السياسي**، ع18، مجلة البحوث الجغرافية، بغداد، 2013، ص83.

* عُرفت بأسماء أخرى مثل "لورستان" و"جبال البختارية"، وسمّاها العرب بلاد الأهواز، أما الإغريق فأطلقوا عليها اسم "ديوس بوليس" - للمزيد أنظر: على ظريف الأعظمي، **تاريخ الدول اليونانية والفارسية في العراق**، مكتبة الثقافة الدينية، الإسكندرية، (د.ت)، ص18.

** تقع على ضفة الفرات اليمنى وعلى مبعده ثلاثة عشر كيلومتر غرب مدينة البوكمال (أبو كمال)، تُعرف حالياً باسم (تل الحريري)، من أهم عواصم الأموريين، ونظراً لأهميتها، وكونها تقع في نقطة تكاد تكون وسط بين البحر المتوسط وبلاد الرافدين والأناضول، فقد كانت مركزاً تجارياً هاماً تنافست عليه دول عدة، حاولت بشتى الوسائل أن تجعل هذه المدينة خاضعة لنفوذها ليكون طريق التجارة مؤمناً لها بين مناطق العالم القديم... الخ، للمزيد أنظر: عبد الحكيم الذنون، **تاريخ**

الشام القديم، ط1، دار الشام القديمة، دمشق، 1999، ص158؛ Jean Bottéro, Op.Cit, p289.

Wolfgang Heimpel, **Letters to the King Mari**, Eisenbrauns Winona Lake, U.S.A, 2003, p p 3-5.

(2) - محمود شاكر، **(موسوعة الحضارات القديمة...)**، المرجع السابق، ج1، ص36-37.

(3) - عبد الله الحلو، **صراع الممالك في التاريخ السوري القديم بين العصر السومري وسقوط المملكة التدمرية**، ط1، دار بيسان، بيروت، 1999، ص33.

(4) - سعد عيود سمار، **الأحوال السياسية في "أوما" من العصر الأكادي حتى نهاية حكم سلالة أور الثالثة**، ع6، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، بغداد، 2011، ص44؛ محمود شاكر، **(موسوعة الحضارات القديمة..)**، المرجع السابق، ج1، ص66.

(5) - Reymond Westbrook, **A History of Ancient Near Eastern Law**, vol1, Brill Leiden, boston, 2003, p185-186.

وسوريا ونهر الخابور والبالخ والأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى ومناطق الخليج⁽¹⁾، بينما امتد نفوذ الوحدة الجغرافية للمنطقة خلال العصر البابلي القديم من الخليج الفارسي⁽²⁾، إلى بلاد الشام غرباً ومن طوروس شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً⁽³⁾ لتشهد تراجع واقتصار وحدتها خلال الهيمنة الكاشية على القسم الجنوبي من بلاد الرافدين لمدة أربعة قرون⁽⁴⁾.

بينما نجد قيام الآشوريين في المجال الجغرافي بتكوين كيانهم البعيد المدى انطلاقاً من موطنهم في الشمال على كامل مناطق الشرق الأدنى بهدف خلق عالم موحد⁽⁵⁾، كما هو الحال في المرحلة البابلية الحديثة واستمرارها في العمل والتنفيذ للمحافظة على نفس المخطط الجغرافي العام (أنظر الخريطة رقم 1)⁽⁶⁾.

(1) - محمد كامل روكان، سقوط أور ونهاية العصر السومري في حضارة بلاد الرافدين، مج 12، ع 4، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، 2009، ص 155.

(2) - هنري س. عبودي، المرجع السابق، ص 364.

(3) - نواله أحمد المتولي، "دولة القطر الموحد في الآلفين الثالث والثاني قبل الميلاد"، وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، 2001، ص 97.

(4) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 142.

(5) - Jack Cheng and Marian H. Feldman, **Ancient Near Eastern Art in Context**, Brill, leiden-Boston, 2007, p152.

(6) - هاري ساكز، عظمة بابل، تر: خالد أسعد وأحمد غسان سبانو، ط 1، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2008، ص 290.

الفصل الأول: جغرافية وأساسيات الفكر الوجودي



الخريطة رقم 1: مراحل مواقع تعاقب حضارات بلاد الرافدين عن:

مقتطفات من التراث / <https://mariammagazine.de>

وفي شأن نتائج البعد الجغرافي وتعدد وحدة الرقعة الجغرافية، فيمكن استنباطها من مختلف الكتابات والأبحاث التاريخية، إذ هناك من يعتبر المفهوم الجغرافي لبلاد الرافدين نقطة جدلية، ذلك أن التحديد الجغرافي بالاستناد على الوحدة السياسية التي شهدتها الفترة ما بين 2500-539 ق.م تعزّز في غالبية التشابه في الشكل السياسي والجغرافي، لكن قد يكون أفضل تعبير للمدلول الجغرافي لهذه البلاد أنها المساحة الواقعة بين وحوّل نهري دجلة والفرات، ابتداء من الخليج العربي جنوباً وحتى آشور شمالاً⁽¹⁾.

وفي نظر باحثين آخرين، تعاقبت على هذه المنطقة حضارات عديدة تشابهت في بعض جوانبها، نظراً لتأثير الظروف الجغرافية للمكان على تلك الحضارات، ففي كل فترة من تلك الفترات الحضارية كانت الخريطة السياسية للبلاد تتغير وفقاً لقوة وضعف السلطة الحاكمة، ولهذا يُعد تحديد الموقع الجغرافي للمنطقة صعب في ظل تلك الظروف⁽²⁾، في مقدمتها الاتصالات الجغرافية لبلاد الرافدين سواء عن طريق التجارة أو الحروب والتوسعات أو الأسفار بينه وبين أقطار الشرق الأدنى القديم، كونه يقع ضمن الجسر الأرضي الموصّل بين قارات آسيا وإفريقيا، وبصورة غير مباشرة إلى أوروبا، كما أنه يوصل بين الهند والبحر المتوسط، وربما أثر ذلك في طبيعة سكانه واتصالاته بالأقطار المجاورة⁽³⁾، وتشير الأخبار التاريخية والأدلة الأثرية إلى امتدادهم خلال العهد الأكادي إلى أقاليم بعيدة مثل الأناضول وكريت وقبرص وأقطار أخرى في حوض البحر المتوسط، وزاد هذا التوسع في المساحة الجغرافية اتساعاً في العصور التي أعقبت الفترة الأكادية، ولاسيما الآشوريين التي نتج عنها اتصالات بعيدة بين أقوام وحضارة بلاد الرافدين وبين الأقوام القديمة ومنها القبائل اليونانية في سواحل الأناضول الغربية⁽⁴⁾.

(1) - هاري ساكز، المرجع السابق، ص 11-12.

(2) - ثريا عبد الله الهاشم، الأمومة والطفولة في تشريعات بلاد الرافدين "2500-500 ق م"، مذكرة ماجستير، جامعة الملك سعود، السعودية، 1433-1434هـ، ص 9.

(3) - عارف أحمد إسماعيل المخلافي، المرجع السابق، ص 11؛ علي رمضان عبده، المرجع السابق، ص 157.

(4) - طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1976، ص 40.

بينما كانت كثرة مطامع الأقوام المحيطة به وبخيرات أرضه، عاملاً جعل الإنسان العراقي القديم يقوم بمجابته، محاولاً الاستمرار في الحياة والدفاع عن جغرافية بلاده⁽¹⁾، منها بلاد عيلام القديمة التي تقع في الجهة الشرقية لبلاد الرافدين، وفي الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس، أي أنها تحاذي بلاد سومر وأكاد، وكانت بلاد عيلام تضم في معظم فترات تاريخها القديم السهل الرسوبي الفسيح المعروف بسهل عربستان، وبعض أجزاء الهضبة والمرتفعات الجبلية الواقعة إلى الشرق والشمال من السهل، ويؤلف السهل من حيث التكوين الجيولوجي وطبيعة الأرض والتضاريس امتداداً طبيعياً لسهل العراق الرسوبي، ولا يفصله عنه أي حاجز طبيعي يمنع اتصال سكان بلاد عيلام بسكان بلاد سومر وأكاد⁽²⁾.

وربما لهذا السبب يُعرف سترابون منطقة بلاد بين النهرين بقوله: «إن البلاد التي تحاذي بلاد فارس وسوسة* هي إقليم آشور، ويُفهم من هذا الاسم بلاد بابل وجزء كبير من المنطقة المجاورة التي تضم كل إقليم ومركزه نينوى والضفة الأخرى لنهر الفرات، وهي القسم الواسع الذي ينقسم بين العرب والسوريين إلى غاية الحدود مع سيليسيا وفينيقيا وأرض اليهود»⁽³⁾، لكن الكتاب اليوناني ثم اللاتيني استخدموا مصطلح بلاد آشور بشكل غير موحد، فقد عُنوا به في كتاباتهم شمالي بلاد الرافدين أحياناً، وبلاد الرافدين كلها أحياناً أخرى، كما أطلقوه على المناطق السورية أحياناً أخرى⁽⁴⁾.

وعلى هذا الأساس نتج عن سياسة ملوك وادي الرافدين حماية مكتسباتهم الإقليمية من الأخطار المهددة لها، وبخاصة تجاه المناطق الفارسية الغربية، إذ قامت على أساسين، أولهما منع قيام وحدة سياسية كبيرة بين القبائل في ما وراء جبال زاغروس، مما يمكن أن يهدد دول العراق القديم، وثانيهما العمل على إخضاع بعض المناطق الواقعة على شريط جبال زاغروس وتعيين الحكام

(1) - حميدة كاظم روضان، جدلية الموت والحياة في فنون الحضارات القديمة، ع18، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، بغداد، 2016، ص456.

(2) - عامر سليمان، بلاد عيلام وعلاقتها بالعراق القديم، ع14، مجلة آداب الرافدين، الموصل، 1981، ص169.

* عاصمة فارسية قديمة تعرف أيضاً باسم "شوش" للمزيد حول أهميتها التاريخية يُنظر: زينوفون، حملة العشرة آلاف "الحملة على فارس"، تر: يعقوب أفرام منصور، (د.د.ن)، بغداد، 1965، ص166.

(3) - Strabon, la géographie de Strabon, livre XVI, trad par: Amédée, Hachette, Paris, 1880, 298.

(4) - إيفا كانجيك/ كيرشبادوم، تاريخ الآشوريين القديم، تر: فارق إسماعيل، ط1، دار الزمان، دمشق، 2008، ص11.

فيها⁽¹⁾، إذ شكلت المحاولات المتكررة التي قام بها حكام وملوك عيلام والدول والممالك الفارسية التي أعقبتها في السيطرة على فارس للسيطرة على العراق القديم محور قلق للمنطقة، لاسيما على قسميه الجنوبي والأوسط الذي كان يعرف آنذاك ببلاد سومر وأكاد⁽²⁾، وقد يكون هذا الامتداد الجغرافي بين البلدين سبب في عرقلة الوحدة في جنوب بلاد الرافدين.

في حين مثلت بلاد الرافدين عامل جذب للأقوام الجزيرية الوافدة من منطقة شبه الجزيرة العربية إليها، ولعدم وجود حدود طبيعية فاصلة بينه وبين هذه البلدان، كما هو موجود في المناطق الشمالية باتجاه الأناضول والشرقية باتجاه بلاد فارس، فإن هذا الأمر قد يعزّز نظرية وحدة العراق الطبيعية، إذ كان انتشار السومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين في أجزاء من بلاد الرافدين حسب الاتجاهات التي جاءوا منها، كانتشار الأقوام السومرية والأكادية في الجنوب والآشوريين في الشمال تأكيداً للسعي فيما بينها نحو الوحدة في جميع أجزاء المنطقة⁽³⁾، لذا يُعدّ الجغرافيون منطقة بلاد الرافدين جزءاً من الجزيرة العربية لتشابه الوضع والبيئة فيهما، وعدم وجود فواصل طبيعية تفصل بينهما، كونه يقع في الجزء الشمالي الشرقي لجزيرة العرب⁽⁴⁾، بل كان تاريخ شبه الجزيرة العربية، هو تاريخ الأحداث التي شهدتها جماعات سياسية صغيرة، قامت واحدة وراء الأخرى في بلاد الرافدين⁽⁵⁾.

ولعلّ وقوع العراق بين المناطق الصحراوية في جنوبه وغربه وبين المناطق الجبلية في شماله وشرقه، أثار هامة على تكوين سكانه، إذ أن افتقار المناطق الصحراوية والجنوبية للموارد الطبيعية الغذائية المهمة، جعل من أرض الرافدين الغنية بالموارد المائية والزراعية، محط أنظار وأطماع وهجرات وغزوات الجماعات الجبلية، ومنها الجماعات البدوية القادمة من شبه الجزيرة العربية على مدار التاريخ، وهذا ما جعل أرض العراق ملتقى الهجرات المعروفة بالسامية، بالإضافة إلى

(1) - محمد حرب فرزت، مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها القديمة قبل الإسلام، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1989، ص 40.

(2) - عامر سليمان، (بلاد عيلام...)، المرجع السابق، ص 167.

(3) - سلمان خيرى وجعفر حسين، المرجع السابق، ص 247.

(4) - عبد الرزاق الحسيني، العراق قديماً وحديثاً، ط 3، مطبعة العرفان، صيدا، 1958، ص 7.

(5) - سبتيانو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، تر: السيد يعقوبي بكر، مر: محمد القصاص، دار الرقي، بيروت، 1986، ص 201.

الجماعات القادمة من الصحراء مع الجماعات الهندو-أوروبية القادمة من الهضبة الإيرانية والوسط الآسيوي من الشرق والشمال، مع الجماعات القادمة من هضبة آسيا الصغرى التي تصل العراق بـشرق ووسط أوروبا⁽¹⁾.

يبدو أيضاً من دراسة طبيعة بلاد الرافدين⁽²⁾ أنّ للبيئة الطبيعية القاسية أثرها الفاعل في نشوء الدويلات وتعددتها، وهو ما صعب ظهور⁽³⁾ دولة القطر الموحدة⁽⁴⁾ فسطح العراق يتميز بالانحدار التدريجي من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وتتباين تضاريسه بين الجبلية الوعرة و الهضبية المتموجة، والصحراوية القاحلة والسهلة الرسوبية الصالحة للزراعة ذات الكثافة السكانية الأعلى والأقدم في الاستيطان⁽⁵⁾، لتسود المنطقة خلال تلك الفترة، الأقوام الغازية من الشرق والغرب، وهكذا نشأت أولى الإدارات المركزية لتجميع الجهود وتنسيقها في خدمة المجموع⁽⁶⁾، مما يعني أنّ لطبيعة البلاد الجغرافية الأثر في صياغة النظام السياسي في العراق القديم⁽⁷⁾. إذن شكّل ومازال يشكل الموقع الجغرافي الخاص بالعراق من النواحي السياسية و البشرية عاملاً موضوعياً مهماً، إذ يلاحظ أن حدود العراق الطبيعية مفتوحة أمام معظم المناطق والدول المجاورة خلال مراحل الحرب والسلم و عبر التاريخ⁽⁸⁾، الأمر الذي يجعل من الموقع الجغرافي لبلاد الرافدين عنصر غير ثابت إذ تتغير أهميته من فترة لآخرى لعدة عوامل كاندلاع الحروب و حدوث مشاكل سياسية بين دوله المجاورة⁽⁹⁾.

وفي نفس السياق يرى سليم مطر أنّ العراق و منذ القديم كان موحداً جغرافياً، وكانت مساحته الجغرافية أكبر من مساحته الحالية، إذ تشمل الكثير من المناطق الخاضعة التابعة حالياً للدول

(1) - عمر محمد صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 120.

(2) - Gwendolyn Leick, *The Babylonians An Introduction*, Routledge, U.S.A, 2003, p 8-9.

(3) - عامر سليمان، *جوانب من حضارة العراق " العراق في التاريخ "*، دار الحرية، بغداد، 1983، ص 182.

(4) - طه باقر، *مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة*، بيت الحكمة، بغداد، 2010، ص 279.

(5) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 97.

(6) - عامر سليمان، *(جوانب من حضارة العراق...)*، المرجع السابق، ص 182.

(7) - طه باقر وآخرون، *تاريخ العراق القديم*، ج 2، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1980، ص 45.

(8) - ستار نوري العبودي، *الشخصية التاريخية للمجتمع العراقي*، ع 2، مجلة مركز بابل، بغداد، 2011، ص 4.

(9) - عبد الله حسون محمد، *الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والحضارية للموقع الجغرافي للعراق*، ع 33، مجلة ديالي،

بغداد، 2009، ص 8.

المجاورة، ومنها منطقة "الحمرة"* التابعة لبلاد فارس بالإضافة إلى امتداده جنوباً في أعماق الخليج العربي، وعلى أساس هذا التوحد الجغرافي الطبيعي، توحد العراقيون سياسياً وسُكانياً، فبالرغم من أنّ العراق ظلّ يستقبل العديد من الجماعات من كل أنحاء البلدان المحيطة به، القادمة سلباً أو حرباً، فإنه لروح دجلة والفرات ما يمكن أن يوحدتهم أو يصهرهم جميعاً⁽¹⁾.

3- الأقاليم:

تفيد الظواهر الإقليمية بمميزاتا مختلفة، ومنها التضاريس والمناخ، علاوة على نهري دجلة والفرات في تحقيق فاعلية المواصلات بين مختلف أجزائه، الأمر الذي قد ينجم عنه نوع من الوحدة، وبالتالي فدراسة الأقاليم كل على حدة يساهم في معرفة ما إذا ما ساعدت مميزاتا بانتشار وانطلاق مشروع الوحدة من الشمال إلى الجنوب أو العكس، ثم نحو مختلف دول عالم الشرق القديم من خلال أساليب الاتصال بينها، والتي تدعم وتصنع وحدته، وبين أقطار الجيران من الدول المحيطة بها، وهل يمكن أن نضيف إلى ذلك أن المنطقة بحكم مساحتها الهائلة ويسبب تعدد تضاريس أرضها، وتنوع بيئاتها ومناخها، أدى هذا إلى إمكانية إحداث التكامل، فعندما نتحدث عن الوحدة الرافدية فإننا لا نقصد الناحية الجغرافية فحسب، بل نريد من وراء ذلك إبراز أمر أعمق بكثير، يعود إلى مدى عرقلة أو مساهمة طبيعة أقاليمها في تفعيل الوحدة.

تُعزى الثنائية التناقضية الحادة، بين خصب وسهلية أرض الرافدين وقسوة الهضاب والجبال والبادي المحيطة في حدّ ذاتها بأنها الدافع الذي فرض على المجتمع العراقي القديم مواجهة الجماعات الجبلية والصحراوية الطامعة⁽²⁾ في بلاد الرافدين⁽³⁾، ذلك أنّ مجهود الدولة الداخلي في حد ذاته يحدد من ناحية نوع معين من الوحدة على الأقاليم التي تضمها حدودها بحيث تصل إلى أقرب الصور من الوحدة الدينية والاجتماعية والسياسية الاقتصادية، ويتضح مدى دورها الخارجي من خلال العمل على ولاء سكان أقاليمها المختلفة لها، وتجعل هذا الولاء يطغى على ما قد يشعر

* تُعرف أيضاً باسم (خُرْمَشهر)، وهي مدينة ومرفأ في إيران بالقرب من شط العرب - للمزيد أنظر: مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية (القارات-المناطق-الدول-البلدان-المدن)، ج4، دار رواد النهضة، بيروت، 1995، ص201.

(1) - سليم مطر، المرجع السابق، ص34.

(2) - نفسه، ص13.

(3) - إبراهيم زعرور، تاريخ الحضارة، دار الملايين، (د.د.ن)، دمشق، 2011، ص41.

به سكان هذه الأقاليم أحياناً من روح إقليمية ضيقة، إذ نادراً ما تقتصر الوحدة على إقليم يسوده التجانس، لذا يتطلب من الوحدة السياسية بذل الجهود لتوسيع وحدتها الجغرافية بين أقاليمها المختلفة، وغالباً ما يقابلها في ذلك مشاكل طبيعية كوجود الجبال أو صحاري أو تباعد أطرافها أو مناطق خالية من السكان أو مشاكل بشرية مثلاً كتعدد النواحي اللغوية والدينية، فضلاً عن المشاكل الاقتصادية⁽¹⁾.

كما يمكن أن نلاحظ الخصائص الطبيعية المحلية للمناطق المختلفة في بلاد الرافدين، فبينما تتنازع المنطقة الشمالية بها حيث الجبال و السهوب وحيث يسود الرعي، تمتد في الجنوب الرمال والمستنقعات في حين تنتشر السهول والأراضي الزراعية الخصبة في الوسط، وبالتالي فقد أثرت البنية الجغرافية لكل من هذه المناطق في التنظيم السياسي فيها، فكل منها يُعد إقليماً له معالمه الجغرافية ومقدراته قبل أن تحتوي عليه الممالك الكبيرة⁽²⁾، ومن هذا الواقع الطبيعي والجغرافي لأقاليم بلاد الرافدين الشمالي والجنوبي قد يكون الاتحاد الجغرافي العام للعراقيين القدماء بهدف المحافظة على وحدتهم.

الإقليم الشمالي: يتكون من الوديان ذات الأهمية بالمقارنة بنهري دجلة و الفرات وفروعهما، وتحيط به من الناحية الغربية سلسلة جبال "الطُورال" الممتدة من بلاد الأناضول حتى الخليج الفارسي ومن ناحية الشرق تحده سلسلة جبال "زاغروس"⁽³⁾.

ومن الطبيعي جداً أن تحتل الأقسام الجبلية إلى الشمال والشمال الشرقي من بلاد الرافدين اهتماماً كبيراً من قبل العراقيين القدماء لكونها مواطن الإنسان الأولى قبل اكتشاف الزراعة، ولأنها أيضاً مناطق وفيرة الخيرات من محاصيل نباتية وأخشاب وحجارة صلبة وحيوانات متميزة، وغير ذلك من مواد ومنتجات لا يجد العراقي نضيراً لها في بيئة وديان الأنهار والسهول الرسوبية لجنوبي العراق القديم، كما تحتل هذه الأقسام الشمالية من الطرق أهمية استثنائية، لأنها تكشف

(1) - عدنان صافي، الجغرافية السياسية بين الماضي والحاضر، منشورات مركز الكتاب الأكاديمي، الإسكندرية، 1999، ص134.

(2) - محمد حرب فرزت و عيد مرعي، دول وحضارات الشرق العربي القديم (سومر وأكاد - بابل و-أمورو وأرام)، ط2، دار طلاس، دمشق، 1990، ص21.

(3) - نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص12.

عن منافذ وممرات توصل إلى أعماق المناطق التي تقع خلفها، لما تحتويه من ثروات وأقوام وتجارب، وبخاصة في بلادي فارس والأناضول⁽¹⁾.

وإذا كانت أولى المستقرات القرى الزراعية البدائية والبسيطة قد نشأت في الشمال الرافدي، إلا أن الظروف الطبيعة العديدة والمختلفة لم تسمح في بدايتها بنمو واستمرار هذه القرى⁽²⁾، بينما وجود أنهار مهمة مثل: ديايي و الزابان الكبير والصغير والخابور و الباليخ، شكلت وحدة سياسية واقتصادية مستقلة عن الوحدات الأخرى، قامت فيها دولة إلى جانب دولة بابل في الجنوب⁽³⁾.

الإقليم الجنوبي: هو إقليم حديث التكوين نسبياً ولم يكن موجوداً قبل الألف الخامس حيث كان جزءاً من الخليج الفارسي أثناء العصر الجليدي وقد تكون هذا الإقليم جراء التراكم المتواصل للرواسب التي كانت تحملها مياه نهري دجلة والفرات، وقد أدى ذلك إلى تكوين منطقة تكاد تكون منبسطة و واسعة شمالاً وجنوباً، ويحدها شرقاً الهضبة الإيرانية وغرباً صحراء العرب أما شمالاً فيحدها الإقليم الشمالي للبلاد⁽⁴⁾، كما كان لحدثة تكوين القسم الجنوبي والأوسط أيضاً في العراق وفقره إلى مواد البناء اللازمة: كالخشب والحجر والمعادن... الخ، أثره في جمع بلدانه تحت راية واحدة؛ لجلب ما يحتاجونه من البلدان والحضارات المجاورة، المتمثلة في بلاد الفرس والهند من الشرق، والفينيقيين من الغرب⁽⁵⁾.

نشأت أولى القرى الزراعية الكبيرة في جنوب العراق القديم، وتحولت مع مرور الزمن وبفعل النمو والتطور وتداخل عناصر عديدة إلى مدن كبيرة، شهدت نمو والخطط في الوقت نفسه نتيجة التفاعل بين البيئة المتمثلة في حركة ومجاري الأنهار على سطح أرضها، والمجتمع من حيث العلاقات السياسية لسكانها، ومع هذا فقد شكّل الجنوب المستوطنة والمجتمع في آن واحد⁽⁶⁾، وعُرف هذا القسم في بداية العصر التاريخي باسم "أرض سومر" الذي يعني نصفه الجنوبي حتى

(1) - رضا جود الهاشمي، أصالة الحضارة العراقية القديمة وتأثيراتها، مج 8، مجلة جمعية المؤرخين والأثريين في العراق، مطبعة الأمة، بغداد، 1990، ص 28-29.

(2) - عمر محمد صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 117.

(3) - محمد أيوب الشناوي، المرجع السابق، ص 111.

(4) - نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 11.

(5) - محمد أيوب الشناوي، المرجع السابق، ص 111.

(6) - Daniel C. Snell, A Companion to the Ancient Near East, Blackwell Publishing, U.S.A., 2005, p 144.

الخليج العربي⁽¹⁾، وفي شأن اتصالاته جنوباً بمنطقة الخليج العربي والأقسام الشرقية من الجزيرة العربية فنتائج التنقيبات الأثرية التي أجرتها البعثات العربية والأجنبية، تؤكد بصورة واضحة للعلاقات التاريخية القديمة والواسعة التي كانت تربط العراق القديم بالخليج العربي، إذ كان للمواصلات المائية الفضل الرئيس في تحقيق الاتصال بينهما⁽²⁾.

وبهذا الشكل يمكن القول أن الحضارة في بلاد الرافدين بدأت في جنوب البلاد ثم أخذت تنتشر تدريجياً باتجاه الشمال، وأخذت ظاهرة سيطرة أي مدينة في الجنوب الرافدي على مناطق واسعة تتكوّن مع ظهور النزعة الإمبراطورية في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، وانتقلت هذه الظاهرة من الجنوب إلى سيطرة مدن معينة في الوسط ثم في الشمال لتحقيق وحدة عامة على المدن⁽³⁾، وبالتالي يبدو أن فكرة محاولة التوحيد قد بدأت من الجنوب متجهة نحو الشمال.

وفي شأن الوحدة بمظاهرها المختلفة فقد أثبتت الدراسات العالمية التي تناولت الربط بين التغيرات البيئية والمناخية وتأثيرها على نشوء وانهيار الإمبراطوريات المهمة⁽⁴⁾، في منطقة السهل الرسوبي الجنوبي للعراق القديم⁽⁵⁾، بعدما كان تأثيرها على تطور المجتمعات، إذ كان لتدهور حالات المناخ، والتغيرات المفاجئة باتجاه الجفاف الأثر الشديد في عرقلة نهضتها ووحدتها⁽⁶⁾.

لو حاولنا في نظرنا معرفة بدايات ظهور الحضارات في بلاد الرافدين والتي سارت نحو عمليات التوحيد بالاعتماد على أقسامها الشمالية والجنوبية (أنظر الخريطة رقم 2)، يمكن الاقتراب من الحقيقة، لكن لا يمكن الجزم على أنها الأصح، فالملاحظ من خلال مشاهدتنا للخرائط أنّ بدايات التمدن في أرض النهرين ومدى إسهامها في توكيد الفعل الوجدوي، نجدها بكثرة في الجنوب، ثم الوسط وأخيراً إلى الشمال.

(1) - محمد عبد اللطيف محمد علي، تاريخ العراق القديم حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، دار الإسكندرية، القاهرة، 1977، ص 12-13؛ أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 28.

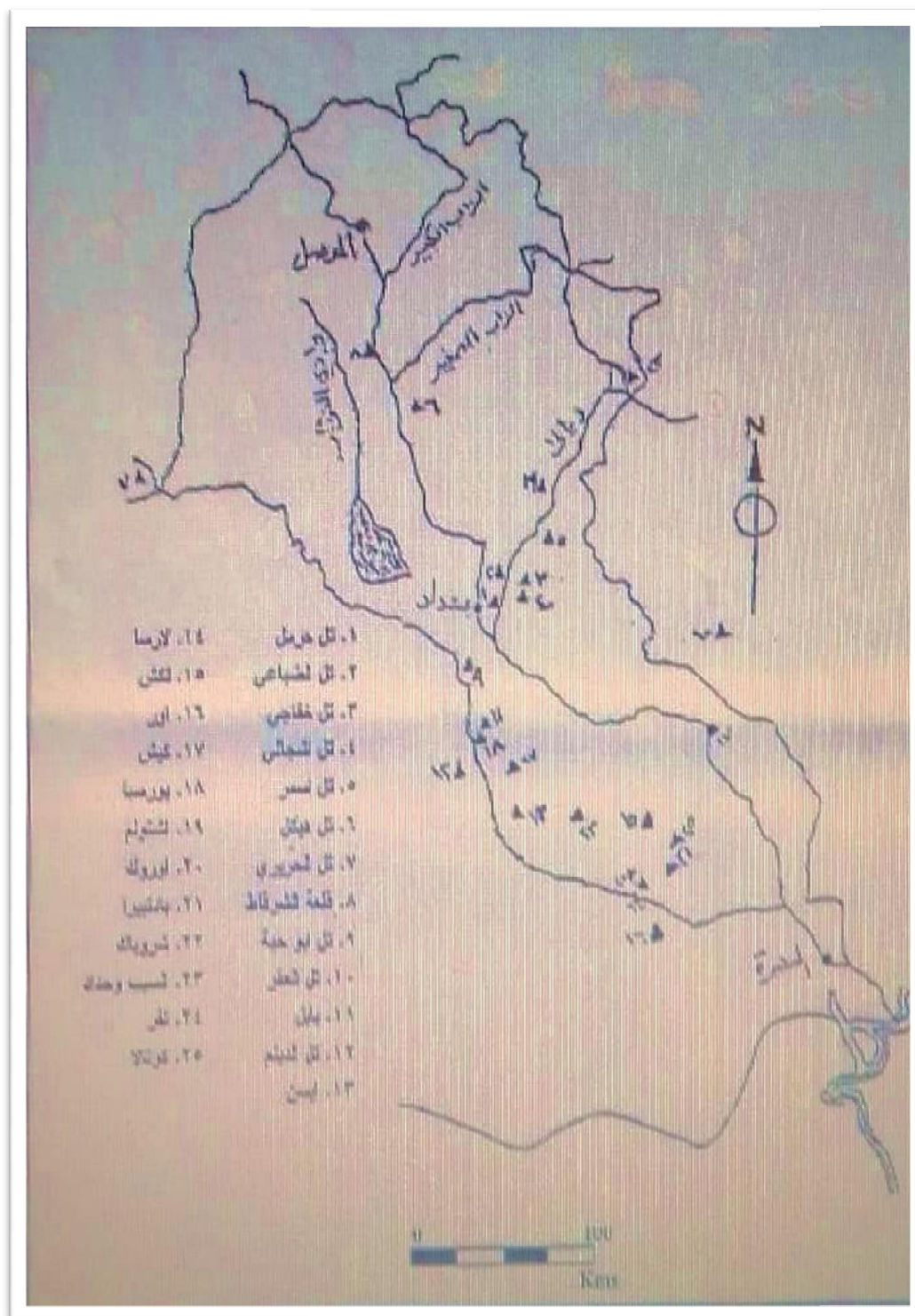
(2) - رضا جود الهاشمي، المرجع السابق، ص 33.

(3) - عمر محمد صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 119.

(4) - بلسم سالم الطّواش وآخرون، التغيرات البيئية والمناخية وتأثيرها على التطور الحضاري خلال وسط إلى نهاية الهولوسين في مدينة بابل، مج 54، ع 1، المجلة العراقية للعلوم، بغداد، 2013، ص 131.

(5) - Guillermo Algaze, *Ancient Mesopotamia in the Dawn of Civilization*, the University of Chicago Press, U.S.A, 2008, p 40.

(6) - بلسم سالم الطّواش وآخرون، المرجع السابق، ص 131.



الخريطة رقم 2: توضح الإقليمين الجنوبي والشمالي من أرض النهرين وتقسيمه إلى

مناطق استقرار عن: رامي عبد الحكيم قاسم العيادي، أفراد القوات المسلحة في عهد الملك حمورابي، مذكرة

ملجستير، جامعة الموصل، بغداد، 2006، ص104.

يتضح مما سبق أن جغرافية بلاد الرافدين تشجع على الانفصال⁽¹⁾، إذ يتبين مما تقدم أن الظروف الطبيعية في بلاد النهرين العليا ملائمة لحياة الإنسان، في حين كانت على العكس من ذلك في القسم الجنوبي، الذي ظلَّ مُغطًى بالمياه إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد، وبالتالي كانت حياة الإنسان غير ممكنة، وأياً كانت الأحوال فإنَّ العراقيين الأوائل والقدماء ناضلوا بدأب ضد الطبيعة، واستطاعوا بتعاونهم ويعملهم الجماعي أن يُدللوا كثيراً من العوائق ويتغلبوا على جملة من المصاعب، ويخطوا خطوة متقدمة في الانعتاق من التبعية للطبيعة⁽²⁾.

يُضاف إلى ذلك تأثير الأحوال الإقليمية على مختلف جوانب الحياة خاصة من حيث طبيعة النظام السياسي الذي يحمي الجماعة، كما توحى لنا مظاهر الأقاليم في بلاد الرافدين بالبحث عن هيكل الحكم ونوع الحكومة (مركزية ولا مركزية) حتى يمارس أصحاب السلطة فيها سياسة الفكر الوجدوي، فاختلاف البيئات والأقاليم داخل الحيز الجغرافي الواحد لبلاد النهرين قد ينتج عنه صعوبة الاتصال بين مناطق السكان ويُشكل في الوقت نفسه عائقاً وتحدياً نحو أشكال التوحد.

4- المناخ:

دراسة المناخ وعناصره والعوامل التي تحكمته فيه مهمة في فهم الأحداث التاريخية وأثرها⁽³⁾، على هذا القطر، وباعتبار أنَّ أحواله المناخية لم تطرأ عليه تغييرات منذ أن استوطن الإنسان السهل الرسوبي في الجنوب ما بين الألف السادس والخامس قبل الميلاد، يمكن وصفه بصورة عامة على أنَّه مناخ قاري شبه مداري تشبه أمطاره في نظامها مناخ البحر المتوسط، ويكون المناخ في المنطقة الجبلية شبيهاً بمناخ البحر المتوسط، حيث الشتاء بارد والثلوج كثيرة والصيف معتدل والأمطار غزيرة، أما منطقة السهوب فتتمتع بمناخ انتقالي بين مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي الحار، وتقل فيها الأمطار قياساً مع المنطقة الجبلية، أما المنطقة الصحراوية والسهل الرسوبي فتتمتع بحرارة شديدة وتقل فيها الأمطار وتكثر الرطوبة النسبية⁽⁴⁾، كما تسود بلاد الرافدين الرياح الشمالية والشمالية الغربية معظم أيام السنة، أما الرياح الشرقية والجنوبية

(1) - نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 13.

(2) - برهان الدين دلو، المرجع السابق، ص 197.

(3) - جابر خليل إبراهيم، المرجع السابق، ص 18.

(4) - تقي الدباغ وآخرون، المرجع السابق، ص 23.

الشرقية فتمتاز بدفئها وكثرة رطوبتها لهبوبها من الخليج العربي، والأهواز، فتصطدم بالرياح الشمالية والشمالية الغربية ويؤدي ذلك إلى سقوط الأمطار⁽¹⁾.

وفي علاقة السكان بالمناخ كان مجتمع أرض الرافدين متكيفاً تماماً مع تعاقب دورة الفصول، إذ بينما تذوب قسوة الشتاء في الربيع وتعقب أمطار الخريف بلاء الصيف، كان المجتمع الإنساني يتحرك تبعاً لحركة المناخ ضمن الجماعة الإنسانية، من خلال الجمع بين الإيرادات الجماعية لمجابهة التقلبات المختلفة، وقد ألقى ذلك المناخ بظلاله على بنية الفكر والشخصية في العراق القديم وطبعها بطابعه⁽²⁾.

وبما أنّ الدراسات المسمارية الخاصة بالمناخ قليلة لا تكفي في الغالب لإعطاء صورة تفصيلية عن الآثار التي أصابت البلاد، فإن الدراسات الأخرى ذات العلاقة بالبيئة، ومنها زيادة الملوحة في أراضي السهل الرسوبي والتخريب الذي أصاب القنوات والجداول قد أثر وبشكل فاعل في الأوضاع الاقتصادية والسياسية للبلاد⁽³⁾، وفي شأن هذا الأخير غالباً ما يُطرح التساؤل حول مدى تأثير المناخ على التقلبات السياسية والتي بدأت فيها الحضارات القديمة تتدرج بدءاً من الولادة إلى النمو ثم الهيمنة⁽⁴⁾.

للإجابة على هذا التساؤل، ربط الكثير من المؤرخين نظرية "تويني" بمناخ بلاد الرافدين حول وجود بيئة تنشأ فيها حضارة، ووجود بيئة مهيمنة على الإنسان يتطلب فيها التحدي والاستجابة، وهو نوع من التأقلم ومحاولة غير مباشرة للانسجام معها، وعادة ما يكون هذا التأقلم نسبياً مع الظروف المتنوعة وهو ما ينطبق على مناخ العراق القديم⁽⁵⁾، حيث كانت البيئة في بلاد النهرين هي المسيطر على الفرد العراقي وليس العكس، فهو نتاج الوحدة المكانية التي كان لها تأثير على الديمومة الزمانية، فالفرد الرافدي عموماً لم يكن في صراع مع بيئته، بل تشكّل وتكيف على نسقها، والتنوع في البيئة الرافدية يستلزم تنوع في بيئته الثقافية والسيكولوجية وصفاته البدنية

(1) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 99-100.

(2) - ثوركليد جاكوبسن وآخرون، المرجع السابق، ص 145-148.

(3) - جابر إبراهيم خليل، المرجع السابق، ص 18-19.

(4) - Stéphanie Anthonioz, Op.Cit, p 7.

(5) - عباس ندى موسى، تأثير البيئة الطبيعية على شخصية الفرد العراقي، ع 40، مجلة ديالي، 2009، ص 8؛ قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 39.

ومورثه الحضاري والاجتماعي وبالتالي لن يكون المجتمع الرافدي على نسق واحد ولن يروا نوعاً واحداً من الإدارة والحكم⁽¹⁾.

كما تركت البيئة الطبيعية ومظاهرها المناخية الحادة والمتطرفة والمتقلبة أثرها على المعتقدات الدينية والسياسية أيضاً، ففي ظل سيادة المعتقدات الدينية يفقد الحاكم السياسي سيطرته على ظواهر الطبيعة أو التحكم فيها، وتصبح خصائصه إنسانية غير مقدسة، بينما تركز سلطته المفوضة إليه من الآلهة، لا في شخصه الإنساني الطبيعي، ولهذا السبب افتقر التاريخ الحضاري للعراق القديم إلى ما ميّز التاريخ المصري القديم، من استمرار نظام سياسي موحد، فحكيمته أنظمة سياسية متعددة ومختلفة ومتباينة، لتُسجل ظواهر الصراع والتغير الدائم وعدم الاستقرار حضورها في مراحل التطور التاريخي المختلفة في بلاد الرافدين⁽²⁾ لِمَا لِعامل المناخ من دور كبير في التحكم في العمليات العسكرية⁽³⁾ بِمُدن العراق القديم، التي لم تخلو من غارات وحروب كانت تجري بينها فتستولي بعضها على بعض وتقضي على استقلالها⁽⁴⁾.

5- الأنهار:

يساهم امتداد نهري دجلة والفرات في العراق القديم من الشمال إلى الجنوب في تجمع السكان حوله للاستقرار، الأمر الذي أدى إلى تظافر الجهود لتكوين مجتمعات على ضفافه، وقد يزيد من توحيد مجتمعاته للاستفادة من هذه الثروة المائية، لما للمنطقة من أهمية من وجهة نظر الدول المحيطة بها والمهاجرة إليها، وقد تكون السيطرة عليه تعنى السيطرة على كامل البلاد وتوحيدها، من هذا المنطلق تشكل مياه النهرين بمصادرها المتنوعة من أمطار ومياه جوفية المحرك الأساسي للنهوض الحضاري والتنموي في مختلف مناحي الحياة، إذ كانت أيضاً من الأسباب المهمة التي دفعت سكان البلاد قديماً إلى تحقيق نوع من الوحدة.

ورد اسم الفرات في النصوص السومرية بلفظ "بروانن-Buranun" أو "بروننا-Buruauna"، و يُرادف ذلك في اللغة الأكادية "برواتي-Purati" أو "بوراتوم-Buratum".

(1) - عباس ندى موسى ، المرجع السابق، ص2.

(2) - عبد الرضا حسين الطعان وآخرون، المرجع السابق، ص54-55.

(3) - هاري ساكرز، عظمة آشور، تر: خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2011، ص377.

(4) - ايج.اى.ايل.ملرش، قصة الحضارة في سومر وبابل، تر: عطاء بكرى، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971، ص7.

"Buratum"، ومنها الصيغة العربية "فراة" التي تعنى الماء العذب⁽¹⁾، كما ذكرت النصوص المسمارية السومرية نهر دجلة باسم "ادجنا-Idigna"، وفي الأكادية باسم "Idiglatum" أو "Idiglat"، ومن هذا الاسم الأخير جاء الاسم العربي "دجلة"⁽²⁾، كما جاء هذا الاسم في اللغة الحورية على هيئة "أوزنح" أو "أرزنخ-Aranzakh"، والمرجح أن اسم دجلة الشائع في الكتابات الأوربية "Tigris" مأخوذ من الكلمة الفارسية البهلوية "Tir-gah-تركاء" التي قيل في معناها أنها السهم، ولعل هذا إشارة إلى سرعة جريان النهر، أو أنه تحريف أو ترجمة لمعنى اسمه العراقي القديم الذي فُسر في المعاجم المسمارية القديمة بأنه النهر الجاري أو السريع⁽³⁾.

ويقترّب الفرات من دجلة أسفل الفلوجة بقليل حتى تبلغ المسافة مابين النهرين في منطقة بغداد نحو 20 ميلاً، ويأخذ وادي الفرات في هذه المنطقة بالارتفاع قليلاً عن وادي دجلة نحو حوالي 7 إلى 10 أمتار، وقد يشكل ذلك ظاهرة في تواجد مشاريع الري محصورة بينهما في العصور القديمة⁽⁴⁾، ويزيد كثيراً نهر الفرات بالطول عن نهر دجلة، حيث يبلغ (2848 كلم)، كما تزيد كذلك مساحة حوضه مع روافده بحيث تبلغ (444000 كم²)⁽⁵⁾، وكان ارتفاع مجرى الفرات عن مجرى دجلة حافظاً لشق القنوات بين النهرين، مما ييسر عملية الري وبالتالي قيام العمل الزراعي بطريقة منتظمة⁽⁶⁾. وقد اتبع جماعة من الباحثين الأثرين تحديد مجاري الأنهار القديمة ولاسيما دجلة والفرات في المناطق الوسطى والجنوبية، فبالنسبة إلى الفرات أمكن تتبع مجراه القديم من سيبار إلى نفر-دهليم

(1) - طه باقر، (الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين...)، المرجع السابق، ص 55؛

Stephanie Dalley, *Myths from Mesopotamia: Creation, the Flood, Gilgamesh, and Others*, Oxford University Press, USA, 1989, p 322.

(2) - عارف أحمد إسماعيل المخلافي، المرجع السابق، ص 12.

(3) - طه باقر، (الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين...)، المرجع السابق، ص 56.

(4) - نفسه، ص 62.

(5) - عارف أحمد إسماعيل المخلافي، المرجع السابق، ص 12.

(6) - نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم "حضارة الشرق القديم (العراق-فارس)"، ط2، ج6، دار المعارف، لبنان، 1967، ص 181.

وتل أبو حطب وشورباك* ثم الوركاء، ومن هذا الأخير إلى منطقة أور** بالقرب من الناصرية، وقد أُبعت هذه الطريقة الأثرية في عام (1953-1954) لمسح بلاد سومر الوسطى، وفي عام (1956-1957) لمسح بلاد أكاد، ومسح منطقة دياي في عام (1957-1958)⁽¹⁾، أما نهر دجلة فيجري بين ضفتين عاليتين، مما أدى إلى إنشاء سدود لتحويل جزء من مياهه إلى الأرض المجاورة، وقد سجل كثير من الملوك عملهم في هذه الناحية⁽²⁾، لاشتماله روافد أكثر من الفرات، إذ يتصل به رافداً الزاب الأعلى والأدنى، ورافد "ردنو" القديم (النهر العظيم حالياً) ونهر دياي الذي يكون معه مثلاً نشأت فيه⁽³⁾ مملكة أشنونا*** القديمة⁽⁴⁾.

وما يجلب الانتباه في نهري دجلة والفرات⁽⁵⁾ اعتماد السكان عليهما في الانتاج الزراعي منذ القدم - نظراً لقلة الأمطار الغير كافية - باعتبارهما شريان الحياة⁽⁶⁾، فقد أضفى العراقيون القدماء عليهما طابع التقديس والتعظيم وصارا يوصفان بالنهرين الأخوين⁽⁷⁾ اللذان ينبعان من جبال

* هو الاسم القديم لمدينة "فارة" الحالية، كانت مقر السلالة التي يُعتقد أنّ الطوفان جرى في عهدها، وقد عُثر فيها وفي الموضع المجاور لها و المدعو "أبو الصلابيخ" على ألواح وثائق تعود إلى نحو 2600/2700 ق.م، وبينهما عدة مئات ألواح تُمثل أقدم صور عن الآداب المدونة بالسومرية - للمزيد أنظر: Jean Bottéro, Op.Cit, p295

** إحدى دويلات المدن السومرية المهمة، تقع بالقرب من الوركاء في محافظة ذي قار، أسسها الملك (ميسانييدا)، عُثر بهذه المدينة على 16 مقبرة ملكية شُيّدت من اللبن، تحتوي على 2500 قبر، وبجوار كل مقبرة بئر... الخ - للمزيد أنظر: قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 125-126؛

Stephanie Dalley, Op.Cit, p330; Marie-Joseph Seux, Op.Cit, p35.

(1) - طه باقر، (الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين...)، المرجع السابق، ص 52.

(2) - نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص 181.

(3) - نفسه، ص 182-183.

*** تل أسمر حالياً، وهي إحدى المدن في محافظة دياي الواقعة شمال بابل، تعتبر من أهم دول المدن التي تنافست على السلطة مع مملكة إيسن عقب سقوط سلالة أور الثالثة في 2004 ق.م إلى غاية سقوطها على يد حمورابي في عام 1793 ق.م - للمزيد أنظر: قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 134؛ Jane R.Mcintosh, Op.Cit, p 328

(4) - Stephanie Dalley, Op.Cit, p 322.

(5) - Dan Nadro, **Life in Ancient Mesopotamia**, Reference Point Press, U.S.A, 2014, p 10.

(6) - أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم "مصر - العراق - إيران"، دار النهضة العربية، بيروت، 1998، ص 213.

(7) - تقي الدباغ وآخرون، المرجع السابق، ص 46؛ طه باقر، (الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين...)، ص 54-55.

الفصل الأول: جغرافية وأساسيات الفكر الوحدوي

أرمينيا في جنوب القوقاز ويصبان في الخليج العربي⁽¹⁾، إذ ظهرت قربه المدن العديدة، وبخاصة على الضفاف النهرية الجنوبية واشتهرت منها مدن (لجش)*-أوروك- إيردو**- نيبور*** ولارسا****- كيش***** وبابل وسيبار*****، وشكلت هذه المدن النهرية نظام متماسك لمجتمع حضاري⁽²⁾. ومن خلال ما تقدم من معلومات وصلنا إلى علة نتائج تصب ضمن أهمية نهري الدجلة والفرات وتأثيره على الفكر الوحدوي تتمثل فيما يلي:

1. إن الطبيعة التكوينية للنهرين هي المسؤولة عن الفيضانات الكبيرة التي كثيراً ما دمرت المدن والقرى وجعلت الإنسان العراقي القديم يخشى فيضانهما المدمرين لكل أشكال الحياة،

(1) George Contenau, *Les Civilisations Ancienne de Proche- Orient*, PU F, Paris, 1945, p 10.

* ظهرت هذه الدولة في منطقة الغراف بين العمارة والناصرية، تعرف حالياً باسم " الحبة"، ومع أنها من أهم المدن السومرية إلا أنه لم يرد ذكرها في جداول الملوك السومريين لعدم اعتراف كهنة معبد الآلهة " إنليل" بها، والذي يعد شرطاً لإضفاء الشرعية على حكم أي سلالة سومرية، وقد عُثر فيها على الكثير من الوثائق المدونة وعلى آثار فنية ومعابد وقصور... الخ، للمزيد أنظر قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 126-127؛ Jane R.Mcintoch, Op.Cit, p 333.

** أبو شهرين حالياً، تقع جنوب أور ضمن محافظة المثنى في جنوب العراق، وحسب ثبتت الملوك السومريين تعتبر من أقدم دول المدن السومرية العتيقة، لكنها ثاني المدن المقدسة بعد نيبور كونها مثلت مركزاً هاماً لعبادة الآلهة " إنكي" - للمزيد أنظر: عبد الحكيم الذنون، (*الذاكرة الأولى...*)، المرجع السابق، ص 57؛ Marie-Joseph Seux, Op.Cit, p 34.

*** تعتبر عاصمة السومريين الدينية، بُنيت على ضفاف نهر الفرات وتقع جنوب شرقي بابل في محافظة القادسية، لم تكن عاصمة سياسية فقط، فقد لعبت دوراً في التاريخ الديني للمنطقة، كما تبين عقب البعثة الأمريكية بها في الأعوام (1899-1900-1948م) بأنها منطقة سكنية تجارية لاحتواءها على سجلات ووثائق تجارية.... الخ- للمزيد أنظر: عبد الحكيم الذنون، (*الذاكرة الأولى...*)، المرجع السابق، ص 53.

**** تل السنكرة حالياً، تقع شمال غرب الناصرية الحالية، و تبعد عنها بحوالي 50 كلم، مثلت من الناحية الدينية مركزاً لعبادة الإله " شمش"، اشتهرت بالعديد من الحروب والانتصار على بعض دول المدن الأمورية خلال بدايات العصر البابلي القديم إلى غابة سقوطها على يد حمورابي أنظر: Marie-Joseph Seux, Op.Cit, p 34؛ Jane R.Mcintoch, Op.Cit, p 333 .

***** من أوائل المدن السومرية ، بقايا آثار هذه المدينة حالياً " تل الأحمير" بالقرب من بابل، وتذكر جداول الملوك أن الملوكية نزلت مرة ثانية بعد الطوفان في مدينة كيش، إذ كان لملوكها دور بارز في عصر فجر السلالات السومرية، و يُرجح من الناحية السياسية نجاحهم في توحيد البلاد خلال القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، كما اشتهرت من الناحية الدينية بعبادة الآلهة " زابابا"... الخ، للمزيد أنظر: قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 124؛ Marie-Joseph Seux, Op.Cit, p 34.

***** تقع مدينة سيبار (أبو حبة) على ضفة الفرات الشرقية (32 كلم جنوب غرب بغداد)، اكتشف المنقبون الآثريون فيها (13000 لوحاً) مكتوباً بالمسمارية، معظمها معاملات تجارية، واحتوت أيضاً على زاقورة مكرسة للإله "شمش" و الإله " أنونيتوم"... الخ- للمزيد أنظر: عبد الحكيم الذنون، (*الذاكرة الأولى...*)، المرجع السابق، ص 53.

(2) - عمر محمد صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 119.

وبذلك وجد نفسه أمام مخاطرها، مما أوحى إليه بضرورة العمل المنظم والمُضني لدرء أثرها، و كان لهذه الجهود المضنية في تطويع العناصر الطبيعية الدور الحاسم في تطوير المجتمعات العراقية القديمة من خلال تخفيف الأرض وإقامة السدود وشق القنوات والمجاري، بل بناء القرى وقيام المدن⁽¹⁾.

2. اعتبر سليم مطر أنّ الوجود الطبيعي لنهر دجلة والفرات هو الذي حدّد ولازلاً يُحدّد ماهية الوجود المادي الحضاري من سدود وقنوات وزراعة ومجتمع موحد ودولة مركزية من أجل السيطرة الكاملة على النهرين وتنظيم ريّهما⁽²⁾، كما نجد الطرح نفسه عند عزمي سكر بأنهما أعانا على توحيد البلاد والتقريب بين أجزائها واجتماع أفرادها على الماء الواحد⁽³⁾.

3. لم ينفرد بهذين النهرين جماعة دون أخرى، ولهذا كانت عناية الباحثين تنصب غالباً على ما يزرع به تياره الدافق من أحداث تاريخية ومادية، فضلاً عن الحديث حول القاطنين على ضفافه ووصف كل ما يتعلق بمقومات حياتهم العامة وخاصة السياسية منها⁽⁴⁾، إذ امتاز النهران بأنهما أقل وحدة من وادي النيل من الناحية السياسية⁽⁵⁾، فكان من بين العوامل الرئيسية لتوحيد البلاد وإنشاء سلطة مُركّزة العمل على تنظيم الري والسيطرة على الأنهار وتنفيذ مشروعات كبيرة على صعيد الدولة لتطوير الزراعة، وتنشيط التجارة الخارجية من أجل تأمين المواد اللازمة كالخشب والحجارة والمعادن⁽⁶⁾، وبالتالي حتمت طبيعة النهرين وحدته الجغرافية⁽⁷⁾.

4. كما يمكن أن نشير إلى أهمية عامل نهر دجلة والفرات في التاريخ القديم، حيث أن جميع الهجرات السلمية والحربية، ظلّت مدفوعة برغبة الاستحواذ على مياه النهرين⁽⁸⁾، فمن يسيطر عليهما من الشمال إلى الجنوب يمكنه تحقيق وحدة كاملة للمنطقة وتوظيف نهريه من الناحية الاقتصادية باعتباره عصب الحياة وفي نفس الوقت كسلاح للمصالح العامة والمختلفة.

(1) - عمر محمد صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 116-117.

(2) - سليم مطر، المرجع السابق، ص 24.

(3) - عزمي سكر، السومريون في التاريخ، ط 1، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1999، ص 20.

(4) - على محمد المياح، الموارد الاقتصادية و وحدة حضارة بلاد الرافدين " ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين "، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 2001، ص 26.

(5) - عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص 2.

(6) - برهان الدين دلو، المرجع السابق، ص 197.

(7) - سليم مطر، المرجع السابق، ص 34.

(8) - نفسه، ص 24.

5. كما شكّلت أيضاً شبكة الأنهار العراقية أحد العناصر المهمة للتمردات أو العصيان من وجهة نظر القانونيين أو ما يطلق عليها من لدن السياسيين بالانتفاضات أو الثورات ولاسيما في العصور القديمة، بسبب طبيعة وسائل المواصلات المستخدمة في العمليات العسكرية لمواجهة مختلف الحركات السياسية أو العسكرية الراضية أو المتمردة⁽¹⁾ على محاولات التوحيد السياسي⁽²⁾ لبلاد النهرين⁽³⁾، إذ يكمن أثر النهرين في هجرات الأقوام الكثيرة والحروب العنيفة واختلاط السكان واتصال الثقافات، وقد تبع ذلك عنف وتدمير وتطور وتبدل في التكوين السياسي والاجتماعي⁽⁴⁾.

في الأخير يبدو لنا أن اشتراك أقطار أخرى في أنهار بلاد الرافدين (دجلة والفرات) هو حقيقة تاريخية كون منابعهما من أراضي أجنبية، فهو لا يخلو من آثار في أحداث تاريخه، وما قد ينجم عن ذلك من ملابسات في أن يكون سبباً للتوسع خارجياً جهة الشمال حيث مصبه وجهة الجنوب حيث تفرعاته، مشكلة ظاهرة الفكر الوجدوي على الصعيدين المحلي والخارجي.

III- التجمعات السكانية:

فيما يتعلق بالسكان وعلاقتهم بمسائل الوحدة، فإنّ التدرج الذي شهده التاريخ من انتقال المجتمعات البدائية التي تحظى بصفة القبلية وتحمل في داخلها عائلات قوية مترامية النفوذ المحلي ومع عملية التصاعد نحو التمدن وظهور الدولة، يبدو أنه رغم اختلاف الأصول والعادات والتقاليد والسلوكات والمعتقدات وطبيعة الأنظمة مع نوع العلاقات القبلية وطبيعة القرابة المحلية، قد اتحدوا نحو التعايش مع مختلف الأجناس والمظاهر الحضارية، إما باستخدام أسلوب تقبل الجماعات والأفراد وتلاحم الشعوب السائدة في المنطقة الرافدية بعضها ببعض كونها النقطة الأكثر محورية أكثر من أسلوب الامتداد العسكري في إطار هذا التباين، لكن قد يكون في إطار علاقات المصاهرة أو في إطار علاقات الإنتاج باعتبارها أطر متداخلة فيما بينها، وبالطبع المؤشر

(1) - ستار نوري العبودي، المرجع السابق، ص 8.

(2) - نخبة من أساتذة التاريخ، العراق في موكب الحضارة "الأصالة والتأثير"، ج 1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1988، ص 222.

(3) - جورج سارتون، تاريخ العلم، تر: إبراهيم بيومي مذكوك وآخرون، ج 1، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص 213.

(4) - طه باقر، (الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين...)، المرجع السابق، ص 50.

الذي قد يعوّل عليه هو علاقات التعامل والتعارف رغم البعد واتساع المساحة، فالاحتكاك يصنع احتضان فئات أخرى في إطار ما نسميه بالوحدة والتي قد تتعداه نحو الخارج.

إن الحديث عن التباين في بلاد الرافدين ومدى إسهامه في تحقيق الوحدة أو عدمها، يجعلنا أمام آراء متناقضة فيما يلي:

أولاً: التنوع الإثني في بلاد النهرين نجده يشكل صراع وتنافساً دموياً وإقتتالياً⁽¹⁾.

ثانياً: التنوع الإثني الموجود في بلاد الرافدين منذ آلاف السنين، قد أنشأ بينهم أواصر الأخوة والمصاهرة وجعلهم موحدين في الحن والأزمات⁽²⁾.

ثالثاً: التركيب السكاني للعراق شكّل هو الآخر أهم عامل من عوامل الوحدة مؤزّع بشكل متداخل حسب عوامل جغرافية وبشرية⁽³⁾.

إن فهم التباين السكاني للمنطقة الرافدية ومعرفة أصولها يساعدنا في فهم مدى امتزاج الشعوب الرافدية ببعضها البعض، وهل يمكن أن يفرز شعباً يتمتع بطابع الوحدة رغم اختلاف الثقافات واللغات والأصول وطبيعة الأنظمة والعادات والتقاليد، حيث شكّل العراق القديم جسراً للهجرات البشرية التي حدثت في أزمنة مختلفة من التاريخ القديم، واستقرت في أرضه عناصر مختلفة منها جزيرية (سامية) ومنها غير جزيرية (غير سامية)، فالعناصر الجزيرية قد سادت فيه خلال معظم أدواره التاريخية، منهم الأكاديون والأموريون والآراميون وغيرهم، فكونوا سلالات حاكمة ما لبثت أن تطورت إلى إمبراطوريات مترامية الأطراف، في حين أنّ العناصر الغير جزيرية كانت تتوغل في أراضيه أحياناً ولا سيما تلك الأقوام الأجنبية التي كانت تقطن الجهات الشمالية والجنوبية الشرقية ومنها الأقوام الجوية والكاشية⁽⁴⁾، وقد تؤثر هذه التحركات التي جاءت في موجات متتالية على حركة تاريخ العراق القديم وتكوينه السياسي وطبيعة فكره، وكان بالطبع لهذه العوامل أثرها في الصراع حول تبني الفكر الوحدوي بالمنطقة.

(1) - أيا عايد والي البديري، التركيب الإثنوغرافي لسكان العراق وتحليل أثره في بناء الدولة وإستقرارها، ع13، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، 2010، ص147.

(2) - نفسه، ص168.

(3) - سلمان خيربي وجعفر حسين، المرجع السابق، ص243.

(4) - محمد أبو المحاسن عصفور، الشرق الأدنى قبل عصوره التاريخية، مطبعة المصري، القاهرة، 1962، ص 76.

1- التجمع السومري:

كان اكتشاف الحضارة السومرية عن طريق الصدفة عندما بدأ المنقبون في الكشف عن حضارة وادي الرافدين، حيث كان الهدف الرئيسي البحث عن بقايا البابليين والأشوريين التي ذكرها الكتاب المقدس والمؤرخين الكلاسيكيين، وقد وجدت العديد من الآثار والوثائق التي تدل على وجود شعب غير معروف سبق وجوده هذين الشعبين، والذي منح المنطقة بُعداً إنسانياً وحضارياً جديداً وهو الشعب السومري⁽¹⁾، الوصف لنفسه في صور تماثيلهم باعتبارهم أناساً ذوي رؤوس سوداء كبيرة، ولحي طويلة، دون شوارب، ويلبسون جلود الأغنام أو أكسية الصوف المنسوج، كما يرتدون التنانير ذوات الحواشي⁽²⁾.

وعند الحديث عن السومريين يصعب مطلقاً إثبات تماسكه الشعبي بين أطرافه لتحقيق أمة متحدة بارزة في التاريخ، إذ يحاول فيها كل طرف أن يسود كامل الوحدات المتفرقة⁽³⁾، لما أعطته حضاراتهم خلال عصرها التاريخي من نهضة قروية ومدينة بالقسم الجنوبي للمنطقة، إذ كان لهذا العنصر الذي نحاول أن نتناول أصوله الدور الفعال⁽⁴⁾ في مجال الاستيطان وبناء المدن العظيمة التي جمعت جماهير كثيرة من الناس والملوك والكهنة⁽⁵⁾، بإقامتها في بضعة قرون العديد من المدن⁽⁶⁾ السياسية وتأسيس نوع من أنظمة الحكم، وقد يُعزى لها الفضل في أنها أمدت الحضارة العراقية القديمة بفكرة تبني مسألة التوحيد بالرغم من فشلها في هذا المجال، ويُعزى السبب في طبيعة المنطقة الجنوبية والفيضانات المدمرة والمتكررة للقرى والمدن، والتي حالت دون نجاح هذا المشروع، ضف إلى ذلك الطرق التجارية، وإحاطة المدن بأسوار، وكل هذا وغيره صعب من المحاولات المتكررة في توحيد البلاد، وبالتالي توحيد المجتمعات، وهذا ما يجعلنا نتساءل دائماً في

(1) Sabatino Moscati, Op.Cit, p 23.

(2) - غلين دانيال، الحضارات الأولى "الأصول والأساطير"، تر: سعيد الغانمي، ط1، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، دبي، 2009، ص91.

(3) - إبراهيم رزقانة وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، دار مصر للطباعة، القاهرة، (د.ت)، ص 269.

(4) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 27.

(5) Harriet Crawford, **The Sumerian World**, Routledge, U.S.A, 2013, p 131.

(6) Sherman Hollar, Op.Cit, p 44.

التاريخ القديم عن أصول هؤلاء السكان الذين حالت بهم الظروف المختلفة في تبني وتحقيق ولو الشيء القليل من مضامين ومشاريع الفكر الوجدوي محلياً وخارجياً⁽¹⁾.

كان اسم سومر يُشير أولاً إلى الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين السفلى، وأُطلق اسم السومريين على الذين كانوا يُشكلون أغلبية سكان هذا الجزء في مطلع التاريخ (أي نحو حوالي 3000 ق.م)، ومن الأرجح أنهم جاؤوا من الجنوب أو الجنوب الشرقي، وأُعطيَ الاسم لتلك اللغة المعزولة التي كانوا يتكلمونها ويكتبونها⁽²⁾.

إنَّ التعمق في أصولهم جعل معظم الدراسات والأبحاث تذهب إلى القول بأنَّ السومريين ليسوا من سكان العراق الأصليين، وإنما هاجروا إليه من منطقة غير معروفة في الوقت الحاضر، في المقابل نجد هناك من يعتبرهم من سكان الأقسام الشمالية من العراق حيث نزحوا منه إلى القسم الجنوبي في شكل جماعات مهاجرة، وذلك بسبب تزايد السكان الذي حدث في الجزء الشمالي أثناء حضارتي سامراء وحلف، والذي أصبح لا يتناسب وكمية المواد الغذائية التي تنتجها المنطقة، فأدَّى هذا التزايد إلى هجرة أخرى⁽³⁾، وإذا كان هذا الأمر من الآراء المقبولة أكثر كونهم من جملة الأقوام المحلية التي كانت تسكنها، وأنَّها لم تأت من خارج القطر، بل إنها نزحت من جهة الشمال إلى القسم الجنوبي في نهاية عصور قبل التاريخ، وما اسمهم إلاَّ مشتق من البلاد التي استقروا فيها، شأنهم في ذلك شأن الأكاديين والبابليين، فهذا الرأي يؤيد الاتصال الحضاري الذي كان موجوداً بين السومريين وأسلافهم من سكان المنطقة المحليين، كما تؤيده الأخبار والمآثر السومرية من آداب وأساطير وشعائر وطقوس ومعتقدات تحمل طابعاً محلياً ليس غريباً عن بيئة بلاد الرافدين⁽⁴⁾، فالمناطق التي سكنتها هذه الجماعات المهاجرة نمت وتطورت وكونت دويلات المدن السومرية المعروفة في التاريخ، وبسبب كون مجيء السومريين إلى القسم الجنوبي قد حدث في فترة سبقت ظهور الكتابة، فإن ما ذكر بشكل قاطع أمر غير ممكن⁽⁵⁾.

(1) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص ص 27-52.

(2) - Jean Bottéro, Op.Cit, p 301 .

(3) - فوزي رشيد، المرجع السابق، ص 25.

(4) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص ص 34-35.

(5) - فوزي رشيد، المرجع السابق، ص 25.

وَلِكون مصدر قدوم هذه الأقوام قد شكّل محل اختلاف كبير بين الباحثين، فالرأي المرجح حتى الآن أنهم نزلوا من المرتفعات الفارسية شرقي دجلة⁽¹⁾، إذ تظهر عليهم صفة البداوة مندفعين مما وراء القوقاز أو من وراء بحر قزوين على مناطق غرب إيران فيما يُعاصر أواخر عصر العبيد وأوائل عصر الوركاء، ونجحوا في اقتباس حضارة بلاد الرافدين التي امتدت منها عبر حدود إيران، ثم استعانوا بما تعلموه منها، فاندفعوا منذ الربع الأخير من الألف الرابع ق م إلى جنوب العراق وسيطروا عليه تدريجياً خلال فترة من فترات حضارة الوركاء، وقد حدثت اضطرابات كانت الغلبة فيها للسومريين فتّم اندماجهم في السكان الأصليين الذين كانوا أرقى منهم وبذلك بدأ العصر الشبيه بالكتابي في العراق بوجودهم⁽²⁾.

وقد تبدو التفسيرات القديمة ذات الطابع العرقي أو القومي (الجنوب سومري والشمال الأكادي) غير مناسبة، بل أيضاً، لا يمكن للتحليلات ذات الطابع السكاني البحث أن تتجاوز ما هو ثابت من اختلاف أو احتمال الهجرات الداخلية من الريف إلى المدينة ومن منطقة إلى أخرى، فعادة ما يفسر خلوّ الأرياف الجنوبية من السكان بعوامل الاضطراب السياسي والعسكري الدائم، ولكن لا ندرك لما لا ينسحب الأمر على الشمال أيضاً⁽³⁾.

2- التجمعات الجزرية:

إن الحديث عن الأقوام الجزيرية، هو ليس حديث عن أصول وجذور حضاراتهم المتعاقبة على المنطقة بالرغم من أهميتها فقط، بل يعتبر مجيئهم بمثابة تغير جذري ونجاح في الواقع الحدودي الذي شهدته المنطقة عبر مراحل التاريخ من خلال تسلم هذا المشعل وانتقاله من سلالة حاكمة إلى أخرى، القديم والأول، فسياستهم التي طغت على المنطقة وعمّرت بها لفترة طويلة، نجحت في التعدي نحو الخارج، بعدما نجحت في التحكم بمختلف السكان المحليين والأجانب

(1) -ملكة أبيض، التربية في الوطن العربي" منظور قومي تاريخي"، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011، ص18.

(2) - عارف أحمد إسماعيل المخلافي، المرجع السابق، ص44.

(3) - ماريو ليفراني، أوروك أولى المدن على وجه البسيطة، تر: عز الدين عناية، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية المتحدة، 2012، ص65.

من خلال اعتماد أساليب التوحيد سواء في طابعه السلمي أو العسكري، ومع أنّ الكفة تُرجح لهم، تأتي هنا أهمية البحث في أصل هؤلاء السكان⁽¹⁾.

أ- الأكاديون:

أكاد اسم مدينة قديمة يُعتقد أنها كانت غير بعيدة عن سيار، وفي النصف الأعلى من بلاد الرافدين الوسطى، وشمل اسم⁽²⁾ الأكاديون فرع من هجرات سامية متتالية تكاثرت أعدادها في بلاد الرافدين والشام قبيل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ثم تشعبت فروع كثيرة فكان منها ما انتشر في بوادي الشام، واتجهت آمال بعض جماعته إلى مناطق الهلال الخصيب، كما اقتربت من المناطق الخصبة في أواسط حوض نهر الفرات ببلاد الرافدين⁽³⁾.

من المحتمل أيضاً أنّ هذه الدفعات الأولى من الساميين قد استقروا منذ عصر ما قبل التاريخ في شمال القسم الجنوبي من بلاد الرافدين، أي في منطقة أكاد، ومن هذه المنطقة تسربوا خلال عصر السومريين وتمرّكزوا في المنطقة بعد ذلك، ولم يتأخروا باللاحق بالمستوى الحضاري للسومريين، حيث أخذوا هناك بتطوير تراثهم الحضاري⁽⁴⁾، خلال الحقبة الممتدة من (2150-2350 ق.م)⁽⁵⁾، إذ يمثلون في رأي الباحثين، واحدة من أقدم هجرات القبائل⁽⁶⁾ الناجحة في توحيد بلاد النهرين في شكل أمة واحدة⁽⁷⁾.

(1) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج1، ص ص 54-141.

(2) - Jean Bottéro, Op.Cit, p287.

(3) - سعيد إسماعيل علي، التربية في حضارات الشرق القديم، مطبعة أبناء وهباء، القاهرة، 1999، ص 114.

(4) - جان بوتيرو، الديانة عند البابليين، تر: وليد الجادر، ط1، منشورات مركز الإنماء الحضاري، بغداد، 2005، ص 25.

(5) - Charles Keith Maisels, **Early Civilization of the Old world-The formative histories of Egypt, the Levant, Mesopotamia, India and China**, Routledge, U.S.A, 1999, p 123.

(6) - فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص 39-40.

(7) - Eliane Lopez, **L'Histoire Des Civilisations**, édit Eyrolles, Paris, 2008, p 41.

ب- الأموريون:

لا يعنى بطبيعة الحال أنّ الموجة الأمورية* هي أولى موجات جزيرة العرب إلى الأقسام الشامية والرافدية، كونها متصلة اتصالاً مباشراً بجزيرة العرب من ناحيتها الشمالية، وانسياب الموجات من جزيرة العرب إلى الأقطار المجاورة لها في الشمال والجنوب تمثل مرحلة بعينها، فقد كان في الأنحاء المقصودة للهجرة سكان وعمران، بالتالي يُعتقد أنّ الأموريين جاؤوا من شمال جزيرة العرب إلى بادية الشام⁽¹⁾، ثم أخذوا يتسربون منها إلى بلاد الشام وأرجائها الشمالية(ماري) وحوض الفرات، وكان هذا الحوض مركز تكتلهم، ومنه تدفقوا نحو بلاد الرافدين⁽²⁾، لذا أطلق عليهم بعض الباحثين الغربيين العصر الأموري لانتشارهم في شمال سوريا وبلاد النهرين على شكل دول ومجموعات اجتماعية مختلفة جداً بدلاً من مصطلح الفترة البابلية القديمة⁽³⁾، إذ كانوا يتدفقون عبر سهول بلاد الرافدين المفتوحة، فاستولوا على المدن، وقتلوا حكامها المحليين⁽⁴⁾، مستغلين الوضع السياسي المتمثل في انفصال العديد من دويلات المدن واستقلالهم عن سلالة أور الثالثة قبل نهاية عهدها ووحدتها⁽⁵⁾.

* أطلقت التسمية قديماً على القسم الشمالي من بلاد الشام وعاصمته ماري، حيث وسّع البابليون لاحقاً مدلول هذا الاسم فصار يشمل بلاد الشام، المعروفة قديماً باسم "بلاد أمورو" نسبة للأموريين أو العموريين وبأنّ أصلهم عرب، وقد أُطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى جدّهم الأكبر "عمرو" الذي يُكتب بالأبجدية المسمارية "أمرأ" أو "عمرا" و"أمرو" أو "عمرو" للمزيد أنظر: فاطمة جود الله، سوريا نبع الحضارات، ط1، دار الحصاد، دمشق، 1999، ص67.

(1) - يطلق الباحثون المحدثون أحياناً اسم الكنعانيين الشرقيين على الأقوام الأمورية تمييزاً لهم عن الكنعانيين الغربيين الذين استقروا في الساحل السوري باعتبار أنّ كل من المجموعتين تنتميان إلى مجموعة رئيسية واحدة، تفرقت عند هجرتها فاستقر بعضها في بلاد الشام واتجه البعض الآخر إلى بلاد الرافدين-للمزيد أنظر: محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ص73؛ طه باقر(الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين...)، المرجع السابق، ص 442.

(2) - محمد عزة دروزه ، تاريخ موجات الجنس العربي ودولها ومآثرها في بلاد الشام"سوريا ولبنان والأردن وفلسطين قبل الغروية الصّريحة"، منشورات المكتبة العصرية، بيروت،(د.ت)، ص256.

(3) - Piotr Michalowski, *the Correspondence of the kings of Ur* ,Eisenbrauns, U.S.A, 2011, p 82.

(4) - Geoff Simons, *Iraq – From Sumer To Saddam*, Second Edition, Macmillan Press LTD , London, 1996, p 120.

(5) - Saggs , H.W.F , *The greatness that was Babylon- a sketch of the ancient civilization of the Tigris-Euphrates Valley*, Hawthorn Books, U.S.A ,1962, p61.

وُصِفَ الأموريون (البابليون) بالبداوة واعتبروا رعاة وأصحاب قوافل في الوقت نفسه، والتنقل في الصحراء والتسلل إلى بلاد الحضر ونقلهم البضائع⁽¹⁾، فضلاً عن ترحالهم من مكان إلى آخر⁽²⁾، الأمر الذي جعل أحد شعراء السومريين والذي عاش قبل عام (2000 ق.م) حين كان الأموريون يحتلون⁽³⁾ بلاد بابل⁽⁴⁾ يقول معبراً عن انتقالهم من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار بصورة شعرية:

بالنسبة للأموري السلاح هو رفيقه، فلا يعرف الخضوع.
وهو يأكل لحماً غير مطبوخ، وفي حياته كلها لا يملك بيتاً.
وهو لا يدفن رفيقه إذا مات، (والآن) مارتو يملك بيتاً...
(والآن) مارتو يملك حبوباً⁽⁵⁾.

ويُضيف فليب حتي أيضاً عن الأموريين أنَّ حياتهم البدوية كانت تعتمد على الحمار، لأنَّ الجمل كحيوان مدجن لم يكن استخدامه شائعاً⁽⁶⁾، أي أنَّ السومريين نظروا إلى الأموريين نظرة دونية⁽⁷⁾، مُعتبرينهم شعوباً بربرية قاسية لا تعرف معنى الحضارة⁽⁸⁾، وتورد أسطورة الإله "مارتو-Martu" الوصف التالي عن الأموري بأنه "ساكن الخيمة يصارع الرياح والمطر، هو الذي يُنقَّب عن نباتات الأرض عند سفح التل، وهو الذي لا يعرف كيف يُحنى ركبتيه (لِيُبدي

(1) – Marguerite Rutten, **Babylone**, Presses Universitaires de France, Paris, 1958, p 19; Sabatino Moscati, Op.Cit , p 71 .

(2) – نخبة من العلماء، الموسوعة الأثرية العالمية، تر: محمد عبد القادر، مر: عبد المنعم أبو بكر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص101.

(3) – فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تر: جورج حداد، مر: جبرائيل جبور، ج1، دار الثقافة، بيروت، 1951، ص71؛ Sabatino Moscati, Op.Cit, p 71 .

(4) – Marie-Joseph Seux, Op.Cit, p33.

(5) – فيليب حتي، المرجع السابق، ص71؛ Jane R.Mcintoch, Op.Cit, p 334 ; Sabatino Moscati, Op.Cit, p 71 .

(6) – فيليب حتي، المرجع السابق، ص71.

(7) – Morten Braten, **Ancient Kingdoms – Mesopotamia**, published by Wizards of the Coast, Canada, 2004, p 14.

(8) – علي جاسم آل ثاني، الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ "صلات دلمون بأمورو و بالأموريين"، ط1، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1997، ص93.

الاحترام للسلطة)، والذي يأكل الطعام دون طهي، إنّه ذلك الشخص الذي لم يكن له بيت طول حياته، والذي ليس له مدفن عند مماته"⁽¹⁾.

لكنها في الأصل نظرة شمولية أطلقها سكان بلاد الرافدين على كل من دخل بلادهم من الأجانب حيث لا تعكس الحقيقة، كونهم شعوباً بدائية⁽²⁾، إذ يمتاز الأموري أيضاً "بطول قامته، والرشاقة" وقد وصفه معاصروه بأنه "قوي كالسندان، لا تراه إلا شاكّي السلاح، فظ غليظ القلب وشجاع"⁽³⁾.

ج- الأشوريون:

لم يكن أسم آشور معروفاً في القسم الشمالي من العراق قبل الألف الثالث قبل الميلاد، بل كان يطلق على السكان القاطنين في المنطقة اسم "سوبارتين"، بينما يطلق على البلاد اسم "سوبارتو"، وعند مجيء الأشوريين إلى المنطقة غلب اسمهم ونفوذهم على البلاد، فانصهر السوبارتيون مع الأشوريين⁽⁴⁾، الذين ذكروا في المصادر الآرامية والعبرية باسم "أثور" وفي المسمارية باسم "مات آشور"، بمعنى بلاد آشور، كما أوردت مصادر أخرى أشكالاً هجائية متعددة للكلمة مثل "أش شر" أو "أشوار" أو "أشر"⁽⁵⁾، وقد يدل مصطلح بلاد "أشور-Assyrien" في الاستخدام اللغوي على إطار جغرافي تاريخي، يُشكل جزء من موطن حضارات الشرق الأدنى القديم، ويشكل محدد جزءاً من بلاد الرافدين القديمة، لكن في القرن الأول اتسعت الدلالة الجغرافية للمصطلح وصار يشمل القسم الجنوبي حتى الخليج العربي أيضاً⁽⁶⁾، وقد يكون في اعتقادنا أنّ الامتداد الجغرافي قد كان تبعاً لمدى السلطان السياسي لهذا الإقليم، ومما يدعم نظرتنا

(1) - William j.Hamblin, **Warfare in the Ancient Near East to 1600 BC**, Routldge, U.S.A, 2006, p 155; Bill T. Arnold, **Who were the Babylonians**, Brill Academic, Leiden, 2005, p37.

(2) - علي جاسم آل ثاني، المرجع السابق، ص 94.

(3) - عباس علي الحسيني، **مملكة إيسن بين الإرث السومري والسيادة الأمورية**، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2004، ص 34.

(4) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 94.

(5) - حسن محمد محي الدين السعدي، **في تاريخ الشرق الأدنى "العراق-إيران-آسيا الصغرى"**، ج 2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، ص 157.

(6) - إيفا كانجيك/ كيرشبادوم، المرجع السابق، ص 9.

امتداد النهرين من شمال بلاد آشور مروراً بالمنطقة بعينها ثم نحو الجنوب قد ساهم هو الآخر في امتداد وتوحيد هذه الرقعة.

يعرف موطنهم اليوم باسم قلعة الشرقاط⁽¹⁾، وتضم منطقة الأرض الممتدة على طول نهر دجلة الأوسط، وكانت حدودها الشمالية ممتدة من الموصل حيث سفوح الجبال لتصبح سهلاً، وأما جنوباً فقد امتدت إلى مسافة مئة وثلاثين ميلاً شمال غرب بغداد، في منطقة ينساب فيها نهر دجلة خلال سلسلة من التلال تُدعى جبل "مخول" غرب دجلة، وجبل "حميرين" إلى الشرق، ويقع إلى غرب دجلة سهل واسع (عبارة عن هضبة منخفضة من الحجر الكلسي) يدعى منطقة الجزيرة، حيث هناك سلسلة جبلية تُدعى سهل سنجار في نهايتها الشمالية، وتمتد منطقة الجزيرة دون تقاطع شرقي غربي حتى نهر الخابور، وفي هذا السهل المفتوح أمام البدو الرُّحَّل من جهة الصحراء السورية كان امتداد الآشوريين في وقت من الأوقات يعتمد على القوة العسكرية⁽²⁾.

من الصعوبة أيضاً على الدارس لحضارة وادي الرافدين أن يفصل التاريخ السياسي عن التاريخ العام لهذه الحضارة، نظراً للتماثل الكبير بين مختلف المظاهر الحضارية لهذا البلد، لأن دراسة الحقبة المبكرة من تاريخ الآشوريين تشكل ضرورة ملحة من أجل استيعاب أصولها الأولى، غير أن دراسة هذه الحقبة تصطدم بعقبات كثيرة، فعلى العكس من الجنوب الذي وصلنا منه كتابات غزيرة سواء نصوص تاريخية (قوائم ملوك، كتابات ملكية، نصوص نذرية)، أو نصوص أدبية (أساطير، ملاحم، مراثي، أدب مدرسي)، أو نصوص قانونية مثل (العقود الاقتصادية، عقود زواج، نصوص إصلاحات)، أو نصوص دينية (تراتيل، أدعية، قوائم بأسماء الآلهة)، وهي بدورها تقدم مادة غنية للباحث في العصور المبكرة، وربما قد يعود غياب النقوش والتماثيل الآشورية إلى عدم معرفة السَّكان بالكتابة، لكن محاولة الاعتماد على المادة النصية القادمة من الجنوب لمعرفة تاريخهم مخيبة للآمال، فالوثائق السومرية لا تقدم لنا معلومات ذات شأن، ولا يمكن من خلالها رسم حتى تصور

Marie-JosephSeux, Op.Cit, p 33 .

—(1)

(2) — هاري ساكز، (عظمة آشور...)، المرجع السابق، ص 8.

أولي عن هذه المنطقة⁽¹⁾، ففي هذا الصدد تصف القوائم الملكية حكامها: "بالمملوك الذين عاشوا تحت الخيام"⁽²⁾.

د- الكلدانيون:

نجد في العهد القديم عبارات تقترح الأصل المشترك والبلد الواحد للسبئيين* والكلدانيين على أنه بلاد اليمن، ما نصه⁽³⁾ ((14) أَنَّ رَسُولًا جَاءَ إِلَى أَيُّوبَ وَقَالَ: [البَقْرُ كَانَتْ تَحْرُثُ وَالْأُثْنُ تَرْعى بِجَانِبِهَا 15 فَسَقَطَ عَلَيْهَا السَّبْيِيُّونَ وَأَخَذُوهَا وَضَرَبُوا الْغِلْمَانَ بِحَدِّ السَّيْفِ وَنَجَوْتُ أَنَا وَحَلِي لِأَخِيرِك]. 16 وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذْ جَاءَ آخَرُ وَقَالَ: [نَارُ اللَّهِ سَقَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْ الْغَنَمَ وَالْغِلْمَانَ وَأَكَلَتْهُمْ وَنَجَوْتُ أَنَا وَحَلِي لِأَخِيرِك]. 17 وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذْ جَاءَ آخَرُ وَقَالَ: [الْكِلْدَانِيُّونَ عَيْنُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ فَهَجَمُوا عَلَى الْجِمَالِ وَأَخَذُوهَا وَضَرَبُوا الْغِلْمَانَ بِحَدِّ السَّيْفِ وَنَجَوْتُ أَنَا وَحَلِي لِأَخِيرِك]]⁽⁴⁾.

يُستشف من هذا النص الصريح بأنّ مراع الكلدانيين كانت على مقربة من تلك التي للسبئيين، وإذا كان المعروف أنّ السبئيين هم سكان اليمن، فهل الكلدانيون كانوا يقطنون جنباً إلى جنب مع السبئيين في بلاد العرب الجنوبية؟ أم أنّ السبئيين كانوا يقطنون إلى جانب الكلدانيين في

(1) - أسامة عدنان يحيى، بلاد الرافدين في عصر فجر السلالات، مجلة كان التاريخية، ع6، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2009، ص 50.

(2) - هورست كلينكل، حمورابي وعصره، تر: محمد وحيد خياطة، ط1، دار المنارة للدراسات والنشر والترجمة، دمشق، 1990، ص134.

* يُعد السبئيون من أهم ممالك اليمن، بل والعمود الفقري لتاريخ الجنوب العربي، وما باقي الدول التي ظهرت معاصرة لها، ما هي إلا تكوينات سياسية انفصلت عنها أحياناً واندمجت فيها أحياناً أخرى، مثل دولة معين وقبتان وحضرموت، أو اتحدت معها لتكون دولة واحدة مثل دولة حمير، أما في شأن عاصمتها فتعرف بسد مأرب، وتذكر المصادر العربية أنها سُميت بهذا الاسم نسبة إلى (سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)، وفي شأن مصطلح سبأ فينسب إلى عامر، إذ لُقّب بهذا الاسم لأنه أول من سبى السبايا....الخ- للمزيد أنظر قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص298-299.

(3) - سامي سعيد الأحمد، المدخل إلى تاريخ اللغات الجزرية، منشورات إتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1981، ص5.

(4) - سفر أيوب، (1: 14-15-16-17).

التخوم الشمالية لجزيرة العرب؟ وهناك من لا يتحمس لأي من النظرتين، وتبدوا الأولى أكثر عقلانية، فمن جزيرة العرب خرجت أغلب الموجة الكلدانية في وقت قد يصعب تقريره⁽¹⁾.

وإذا ما أردنا أن نقرب من تحديد للمكان الذي اندفع منه هؤلاء القوم، فهناك وجهتان للنظر في هذا الخصوص، تنصب الأولى في كون الجنوب الغربي من جزيرة العرب (اليمن) المنطقة التي هاجر الكلدانيون منها، سائرين على طول البحر العربي وداخلين الخليج ومستقرين مدة طويلة على ساحله، حيث طغى هذا العنصر على المنطقة كلها، حتى شاع اسمهم في الخليج العربي فسمي البحر الكلداني (Tami-Ti Sa Mat Kaldi)⁽²⁾، أما وجهة النظر الثانية للباحثين فتعتمد على الأدلة الكتابية الكلدانية التي تشبه حروفها الحروف العربية القديمة (حروف المسند)، واستدلوا من ذلك على أن هؤلاء المهاجرين الذين ربما كان أصلهم من عمان هاجروا إلى ساحل الخليج، ثم انتقلوا منه إلى بلاد الرافدين، ونقلوا معهم خطهم القديم، إلا أنهم تركوه نظراً لتأثرهم بالثقافات المتواجدة هناك⁽³⁾.

كان ظهورهم لأول مرة في العراق القديم حسب بعض الباحثين في نهايات العصر البابلي القديم في عهد الملك "شمسو-إيلونا"⁽⁴⁾ خليفة همورابي، ويُعتبر استقرارهم في بلاد الرافدين بمثابة نواة لعصر جديد أطلق عليه الباحثون (عصر الإحياء البابلي)⁽⁵⁾.

ويستدل على بلاد كلدوا (الكلدانيين) من نصوص الألف الأول قبل الميلاد، إذ كانوا يعيشون في جنوب وغرب بلاد بابل على امتداد نهري دجلة والفرات حتى سواحل الخليج العربي (الخليج الكلداني)، نسبة إلى بلاد كلدوا، وتشير المصادر عن وجود قبائل كلدية أكبرها بيت "داكوري" الواقعة إلى الجنوب من بورسيبا* بالقرب من بابل، وبيت "أموكاني" أو "أموقاني" إلى

(1) - سامي سعيد الأحمد، الدولة الكلدانية زمن الملك نابولاصر و نبوخذنصر، ع29، مجلة المؤرخ العربي، الأمانة العامة للاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1976، ص 255-256.

(2) - حياة محمد إبراهيم، نبوخذنصر الثاني (604-604 ق م)، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983، ص 34.

(3) - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، ج1، بيروت، 1993، ص 568.

(4) - عبد الحكيم الذنون، التشريعات البابلية، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 1992، ص 107.

(5) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 154.

* تعرف أيضاً باسم بئر نمرو، تقع جنوب بغداد وعلى بُعد 20 كلم جنوب الحلة، كانت من أهم المراكز الدينية لعبادة الإله "نابو" للمزيد أنظر: Marie-Joseph Seux, Op.Cit,p34

الجنوب منها، وبيت "ياكين" * على ضفة نهر دجلة نحو الشرق وبمحاذاة عيلام، فضلاً عن بيت "شعالي" وبيت "شيلاني"، حيث وَرَدَ ذكرهم كشعب (LuKaldu) و كَأَرْضٍ أو بلد (Kur Kaldu)، و بصيغة (PihatUruKaldu)، واستقر الكلدونيون مع البابليين والآراميين **. وَمِنْ ثَمَّ تحالفوا معهم ضد الوجود الآشوري، وقد أَكَّدَت الدراسات أنهم ليسوا بدواً بدلالة استقرارهم في أكبر المدن الجنوبية مثل "كوئي" ***، "كيش"، "نيبور"، و"سيبار" وغيرها، كما تشير النصوص والمشاهد الفنية أنهم استقروا في مناطق تكثر فيها بساتين النخيل والنباتات حيث الأهوار والمستنقعات وامتحنوا الزراعة وتربية الحيوانات والماشية والأغنام، فضلاً عن سيطرتهم على طرق التجارة التي تمر عبرها الأخشاب والعاج وغيرها من المواد، فكل هذا أدى إلى ثرائهم بدليل فخامة الإتاوات المدفوعة للآشوريين، وقد أصبحوا ذوي سمة بابلية حاملين أسماء مشابهة لهم، فضلاً عن مشاركتهم في الحياة السياسية البابلية مع الاحتفاظ بتركيبتهم وهويتهم المميزة، بإشاراتهم إلى القبائل على أنها بيت "عائلة" برئاسة شيخ أو زعيم وقد يدعو أحياناً نفسه ملكاً، ويشار إلى القبائل على أنها بيت فلان مثل "بيت ياكين"، وإضافة إلى ذكر اسم الجد للعشيرة أو القبيلة بذكر الاسم أي اسم الأب والجد لقبيلة ذلك الشخص كما يشار في سلالة "مردوخ-ابلا-ادنا الثاني" الجد الأول لبيت "ياكين" مثل "نبو-زير-كيي-ابن مردوخ-ابلا-ادنا الثاني" وليس "نبو-زير-كيي-ليشر ابن ياكين" في الرسائل والحوليات الملكية الآشورية، والقبيلة متحدة تحت زعامة قائد، وكان زعماءهم يُسمَّون "رسانو"، وكان الحاكم المستقل غالباً ما يسمى

* اسم مجموعة قبلية كلدانية كبيرة في جنوب بلاد بابل، كان ينتمي إليها "مردوخ ابلا ادنا" أنظر: نيكولاس بوستغيت، حضارة العراق وأثاره "تاريخ مصور"، تر: عبد الرحيم الجليبي، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 1991، ص128.

** ورد أول ذكر لهؤلاء الأقوام في الكتابات الآشورية التي تذكر بأن مجموعة من القبائل أطلق عليها اسم "الأخلامو" قد قامت بعبور نهر الفرات واتجهت إلى تخوم بلاد آشور، وهم من الشعوب الجزيرية التي استوطنت مناطق الصحراء السورية في البداية بعد نزوحهم من شبه الجزيرة العربية في الألف الثالث قبل الميلاد، إذ كانوا في بداية حياتهم بدواً منتظمين في قبائل تنتقل في بوادي الشام ومنطقة الجزيرة في بلاد النهرين، وهناك تحضروا تدريجياً، كانت لغتهم الآرامية تكتب بأبجدية مشتقة من الفينيقية، و شيئاً فشيئاً حلت لغتهم محل اللغة الأكادية- للمزيد أنظر: قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص259؛ محمود شاكر، المرجع السابق، ص245؛

Jean Bottéro, Op.Cit,289 ; Jane R.Mcintoch, Op.Cit, p 321.

*** المقصود هنا "تل إبراهيم"، وهي مدينة تقع بالقرب من كيش شمال بلاد بابل- أنظر عدنان مكي عبد الله، المرجع السابق، ص50؛ نيكولاس بوستغيت، المرجع السابق، ص129.

بابن فلان إضافة إلى ذكر اسم الجد لقبيلته مثل "ابن اموكاني وابن داكوري وابن ياكين أو ابن شعالي أو ابن شيلاني" أو تحمل أسماء الملوك الحكام المحليين القبليين الكلدانيين المهمين مثل "شمش ابن حاكم بيت داكوري"⁽¹⁾.

كما أوردت النصوص الآشورية تسمية "شيخ بيت ياكين مردوخ -بلا- ادنا الثاني" يملك أرض البحر قبل أن يستولى على العرش البابلي، وقد يُطلق عليهم ملوك بلاد كلدوا، وهو ما يعني لدينا أنهم كانوا منقسمين إلى مجموعات قبلية يشكلون بها وحدات شبه متمتعة بحكم ذاتي داخل الدولة، وأثبتت المصادر صعوبة حكم الآشوريين لبلاد بابل وإبقاء سيطرتهم على الكلدانيين على الرغم من أنهم قدموا الولاء لهم، وبالتالي فأصلهم يحيطه الغموض نظراً لتعدد آراء الباحثين بشأنهم⁽²⁾.

إذن تمثل الظروف البيئية عاملاً أساسياً في بناء وتشكيل أنواع من الانقسام والوحدة، وضمن هذا النطاق تمتعت بلاد الرافدين بظروف طبيعية ملائمة جعلتها محط أنظار للعديد من الهجرات الجزيرية وغيرها، وقد ساعدها في ذلك تواجد النهرين اللذان شكلا عامل جذب فكانا الأساس خلال تلك المرحلة للحياة المستقرة كبداية للتوحد، والجدير بالذكر فإن الأقوام التي تنشأ الاستقرار وبناء القرى والمدن قد تجعل فيما بينها نوع من الجذب نحو التوحد.

دراسة الموقع الجغرافي لبلاد النهرين، ليس المقصود منه التحديد المجرد الذي يربط بين أرضه كوحدة سياسية وبين معالم معينه، أو مرتبطة بتحديدات فلكيه أو وصفيه، وإنما الجغرافية السياسية تهدف من وراء هذا التحديد أو الوصف إلى إبراز القيمة الفعلية للموقع كعامل وحدوي، يوجه سياستها باتجاهات معينه، ويؤثر في قوتها وفي الكيفية التي تكون عليها مصالحها، وفي الدور الذي يمكن أن تمارسه على الصعيد الخارجي، إذ يبدو لنا أن موقعه كان ولا يزال مهدداً أكثر من جيرانه وفي فترات تاريخية طويلة، لذلك فقد تُشكل الموجات المتوالية من مختلف دول الجوار سواء من السكان أو الرّحل البدو أو مختلف الأقوام المحيطة عائقاً وحدويا.

(1) - أحمد زيدان الحديدي، الصراع الآشوري مع القبائل الكلدانية على السلطة في بابل، ع50، مجلة آداب بلاد الرافدين،

بغداد، 2008، ص1.

(2) - نفسه ، ص1-2.

يصنع أيضاً كل من الموقع الجغرافي والأنهار نوعاً من الوحدة كما تعطي لهذا البلد شخصيته المميزة وتحدد مكانه بين الدول المجاورة، إذ تلعب عوامل الأنهار والمناخ والموارد الطبيعية والبشرية والتركيب السكاني في خلق شخصية متوافقة وموحدة، وفي المقابل يمكن أن يشكل موقع بلاد الرافدين صراعاً مستمراً بين الشعوب المستقرة فيه والوافدة إليه، وهو ما قد يخلف أثراً واضحاً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن النواحي الأخرى خاصة الإثنولوجية الناتجة عن تعدد السلالة والعروق، وهو ما يعني أن المظهر الطبيعي والموقع الجغرافي والحوادث التاريخية، هي عوامل قد تؤثر في جعل هذا القطر أرضاً خصبة للصراع من أجل التوحد.

ومن دراسة الأبعاد الجغرافية لإقليمه، وانعدام التناظر بين الشمال والجنوب قد يساهم في فتح مجال للاختلافات والصراعات بين سكانه وأقاليمها، وفي الوقت نفسه، يمثل دعوة إلى التحدي الداخلي الذي من شأنه أن يُفرز إقليماً معيناً يصنع الوحدة على مختلف الأقاليم.

وفي شأن الأنهار قد تفرض على المجتمع توحيد الجهود وتكاثف الجماعات للقيام بمشاريع ضخمة تدرأ أخطار الفيضانات وتستفيد من مياهها، كإقامة السدود والخزانات وشق الترع والجداول، وطبيعي أن تكون هذه المشاريع بحاجة إلى إدارة وقيادة مركزية حازمة، تسيطر على الجهود وتنظم وتوجه العمل لخدمة الجماعة وفق خطط معينة، وبالتالي تكون للأنهار الفاعلية في ظهور الإدارات المركزية كنواة لأولى الحكومات ثم أنظمة الحكم الحدودية.

يؤدي التوحيد في إطاره العام إلى إحداث تداخل تاريخي واجتماعي بين بلاد النهرين من جهة والشرق الأدنى من جهة أخرى، ويتبدى هذا التداخل بالتفاعل سياسياً واجتماعياً واقتصادياً بين أروماته، إذ يلاحظ أننا أمام وحدات اجتماعية متعددة تحاول التفاعل مع محيطها الطبيعي ومع باقي دول الجوار، وقد يحدث التأثير المتبادل بين المجتمعات البشرية السومرية والأكادية والبابلية والآشورية والكلدانية وبيئاتها الطبيعية سعي تلك المجتمعات منذ ظهورها إلى التفاعل مع بيئاتها وتصعيد سيطرتها على ظواهرها الطبيعية قدر الإمكان، لاستغلالها في تطوير سياساتها، لما للبيئة من تأثير سبلي وإيجابي على الوحدة.

ثم إن الحضارات القديمة القريبة من بعضها البعض قد تؤدي لا محالة داخل الحيز الجغرافي إلى إحداث صراعات وصدمات دموية قائمة على حشد الجيوش واحتلال الأراضي وهدم الأسوار وإحراق المدن وإسقاط الممالك ونهب الممتلكات وسبي الأهالي بالقتل والنفي والتشريد نزولاً عند

تطلعات ورغبات الملوك المحليين، وفي مقابل ذلك فإنّ الصراع الذي كان يحدث بين الشعوب بمثابة نوع من الاستمرارية في فرض الوحدة باعتباره أحد نتائج الصراعات وما تحمله من انعكاسات، وقد يحدث أن تتعاون الحضارات بحسب تقدمها وتطورها فتفرز وحدة معينة، أو تتقدم الحضارة المتطورة جدا لتضمها تحت لواء الوحدة مراعية الخصوصيات الثقافية والدينية.

خلاصة القول، يسبب الجانب الجغرافي لبلاد الرافدين كما أشرنا سلفاً سبباً في تعرضها للكثير من العنف والخراب، بسبب موقعه الجغرافي ونهره وإحاطته ببلدان طامعة في خيراته، مما جعله يتعرض دائماً للاجتياحات وعمليات التخريب، فهو من أكثر بلدان الأرض في احتوائه على عواصم ومدن حضارية، ومحل أطماع إلى يومنا هذا، وبالتالي فإن سرّ عظمة بلاد الرافدين حتى عصرنا تكمن في موقعه الاستراتيجي في " وسط منطقة الشرق " جعلته أخطر وأعرق مناطق العالم منذ فجر التاريخ وحتى اليوم، لما لهذا البلد من أهمية في مجال الوحدة عبر التاريخ.

الفصل الثاني:

السياسة الوحدوية وتحدياتها

يبدو أن الأمم الرافدية القديمة ليست كغيرها من الأمم، بحيث نجد لها مقومات كفيلة بوحدتها كنا قد أسلفنا ذكرها، إذ بينا ما للموقع الجغرافي بأقاليمه والمناخ والأنهار من فاعلية في رسم الوحدة داخل المنطقة، لكن بعد عرضنا لأصول سكان بلاد الرافدين التي يبدو أنها حكمت المنطقة، نجد أنفسنا نقف أمام طبيعة هذا التعايش الذي ينضوي حتما ضمن نظام سياسي حاول عبر المراحل التاريخية لحضارة بلاد الرافدين الوصول إلى تحقيق الغايات الوحدوية في طابعها السياسي.

I- الحركات الوحدوية:

إن دخول المجتمعات الرافدية مرحلة العصور التاريخية القديمة، قد شكّل فيما بينها أحد المنعرجات البارزة في مسار التطور نحو الوحدة، الأمر الذي يُعَلِّي من شأنها، إذ أنّ بروز النواة الأولى للقرى التي تطورت إلى مدن توفرت لديها عوامل الاستقرار، قد شكّلت عوامل تراكمت عنها عدة نتائج من شأنها أن تُلح على تبني الوحدة، بل وتتعداها نحو الخارج.

ولو أنّ دراستنا هذه تسعى إلى إثبات بأنّ الحضارة الرافدية في التكوينات الأولى قد حاولت منذ انتقالها من فترة قبل التاريخ إلى العصور التاريخية تحقيق مسألة التوحيد حسب واقعها المعاش رغم التعددية الحاصلة داخل المنطقة، لكن قد تكون هذه الحضارات المختلفة مليئة بالتناقضات، الأمر الذي يعرضها إما إلى التصادم أو التعايش الحضاري رغم الاختلاف، هذا ما يجعلنا نبحت في سبل تحقيق تلك الوحدة رغم كل المتناقضات، ذلك أن انهيار أي مجتمع حضاري من الناحية السياسية، يعنى عجزه على فرض وحدة مماثلة و بالتالي فرض حضارته، فتكون بذلك سبباً في ظهور حركة أخرى جديدة حاملة مشعلها محاولة توظيفه بشتى الأساليب.

1- مراحل الحركات الوحدوية:

نحاول معرفة ما إذا كانت الاتجاهات الوحدوية في مراحلها التاريخية قد نجحت في أن تحقق سلطتها المركزية كرد فعل ضد الحركات المجابهة لها، وعلى الاتجاهات الإقليمية الضيقة كتعبير عن تطلعاتها نحو المحافظة على الوحدة، إذ يفرض هذا الأخير على العديد من الشخصيات الرافدية الحاكمة في بلاد النهرين تفعيل هذا الاتجاه والمحافظة على سيورته، لما كانت تراه من مصلحة عامة على المنطقة محلياً وخارجياً، إذ أنّ تظافر جهود التحديات الداخلية والخارجية قد يكون لها الشأن والدور في إفشال المشروع الوحدوي سياسياً رغم توفر عناصر أخرى مشجعة وبالتالي تحول

دون ذلك، كما أنّ لهذه العوائق ما قد ساهم في نكبة زعماء الوحدة أثناء حكمهم، إذ أنّ التصدي لهذا المشروع الوحدوي من الناحية الفعلية له أبعاده لدى حكام بلاد الرافدين، بحيث متى كانت البلاد موحدة، ستنعم بعيش مستقر وآمن، مع ضرورة الوقوف بوجه تمردات دول المدن المعيقة للاتحاد الرافدي، والتي تحاول إعلان استقلالها عن السلطة الواحدة (المركزية)، فتصبح مرتعاً لدول الجوار لإرضاء أطماعهم مستعملة بذلك سيطرتها المباشرة أو دعم حركات التمرد والعصيان.

أ- المرحلة الأولى: الأبعاد التنظيمية للقرية والمدينة.

أ-1- القرية وشعور الانتماء:

دلّت الأبحاث والدراسات المتعلقة بالمجتمعات البدائية في علم الأنثروبولوجيا وخاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية والسياسية، على أنّ التفرعات والانشقاقات الحاصلة إنما تُشكل دائماً نوعاً من الترابط العشائري والقبلي يركز على الشعور بالانتماء لأصل واحد، والموسوم بروابط القرابة والنسب، وهذا الأصل الواحد تختلف مفاهيمه باختلاف العقائد والتصورات البدائية للعشائر والقبائل المتعددة، فمنهم من كان يتصور وجود طوطم معيّن يقوم بعملية ربط الفروع العديدة به، ومنهم من كان يتصور وجود أحد الأسلاف المقدسين، أساساً أو منبعاً لفروعها المختلفة، فقد كان سكان المستقرات يجدون نوعاً من الصّلات الدائمة التي تربط بينهم، وإن كانت كل منها تعيش مُعزلة نسبياً في أرضها مُؤمّنة اكتفاء ذاتياً لحاجاتها البسيطة، ولكن مع اتساع العدد والحجم والتقارب فيما بين الأراضي المزروعة، تكوّنت القرى⁽¹⁾، وبدأ التنظيم الاجتماعي والسياسي عند البدو يقوم على القبائل، وفي شكل جماعات تسير على نظام الانتساب إلى الأب، ولا تتزوج إلا من داخلها، وتشغل مناطق معينة، ولم يكن للاتحادات السياسية التي تجمع أكثر من قبيلة واحدة أي أثر فعال، فكانت هذه الاتحادات تنفّض عندما تفقد القبيلة السيطرة نفوذها، وتنحصر السلطة في القبيلة في يد شيخ يكون منصبه في العادة وراثياً، وفي فرع عائلي معيّن⁽²⁾.

كان الفكر في المجتمعات البدائية أيضاً انعكاساً للتنظيمات الجماعية والعشائرية، كما اهتم بالتحديات التي كانت تصادف الإنسان في حياته، والمواقف التي كان يقف حيالها موقف العجز،

(1) - عمر صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 45-46.

(2) - رالف لنتون، شجرة الحضارة " قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث"، تر: أحمد فخري، مر: أحمد زكريا الشلق، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، (د.ت)، ص192.

وعلى هذا، فإنه من الممكن تتبع طريقة التفكير البدائي من خلال التنظيمات الاجتماعية التي كانت تؤدي من خلالها بعض الممارسات والطقوس الدينية، وفي نفس الوقت كانت ترمي إلى تحقيق أهداف وظيفية، من خلال التكيف مع البيئة التي يعيش فيها، كما حاول السيطرة عليها واستغلال مواردها لصالحها، وفي هذه المحاولات⁽¹⁾ كانت تمارس السلطة في القبيلة إلى درجة محدودة، فليس هناك حكومة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة⁽²⁾، إذ كانت كل الترتيبات الموحدة للمجتمع تهدف إلى تأمين الحاجات الضرورية لجميع الأفراد، وكانت هذه الترتيبات تقوم على الالتزام الطوعي للجميع بالمصالح المشتركة، وبهذا الشكل كان الجميع يعتبرون أنفسهم ذاتاً واحدة لا تنفصل عن ذاتية الكون⁽³⁾.

لكن، في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، بدت مرحلة جديدة من التطور الحضاري في بلاد الرافدين، نمت خلالها حجم القرى، على خلاف ما كان في بدء المستقرات أو القرى الزراعية البدائية، حيث كانت الحياة بسيطة ومحدودة للأعداد البشرية القليلة التي بدأت تكون أولى المجتمعات المستقرة، وكانت هذه الأعداد البشرية القليلة العدد، تكتفي بالأرض المحدودة التي كانت تؤمن لها سد الحاجات الضرورية، وحينما كان يزداد عدد أفراد القرية، وتضيق الأرض المزروعة، كانت تقوم عملية انشقاق تحول قسماً من العدد الفائض، ليتحول إلى إنشاء مستقر (قرية جديدة)، لا يبعد في كثير من الأحيان عن المستقر أو القرية الأم، إذ كانت تتوالد المستقرات أو القرى الصغيرة الجديدة من الأقدم عهداً، مع الشعور والوعي بروابط دائمة بالأصول التي تفرعت عنها⁽⁴⁾.

وقد لعبت عوامل عديدة دوراً كبيراً في اختيار الموقع وتحديد مواقع المراكز القروية، ومنها صلاحية الظروف المناخية والطبيعية المحيطة بها، وتوفر المقومات الحياتية الأساسية فيها، مثل المياه الصالحة للشرب، والنباتات الطبيعية، وحيوانات الصيد، وتوفر الأراضي الصالحة للزراعة والرعي، هذا بالإضافة إلى طبيعة الفعالية الاقتصادية للمستوطن ووظيفته والغاية التي شُيد من أجلها هذا

(1) - عبد الهادي محمد والي، تاريخ الفكر الاجتماعي، جامعة طنطا، القاهرة، 2005، ص 52-53.

(2) - سبتيانو موسكاتي، (الحضارات السامية...)، المرجع السابق، ص 55-57.

(3) - عمر صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 72.

(4) - نفسه، ص 45.

المكان، كأن يكون مركزاً تجارياً أو دينياً أو عسكرياً أو غيرها من الأهداف والمقاصد الأخرى⁽¹⁾ حتى تألفت المدينة الرافدية باتحاد جملة من القرى⁽²⁾.

أ- 2- المدينة وحدة سياسية:

بقيت إشكالية أصل المدينة في قلب اهتمامات الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين ورجال الاقتصاد، على مدى قرن ونصف القرن من الزمان، منذ أن بدأت محاولات إعادة بناء التطور التاريخي للبشرية، ضمن مسح شامل وعلى ضوء حقبة وأطوار معينة، إذ زعم جيل الدارسين الجدد، لاسيما الأمريكيين منهم، في إعادة طرح المسألة بشكل مُستجد كلياً⁽³⁾.

ويُعزى السبب لدى الباحثين في وجود المدن في بلاد الرافدين إلى عمليات الري، ومنها شق الجداول لإرواء الحقول وبناء السدود والسيطرة على الفيضانات، فهذه العمليات اقتضت وجود مجتمعات واسعة تعيش في نظام إداري محكم يضمن التعاون وبذل الجهود بين أفرادها لإنجاز تلك العمليات⁽⁴⁾.

ومع منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد أصبحنا أمام محددات أدت إلى نشأة المدن الأولى، التي جبت في خواصها كامل التراكمات الحضارية والخبرات السابقة الاقتصادية والزراعية والتجارية والعمرانية والاعتقادية وأدت إلى تبلور معالم الحضارة الإنسانية⁽⁵⁾، ولعل العامل في ذلك أن الوحدة السكانية في السهل الرسوبي كانت أولاً القرى الفلاحية ثم المدن المعتمدة كل منهما على الاقتصاد الزراعي والري والتجارة، فنشأت فيها بدلاً من الأنظمة القبلية والولاء القبلي أنظمة سياسية واجتماعية⁽⁶⁾ طرأ عليها اتساع حدودها وتكاثر سكانها بتأثير عوامل مختلفة⁽⁷⁾ منها التحكم في مياه نهري دجلة والفرات في جنوب بلاد الرافدين، وري السهول المحيطة بها، وهذا

(1) - محمد طه الأعظمي، من المظاهر الحضارية العراقية القديمة "اختيار الموقع المستحكم طبيعياً"، وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، مطبعة المجمع العلمي، بغداد، 2001، ص 192.

(2) - عزمي سكر، المرجع السابق، ص 42.

(3) - ماريو ليفراني، المرجع السابق، ص 19.

(4) - الإدارة الثقافية للأمانة العامة لجامعة الدول العربية، المعالم الأثرية في البلاد العربية، ج 1، مطابع مذكور، القاهرة، 1970، ص 7.

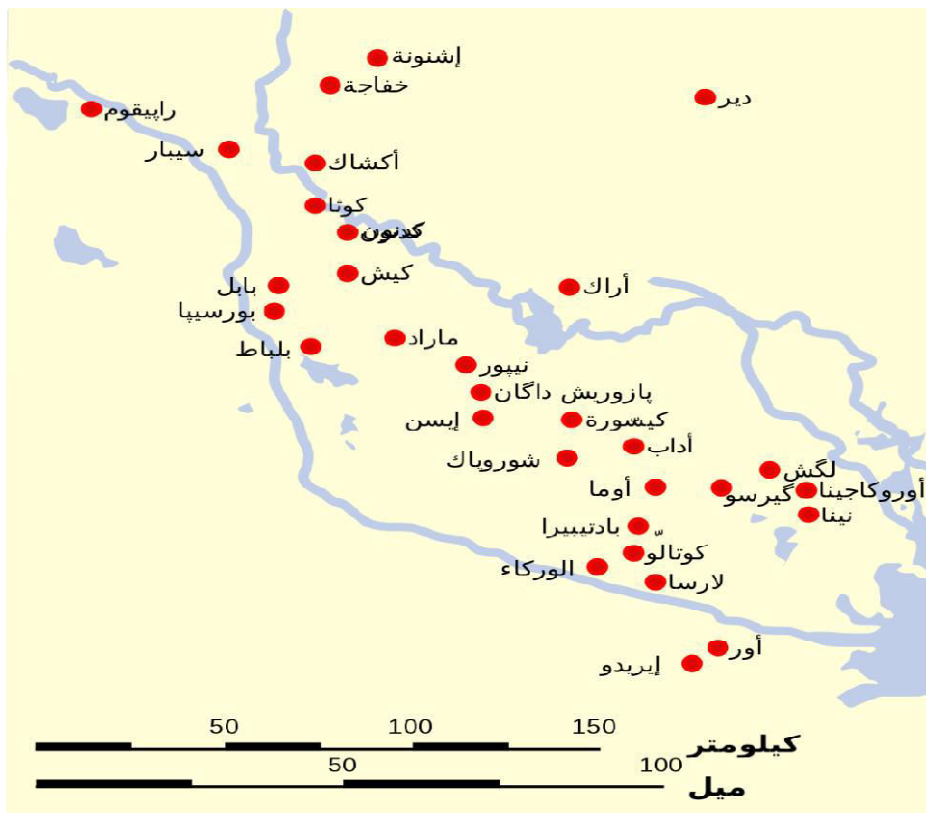
(5) - بشار خليف، (نشوء فكرة الألوهية...)، المرجع السابق، ص 60.

(6) - طه باقر، (الوجيز في تاريخ وحضارة بلاد الرافدين...)، المرجع السابق، ص 361.

(7) - نفسه.

الفصل الثاني: السياسة الوحدية وتحدياتها

التحكم في البيئة مكنّ المدن من الاستقرار على ضفاف الأنهار والقنوات الرئيسية⁽¹⁾، لكن قد تُهجر المدينة بسبب تغير مجرى الأنهار أو زيادة ملوحة التربة أو بسبب هجوم مدمر⁽²⁾. ويبدو أن مرحلة التمدن و ظهور المدن (أنظر الخريطة رقم 3) قد بدأت في بلاد الرافدين، قبل بدء ظهورها في بلاد الشام بمدة وجيزة⁽³⁾، وعندما نقارن كثافة مراكز التمدن التي قامت في بلاد العراق القديم والمعاصرة لمدن بلاد الشام، تظهر عظمة المدن العراقية، حيث بلغ متوسط مساحة الواحدة منها في الألف الثالث قبل الميلاد حوالي 400 فدان، ولم تكن بالضرورة محاطة بالأسوار⁽⁴⁾.



الخريطة رقم 3: بعض مدن بلاد الرافدين عن:

https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/thumb/5/5c/Cities_of_Sumer-ar.svg/1200px-Cities_of_Sumer-ar.svg.png

(1) - جفري بارندر، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، تر: إمام عبد الفتاح، مر: عبد الغفار مكاي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1993، ص 11.

(2) - محمود شاكر، **(موسوعة الحضارات القديمة...)**، المرجع السابق، ج 1، ص 51.

(3) - خير نمر ياسين، **جنوبي بلاد الشام تاريخه وأثاره في العصور البرونزية**، مطبعة الجمعية العلمية الملكية، عمان، 1991، ص 11.

(4) - نفسه، ص 12.

وهذه التطورات المختلفة تعكس مدى التقدم الذي فاقت به مدن بلاد الرافدين غيرها من مدن الهلال الخصيب، وقد أجمع العلماء عل أن هناك سببين رئيسيين دفعاً بهذه المدن نحو التقدم، وكلاهما نجم عن البيئة المحلية الخاصة، إضافة إلى وجود الأنهار الكبرى، فالمجتمع المركب المتعدد المطالب يختلف عن مجتمع غير موحد وبدائي، وقد نما هذا المجتمع المركب نتيجة لتكوّن أودية السهول الغرينية التي هيأت الفرصة لإنتاج فائض المحاصيل الزراعية، فأصبحت هذه العوامل حافزاً لظهور المجتمعات المركبة⁽¹⁾، وبنفس الطريقة ظهرت بقاع مزدهمة من السكان في أماكن مختلفة من المنطقة التي وصلت إليها الحضارة القروية، فقامت المدينت في تلك المناطق التي اتحد فيها عامل ازدحام السكان مع عوامل أخرى خاصة بالحضارة والبيئة، فسهّل اتحاد تلك العوامل ظهور حياة المدن⁽²⁾، و كان توزيعها في المناطق الجغرافية المختلفة من البلاد، شاهد واضح على هذا التحول، وذلك بإقامة المدن في المناطق كثيرة الأمطار، وعلى جوانب أودية الأنهار، وفي منطقة الهضاب الجبلية بالقرب من الأراضي الزراعية الخصبة، وأقيمت هذه المدن فوق مرتفعات حصينة يسهل الدفاع عنها، وتقع على طرق القوافل التجارية، إضافة إلى أن المدينة الكبيرة والمتوسطة، وحتى القرية كانت كلها تشكل سلسلة تسويقية مترابطة، فكان بالإمكان تسويق الإنتاج الزراعي وتبادل السلع في اتجاهات مختلفة من داخل المنطقة الواحدة وخارجها وإليهما⁽³⁾.

يلاحظ أن المدينة العراقية القديمة كانت تعاني من مشكلات عديدة، بعضها مرتبط بعدم ملائمة تخطيطها مع الظروف المناخية السائدة، والبعض الآخر مرتبط بالبنية الوظيفية لها ومدى كفاءة الخدمات التي تقدمها مؤسساتها الحضرية إلى ساكنيها⁽⁴⁾، كما كانت كل مدينة تسعى جاهدة لأن تحمي سكانها أولاً، وأن تقيم بينهم وبين جيرانهم من سكان المدن الأخرى حداً منيعاً هدفه الإبقاء على عوامل الاستقرار بين جنبات الأسوار التي تحيط بالمدينة⁽⁵⁾.

(1) - خير نمر ياسين، المرجع السابق، ص12.

(2) - رالف لنتون، المرجع السابق، ص206.

(3) - خير نمر ياسين، المرجع السابق، ص131.

(4) - عادل مكي عطية الحجامي، تخطيط المدينة في الحضارة العراقية القديمة، مج1، ع2، مجلة كلية التربية للعلوم الصرفة، مطبعة جامعة ذي قار، بغداد، 2010، ص 1.

(5) - سامية معوشي، مؤسسة المعبد ودورها في حضارة وادي الرافدين "سومر و بابل أنموذجاً"، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر (2)، 2009، ص254.

وفي مجال وحدة المدينة، يعد الشكل البيضوي - القريب إلى الدائري - من أفضل أشكال المدن العراقية القديمة حيث الحدود القصيرة بالنسبة لمساحتها، فضلاً عن عدالة توزيع الخدمات على أجزاء المدينة وجميعها بشكل متساوي، وسهولة بسط النظام والأمن في حالة السلم، أما في حالة الحرب فإن الشكل البيضوي للمدينة له أهميته، إذ أن النقطة التي تتعرض للغزو الخارجي قليلة، كما يساعد على نقل المحاربين والمعدات إلى أي مكان يتعرض للاعتداء، أي أن هذا الشكل البيضوي يهيئ للمحاربين المساحة الكافية للدفاع، بل حتى لغرض إعادة تنظيم قواتهم ومن ثم الهجوم مرة أخرى⁽¹⁾.

يلاحظ أن المدن التي شُيّدت بجانب نهري دجلة والفرات وفي مختلف أصقاع شرق وغرب العالم القديم قد حققت لنفسها الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية⁽²⁾، لكن لسنا نستطيع أن نفسر ظهور المدن القديمة بأنها سارت في نفس الطريق، فلم تكن المدن ضرورية لأجل حياة الإنسان في المناطق التي ظهرت فيها، ولكن الظروف في تلك المناطق يسرت ظهورها⁽³⁾.

ويرى الباحث "ليونارد وولي" بأن المدينة هي الوحدة السياسية، وتعتد على نفسها في تموينها ولها أراضي ما كان بقدرة سكانها الاستحواذ عليها بالإضافة إلى القرى والحقول المجاورة لها والتي يأوي أهلها إلى داخل أسوار المدينة في أوقات الشدة والضيق، وكانت أكثر الحكومات نجاحاً تلك التي باستطاعتها حماية ملكية الأراضي التي تقوم بين المدن المتجاورة في آن واحد، إذ أن أبسط وسيلة للتوفيق بين المصالح المتضاربة توحيد المدن، وكانت هذه السياسة أقرب ما تكون لإرضاء الحكام الطامعين الذين لم يلقوا مقاومة في توسعهم وفرض حكمهم على المدن المختلفة، لما يربط السكان من أواصر القربى، وهؤلاء السكان لا يريدون عادة أكثر من ضمان حقوقهم وترك إدارة شؤونهم الداخلية إليهم⁽⁴⁾.

إن عملية التحول من القرية إلى المدينة نتيجة حتمية فرضتها التطورات الاجتماعية والسياسية والدينية التي شهدتها المجتمعات الريفية، وتقوم على أساس أن بعض القرى ويسبب

(1) - عادل مكي عطية الحجامي، المرجع السابق، 2010، ص 3.

(2) - رالف لنتون، المرجع السابق، ص 207-208.

(3) - نفسه، ص 206.

(4) - ليونارد وولي، وادي الرافدين مهد الحضارات "دراسة اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ، تر: أحمد عبد الباقي، (د.د.ن)، بغداد، 1948، ص 36-37.

مواقعها الحصينة، كانت توفر الحماية لسكانها ضد الأخطار الخارجية، لذا فإنها في أوقات الخطر والأزمات كانت تجتذب إليها السكان من المناطق القريبة إليها كونها أقل تحصناً ومناعة منها، وبهذه الطريقة تحولت بعض هذه القرى الحصنة إلى مدن كان سكانها أكثر عدداً وتنوعاً، وهذا ما يعني أن المراكز الحضارية القديمة المتمثلة في القرى والمدن قد نشأت مستقلة عن بعضها البعض دون حدوث اندماج اجتماعي وسياسي موحد بالمعنى الواسع حتى تحصل الوحدة المنشودة، وبالتالي ظهرت كل المدن في بادئ الأمر مستقلة عن غيرها.

ب- المرحلة الثانية: تطورات الحراك السياسي.

ب-1- نظام الدولة المدينة:

المقصود بهذا النظام، تجزئة البلاد إلى عدة أجزاء، ويؤلف كل جزء منها دويلة مستقلة عن غيرها سياسياً وإدارياً واقتصادياً، ولكل منها نظمها وعاداتها وتقاليدها وقوانينها وسلالتها المستقلة، إذ تتركز كل دويلة حول مدينة رئيسية مشكلة العاصمة، ويتبعها عدد من المدن الصغيرة والقرى، علاوة على ما تضمه من الأراضي الزراعية ومصادر المياه وغيرها من العناصر الضرورية⁽¹⁾.

ثم إنَّ المرور من شكل الخلية الواحدة (مدن وقرى تابعة لها) إلى الشكل (الجهوي) الموسع لم تكن في حد ذاتها متجانسة، إذ تأخذ العلاقة بين المدينة والقرى أشكالاً ونسباً متفاوتة من منطقة إلى أخرى، وفق مختلف المعطيات البيئية، وعموماً تتماثل التنوعات الجهوية بحسب اختلاف التركيبة الجغرافية، إذ أظهرت عمليات التنقيب الواسعة في بلاد الرافدين السفلى خُطى تطور مختلفين، ففي مناطق السهول ببلاد أكاد ووادي دياي ترافق تطور المدينة مع تنام مماثل للتجمعات السكنية الصغرى، لذلك بقيت المراكز العمرانية مدرجة دائماً وفق نسيج من القرى البعيدة والنشطة، من عصر أوروك المتأخر وعبر عصور فجر السلالات كافة وحتى العصرين السومري الجديد والبابلي القديم⁽²⁾.

(1) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج1، ص40.

(2) - ماريو ليفراني، المرجع السابق، ص64.

والتاريخ الرافدي مليء بالتجارب الوحدوية التي حاولت فيها المجتمعات المجزأة والكيانات السياسية المستقلة تجاوز التجزئة وتحقيق الاتحاد بينها، إذ كانت تنجح أحياناً وتفشل أحياناً أخرى⁽¹⁾، فعلى هذا النحو كان العداء بين الدويلات السومرية يؤدي في الغالب إلى الحرب فيما بينها لأسباب تتعلق بالرغبة في السيطرة على مصادر المياه والغابات والأراضي والمراعي، فنتيجة الحرب الطويلة بين مدنها تم تخطيط مدينة "أوما" * وتوحدت دويلتا "أوما" و"لجش"، وفي عام 2870 ق.م. تمكن حاكم دويلة كيش "ميسليم" من إخضاع كلا من "لجش" و"أوما" لسيطرته إلا أن هذا التوحيد لم يتسع أكثر من ذلك وانحصر في مدينة سومر، إذ لم يكن قد تكونت بعد الظروف الاجتماعية والسياسية لتوحيد كل الدويلات السومرية⁽²⁾، وعاش السومريون عبر الجزء الأكبر من تاريخهم في حوض الفرات ودجلة على شكل اتحاد من دول المدن غير وثيق الروابط، يرأس كلاً منها زعيم يلقب بـ الباتيسي*، يجمع وظيفة الكاهن الأكبر وقائد الجيش والمشرف على نظام الري⁽³⁾.

و هنا أصبحنا أمام ظاهرة تحول مدن المعبد إلى مدن دول مشكلة بذلك انبثاق السلطة الزمنية إلى جانب السلطة الدينية في قيادة المجتمع، ومع مطلع الألف الثالث ق.م أصبحنا أمام ظاهرة المدن الكبيرة المسورة⁽⁴⁾، إذ كان للسومريين الدّراية الكافية بأن المدينة لا يمكن أن تعيش في فراغ سياسي، ولا بدا أن يكون لها ظهير سياسي يمدّها بالقوة والبقاء والحفاظة على ديمومتها كإقليم⁽⁵⁾، وبهذا الشكل عمل قادة وحكام هذه الدويلات محاولات لتوحيدها في دولة مركزية واحدة، إلا أن أغلب هذه المحاولات كانت تنتهي بالإخفاق، وذلك لعدة أسباب بما في ذلك الأسباب الاقتصادية

(1) - نديم البيطار، المرجع السابق، ص 16.

* ثل خوجة حالياً، تبعد حوالي 80 كلم إلى الشمال من "كرسو"، وهي من الدويلات التي لم ترد سلالتها في جداول الملوك السومرية، يعرف إلهها الخاص باسم (شارا) - للمزيد أنظر: قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 128.

(2) - ك. ماتيف و أ. سارونوف، المرجع السابق، ص 69-70.

** لفظة "باتيسي" هي القراءة القديمة لكلمة "إنسي"، وتعني لدى السومريين حاكم المدينة ووكيل الإله، ويُقابل هذه الكلمة لدى البابليين لفظة "إشاكوا" - للمزيد أنظر: هنري س. عبودي، المرجع السابق، ص 204.

(3) - ملكة أبيض، المرجع السابق، ص 18.

(4) - بشار خليف، (دراسات في حضارة المشرق العربي القديم...)، المرجع السابق، ص 132.

(5) - عادل مكي عطية الحجامي، المرجع السابق، ص 7.

الفصل الثاني: السياسة الوحدية وتحدياتها

والاجتماعية والسياسية والإيديولوجية، إذ أنّ هذا التوحيد كان سيقصص من نفوذهم في هذه الدويلات ويخلصهم من ملكية الأراضي ويُنهي عبادتهم⁽¹⁾.

كما يفهم من كلام الباحثين أمثال "ماتيف وسازونوف" أنّ السومريون قد انتزعوا القيادة الفكرية في بلاد الشرق الأدنى، بتأسيس دولة الإله المتمركزة في مدينة المعبد باعتبارها البادرة الأولى لفكرة التوحيد الديني والسياسي⁽²⁾، لكن الدّارس للتاريخ السومري يلحظ في واقعه النزاع والحروب للاستحواذ على الأراضي الزراعية ومصادر مياه الري، فتضارب مصالح هذه الدويلات وما كان يتطلبه تنظيم شؤون الري والتجارة الخارجية باعتبارها العماد الثاني لازدهار الحضارة الرافدية بعد الزراعة، كلها عوامل أدّت إلى تغلب الاتجاه الثاني المعاكس، ونعني به قيام وحدة سياسية أكبر من دولة المدينة⁽³⁾.

وبما أنّ الدراسات التاريخية لهذه المنطقة، تؤكد على أن السومريين استطاعوا بناء حضارة متقدمة ومتميزة عن باقي الحضارات والشعوب الأخرى في كثير من المجالات، فإنّ الغريب في الأمر أنهم لم يستطيعوا بناء دولة قوية وموحدة، كونهم عاشوا على شكل قبائل متشتتة ومتفرقة وعبر مدن مختلفة⁽⁴⁾، ذلك أنّ الوسط السياسي أصبح يضم منظومة معقدة من الطقوس والمعتقدات والأعراف والشعائر الدينية، وتنظمها مؤسسة المعبد، باعتبارها المهيمنة فكرياً، وتقودها قوة كهنوتية، مؤسسة خطابها الفكري الرابط بين العوالم المرئية⁽⁵⁾ واللامرئية⁽⁶⁾، ولهذا استمرت الآلهة السومرية بوصفها ممثلة للقوى الطبيعية على القيام بدورها كجزء مشترك للمجتمع ككل، أما

(1) - ك. ماتيف و أ. سازونوف، المرجع السابق، ص 69.

(2) - أنطوان مورتكات، المرجع السابق، ص 31.

(3) - طه باقر، (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ص 278-279.

(4) - إدريس أعبيزة، البابليون والآشوريون تاريخ وحضارة "آداب الشرق القديم وتلاقح الحضارات"، ط1، مطبعة فضالة المحمدية، الرباط، 2005، ص 36.

(5) - زهير صاحب، مفهومية الشكل في الفنون التشكيلية السومرية، ع1، مجلة نابو للبحوث والدراسات، جامعة بابل، 2006، ص 6.

(6) - شوقي مصطفى علي الموسوي، إشكالية المرئي واللامرئي في الفن السومري، ع4، مجلة نابو للبحوث والدراسات، بغداد، 2009، ص 201.

الفصل الثاني: السياسة الوحدوية وتحدياتها

للدولة فقد صارت متباعدة، فهي تمثل جماعات قد تتصادم في مصالحها، فمن الناحية السياسية كان دور الآلهة يدعو إلى التفرقة، ولم يعد دورها موحدًا للمجتمع سياسيًا⁽¹⁾.

وبما أن ظهور الحروب المنتظمة بين دويلات المدن السومرية أدت إلى ظهور اتجاه سياسي يدعو إلى تبني سياسية معينة للحد من الصراعات التوسعية ورفض لوجود دولة المدينة من خلال سعيه إلى فرض نظام دولة القطر الواحد، فقد بدأ يتجلى هذا التطور الجديد في عهد "لوكال زاكيزي" (أنظر الصورة رقم 1) حاكم مدينة "أوما" الذي اتجه نحو



الصورة رقم 1: لوكال زاكيزي
عن- <http://all-generals.ru/assets/images/polkovodci/DM/SHUMER/Lugal-zage-si.jpg>

السيطرة على المدن المجاورة، وكان ذلك العامل الرئيسي الذي مهد الطريق أمام سرجون الأكادي في إقامة دولة القطر الواحد⁽²⁾، وقد كان الهدف من ظهور حركة لوكال زاكيزي التوسعية تأسيس نظام جديد يرقى إلى مستوى الإمبراطورية من خلال القضاء على دويلات الآلهة السومرية المستقلة وقطع الطريق أمام المحاولات الأكادية⁽³⁾.

ثم إن هذه المدن، التي تبادلت المصالح والعلاقات بإيجابياتها وسلبياتها، لم تصل إلى درجة التوحد أو الوحدة

فيما بينها، إلا في بعض المحاولات التي قام بها حكام دول المدن وفقا لمصالح مدينتهم، كما فعل حاكم مدينة أوما "لوكال زاكيزي" حين ضمّ عدة مدن إلى فاعلية مدينته، ولم تهدأ المنطقة إلا مع الثلث الأخير من الألف الثالث عبر اكتمال الفاعلية الأكادية، وقيام سرجون الأكادي بتأسيس مملكة قوية امتدت على المناطق الفاعلة والمدن في المشرق القديم، والجدير بالذكر هنا، هو أن ثمة مدناً كان لها شأن اعتقادي وليس سياسي، حيث كانت المدن الأخرى تعترف بها وفق هذه الهوية، ومنها مدينتي إريدو ونفر⁽⁴⁾.

وقد علّق أنطوان مورتيكات على المساعي الوحدوية التي قام بها "لوكال زاكيزي" من أجل توحيد المدن السومرية بأنه أمر غير قابل للاستمرار، ويعود سبب ذلك إلى أن الجو المسيطر في

(1) - أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، تر: نيقولا زيادة، ج1، دار الأهلية للنشر والتوزيع، مصر، (د.ت)، ص81.

(2) - حميدة مهدي سميسم، الحرب النفسية، الدار الثقافية للنشر، بغداد، 2004، ص41-42.

(3) - أنطوان مورتيكات، المرجع السابق، ص83.

(4) - بشار خليف، (نشوء فكرة الألوهية...)، المرجع السابق، ص63.

مختلف المدن التي ضمها بمساعيه الحربية لم يجد له أي ركيزة من الشعب السومري وكهنته، فهذا السلوك السياسي الذي أراه "لوكال زاكيزي" من الشعب السومري كان غريباً عن طباعه، ففكرة توحيد الدول ومركزية الشعب لا يمكن فعلاً أن تتحقق⁽¹⁾، وبالتالي لم يتطور نظام الحكم لدى السومريين إلى الوحدة، ولم يعرفوا شكل الدولة المركزية الواسعة، إلا أحياناً، فتعيّن أن تتزامن دويلات (أنظر الخريطة رقم 4) وأسر عديدة في مدن مختلفة وخلال الفترة التاريخية الواحدة⁽²⁾.

بينما كان السبب الآخر في رأي محمد بيومي مهران أنّ طبيعة هذا القسم الجنوبي في بلاد الرافدين لا تشجع على الوحدة، فقد حالت المساحات الشاسعة من المستنقعات دون سهولة الاتصال فيما بين القرى والمدن، الأمر الذي أعاق تحقيق⁽³⁾ السيادة على جميع البلاد⁽⁴⁾، دون أن ننسى أنّ دول المدن قد عرفت مراحل من السلم، كما عرفت في مراحل أخرى حروباً فيما بينها دون أن تعرف الوحدة إلا في مراحل أخرى من التاريخ القديم، مع ظهور بعض القادة والملوك الكبار⁽⁵⁾، وبالتالي يُعزى السبب في ظهور هذا الفكر إلى دول المدن الحاكمة التي فسحت المجال لظهور دولة القطر الموحدة، وما صاحب ذلك من انتقال جغرافي لمركز الحكم، حيث تطورت علاقات جديدة بين الموارد المادية والموارد البشرية والفكرية، استطاعت النهوض بإرثها الحضاري والارتقاء بها إلى مستوى فرضته الدولة الجديدة الموحدة⁽⁶⁾.

(1) - أنطوان مورتكات، المرجع السابق، ص 68.

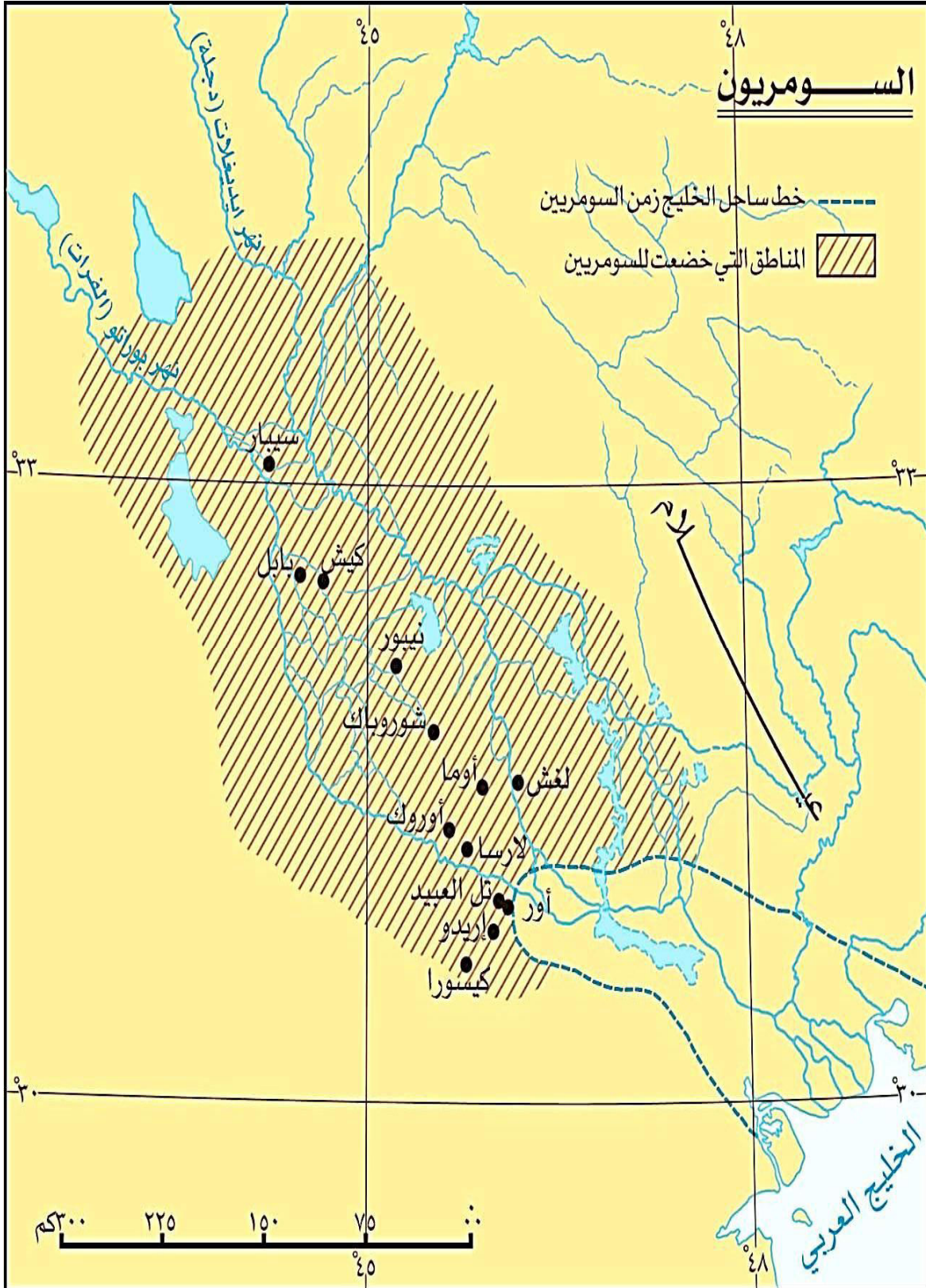
(2) - عزمي سكر، المرجع السابق، ص 44.

(3) - محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم "تاريخ العراق القديم"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص 94.

(4) - عزمي سكر، المرجع السابق، ص 50.

(5) - عمر صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 111.

(6) - علي محمد المياح، المرجع السابق، ص 32.



الخريطة رقم 4: السومريون ومدنهم الدول

<http://arab-ency.com/img/res/6452/1.jpg>

ب-2- مرحلة الدولة الموحدة:

حظيت فاعلية الفكر الوحدي لدى ملوك بلاد الرافدين من خلال مركزة الحكم باعتباره من الأمور الهامة، التي من شأنها أن تمنح الدولة قوتها، وتماسكها الاجتماعي المتين، وثراءها الاقتصادي بين مختلف مدنها وقراها، لما لهذا التوجه من أهمية، إذ نال هذا الفكر نصيبه التاريخي وبأساليبه (الأسلوب السلمي والعسكري) مصدره من رحم التراث الرافدي القديم السومري والأكادي⁽¹⁾، ومن خلاله نتتبع جذور ومراحل تجسد هذا الفكر الوحدي في دول بلاد الرافدين.



الصورة رقم 2: رأس الملك
سرجون عن: أندرو بارو، سومر، ترجمة
سركيس الطبر، المكتبة الشرقية، بيروت،
2011، ص 40.

أولاً: الدولة الأكادية وجذور التوحيد:

قبل أن يتمكن "سرجون - Sargon" الأكادي (2340-2284 ق.م) (أنظر الصورة رقم 2) من توحيد بلاد الرافدين وبناء إمبراطوريته الأولى، نجد أنّ السومريين كانوا السباقين لمحاولة فاشلة في توحيدها، كانت قد بدأت مع أوركاغينا (Urukagina)* حاكم دويلة لجش⁽²⁾، ليزداد حرص السومريين عقب هذا الفشل على الصراع الوحدي في طابعه العسكري

لتحقيق وحدة المنطقة بأكملها من خلال ضم دويلات المدن وتكوين مملكة موحدة وقوية خلال عصر لوكال زاكيزي، لكن نجاح وتحقيق هذا الهدف وبشكل أكبر كان على يد الأكاديين، الذين

(1) - أحمد داوود، تاريخ سوريا القديم "تصحيح وتحديث"، ط3، منشورات دار الصفدي، دمشق، 2003، ص 343-345.

* تمكن هذا الحاكم إلى حد كبير من السيطرة على لجش وعلى دول المدن السومرية، وقد اشتهر بإصلاحاته الداخلية، كبناء الكثير من المعابد، علاوة على الحد من نفوذ الكهنة والقيام بانقلاب اجتماعي يستهدف الظلم، ونشر العدل بين طبقات المجتمع، وفي الإمكان القول بأن إصلاحاته التي تركزت على التنظيمات الإدارية، تعتبر نقطة البدء في وضع التشريعات العراقية القديمة - للمزيد أنظر: نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 52-53.

(2) - قاسم الشواف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وأشور "الموت والبعث والحياة الأبدية"، ط1، ج4، دار الساقي، بيروت، 2001، ص 491.

استطاعوا بناء إمبراطورية كبيرة موحدة جمعت السومريين والأكاديين تحت مظلتها⁽¹⁾. حيث بدأ سرجون الأكادي يكسر نفوذ الكيانات المدنية الإقطاعية الهزيلة عسكرياً، ليتيح للشعب كله فرصة الانخراط في دورة حياة اجتماعية اقتصادية وسياسية جديدة، كان لها تأثيرها في تطور نظام الحكم فيما بعد في العالم أجمع، وبذلك يكون سرجون قد قام بانتقال حاسم من نظام المدينة والإمارة الإقطاعية الدينية إلى نظام الدولة المركزية بمفهومها المعاصر⁽²⁾، وإذا كان حكمه يدل على بداية عهد جديد، فهو محاولة جديّة نحو تطبيق مبدأ الوحدة السياسية بضم المدن تحت راية واحدة⁽³⁾، ذلك أنّ الازدهار في سومر لم يدم طويلاً، فقد استمر خلال الخمس والعشرين سنة فقط التي تربع فيها لوكال زاكيزي على عرش الحكم، إذ برزت بعد ذلك للحال الدولة الأكادية القوية، التي أصبحت مصدراً واقعياً يهدد المملكة السومرية ذات السيادة الموحدة، ونتيجة للصراع بين هاتين الدولتين، خرجت أكاد من هذا الصراع منتصرة، حيث أخضعت جنوب سومر لنفوذها بقوة فتية و زخم جديد للسياسة التوسعية التوحيدية التي اتبعها الملوك السومريون سلفاً⁽⁴⁾.

وفي العصر الأكادي ازدادت الرقعة الجغرافية اتساعاً، ابتداءً من سيطرتهم على دول المدن السومرية في الجنوب الرافدي وصولاً إلى البحر السفلي (الخليج العربي)، وتمكّنهم من دحر "لوكال زاكيزي" ملك الوركاء، وفي الشمال وصلوا إلى حدود آسيا الصغرى وفي الشرق سيطروا على بلاد عيلام، وفي الغرب وصلوا إلى شمال سوريا⁽⁵⁾، ويبقى النص المتضمن ثبّتاً بالتوسعات الأكادية مثال على ذلك، فنطالع في هذا النص بعد تدوين أسماء البلدان والمدن التي تمّ ضمها تحت لواء الوحدة الأكادية ما نصه: "مسيرة 120 ساعة بين منابع الفرات وبلاد ميلوخا وملجان*، الحدود التي فتحها سرجون ملك العالم، عند سيطرته على البلاد المغطاة بالسماء، الحدود التي حدّدها

(1) - نواله أحمد المتولي، المرجع السابق، ص 91.

(2) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 343.

(3) - عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص 59.

(4) - ك. ماتيف و أ. سازونوف، المرجع السابق، ص 72.

(5) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 129.

*الاسم القديم لبلاد عمان، وتقع في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة العرب، تُطل على كل من البحر العربي، والخليج العربي، وتتصل من الشمال بالبحرين، ومن الجنوب بالشحر، أما من الغرب فهي تتصل بالربع الخالي... الخ - للمزيد انظر: أحمد حسين أحمد الجميلي، الصلات التجارية بين السومريين والمراكز التجارية في الخليج العربي (دلمون - Magan/دلمون - Magan) أنموذجاً، ع9، مجلة آداب الفراهيدي، بغداد، 2014، ص 273 .

بالقياسات التي ثبّتها"، بل تناول الكتبة أبعاد حدود كل بلد وكمّثال على ذلك "90 ساعة مضاعفة مساحة بلاد عيلام، 180 ساعة مضاعفة مساحة بلاد أكاد"، وبعد ذلك يُخبرنا النص بالحدود الجغرافية العامة وتخصيص بعض البلاد المجاورة لها ومن ذلك ذكره للبحر العلوي "A.AB.BA.eliti" * وبعض البلدان عبر ذلك البحر، والبحر السفلي "A.AB.BA.saplit" * مقترناً بـملون*** و ملجان، بالإضافة إلى أقاليم من الشرق والغرب⁽¹⁾، وبهذا التوسع يبدو أنّ الطابع العسكري قد أخذ نصيبه في تفعيل طموحاته الوحدية.

الملاحظ في الأدبيات التاريخية التي تتحدث عن سرجون الأكادي بأنها تصفه من أهم أبطال هذا المجال لأنه استطاع توحيد المشرق القديم في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، لكن قراءة هذا الأمر قراءة مجردة، تدل على أنّ امتداد إمبراطورية سرجون لتشمل بلاد الشام تقريباً والرافدين، لم تكن تعبر عن بعد قومي، بقدر ما كانت مصالح أكاد آنذاك تستوجب الامتداد والسيطرة على الطرق الاستراتيجية للعالم آنذاك⁽²⁾.

ويذهب بشار خليف إلى أنّ قراءة حركة التاريخ ينبغي أن تكون ضمن ذهنيته التاريخية وليس وفق إسقاط إيديولوجيات حديثة⁽³⁾، ذلك أن التراث الأكادي يُدرج مالا يقل عن 65 مدينة وأراضي تمّ توحيدها⁽⁴⁾ من طرف سرجون الأكادي، غير أنّ وفاته كانت إيذاناً بانطلاق أول ثورة

* يقصد به البحر الأبيض المتوسط - للمزيد أنظر: Kathleen Kuiper, Op.Cit, p 54

** يقصد به الخليج العربي: للمزيد أنظر: قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 98- أنظر أيضاً المدخل ص 15.

*** شغلت دلمون مكاناً خاصاً في التصورات الميثولوجية والتاريخية لسكان بلاد النهرين، وقد سماها السومريون بـ"أرض السعادة" أو "البلد الطاهر"، وتمكّن العلماء أن يُبرهنوا على أنها لم تكن مركزاً للعبادة فحسب، بل كانت نقطة عبور للتجارة البحرية لسكان بلاد النهرين في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد... الخ- للمزيد أنظر: أمل ميخائيل بشور، تاريخ الإمبراطوريات السامية في بابل و آشور، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2008، ص 86.

(1) - فاروق ناصر الراوي، المرجع السابق، ص 281-282.

(2) - بشار خليف، (دراسات في حضارة المشرق ...)، المرجع السابق، ص 9-10.

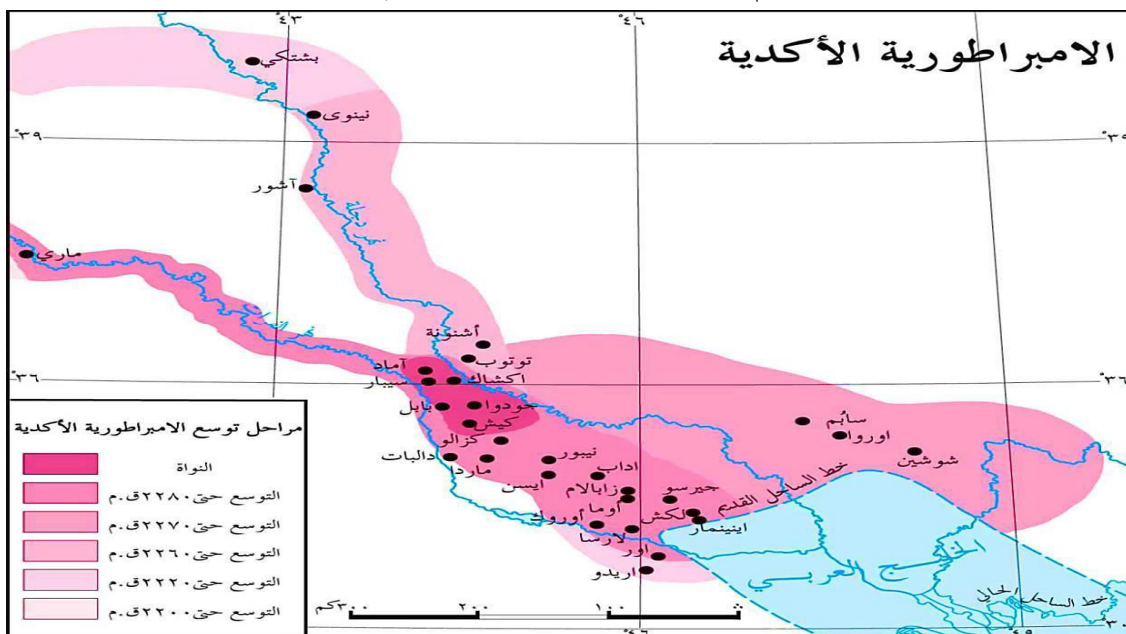
(3) - نفسه، ص 10.

(4) - سليم مطر، المرجع السابق، ص 59.

الفصل الثاني: السياسة الوحدية وتحدياتها

في سلسلة الثورات السومرية، فتحطّم النظام الإداري تدريجياً تحت ضغط الغزوات التي كان البدو الرّحل يقومون بها من الخارج والثورات الداخلية التي قامت في كُبريات دول المدن⁽¹⁾.

ويعزّي أنطوان مورتكات نهاية الوحدة الأكادية (أنظر الخريطة رقم5) إلى عدم توفر حكام أقوياء متحمسين يعرفون كيف يحافظون عليها، فحينما ترك "نرام-سين" الدولة لِخَلْفِهِ "شاركاليشاري"^{*}، كانت جميع معالم الحياة في بلاد الرافدين قد تغيرت تماماً، وبذلك وجد نفسه مُجبراً يُجابه مهمة التوحيد وصهر الإمبراطورية بالوسائل الحربية من خلال كبح جماح المناهضات الداخلية والخارجية⁽²⁾، حيث استسلم الأكاديون نتيجة الغزو الجوتي⁽³⁾.



الخريطة رقم 5: الإمبراطورية الأكادية

عن: <http://arab-ency.com/img/res/3420/1.jpg>

ثانيا: دولة الإنبعث السومري الوحشية

لقد أزيل الغطاء والإطار السياسي الذي ألقاه سرجون من فوق جميع الحواضر التي لم تتوقف عن السعي لاسترداد سيادتها واستقلالها، إلا أنه لم يبدل في شيء، لا حضارة بلاد سومر

(1) - ملكة أبيض، المرجع السابق، ص 21.

* Shar-kali-Shari: (2217-2193 ق.م)، الملك الخامس وآخر أهم الملوك في السلالة الأكادية: أنظر: نيكولاس بوستغيت، المرجع السابق، ص 140.

(2) - أنطوان مورتكات، المرجع السابق، ص 102.

Jane R.Mcintoch, Op.Cit, p 319.

الفصل الثاني: السياسة الوحدية وتحدياتها



الصورة رقم 3 : تمثل الملك
أورنمو عن

<https://i.pinimg.com>

ولا تطورها⁽¹⁾، وما أنْ خَفَّتْ حِلَّةُ الجوتيين بمرور الزمن، باتخاذهم من مدينة كركوك عاصمة لهم، ظَلَّتْ المدن السومرية القديمة تتحين الفرص للثورة وبخاصة المدن البعيدة، ووقع عبء الكفاح المسلح على أكتاف دولة أوروك في عهد ملكها "أوتوحيكال-Utuhegal*" الذي تمكّن من القضاء⁽²⁾ على آخر ملوك الجوتيين "تريغان-Tirigan**" عام 2116 ق.م⁽³⁾ وانتقلت الزعامة السياسية الفعلية إلى ملوك دولة أخرى من

السلالات السومرية، وتمكّن ملوكها من المحافظة على نفوذهم بتأسيس دولة موحدة تمتد من الخليج العربي وحتى أقصى العراق شمالاً، واحتلت بذلك نفس حدود مساحة الإمبراطورية الأكادية⁽⁴⁾. وبدأت دول المدن تنسحب الواحدة تلو الأخرى وتنسلخ عن الحكومة المركزية، وكانت أور هي دولة المدينة الأولى التي أعلنت نفسها مستقلة ذات حكم ذاتي، سرعان ما تبعتها بقية المدن⁽⁵⁾. وقامت دولة سلالة أور الثالثة⁽⁶⁾ التي دام حكمها زهاء القرنين (2112-2004 ق.م)، وكان "أورنامو-Our_Nammou" (أنظر الصورة رقم 3) أول ملوكها، وأعيدت خلال عهدهم وحدة البلاد السياسية، ولم يكتفي ملوكها بهذا الإنجاز، بل شملت توسعاتهم مناطق خارجية،

(1) - عزمي سكر، المرجع السابق، ص 160.

* أوتوحيكال (2123-2113 ق.م): ملك مدينة أوروك السومرية، ظهرت مملكته كقوة كبيرة في جنوب بلاد النهرين أثناء تراجع الإمبراطورية الأكادية، ولعل الدور الرئيسي الذي شاهده عصره واشتهر به هو التحالف مع الحكام المحليين بهدف طرد الجوتيين - للمزيد أنظر: Dan Nadro, Op.Cit, p 313

(2) - أحمد عبد الرحمان عابدين محمد حسان، المعاهدات الدولية" دراسة في تاريخ العراق القديم في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، أطروحة دكتوراه، جامعة الزقازيق، بغداد، 2006، ص 17.

**تريغان: من الملوك الجوتيين الذين خلفوا الملك جوديا في الحكم على بلاد النهرين، فرّ بعد هزيمته نحو "دبروم-Dubrum"، وهناك أُلقي القبض عليه من قِبل أهل المدينة وتمّ تسليمه للقائد أوتوحيكال...الخ- للمزيد أنظر: عامر حنا فتوح، الكلدانيون /الكلدان منذ بدء الزمان"بحث في الهوية القومية الكلدانية"، الجمعية الثقافية الكلدانية عنكاو، 2007، ص 288؛ Gwendolyn Leick, Who's Who in the Ancient Near East, Routledge, U.S.A, 1999, p166

(3) - عبد الحكيم الذنون، (الذاكرة الأولى...)، المرجع السابق، ص 80.

(4) - أحمد عبد الرحمان عابدين محمد حسان، المرجع السابق، ص 17.

(5) - ملكة أبيض، المرجع السابق، ص 21 .

(6) - Wooley Sir Léonard, Les Sumériens, Trad: de E.Lévy, Payot, paris, 1930, p 95 ; Charles Keith Maisels, Op.Cit, p 123.

الفصل الثاني: السياسة الوجودية وتحدياتها

معيدين بذلك حدود وأسلوب الإمبراطورية الأكادية في أجزاء مهمة من الشرق الأدنى، ومنها بلاد عيلام والشام ووادي الخابور والبالخ والأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى ومناطق الخليج العربي⁽¹⁾.

وللمحافظة على هذا الإنجاز الوجودي حاول ملوكها تجنب العوامل الوخيمة التي نخرت في كيان الدولة الأكادية من قبلها، نتيجة التفريق بين السومريين والأكاديين وشطر أهل البلد الواحد شطرين، إذ استعانت بالعنصرين في جيشها وفي مناصب الإدارات، وجمعت بين اللغتين السومرية والأكادية في بعض الوثائق الرسمية والأدبية، وتسمّى ملوكها بأسماء سامية الصبغة مثل (شوسين، إبي سين)، ولو أنّ هذه السياسة لم تمنع ملوكها من انتسابهم إلى سومر وأهتها أكثر من غيرها، ولا من مركزة الحكم في عاصمتهم كما فعل الأكاديون من قبل⁽²⁾.

وفي شأن مجال الوحدة الجغرافية لعصر الإحياء السومري، يبدو التركيز في محاولة المحافظة والاكتماء بإمبراطورية تضم سومر وأكاد وشمال بلاد الرافدين وأجزاء من عيلام دون أن تتبنى أي فكرة خلاقة، حيث أن هذا العصر كان منهوك القوى من جراء التوترات الداخلية التي دامت لقرون عديدة، ومن جراء الهلع الذي سيطر عليها نتيجة حكم الدخلاء، كذلك تحاشى هذا العصر كل أنواع التوسعات الوجودية الكبيرة⁽³⁾.

وعلى أية حال، كان الشعب الأموري هو الذي وضع نهاية للسومريين كذاتية سياسية وعرقية ولغوية⁽⁴⁾، ومنذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد صار بإمكاننا النظر إلى المشرق القديم كوحدة اجتماعية متجانسة أسسها الأموريون ومن تفاعل معهم فاعليتهم الاجتماعية⁽⁵⁾، إلا أن تلك الممالك الأمورية لم تشهد حالات وحدة واتحادات فيما بينها، لغلبة الشعور القبلي - المديني على الشعور الوجودي، حيث كانت في بدايتها تحكمها سلالات أو مشيخات خرجت من طور البداوة

(1) - طه باقر، (مقدمة في تاريخ الحضارات ...)، المرجع السابق، ص 364.

(2) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 654.

(3) - انطوان مورتكات، المرجع السابق، ص 107.

(4) - Samuel Noah Kramer, *The Sumerians - Their History Culture And Character*, The University Of Chicago Press. U.S.A , 1963, p 288.

(5) - بشار خليف، (دراسات في حضارة المشرق ...)، المرجع السابق، ص 127.

المتنقلة والمرحلة منذ زمن، واستطاعت التفاعل مع قيم الحضار والتمدن⁽¹⁾، فتكوّنت منهم مشايخ ودويلات مدن متفرقة لم تنهيا للتوحد في دولة واحدة⁽²⁾.

ثالثاً: دولة بابل القديمة حاملة مشعل الوحدة.

بعدها حمل الأموريين بذور تلك الأفكار الحدودية وملاح الدولة الموحدة بمضمونها التحرري والإنساني⁽³⁾، وبخاصة خلال عصر الملك السادس من سلالة بابل القديمة "حمورابي- Hammourabi (أنظر الصورة رقم 4) الذي حظي بالشهرة في منطقة الشرق الأدنى القديم⁽⁴⁾، فكان من الطبيعي أن يلجأ في حكمه إلى الاعتماد على رجال قبيلته، فكان منهم حاشيته في القصر والعاملون في أجهزة الدولة المختلفة⁽⁵⁾، أما الأساس الثاني الذي اعتمد عليه في تحقيق الوحدة، فهو ما يعرف اصطلاحاً بـ "قانون حمورابي"⁽⁶⁾.



الصورة رقم 4: حمورابي ملك بابل عن: أندره بارو، المرجع السابق، ص 290.

وفي المجال الجغرافي اتخذ حمورابي إجراءات فعالة لتوحيد بلاد الرافدين في دولة مركزية واحدة، ولذلك استخدم كل إمكانياته بما فيها قوته العسكرية منطلقاً من مبدأ ((فرق تسد))، ونتيجة لهذه السياسة أصبحت بعض الدول المنفردة التي لم تقبل الدخول في اتحادات مع غيرها فريسة لسياسة حمورابي، فأخذ يحتل دويلة بعد أخرى مثل: إيسن* وأوروك وأور وغيرها..الخ⁽⁷⁾، وبالإضافة إلى هذا

(1) - بشار خليف، (نشوء فكرة الألوهية...)، المرجع السابق، ص 137.

(2) - الإدارة الثقافية للأمانة العامة لجامعة الدول العربية، المرجع السابق، ص 9.

(3) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 385-386.

(4) - Louis L. Orlin, **Life and Thought in the Ancient Near East**, the University of Michigan press, U.S.A, 2007, p18.

(5) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 235.

(6) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 133.

* تعرف حالياً باسم "بحريات"، تقع في الجنوب الشرقي لبلاد النهرين، وتبعد عن بغداد بحوالي 180 كلم - للمزيد أنظر: Marie-Joseph Seux, Op.Cit, p 34.

(7) - ك.ماتيف و أ.سازونوف، المرجع السابق، 1991، ص 92-93.

الفصل الثاني: السياسة الوحدوية وتحدياتها

الجال الجغرافي (أنظر الخريطة رقم 6) المحلي، فقد استطاع على الصعيد الخارجي السيطرة على بلاد عيلام من الشرق وبلاد سوريا من الغرب⁽¹⁾، كما تجدر الإشارة إلى أن مقدمة وخاتمة شريعة حمورابي تعتبر من أهم عوامل التوحيد، كما هي في الوقت نفسه تمثل انتقال القيادة الفكرية من السومريين إلى الساميين (البابليين)⁽²⁾.

إلا أن دور بابل السياسي انحصر عقب الإنجازات الوحدوية التي قام بها الملك حمورابي، والتي لم تدم طويلاً في عهد خلفائه، وأدى ذلك إلى انفصال العديد من المناطق عنها، منها بلاد الأهواز في الجنوب، فضلاً عن ضغوط الكاشيين والحيثيين والخوريين.... الخ، فكل هذه الضغوط المختلفة ساهمت في انهيار سيادة الحكم البابلي⁽³⁾، فانطفأت جذوة القوة البابلية في النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، وتم تدميرها نهائياً على يد الكاشيين، وبدأت مرحلة تراجع دامت خمسمائة عام شهدت تعاقب عدد من دول المدن على السيادة⁽⁴⁾.

بينما اتبع الحكام الكاشيون⁽⁵⁾ في الفترة (1595-1157 ق.م)⁽⁶⁾ على مدن الدول السومرية سياسة سلمية اهتمت بالأعمال الإنشائية، فابتعدوا عن أساليب القسر والإجبار تاركين للمدن السومرية حرية الحركة في إدارة شؤونها الداخلية، ولعل هذا التوجه هو الذي دفع الباحثين لاعتباره سبباً مباشراً في استمرار حكم الكاشيين قرابة الأربعة قرون، وهي مدة تعدت أي فترة حكم لأسرة محلية⁽⁷⁾.

(1) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 138.

(2) - يوسف الحوراني، البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي القديم، دار النهار للنشر، بيروت، 1978، ص 160.

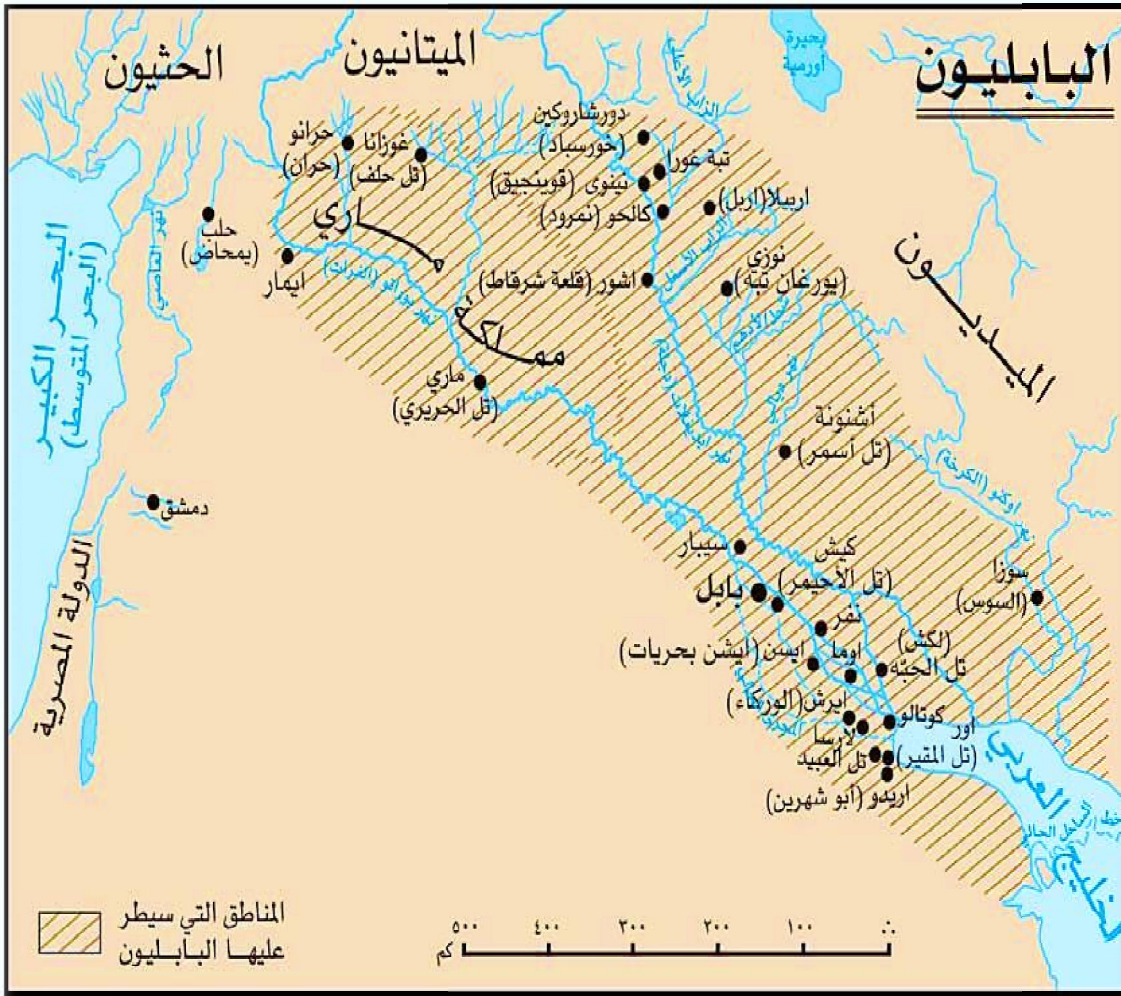
(3) - هاري و.ف. ساغر، الحياة اليومية في العراق القديم "بلاد بابل وأشور"، تر: كاسم سعد الدين، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000، ص ص 28-30؛ قاسم الشواف، المرجع السابق، ص 493.

(4) - ملكة أبيض، المرجع السابق، ص 23.

(5) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 143.

(6) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 142.

(7) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 143.



الخريطة رقم 6: الدولة البابلية القديمة

<http://arab-ency.com/img/res/2353/1.jpg>

رابعاً: الدولة الآشورية الحديثة الموحدة

لقد كان الدور السياسي في الشمال الرافدي ثانياً مقارنة مع الدور النشط للحياة السياسية في الجنوب طيلة الألف الثالثة ق.م، ولكن الأوضاع تغيرت مع بداية الألف الثاني ق.م، إذ بدأ صعود نجم الآشوريين بظهور أسرة حاكمة استطاعت أن تثبت أركان الحكم على أول زعمائها "شمشي أد" (1782-1815 ق.م)، إذ غدت بلاد آشور في عصره مملكة قوية بسطت

*التاريخ المبكر لهذه الشخصية الآشورية غامض لعدم معرفتنا تاريخ توليه العرش، لكن يُرجح أن يكون قد ورث الحكم من والده ((Ila- kabkabu//إيلا كابكابوا)) حوالي 1833 ق.م، من أهم أعماله سيطرته على شمال بلاد الرافدين ومد نفوذه نحو الغرب إلى الشمال من سوريا بعد الاشتباك مع ملك ماري "يخدن ليم" والسيطرة عليها..الخ- للمزيد أنظر:

Marc Van De Mieroop, A History of the Ancient Near East (3000-323 BC), Second Edition, Blackwell, U.S.A, 2007, p 107-108.

سيادتها على المناطق الرافدية الشمالية وتجاوزتها نحو الخارج، ووصلت إلى مملكة ماري غرباً وأقامت فيها حكماً آشورياً محلياً بزعامة "يسمح أدد"⁽¹⁾، وخلال العصر الآشوري الوسيط، تولى حكم البلاد قادة كبار وملوك أقوياء أمثال "أشور أوباليط (1365-1330 ق.م)، وأدد نيراري الأول (1307-1275 ق.م)، وشلمنصر الأول (1274-1245 ق.م)، وتوكلتي نينورتا الأول (1244-1208 ق.م) الذي استطاع أن يخضع بلاد بابل في عهد ملكها الكاشي "كاشتيلاش الرابع"⁽²⁾.

كما سعت السياسة الآشورية خلال عصرها الحديث* (أنظر الخريطة رقم 7) إلى إلحاق المدن التي ضمها الجيش إلى بلاد آشور، من خلال بناء القصور الملكية على أراضيها، فقد اتخذت مقرات سياسية للملك الآشوري نفسه، بغية استقبال الوفود الرسمية لمدن الشرق الأدنى القديم، واستلام الإتاوات منهم، وكذلك هدف الملوك الآشوريين إلى اتساع خارطتهم السياسية من خلال ضم هذه المدن، وتعيين الحكام المواليين لها ولإدارتها، وتنفيذ السياسة والأوامر الملكية الصادرة من العاصمة الآشورية، فيما يتعلق بسير أعمال العمارة والبناء ومراقبة الحكام ومحاسبتهم على أي تقصير قد يحدث، وقد قام أغلب الملوك الآشوريين بنصب تماثيلهم بعد الانتهاء من أعمالهم المعمارية، وتدوين انتصاراتهم التي تحققت على البلدان المجاورة إيداناً من الملك الآشوري بأن المدينة صارت من أملاكه، وعلى أهاليها أن يتعايشوا مع تمثال سيدهم الجديد، فإقامة هذه التماثيل وتدوين النصوص عليها يؤكد أن الفنان والكاتب كانا يرافقان الجيش الآشوري لتدوين وتسجيل أعمال الحكام في المناطق التي حققت فيها انتصارات⁽³⁾.

ولتحقيق مبدأ الوحدة الآشورية في طابعها السياسي فقد تمكنوا من شق التجمع المعادي لدولتهم وإخضاع الدول الداخلة فيه منفردة كل على حدا⁽⁴⁾، لكن يجب الاعتراف أن الشعور

(1) - باسم ميخائيل جبور، المرجع السابق، ص 8.

(2) - نفسه، ص 8-9.

* تمثل المرحلة الأخيرة من تاريخهم (911-612 ق.م) أين أصبحوا سادة وحكام بلاد الرافدين ومؤسسين للإمبراطورية الآشورية الحديثة- للمزيد أنظر قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 147.

(3) - أحمد زيدان الحديدي، منجزات الملوك الآشوريين العمارية في البلدان المجاورة ما بين 911-612 ق م، ع 5، مجلة الدراسات التاريخية، 2013، ص 36.

(4) - ك. ماتيف/أ. سارونوف، المرجع السابق، ص 189.

الحدودي للأشوريين في بلاد الرافدين قد تحقق كحقيقة سياسية وتاريخية⁽¹⁾، عن طريق الإخضاع بالقوة وبمختلف الأساليب العسكرية، الأمر الذي جعل "الملك - الأشوري - يعرف أن كل الأراضي تكرههم"⁽²⁾، إذ تمكّنوا في ذلك من القضاء على التجزئة والاحتلال الأجنبي بغية إرساء قواعد ومبادئ وحدتهم من الخليج جنوباً إلى الأناضول شمالاً⁽³⁾، في شكل دولة واحدة، ولم يحسب هذا الأمر سوى إضافة للمحاولات الحدودية للحكام السابقين في تاريخ بلاد الرافدين أمثال لوكال زاكيزي وسرجون الأكادي وحمورابي وغيرهم⁽⁴⁾.

فالجال الجغرافي الناتج عن الطموحات الحدودية التي حظي به الأشوريون، وذلك بالاتصال المستمر مع البلدان والأقاليم المجاورة، حتى امتد نفوذهم السياسي إلى معظم أنحاء الشرق الأدنى القديم، وزاد اتصالهم الحضاري عن حدود إمبراطوريتهم ووصل إلى جزر البحر المتوسط والأناضول وبلاد فارس وغيرها، وكان من النتائج الطبيعية لذلك أن التقت الحضارة الآشورية بحضارات البلدان والأقاليم الأخرى التي وصلوا إليها، فأثرت بحضارات تلك البلدان وتأثرت بها، الأمر الذي ولّد تفاعل وتمازج حضاري⁽⁵⁾، غير أن مصيرهم، كان السقوط، وهو نفس مصير السلالات الأولى التي سعت إلى الوحدة، سابقا.

خامساً: الكلدانيون آخر سلالة موحدة.

يرجح أن يكون أسلوب التحالفات هو الفاعل في عملية الإطاحة بالآشوريين، لتحقيق وحدة جديدة، استطاع خلالها أحد حكام الأقاليم "نابوبلاصر - Nabopolassar" أن يوحد مجموعة المنشقين عن حكم الآشوريين، ويبدأ ثورته في سنة 612 ق. م، بالاستيلاء على العاصمة الآشورية⁽⁶⁾ نينوى⁽⁷⁾ والتي اعتبرها ديودور الصقلي "من أهم المدن المحصنة على غرار باقي المدن المجاورة لها،

(1) - علي ياسين أحمد، *النظرة الحدودية عند الآشوريين*، وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 2001، ص 109.

(2) - Morten Braten, Op.Cit,

(3) - علي ياسين أحمد، المرجع السابق، ص 109.

(4) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 131-157.

(5) - محمود شاكر، *(موسوعة الحضارات القديمة...)*، المرجع السابق، ج 1، ص 117.

(6) - ملكة أبيض، المرجع السابق، ص 24-25.

(7) - Marie-Joseph Seux, Op.Cit, p 35.

وذلك يسبب التحصينات العسكرية والمعدات الحربية لهذه المدينة"⁽¹⁾، وانتهى سلطانهم، وخلف "نبوخذنصر" والده " نابوبلاصر " الذي حكم حتى حوالي 526 ق.م، وبعد زوال آخر مظاهر السلطة الآشورية في كل مناطق الهلال الخصيب، وجد الكلدانيون أنفسهم سادة المنطقة بلا منازع، وبدءوا يحكمون إمبراطورية متعددة الأقوام كانت أعظم ما شهدته منطقة الشرق الأدنى القديم، وصار يعد هذا الإنجاز بالطور الحضاري الرابع في بلاد الرافدين، إذ تطلع الكلدانيون فيه إلى إعادة أجداد وعظمة أسلافهم البابليين القدماء من خلال إحياء شريعة حمورابي والبعث من جديد الملامح الرئيسية للنظام السياسي الذي كان سائدا في بابل القديمة⁽²⁾.

ويعد قيام الدولة البابلية الحديثة (أنظر الخريطة رقم 7) أو ما يصطلح عليها بـ الدولة الكلدانية إشراقه جديد للوحدة في تاريخ العراق القديم، فالتعاقب السياسي للدول العراقية القديمة بتغير ملوك ومجيء غيرهم بعمليات فردية محدودة، بالإضافة إلى زوال الدولة الآشورية رافقه مواصلة نمط سياسة الوحدة الذي تناقله الكلدانيون وهو دليل على التواصل الحضاري في شكله السياسي، بالوقوف ضد أمراض التجزئة التي استشرت في أرجاء بلاد الرافدين بعد حقبة طويلة من الانفصال بين أجزائه، والتي من غير الجائز تجاهلها أو التقليل من خطرها⁽³⁾.

أخبر "نبوخذنصر-Nabuchadnezzar" خادمه " أسيناز " عن المؤشرات الدالة في نظرنا على قرب نهاية الوحدة البابلية، حيث أعلن أن: "يجتمع كل أفراد البلاط، وكل الكهنة والقادة العسكريين، وكل الموظفين والخدم، وحتى العبيد، كلهم في هذه اللحظة، ويجب أن يلحقوا به إلى السطح"، فأسرع الكل إلى تلبية الأمر الخطير، وبعد اكتمال عددهم، صرخ قائلاً: "أنا نبوخذنصر، أتبنا لكم أيها البابليون بالبلاء الذي سيقضي عليكم...، وسيأتي بغل فارسي تسانده أهتكم ليفرض عليكم سلطته ويستعبدكم وسيتواطأ معه ملك ميديا الذي انتصر على الآشوريين وهو سيروك للآلهة التي استطاع مرضاتها، قبل أن يخون شعبه ويتلاشى ويفنى في الهاوية السحيقة، أو في البحر، أو أنه سيتجه نحو طرق أخرى فيتوّه في الصحاري حيث لا مدناً ولا طرقاً تُدامسه بالأرجل، بل وحوش مفترسة تمرح بحرية، وطيور تخفق بأجنحتها وتطير، وسيكون الكائن الوحيد بين

Diodore de Sicile, Loc.Cit, II, VI.

_(1)

(2) - ملكة أبيض، المرجع السابق، ص 24-25.

(3) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 151-160.

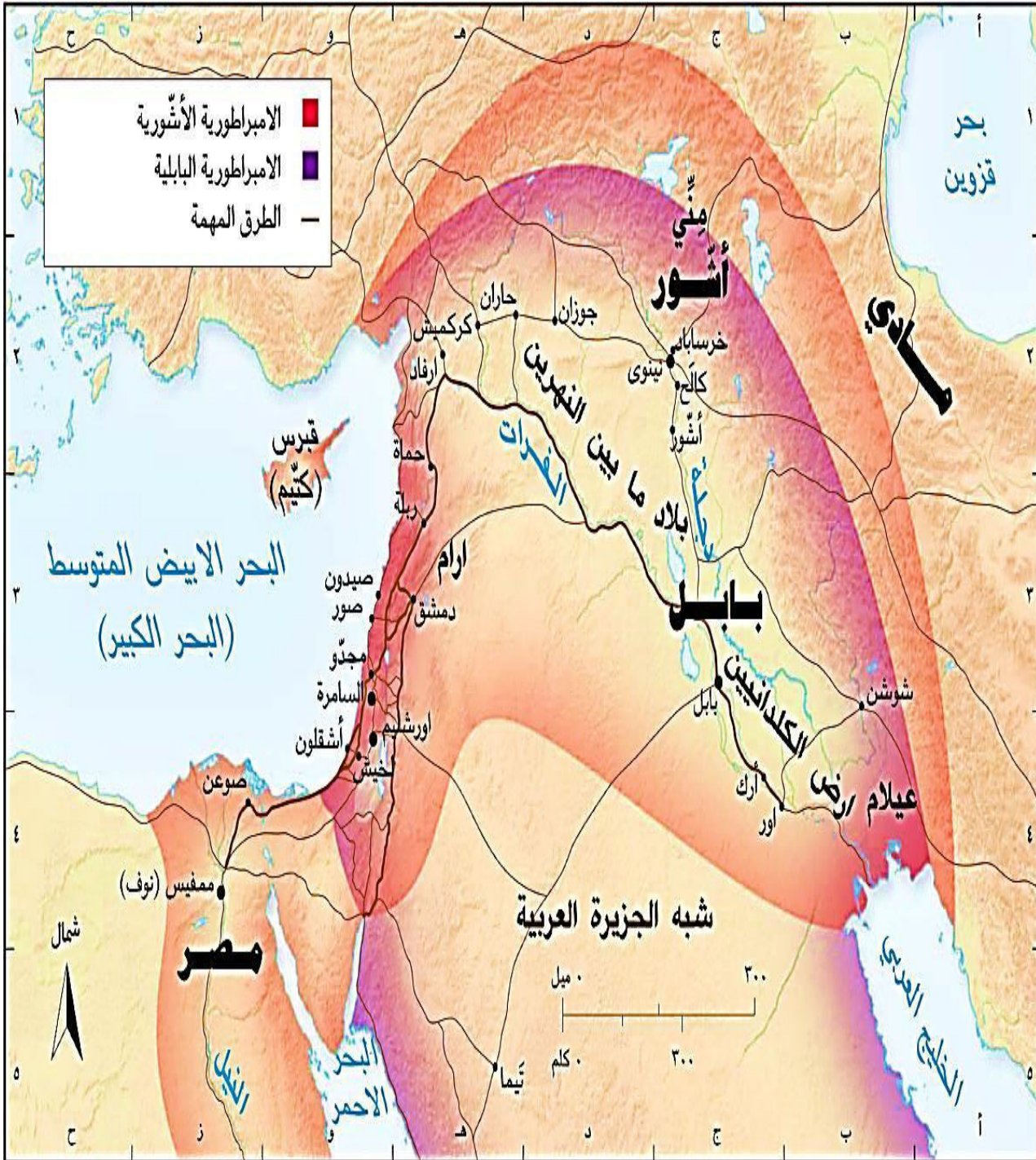
صخور الأغوار العميقة، أما أنا، فباستطاعتي أن أدرك أجلي المفضل قبل أن تدخل هذه الفكرة إلى نفسي"⁽¹⁾. وبهذا قضي وانطفأ آخر مشعل من مشاريع الوحدة الرافدية، بسقوط آخر سلالة حاكمة (الكلدانيون) في يد الفرس.

يمكن القول أن الملوك والحكام في بلاد الرافدين وعلى مرّ العصور عرفوا أهمية الوحدة، إذ تعني لديهم وحدة الأراضي ووحدة السكان على اختلاف انتماءاتهم وأصولهم، فانصهروا مع بعضهم البعض مُكوّنين مثلاً للوحدة⁽²⁾ دون إغفال دور المتغيرات السياسية التي كان لها الأثر الكبير في تعميق النظرة التاريخية لشعوب البلاد، فهذه المتغيرات التي أصابت الملوك والإمبراطوريات، ميّزت عصوراً تاريخية على عصور أخرى، توحى لنا في الواقع بأهمية الاستفادة من تاريخها، فحقيقة الصعود والهبوط السريعين في مقدرات الشعوب والأمم من منطلق فكرة أن التاريخ يعيد نفسه، لَحَظَهَا المؤرخون لتاريخ بلاد الرافدين، وبخاصة تكرار ظاهرة زوال الأمم والممالك، وظهور أمم وممالك جديدة في مراحل متعاقبة، إذ لا يمكن المرور على هذه الظاهرة دون تحليل أو تفسير، حيث يذهب ملك ليأتي ملك جديد، كما تتضح في فترات حكم الممالك حيث تذهب مملكة لتأتي مملكة جديدة، ففترات الصعود والهبوط في مقدرات الأمم والممالك يبدو أنها كانت مناسبة لهذا التجدد⁽³⁾.

(1) - فليب عطا الله، نبوخذ نصر "عظمة بابل وإحراق نينوى وتدمير مملكة يهوذا"، ط1، دار الجيل، بيروت، 1994، ص308.

(2) - غيث حبيب خليل، التكوين السكاني للمجتمع العراقي القديم حتى سقوط بابل 539 ق.م، ع11، مجلة أداب الفن الفراهيدي، بغداد، 2009، ص317.

(3) - محمد خليفة حسن أحمد، التفكير التاريخي والحضاري عند الشعوب العربية السامية القديمة، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2000، ص134-135.



الخريطة رقم 7: الإمبراطورية الآشورية والبابلية الحديثة عن:

<https://upload.wikimedia.org>

II- مظاهر الفكر الحدودي:

إن غايتنا ليست متابعة مسألة "الوحدة" واهتمام ملوك بلاد الرافدين بهذا المجال من خلال السعي الحثيث إلى تجسيدها بوضوح، بالقدر من إضفاء صفات ومظاهر وألقاب وحدوية منها ما هو متوارث عن السومريين والأكاديين، والذي كان يحظى باحترام وإجلال من سكان المنطقة، و منها

ما لها مدلول سياسي أوديني إذا اقتضى الأمر، باعتبار أنّ هذا الأخير له فاعليته أكثر من استخدام القوة في مجال الوحدة، ومنها ما ظهر في عصور متأخرة عقب الفترة الأكادية.

1- الألقاب الوحدوية:

إنّ دراسة الألقاب التي تلقّب بها الحكام والملوك الأوائل لها أهميتها الكبيرة في حضارة العراق القديم، إذ قد تعطي تصوراً عن نظام الحكم ومراحل تطوره. كما توضح الألقاب الملكية مكانة حامل أيّ من الألقاب ومركزه ودوره في قيادة المجتمع وصلاحياته وواجباته ونظرة الناس إليه، كما أنها تعكس الوضع السياسي القائم وانتقال السلطة تدريجياً من أيدي رجال الدين إلى أيدي حكام المدن الدنيويين، وذلك نتيجة حتمية لتغيّر المجتمع وتطوره. وتشير النصوص المسمارية المكتشفة إلى أنّ الألقاب التي استخدمها الحكام والملوك اختلفت من مدينة إلى أخرى، وكذلك من فترة إلى أخرى، وبذلك تعد الألقاب الملكية من الموضوعات المهمة لدراسة الوضع السياسي والإداري الذي كانت عليه المدن السومرية والممالك التي قامت في العراق القديم في عصوره المبكرة. ومن ثم في العصور التاريخية اللاحقة، ومن جانب آخر فإنّ دراسة تغيّر الألقاب تعكس مدى تطور المجتمع على المستويات كافة كما تعكس تطور النظرة إلى الحياة الدينية والحربية من خلال دراسة مراحل التدرج الزمني وما صاحبه من منجزات سياسية من أول أشكال نظام الحكم إلى الفترات المتأخرة من تاريخ العراق القديم⁽¹⁾.

أ- لقبى أن EN و الانسي ENSI:

ظهر هذان اللقبان خلال فجر السلالات، وارتبطا بتطور النظام السياسي في بلاد الرافدين، إذ تشير المعتقدات الدينية السائدة في هذه الفترة أنّ القوم كانوا يعتقدون بأنّ الآلهة ما خلقت البشر إلا لخدمتها، وأنّ جميع المظاهر والظواهر الطبيعية تسير وفق رغبات الآلهة، لذا وضعوا ثقتهم المطلقة بمن قام بدور الوسيط بينهم وبين الآلهة، وهم الكهنة، استرضاء للآلهة وتجنباً لنقمتهما، ومن هذا المنطلق فإنّ أول الحكام الذين تولّوا الإدارات المركزية في المدن والقرى كانوا

(1) - هيفاء أحمد عبد الحاج محمد، ألقاب حكام وملوك العراق القديم، مذكرة ماجستير، جامعة الموصل، بغداد، 2007، ص1.

الفصل الثاني: السياسة الوحدية وتحدياتها

من طبقة الكهنة، وكان يطلق على هؤلاء الحكام مصطلح "إن-EN"⁽¹⁾، ويؤيد ذلك أن الحكام كانوا يسكنون⁽²⁾ في جناح خاص من المعبد يُدعى "كيبارو"⁽³⁾.

لكنه منذ نهاية عصر فجر السلالات السومرية⁽⁴⁾، تطور منصب "إن-EN" إلى سلطة دنيوية، وبمعنى آخر كان هناك انفصال بين السلطة الدينية والسياسية، وهذا راجع لزيادة مهام منصب ال-EN، فأخذ يُلقب نفسه بـ "إنسي-ENSI"⁽⁵⁾، أي أمير أو حاكم المدينة كون البلاد ما تزال مجزأة إلى وحدات سياسية، يرأس كل منها حاكم (إنسي)، ويعتبر مُمثلاً لـإله دويلة المدينة والمشرف على الأراضي التابعة للمعبد⁽⁶⁾، فنجد مثلاً "إنسي لجش" تعنى حاكم مدينة لجش و"إنسي أور" تعنى حاكم مدينة أور⁽⁷⁾.

فقد جرى العرف السياسي في بلاد الرافدين أن كل حاكم ينجح في مد نفوذه إلى المدن الأخرى بأن يتخذ لقباً سياسياً معيناً⁽⁸⁾، فكان لحامل لقب "إنسي-Ensi" واجبات ومهام متنوعة، نظراً لاتساع المجال الجغرافي لمنطقة حكمه، إذ كان يحكم مدن صغيرة أو مدناً أوسع في بعض الأحيان⁽⁹⁾، وفي هذا الصدد اعتبر "دانيال فليمينغ" (Daniel E. Fleming): أن النظام السياسي المتمثل في "مدينة الدول الحلية" مصطلح مقبول، لكن وضع حل نهائي في مشكلة النزاعات الحدودية، بالإضافة إلى مسألة التوسع الإقليمي أمر صعب ومتوقع، واعتبر فكرة التوحيد أمر

(1) - من خلال مقارنة اللقب "إن-EN" وما يماثله لفظاً ومعنى في اللغة العربية نجد أنه يحمل معنى لفظة "عين" أو "أعيان" المشتق من العين الباصرة التي تُعطي معنى "وجهاء القوم" أو "أعيانهم" أي "أسيادهم" و"أشرافهم" وهو أمر طبيعي لإنتماء كل من اللغتين الأكادية والعربية إلى أصل مشترك واحد-للمزيد. أنظر: هيفاء أحمد عبد الحاج محمد، المرجع السابق، ص222.

(2) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ص42.

(3) - Samuel Noah Kramer , Op.Cit, p141.

(4) - طه باقر وآخرون، (تاريخ العراق القديم...)، المرجع السابق، ج2، ص54.

(5) - هيفاء أحمد عبد الحاج محمد، المرجع السابق، ص222.

(6) - أكرم محمد عبد كسار، الملك المؤله في بلاد الرافدين، مج11، ع3+4، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، 2012، ص234.

(7) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص94.

(8) - نخبة من أساتذة التاريخ، المرجع السابق، ص323.

(9) - Henri Frankfort, **Kingship and The Gods**, The University of Chicago Press, U.S.A ,1978, p226.

لا يمكن تصوّره نظرياً، ويرى أنّ لقب ENSI كان ينظر إليه كونه حارساً للاله ، حيث يختاره هذا الأخير و يُنتخب من جميع الناس، ويعاد تعيينه كل عام⁽¹⁾.

وقد استغل الحكام "الإنسي" الظروف من أجل إحكام قبضتهم على مرافق المدينة وثرواتها، فكانوا يعمدون إلى افتعال الصراعات بين مدينة وأخرى، كما يعمدون إلى مصادرة الحقوق الجماعية لِيَبْنُوا عليها قصوراً أو قلاعاً إقطاعية، ويزيدون من الضرائب المفروضة على أفراد الشعب، ثم أخذوا يطورون الواقع الاجتماعي الروحي للمعبد الذي كان قد تأسس منذ البداية على الواقعية، وحب العمل، وعلى الروح الجماعية والتعاون والمحبة ومساعدة الآخرين، لذا نجدهم يبتكرون وسائل غيبية تربطهم بالآلهة، جاعلين من أنفسهم وكلاءها على الأرض، كما أخذوا يُرَوِّجون بأنّ سلطتهم مستمدة مباشرة من السماء، وليس لِأحدٍ أن يُعارض أو يعترض⁽²⁾.

ليظهر أيضاً لقب (الملك-Lugal) في أواخر نفس الفترة، إلّا أنه بنهاية عصر فجر السلالات شاع استعماله حتى طغى على لقب "الإنسي" خاصة بعد القضاء على نظام دويلات المدن السومرية وظهور الإمبراطورية الأكادية⁽³⁾.

ب- لوكال / لوكال كالاما:

في أواخر فترة دويلات المدن السومرية ظهر لقب "ملك الأقاليم" وباللغة السومرية "لوكال كالاما" حيث أنّ "لوكال"⁽⁴⁾ تعني الكاهن الملك أو الحاكم⁽⁵⁾ و"كالاما" تعني "إقليم"، وأوّل هؤلاء الملوك هو "لوكال زاكيزي" آخر حاكم في فترة دويلات المدن السومرية⁽⁶⁾.

استخدمه بعض الحكام المحليين الذين امتدت سلطتهم الدنيوية على أكثر من مدينة كبيرة واحدة، ويعني لقب "لوكال" بالسومرية "الرجل العظيم"، والذي يُترجم عادة بمصطلح الملك، وكان اللقب في بداية الأمر محدود الاستعمال، ثم شاع استخدامه من بعد تأسيس الدولة الأكادية، وأصبح اللقب القديم "إنسي" لا يستخدم عندما يراد الإشارة إلى صفة الملك "لوكال" الدينية وإلى

(1) — Daniel E. Fleming, *democracy's Ancient Ancestors Mari and Early Collective Governance*, cambridge university press , U.S.A , 2004, p17.

(2) — أحمد داوود، المرجع السابق، ص 316.

(3) — أكرم محمد عبد كسار، المرجع السابق، ص 234.

(4) — قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 94.

(5) — Katherine Reece , Op.Cit, p 4.

(6) — قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 94.

علاقته بالآلهة، وغدت سلطة الحاكم سلطة زمنية وأصبح النظام السائد في البلاد هو نظام⁽¹⁾ الدولة الموحدة كضرورة حتمية.

ثم إن معاناة مصطلح "لوكال" ماهية ومفهوما وسلوكاً وتطبيقاً نجده في الحضارة العراقية القديمة يعني "الرجل العظيم"، وفي الفلسفة يمثل "الملك - الرئيس" ذي الصفات أو الخصال المميّزة التي لا تحصل لشخص اعتيادي، بل لإنسان مميّز، وفي المخيلة الفنية صورة الشجاع المنقذ والموجه الذي يحمل بشارة النصر معه دوماً وهي كلها صفات تطبع الحاكم الوحدوي⁽²⁾، إذ يعكس هذا اللقب الصفة العسكرية للحاكم كونه قائد الجيش، وبالتالي تشمل واجباته الدفاع عن مدينته⁽³⁾.

كما نجد هذا اللقب "لوكال" اتخذ حمورابي في بداية حكمه جرياً على عادة الملوك العراقيين القدماء وسبغه في كثير من كتاباته التذكارية التي تظهر ألقابه وصفاته الدينية المتعددة، ظهر فيها مثلاً للملك الصالح ورمز للوحدة، لكن يبدو أنه في بداية حكمه اتخذ ألقاباً ملكية تدل على سيطرته في مدينة بابل وبعض المناطق المجاورة لها، ومن تلك الألقاب نجد "حمورابي الأمير - Hammurabi-Rubum" علاوة على "الملك القوي - Sharrum - Dannum = LUGAL.KALA.GA" و"ملك بابل LUGAL KA.DINGIRRA KI=Shar-BabilimKi"، لكن بعد سيطرته على بلاد الرافدين اتخذ ألقاباً كانت تطلق على الملوك العظام منذ زمن سرجون الأكادي وملوك سلالة "أور" ومنها: "ملك الجهات الأربع - SharKibart-Arbaim" و"ملك سومر وأكاد - SharShumeri u Akkadi= LUGAL KI. EN. GI(ki)URRI" ⁽⁴⁾.

واتخذ الحكام الكاشيون (1595-1157 ق.م) لقب الملك "لوكال"، وبصورة عامة نفس الألقاب الوحدية التي استخدمها الملوك السابقون، ومنها: الملك الجبار ملك بابل، الملك القوي،

(1) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ص 43.

(2) - صباح حمودي نصيف، البطل "دراسة تاريخ المفهوم فلسفياً"، ع5، مجلة السياسة الدولية، بغداد، 2006، ص161-162.

(3) - Jane R. McIntoch, Op.Cit, p334.

(4) - محمد طه الأعظمي، حمورابي (1792-1750 ق.م)، شركة عشتار للطباعة والنشر، بغداد، 1990، ص57.

وملك سومر وأكاد، بل أضافوا إلى تلك الألقاب (ملك الكاشيين) و (ملك كاردونياش)⁽¹⁾، وتدلنا صيغ هذه الألقاب أنّ الملوك الكاشيين تحاشوا تأليه أنفسهم بعكس الملوك الأكاديين، كما عجزوا عن فهم مضمون الملكية البابلية، الذي عرفته سلالة حمورابي، وهو أنّ الملك كان يلقب نفسه بـ "رسول السلام"⁽²⁾.

ج- ملك الجهات الأربع / ملك العالم:

تصور السومريون أنّ العالم يتكوّن من أربعة أقسام، تمثّل أرض سومر وأكاد قسميه الجنوبي والشمالي على الترتيب، أمّا قسمه الشرقي فيتكوّن من أراضي "سوبار" و"خازي"، بينما أطلق على قسمه الغربي اسم "مارتو"⁽³⁾.

تبنى أوتوحيكال في مسلته ألقاباً قام بترجمتها الباحث الأثري صمويل نوح كريم وأكد عليها طه باقر بأنّها من أجود النصوص ومنها "ملك أوروك وملك الجهات الأربع والملك الذي لا يقدر أحد على مخالفة أمره" في خاتمة نصوصه خلال انتصاره على الجوتيين⁽⁴⁾، ويعتقد بعض الباحثين أن هذا التصرف كان إحدى المحاولات في تاريخ الإنسانية لتقديس سلطة الملك الحكومية، وذلك بتكوين فكرة الدولة العالمية الكونية والتي سبقه إليها سرجون الأكادي "ملك دول الدنيا الأربع"⁽⁵⁾.

وبعد أن تربع على عرش سلالة أور ثلاثة ملوك على التوالي: إمار-سين (1991-1982 ق م)، ثم "شو-سين" (1982-1975 ق م)، وبعده "أبي-سين" (1975-1950 ق م) آخر ملوك هذه السلالة، لقب هؤلاء الثلاثة أنفسهم "....البطل القوي، ملك أور، ملك جهات العالم الأربع"⁽⁶⁾، لكن لا ننسى أن بعض ملوكها ولأسباب سياسية ألّهُوا أنفسهم، وعلاوة على استعمالهم "ملك الجهات الأربع"، فقد كان ذلك تجسيداً لفكرة الحكم السومري القديمة، وكرّد

(1) - محمد بيومي مهران، حضارات الشرق الأدنى القديم "الحياة السياسية الاقتصادية والتشريعية"، ج1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2005، ص71.

(2) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص261-262.

(3) - Samuel Noah Kramer, Op.Cit, p 285.

(4) - عامر حنا فتوح، المرجع السابق، ص288-289.

(5) - ك.ماتيف و أ. سازونوف، المرجع السابق، ص76.

(6) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص147.

فَعَل لِإِحْيَائِهَا نَتِيجَةً لَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْأَكَادِيَّةُ الْعَالَمِيَّةُ، إِذْ أَضَافُوا إِلَيْهَا ظَاهِرَةَ التَّأْلِيهِ الَّتِي بَدَأَهَا " نَرَام سِين" مِنْ قَبْلِ فِي الْعَصْرِ الْأَكَادِي كُونَهُمْ قَدْ وَرَّثُوا التَّرَكَّةَ السِّيَاسِيَّةَ لِحُكَامِ عَالَمِ⁽¹⁾ الشَّرْقِ الْأَدْنَى الْقَدِيمِ⁽²⁾.

عَقِبَ سَقُوطُ أَوْرٍ قَامَ بَعْضُ مَلُوكِ الْعَصْرِ الْبَابِلِيِّ الْقَدِيمِ فِي الْمَقَاطَعَاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَالشَّمَالِيَّةِ فَأَلَّهَوْ أَنْفُسَهُمْ وَاتَّخَذُوا لِقَبِّ " مَلِكِ الْمَقَاطَعَاتِ الْأَرْبَعِ " لَكُنْهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى مَسْتَوَى حَيَازَةِ " إِرْتِ أَوْر " ⁽³⁾.

اعْتَبَرُ الْكَاشِيُونُ أَنْفُسَهُمُ الْوَرَثَةَ الشَّرْعِيَّةِينَ عَقِبَ سَقُوطِ وَحْدَةِ الدَّوْلَةِ الْبَابِلِيَّةِ، فَبَاعْتَلَاءِ " كَانْدَاش " الْعَرْشِ الْكَاشِيِّ فِي بَابِلٍ أَطْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ " مَلِكِ جِهَاتِ الْعَالَمِ الْأَرْبَعِ " ⁽⁴⁾، كَمَا أَضْفَى كُلِّ مِنْ " كَانْدَاش " وَ " أَجُوم " وَ " كَاشْتِيلِيَّاش " إِلَى اللَّقَبِ السَّابِقِ إِضَافَةً " مَلِكِ سُومِرٍ وَأَكَادِ مَلِكِ بَابِلٍ " ⁽⁵⁾.

كَانَتْ الْعَادَاتُ وَالتَّقَالِيدُ السِّيَاسِيَّةُ لَدَى الْمُلُوكِ الْأَشُورِيِّينَ أَنْ سَمَّوْا أَنْفُسَهُمْ حُكَّامِ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعَةِ لِلْعَالَمِ (الشَّمَالِ، الْجَنُوبِ، الشَّرْقِ، الْغَرْبِ)، فَمِنْ الْمُمْكِنِ تَمَاماً أَنَّ نَفُوذَهُمْ قَدْ تَأَكَّدَ وَنَالَ تَطَوُّراً لَاحِقاً لِمَوْضُوعِ السِّيَادَةِ الْعَالَمِيَّةِ، وَالَّتِي وُلِدَتْ عَلَى أَرْضِيَّةِ تَفْكِيرِ الْحُكْمِ الْمَطْلُوقِ، الْخَارِجِ عَنْ نِطَاقِ شَعْبٍ وَاحِدٍ وَبِلَادٍ وَاحِدَةٍ وَالْمَبْنِيِّ عَلَى تَوَجُّهَاتٍ شَمُولِيَّةٍ⁽⁶⁾، إِذْ تَوَسَّعَ الْفِكْرُ الْأَشُورِيُّ بِاسْتِحْدَاقِهِمْ لِقَبِّ ((مَلِكِ الْعَالَمِ)) وَانْتَحَلَ الْمُلُوكُ الْبَارِزُونَ الصِّفَةَ الْإِلَهِيَّةَ إِمْعَاناً مِنْهُمْ فِي السُّلْطَةِ الْمَلِكِيَّةِ وَتَقْدِيسِ شَخْصِيَّةِ الْحَاكِمِ بِقَصْدِ تَخْوِيفِ الشَّعْبِ وَإِخْضَاعِ جَمَاهِيرِ الْعَمَالِ، وَأَقْدَمَ شَاهِدٌ عَلَى تَأْلِيهِ الْمَلِكِ مِنْ خِلَالِ مَا هُوَ مُدَوَّنٌ عَلَى مَسَلَّةِ "مَانِيشتوسو" حَيْثُ تَحْمِلُ صِفَاتُ اللَّقَبِ الْإِلَهِيِّ وَمِنْهَا ((شَارُوكِينِ إِيْلِي)) أَيْ ((سَرْجُونُ إِلَهِي))، وَهَنَّاكَ مِنْ اعْتَبَرُ نَفْسَهُ نَائِبَ الْإِلَهِ أَشُورِ⁽⁷⁾.

(1) - أكرم محمد عبد كسار، المرجع السابق، ص 240.

(2) - أحمد مجيد راضي الشمري، المرجع السابق، ص 1.

(3) - أمل ميخائيل بشور، المرجع السابق، ص 78.

(4) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص 252.

(5) - أنطوان مورتنكات، المرجع السابق، ص 191.

(6) - ك. ماتيف و أ. سارزونوف، المرجع السابق، ص 186.

(7) - سهيل قاشا، عراق الأوائل " حضارة واد الرافدين "، ط 1، العارف للطبوعات، بيروت، 2010، ص 210.

بالعودة إلى الآشوريين يرى "تجلات فاللاسّر" الأوّل بأنه ((الملك القوى، ملك العالم كله، الذي لا منافس له، ملك الأقاليم الأربعة، ملك الأمراء جميعاً، سيد السادة ملك الملوك القوى، ذلك الذي حكم الأمم... في جموعهم، الرّاعي الشرعي الذي مجّد اسمه فوق أسماء كل الأمراء، القاضي العظيم الذي قاد آشور ذراعيه والذي أعلن اسمه إلى الأبد ليكون راعياً للأقاليم الأربعة، غازي الأقاليم البعيدة على حدود مملكته في الأقاليم العليا والسفلى، الذين يعنى بهائوه الأقاليم الأربعة، الشعلة القوية التي تسقط على الأرض المعادية مثل العاصفة الرّاعدة، ذلك الذي يأمر "إنليل" * ليس له منافس والذي جنّدك وصرع أعداء آشور))⁽¹⁾.

ولو تمعنا في كتابات "توكلي نورتا" (1208-1244 ق.م) نجد ما يوحي بلقب ملك العالم ومنها ((ملك الكون، ملك آشور، ملك الجهات الأربع (من العالم)،...جميع الشعوب، الملك العظيم، ملك كاردونياش (بابل)، ملك سومر وأكاد، الملك الأعلى، ملك الجبال (الصحراء) السهول، ملك سوبار، والجوتيين...))⁽²⁾.

إنّ قراءة العلامات الرمزية للنصوص المسمارية وترجمتها توحى أيضاً بتوراث هذه الألقاب الوحدية، وهو ما نجده في النص التالي:

أ - العلامات الرمزية:

- 1: أي. كالأش. ياب. أ. مان كور أش.
- 2: توكول. ماش مان شو مان كور أش.
- 3: أ10. أيرن2. تاخ2 مان مان كور أش - ما.

* يُعد من أهم الآلهة الرافدية، ويعني اسمه "ان - ليل" ب"سيد" الريح والروح"، يُعرف بإله الهواء والبحر وما يتعلق بهما، ومن وظائفه إنزال العقاب على الملوك إذا ما ظلموا، ويمثل في نظرهم مظهراً للبطش والقوة، جاء اسمه في العديد من الشرائع العراقية ولعل أهمها شريعة حمورابي.... الخ - للمزيد انظر: محمد أيوب الشناوي، المرجع السابق، ص 117؛ نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص 115.

(1) - ل - ديلايورت، المرجع السابق، ص 346-347.

(2) - Daniel David Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, Vol. I, The University of Chicago Press, U.S.A, 1926, p 50.

ب- قراءة العلامات باللغة الأكادية والأشورية

1: أَيْكَلْ أَشُور- ناصر- أَيْلَشَ رِكِشَّة مات أَشُور.

2: أَيْلْ تُكْلَتِي- نَنُورْتَا شَرِ كِشَّة شَرِ مات أَشُور.

3: أَيْلْ أَدَد- نَارَارِي كِشَّة شَرِ مات أَشُور- مَا.

ج- الترجمة العربية لهذه السطور:

قصر آشور ناصر بال (الثاني)، ملك العالم،

ملك بلاد آشور.

2: ابن توكلي- نَنُورْتَا (الثاني)، ملك العالم،

ملك بلاد آشور.

3: ابن أَدَد- نَارَارِي (الثاني)، ملك العالم،

ملك بلاد آشور⁽¹⁾.

وبالتالي فمنذ أن أصبحت آشور أقوى دولة

عظمى في العالم القديم، ووصلت يحدودها في

[: https://i.pinimg.com.jpg](https://i.pinimg.com.jpg)

الشرق إلى جبال زاغروس وفي الغرب حتى البحر

المتوسط بما في ذلك بلاد مصر، وفي الجنوب انتشرت أملاكها ونفوذها حتى البحر الجنوبي (الخليج

الفارسي)، وفي الشمال حتى القفقاس تقريباً، لوحظ أن الملوك الآشوريين قد لقبوا أنفسهم

"زعماء جهات الدنيا الأربع" ، ومن بينهم تميّز آشور بانيبال (أنظر الصورة رقم 5) (669-630

ق.م)⁽²⁾ الحامل للقب ((ملك كل الأمم))⁽³⁾ و((ملك العالم))⁽⁴⁾

(1) - نائل حنون، المدافن والمعابد في حضارة بلاد الرافدين القديمة" دراسة عن الشعائر والعمارة في النصوص المسمارية والآثار"، ط1، ج1، دار الخريف للنشر والتوزيع، دمشق، 2006، ص 133.

(2) - ك. ماتيف و أ. سارونوف، المرجع السابق، ص 194-195.

(3) - Léon Thoarens , Panorama des Littératures- Mésopotamie, Egypte, Palastine, Perse, Grèce, Marabout Université, Belgique, 1966, p 59.

(4) - John Malcolm Russell, The Writing on the Wall - Studies in the Architectural Context Of Late Assyrian Palace Inscriptions, Eisenbrauns, U.S.A, 1999, p 24.

ومن خلال دراسة مضامين النصوص المسمارية يظهر أنَّ هناك ألقاباً كثيرة استخدمها الحكام في الحقب المختلفة منذ عصر فجر السلالات وحتى نهاية العصر البابلي الحديث وما يلاحظ أيضاً أنَّ عدداً من الملوك حملوا ألقاباً معينة بعد توليهم العرش مباشرة رغبة في إضفاء القدسية والشرعية على حكمهم والحصول على رضى الآلهة عنهم حسب اعتقادهم، كما حملوا العديد من الألقاب التي تشير إلى ضم مناطق جديدة تحت حكمهم فذكروا أسماء تلك المناطق مع اسم مملكتهم المركزية، ويبرز ذلك من خلال تتبع ما استخدم من ألقاب في العصور التاريخية المتتالية التي تابعت على العراق القديم، إذ عمد الملوك على استعمال عدد من الألقاب الدالة على سعة سلطانتهم وقوة نفوذهم، وهكذا فإن الألقاب التي اتخذها العراقيون القدماء تعكس مدى اتساع نفوذ الملوك أو الحكام وسيطرتهم على المدن المختلفة أو البلدان المجاورة. كما قد تعطي إشارات إلى محاولات الملك في توحيد الأقوام التي سكنت العراق، فتلقَّب عدد منهم بلقب "ملك بلاد سومر وأكد" مثلاً إنما هو دلالة على رغبتهم في توحيد البلاد وإشارة إلى الإقليمين الرئيسيين اللذين يسيطر عليهما الملك وهما بلاد سومر وبلاد أكد، وكلما اتسع نفوذ الملك ظهرت ألقاب جديدة تشير إلى ذلك، كما هو الحال عند سيطرة الملوك الأكاديون على مناطق واسعة شملت أرض الرافدين والبلدان المجاورة لها⁽¹⁾.

تعد هذه الألقاب ذات صيغ وحدوية متكاملة في المعنى والمنشأ، إذ جاءت من الفكر الديني والسياسي السومري و تعاقبت متطورة حسب جغرافيتها وطبيعتها السياسية التي تحكم سياسة الوحدة، ومن هذا المنطلق تعد الوحدة مقدّسة ولها منزلتها وأهميتها في مشاعر سكان بلاد الرافدين، وما الألقاب التي اختارها الملك إلا ليمثلها ويحكم باسمها وحدة البلاد.

2- الخطابات الوحدوية:

يخضع الخطاب الوحدوي في بلاد الرافدين تبعاً للتحويلات السياسية الكبرى التي حدثت، وباعتباره يمثل صورة حقيقية وواقعية للفكر الوحدوي، فقد أولى ملوك وحكام بلاد الرافدين الاهتمام به من خلال كتاباتهم ونصوصهم المتضمنة لهذا المبدأ، لما له من أهمية في ترسيخ الوحدة بأبعادها المختلفة.

(1) - هيفاء أحمد عبد الحاج محمد، المرجع السابق، ص 1-2.

أ- الخطاب السياسي:

نجد في خطاب شولجي السياسي والمفعم بالحيوية الدينية والمسجل في تراتيل عصره ما يوحي بقوة مركزه السياسي والديني قائلاً بأنه: "أنا الملك، من الرحم أنا البطل، أنا شولجي منذ الولادة، أنا صنيدي، أنا سبع مزجر أنجبه تين، أنا ملك الجهات الأربع، أنا الراعي حافظ الرعية، أنا النبيل، إله كل البلدان...الخ"⁽¹⁾، كما تضمنت نصوص سرجون الأكادي الذي دُبِجَت حوله بطولات وفتوحات وأساطير تناقلها الأجيال شعور بالفخر لما وصل إليه من انتصارات في سبيل الوحدة بقوله: "والآن، على كل ملك يبتغي تسمية نفسه ندًا لي أن يصل حيثما وصلت"⁽²⁾.

انتقلت السيادة إلى مدينة الوركاء، وذلك على يد شخصية "أوتوحيكال-Utuhegal" الذي حاول إعادة السياسة المركزية لمدينة الوركاء، متبعًا في ذلك الأسلوب السياسي الأكادي في نظام الحكم⁽³⁾ حيث ورد في إحدى الخطابات السياسية ما يوحي بوجود فكر وحدوي مشتق من رحم الدين، ومن ذلك أن "إنليل، ملك كل البلاد، قد أعطى أوامره...إلى أوتوحيكال، الرجل القدير، ملك الوركاء، ملك الأنحاء الأربعة، الملك الذي لا يقدر أحد أن يخالف أوامره"⁽⁴⁾.

وفي العصر البابلي القديم⁽⁵⁾ بدأ الانفصال والصراع السياسي والتنافس على السلطة على أشده بين دويلات المدن الأمورية للسيطرة على المنطقة وتوحيدها لإعادة الحكم المركزي في بلاد الرافدين، حيث كَلَّما نمت قوة إحدى الدويلات وتعاظمت وضمت إليها عددًا من المدن والدويلات المجاورة سارعت الدويلات الأخرى لإقامة الأحلاف العسكرية للوقوف أمامها والتصدي لها وبالتالي تحجيم خطرهما، وكان لشخصية الملوك والحكام الذين كان جُلُّهم من الأقوام الأمورية القادمة من الغرب أثر كبير في إقامة الأحلاف والانضمام إلى هذا الحلف أو ذاك، حيث كان هناك أكثر من حلف واحد يتوزع على المنطقة حسبما أوردته الرسائل المكتشفة في ماري⁽⁶⁾، والتي جاء في محتواها بأنه "لا يوجد هناك ملك هو الأقوى وحده، فهناك عشرة أو خمسة عشر ملكًا

(1) - فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000، ص294.

(2) - Georges roux, Op.Cit , p 154.

(3) - نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص146.

(4) - Henri Frankfort, Op.Cit, p 258-259.

(5) - Charles Keith Maisels, Op.Cit, p 123.

(6) - عامر سليمان، العلاقات السياسية الخارجية، حضارة العراق، ج2، دار الحرية، بغداد، 1985، ص121.

يتبعون "حمورابي" ملك بابل، والعدد نفسه يتبع "ريم سين" ملك لارسا، والعدد نفسه يتبع "ايال - بيل" ملك أشنونا، والعدد نفسه يتبع "إبي - إيل" ملك قطنا، وعشرون ملكاً يتبعون "يارم - لم" ملك يمنخدا⁽¹⁾. إذ لا يوحى النص السابق بوجود أحلاف سياسية وتكافؤ القوى فحسب، إذ كل مملكة تضم إليها عدداً من الأقاليم للتقليل من الخطر والحفاظ على حدود مملكتها، ومع هذا الأسلوب في اتخاذ الأحلاف إلا أنه يمكن أن تحمل كل مملكة نية سياسية خفية للتوحيد.

ويصف لبيت عشتار في خطابه السياسي بأنه "ملك الأقطار كلها... الراعي الحكيم، الذي أعلن اسمه لإمارة البلاد"⁽²⁾، كما نلمس هذا النوع من الخطابات في بعض الأسطر من مقدمة قوانين حمورابي على أنه: "رافع اسم بابل، منعش أور... الملك المدرك... الراعي العاقل، الأمير الرائع... الفكر العطوف، الذي بلغ ينابيع الحكمة... راعي الناس"⁽³⁾، ومع أن هذا النص فيه إشارات إلى صفات حمورابي وليس الوحدة، إلا أنها صفات تنطبق على كل حاكم لديه طموح في هذا المجال.

يظهر أيضاً الخطاب السياسي مخلداً تاريخياً في مادة العلاج التي استخدمها الآشوريون، ومنها التمثال الذي يعود للملك الآشوري آشور ناصر بال (883-859 ق.م)، فقد جاء مدوناً عليه ما نصه: "قصر آشور ناصر بال ملك العالم، ملك الآشوريين، ابن توكلتي ننورتا، ملك العالم، ملك الآشوريين، ابن أدد نيراري ملك العالم، ملك الآشوريين"⁽⁴⁾.

وقد أشار أسرحدون (680-669 ق م) في خطابه الوحدي والذي ذكر فيه تجديده لقصر ولاية العهد في مدينة "تربيص" * من أجل ولي عهده آشور بانيبال قائلاً: "أنا الملك أسرحدون، الملك العظيم، ملك العالم ملك بلاد آشور، جددت بناء بيت ريدوتي إلى آشور-بانيبال ولي العهد

(1) Marc Van De Mieroop, Op.Cit, p 85.

(2) -عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 50.

(3) -عبد الحكيم الذنون، (التشريعات البابلية...)، المرجع السابق، ص 43-46.

(4) -بهيجة خليل إسماعيل، الكتابة "حضارة العراق"، ج1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985، ص258.

* تعرف أيضاً باسم "شريكخان"، تقع غرب مدينة نينوى - للمزيد أنظر: علي شحيلات و عبد العزيز إلياس الحمداني، تاريخ العراق القديم، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971 ص347.



الصورة رقم 6: جزء من مسلة العقبان للملك "

أي إناتوم " حاكم لجش عن:

<https://i.pinimg.com.jpg>

في مدينة تريبص"⁽¹⁾، ليُواصل "أشور
بانيبال" السياسة الوحدية في خطابه
وبنفس الشكل قائلا: "أنا أشور بانيبال،
الملك القوي، ملك العالم، المتحضر في
أشور، ملك الأركان الأربعة من المعمورة
والعامل الأكبر للخير، ملك العدالة،
عاشق الخير، وهو الذي يسبب الازدهار
لشعبه، وهو الذي يطلب من موظفيه
الذين يقفون أمامه أن يقفوا باحترام
وينفذوا أوامره الملكية"⁽²⁾، كما وُصِفَ
"نبوخذنصر" في أحد النصوص الخطابية
بأنه: ".....الأمير الورع... بطل الملوك،

...الوصي على بابل..."⁽³⁾، و "نبونائيد" بقوله: "ملك بابل، الأمير العظيم، الراعي الفطن الذي
يحترم الآلهة العظمى، الوكيل التقي...الأمير العاقل"⁽⁴⁾.

ب- الخطاب العسكري:

لوحظ على مسلة تعود إلى أمير لجش "أي-أناتوم" (أنظر الصورة رقم 6) والمؤرخة لحوالي
2600 ق.م يذكر بها انتصاراته على أهل مدينة "أوما"، ويصف الأمير حربه وانتقامه بقوله :
"ذبحت أوما في مدينتهم، تركت أجسادهم في سهل للطيور والوحوش لتلتهمها ومن ثم كوَّمت
هياكلهم خمسة أكوام في خمسة مواضع منفصلة"⁽⁵⁾، إذ يبدو من النص أن هذا الانتصار في طابعه

(1) - عامر سليمان، الآثار الباقية "موسوعة الموصل الحضارية"، ط1، مج1، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1991، ص537-538.

(2) - هاري ساغز، (عظمة بابل...)، المرجع السابق، ص281.

(3) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 119.

(4) - ل-ديلابورت، المرجع السابق، ص215.

(5) - بشار خليف، (دراسات في حضارة المشرق...)، المرجع السابق، ص175.

الفصل الثاني: السياسة الحدودية وتحدياتها



الصورة رقم 7: جزء من مسلة العقبان تصور انضباط الجنود المنظمين والمسلحين في شكل صفوف متراصة. عن: أندره بارو، المرجع السابق، ص 158-159.

الحربي (أنظر الصورة رقم 7) يحمل سياسة الانتقام من العدو بل حتى الحرمان من الدفن في المقابر.

وفي عصر "لوكال زاكيري" نلمس الإحساس بالشعور الحدودي لتاريخ البلاد السياسي مخلداً في نص باللغة السومرية⁽¹⁾ قائلاً: "عندما أعطى إنليل ملك البلدان جميعها ملوكية البلاد إلى-لوكال زاكيري-، فقد وجه إليه أنظار البلاد كلها من شرقها إلى غربها، وأخضع له جميع

الناس من البحر الأعلى - على امتداد نهري دجلة والفرات - إلى البحر الأسفل ومن الشرق إلى الغرب، وعندئذ لم يبق لإنليل أي منافس له، فاستلقى في ظل حكمه جميع الأقاليم بسلام، وابتهجت البلاد في عهده، وانحنى جميع رؤساء سومر وحكام الأقطار الأجنبية كلها أمامه في مدينة الوركاء، وفي تلك الأيام كانت الوركاء تقضي أيامها في فرح عظيم، و-أور- كأنها ثور تشمخ برأسها عالياً نحو السماء، و-لارسا- مدينة إله الشمس ((أتو)) المحبوبة تطلق صيحات الفرح، و-أوما- مدينة الإله ((شارا)) المحبوبة ترفع سواعداً عظيمة...، ورفعت مدينة-الدير- عنقها نحو السماء"⁽²⁾.

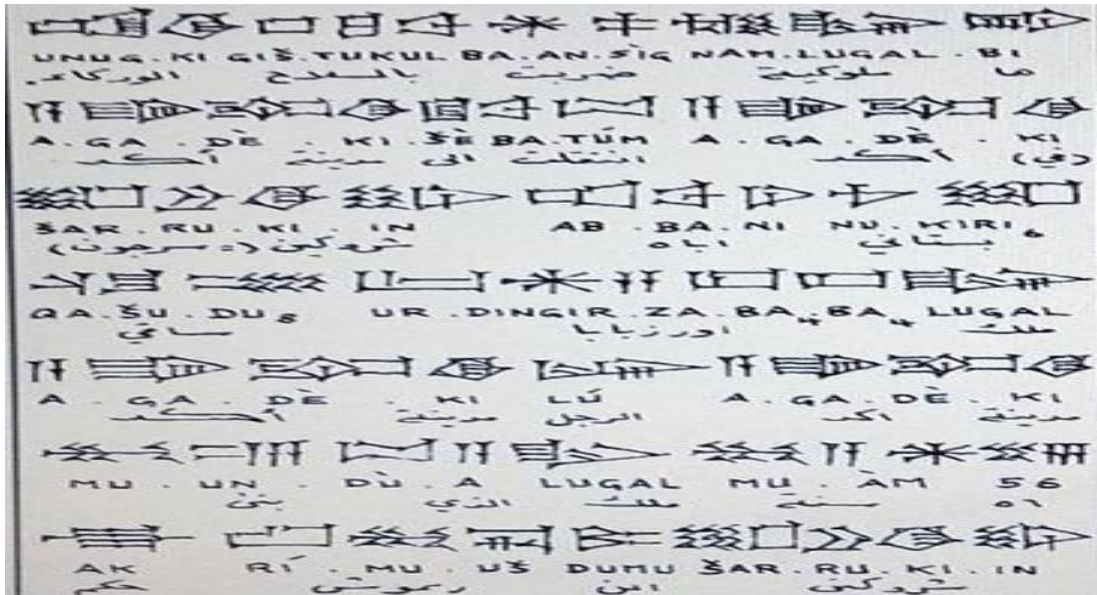
أما الخطاب الحربي للملك سرجون الأكادي فقد ركّز على استخدام القوة العسكرية في إخضاع مدن العراق القديم كافة، والتي كان على رأسها مدينة الوركاء وزعيمها الملك لوكال زاكيري، فجاء في خطابه: "سرجون، ملك أكاد...، ملك كيش، ...، ملك البلاد، الإنسي العظيم لإنليل، هزم الوركاء. هدم أسوارها وانتصر في معاركه على أهلها، ألقي القبض على لوكال زاكيري ملك الوركاء في المعركة، جلبه في هيئة كلب مَطُوق حتى بوابة إنليل، سرجون ملك أكاد انتصر في معاركه على سكان أور وأسقط أسوارها، هزم مدينة إغار واسقط أسوارها، وهزم المناطق التابعة لها من مدينة لجش وحتى البحر، سلاحه غسله في البحر، انتصر في معاركه على مدينة (أوما) وهدم أسوارها...، الإله إنليل أعطى الحكم لسرجون...، وأعطاه سلطان البحر الأعلى إلى

(1) - بهنام أبو الصوف، المرجع السابق، ص 16.

(2) - فاضل عبد الواحد علي، (سومر أسطورة وملحمة...)، المرجع السابق، ص 67؛ بهنام أبو الصوف، العراق "وحدة الأرض والحضارة والإنسان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1993، ص 19.

البحر الأسفل⁽¹⁾، وقد وقفت عيلام وماري طائعة أمام سرجون ملك البلاد استعاد كيش و أمر أهلها يتولّي مقاليدها"⁽²⁾.

نلاحظ ظهور خطاب سرجون الأكادي بوصفه خطاباً أشبه بالبيان العسكري الذي اعتمده السياسيون في توضيح سير المعارك في الوقت الحاضر. وأعطى نقطة تحول أخرى في تاريخ العراق القديم، معلناً عن بدء مرحلة جديدة هي مرحلة العصر الأكادي، وكون ذلك خطاباً سياسياً عسكرياً شكّله مع أحد النصوص المثبتة في جدول إثبات الملوك السومريين فيما نصه: "الوركاء قد سقطت بقوة السلاح، وملوكيتها قد انتقلت إلى أكاد، وفي أكاد سرجون، الذي كان والده بستانياً وكان هو ساقياً عند (ملك كيش) أور-زبابا، قد أصبح ملكاً، وأنه هو الذي بنى أكاد وحكم لمدة 56 سنة"⁽³⁾، ومن خلال التمعّن في الصورة التالية، نلاحظ احتواءها بعض إنجازات التوحيد السرجوني للمنطقة وبأسلوب عسكري. أنظر الشكل رقم 1



شكل رقم 1: نسخة من الجزء الخاص للملك سرجون من جدول إثبات الملوك⁽⁴⁾، بتصرف من الطالب.

(1) Sabatino Moscati, Op.Cit, p 70; Douglas Frayne, Sargonic and Gutian Period (2334-2113 B.C.), University of Toronto Press, Canada, 1993, p 7.

(2) فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ط3، دار علاء الدين، دمشق، 1997، ص78.

(3) فوزي رشيد، سرجون الأكادي أول إمبراطور في العالم "الموسوعة الذهبية"، ط1، دار الثقافة، بغداد، 1990، ص25.

(4) نفسه، ص24.

بقيت شهرة القائد سرجون الأكادي الذي يحمل في سياسته الداخلية مبادئ الوحدة في ذاكرة الأجيال طويلاً مشيرة إلى الفكر الوحدي الحربي الذي حظي به في الخطاب الذي يخلد ذكره "جاء سرجون الأكادي ولم يكن له نِدْ أو منافس، لقد نشر سنه المهيب فوق كل البلدان، فهو الذي عبر البحر إلى الشرق، ودحر البلدان في الغرب ووصل إلى أبعد مدى في السنة الحادية عشر من حكمه"⁽¹⁾، كما تبرز هذه النصوص الوحدية إخضاع سرجون للمدن السومرية المهمة ومنها "أور" "لجش" و"أوما"⁽²⁾، في قوله "أحرز سرجون النصر على مقاتلي هذه المدن ودمر أسورها ودك مدنها"⁽³⁾.

وفي نظر عامر حنا فتوحى فإنه بعد سرد أوتوحيكال في نصوصه لترتيبات المعركة يخلص في خطاب خاتمه إلى أن: "الجوتيون قد جمعوا جيوشهم هناك في 'إيلي-تبا'، فقام أوتوحيكال الرجل العظيم بدحرهم وأسر قاداتهم، عندئذ فرّ تريغان- إلى مدينة دبروم، لكن أهالي المدينة ألقوا القبض عليه ووضعوا القيد في يديه وسلّموه مع عائلته إلى أوتوحيكال، ولما جيء ب-تريغان- ألقى بنفسه أمام عرش أوتوحيكال⁽⁴⁾ فجلس أوتوحيكال، وتريغان يتمدد عند قدميه، برجله داس على رقبته واستعاد سياحة سومر بيديه" في حوالي 2130 ق.م، بعد أن كسر النفوذ الجوتي وأسر ملكهم واسترجاع بذلك مدينته⁽⁵⁾.

وخلال العصر السومري الحديث⁽⁶⁾ نجد خطاب أورنامو الحربي يفاخر نفسه وعمله قائلاً: "أورنامو...المحارب الشجاع..."⁽⁷⁾، أما خطابات "أبق أد الثاني" **Ipiqadad II** "حاكم أشنونا فتذكر بأنه: "الملك العظيم، الملك الذي وسّع أشنونا، راعي ذوي الرؤوس السود ..."⁽⁸⁾.

(1) - بهنام أبو الصوف، (العراق وحدة الأرض...)، المرجع السابق، ص 21.

(2) - محمد عبد اللطيف محمد علي، المرجع السابق، ص 257.

(3) - Samuel Noah Kramer, Op.Cit , p 324.

(4) - عامر حنا فتوحى، المرجع السابق، ص 289.

(5) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 381-382.

(6) - Hartmut Schmokel, **Le mond D'Ur Assur et Babylone**, éditions Correa, Buchet/ Chastel, Paris, 1957, p 50-51.

(7) - فوزي رشيد، سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة "القوانين في العراق القديم"، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص 38.

(8) - Frayne Douglas, **Old Babylonian Period**, University of Toronto Press, Canada, 1990, p 545.

بدأت بشكل عام الملكيات الأميرية في العصر البابلي القديم تتوسع توسعاً ملحوظاً خاصة في عهد "حمورابي" ملك بابل و"ريم سين" ملك لارسا، وهو ما تحدثت عنه وقائع الأحداث السنوية في السنة الحادية والعشرين من حكم هذا الأخير قوله: "بالسلاح الماضي دمر... ريم سين - أوروك، وأحرز نصراً مؤزرًا على كل الجيوش المتحالفة معها، إلا أنه صان حياة المواطنين"⁽¹⁾، ولم تكد تمضي عشر سنوات على التوسع السابق حتى حقق "ريم سين" نصراً آخر أكثر أهمية، وذلك بدخول جيوشه مدينة "إيسن" حيث يقول مُباهياً "...تمكّن الراعي - ريم سين - من فتح المدينة الملكية إيسن، إلا أنه لم يمس سكانها يسوء وتركهم يتكاثرون في الحيلة..."⁽²⁾.

وخلال عصر حمورابي لوحظ التفكك الداخلي والحرب الأهلية والدّمار الذي مرّ على البلاد، ومع هذا فقد تبنى أساليب الفكر الوحدي، من خلال تحقيق السلام والرّفاة للمجتمع الرافدي⁽³⁾، وذلك بجمع الكلمة وتوحيد الجهود على الصعيدين السياسي والعسكري وتوجيه الطاقات لتحقيق مبدأ الاستقرار⁽⁴⁾، حيث نلمس ذلك في نصوص خاتمة القانونية: "أنا حمورابي الملك الكامل - لقد أهداني إنليل ذوي الرؤوس السوداء، وسلّمني مردوخ منصب الراعي عليهم، لم أكن ليئناً عليهم، لم أضع يدي في حضني، لقد بحثت لهم عن أماكن الرّفاة، خفّفت عنهم الشدائد وجعلت النور يسطع فوقهم، لقد قضيت بالسلاح الماضي الذي سلّمني إياه كل من زبابا وعشتار، وبالفهم (الحكمة) الذي منحني إياه "أيا" كنصيب، وبالقدرة التي عزّزني بها مردوخ، قضيت على الأعداء، في الأعلى والأسفل، أخذت المقاومات لصالح رخاء البلاد جعلت الناس الحضر يبتهجون (بسلام) على المروج، ومنعت الخوف يأتي إليهم، وأوكلني كبار الآلهة، هكذا أنا الراعي، الذي يُحافظ على السلامة وعصاه عادلة، إن ظليّ الجميل يتسع مغطياً المدينة، وأخذت محتضناً سكان بلاد سومر وأكاد، وبواسطي نشاطي وبحيوتي كان حظهم الرّخاء، وأهتم بهم بالسلام"⁽⁵⁾، وما

(1) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 132.

(2) - نفسه.

(3) - أنطوان مورتكات، المرجع السابق، ص 138.

(4) - محمد طه الأعظمي، (حمورابي....)، المرجع السابق، ص 40.

(5) - عبد الحكيم الذنون، (التشريعات البابلية...)، المرجع السابق، ص 85-86؛

يُجَلِّي ويدعم سياسة الوحدة في طابعها العسكري ربط التوراة بين شخصية "أمرافل" * والملك السادس لسلالة بابل الأولى في أساليبه الحربية باعتباره ملكاً عظيماً ورفيع الشأن قدّم أجلاً للخدمات لشعبه ⁽¹⁾ تبعاً لنص سفر التكوين الذي يقول: «1 وَحَدَّثَ فِي أَيَّامِ أَمْرَافَل مَلِكِ شِنْعَارَ وَ أَرِيُوكَ مَلِكِ أَلْسَارَ وَكَدَّرَ لَعُومَرَ مَلِكِ عِيلَامَ وَتَدْعَالَ مَلِكِ جُوبِيمَ 2 أَنَّ هَؤُلَاءِ صَنَعُوا حَرْباً مَعَ بَارَعِ مَلِكِ سَدُومَ وَبِرْشَاعِ مَلِكِ عَمُورَةَ وَشِنَابَ مَلِكِ أَدَمَةَ وَشِمْثِيرَ مَلِكِ صَبُوبِيمَ وَمَلِكِ بَالَعِ (الَّتِي هِيَ صُوغَرُ). 3 جَمِيعُ هَؤُلَاءِ اجْتَمَعُوا مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عُمُقِ السَّدِيمِ (الَّذِي هُوَ بَحْرُ الْمِلْحِ). 4 اِئْتَتِي عَشْرَةَ سَنَةً اسْتَعِيدُوا لِكَدَّرَ لَعُومَرَ وَالسَّنَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ عَصُوا عَلَيْهِ. 5 وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ أَتَى كَدَّرَ لَعُومَرَ وَالْمُلُوكُ الَّذِينَ مَعَهُ وَضَرَبُوا الرِّفَائِيَّينَ فِي عَشْتَارُ وَتَقْرَنَائِمَ وَالزُّوزِيِّينَ فِي هَامَ وَالْإِمِّيَّينَ فِي شَوَى قَرَيْتَائِمَ 6 وَالْحُورِيِّينَ فِي جَبْلِهِمْ سَعِيرَ إِلَى بَطْمَةَ فَإِنَّ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ. 7 ثُمَّ رَجَعُوا وَجَاءُوا إِلَى عَيْنِ مِشْفَاطَ (الَّتِي هِيَ قَادِشُ). وَضَرَبُوا كُلَّ بِلَادِ الْعَمَالِقَةِ وَأَيْضاً الْأُمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي حَصُونِ تَامَارَ 8 فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ وَمَلِكُ عَمُورَةَ..... فَهُمْ يَأْخُذُونَ نَصِيبَهُمْ» ⁽²⁾.

ورد أيضاً في بعض خلفات خطابات حمورابي المكتوبة أن: "ريم سين وقف في وجهه، وأن حمورابي... جمع جنده وبرز لقتال ريم سن ملك أور، وغزا مدينتي أور و لارسا ونقل كنوزهما إلى بابل....، ولكن "عيلام" هبّت لنجدة "ريم سن" فتصدى لها حمورابي... وبمساعدة الرّبين "أنو" * و "إنليل" أدلّ بلاد "ياموت بال" والملك ريم سين... ⁽³⁾، ومن خطابات الحربية أيضاً أنه "أسقط ماري وملجيوم حرباً، وجعل ماري... وكذلك علة مدن أخرى تابعة لسوبارتو بموجب اتفاقية ودية تستمع إلى أوامره" ⁽⁴⁾.

* ورد اسمه بهذا الشكل في كتاب العهد القديم، وعلى أنه ملك شنعار "بلاد بابل"، وقيل أن المذكور والمقصود في النص شخصية حمورابي - للمزيد أنظر: هنري س. عبودي، المرجع السابق، ص 125.

(1) - إيج. إى. إيل. ملرش، المرجع السابق، ص 53-54.

(2) - سفر التكوين، (14: 1-2-3-4-5-6-7-8).

** أن / أنو : "أن" اسم سومري قديم، يعني ((ما فوق))، ((السماء))، و "أنو" صيغته الأكادية "يُعتبر زعيم ومؤسس السلالة الإلهية المالكة، كان مركز عبادته في الوركاء (أوروك)، ويُعرف معبده باسم ((أي-أننا)) - للمزيد أنظر: Jean Bottéro, Op.Cit, p 288; Jane R. McIntoch, Op.Cit, p 320 .

(3) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص 170-171.

(4) - Georges roux, (La mésopotamie Essai...) , Op.Cit, p179.

وقد عُثر على لوح في مدينة "أور" يحتوي نصاً باللغة السومرية، وفي لوح آخر يحتوي نفس النص لكن باللغتين السومرية والأكدية يفتخر فيه همورابي مادحاً نفسه بقوله "أولئك الذين أظهروا لي العداوة قتلتهم، حطمت أسلحتهم، ودمرت بلادهم وأخذت سكانهم أسرى، وسحقت جيوشهم، أولئك الذين عصوا أمري وضعت قدمي فوق ظهورهم، أنا الملك الذي حقق رغبة الإله "مردوخ" القتالية وجعل قوة الأعداء تتلاشى، طردت الأعداء الحاقدين، واجتثت جذور الشر من البلاد، وتركت المواطنين يعيشون بأمان واطمئنان في رغد من العيش، ولم يعد هناك من يقض مضجع الآمنين"⁽¹⁾، وبالتالي كانت كل انتصاراته الحربية على الممالك المعاصرة لحكمه في الأساس تأكيداً ودلالة على نظريته الوحودية تجاه بلاد الرافدين⁽²⁾، والتي حققها بجد السيف كما يقال، وتحفيز همم الجنود من خلال خطابه العسكرية .

زيادة على ما سبق فقد خلّد همورابي انتصاره الوحودي في نشيد النصر الذي افتخر به سكان بلاد الرافدين في عصره واصفاً نفسه: "همورابي الملك البطل، ابن صاعقة الملوك، ومُذلّ البلاد المعادية، وخامد الثورات ومحطم المناوئين"⁽³⁾.

استمر الخطاب الحربي في عهد خلفاء همورابي، حيث نجد أن "سمسوايلونا-Samsuilluna" (1749-1712 ق.م) يذكر بأنه قد "تحوّل الكل في سومر وأكاد ضدي - المقصود جنوب و وسط بلاد الرافدين- وخلال عام واحد شهرت السلاح في وجوههم ثمانين مرات، وحوّلت أماكن تواجد أعدائي إلى خرائب، واجتثت جذور الشر والفساد من البلاد وتمكنت من أن أجعل البلاد برمتها تُصيغ السّمع إلى أوامري"⁽⁴⁾.

وعند الآشوريين ظهر الخطاب الوحودي في طابعه الحربي خلال بداية حكم الملك "أشور أوباليط" الذي تمكّن من توطيد أركان الدولة الآشورية وطرد الحوريين، موجهاً أنظاره لتخليص البلاد من السيطرة الكاشية، حيث ذكر حدث "في زمن آشور أوباليط (الأول) ملك بلاد آشور، أن ثار الجيش الكشي ضد 'كاراخارداش' ملك بلاد كارديناش (بابل) ابن 'موبلطات شيروا' ابنة

(1) -هورست كلينكل، المرجع السابق، ص ص63-64.

(2) - سالم يحيى الجبوري، الحرب النفسية في نصوص العصر البابلي القديم "المسوغات والأهداف"، ع9، مج16، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، بغداد، 2009، ص327.

(3) - نخبة من أساتذة التاريخ، المرجع السابق، ص330.

(4) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص ص64-65.

'أشور أوباليط' وقتلوه،(ثم) عينوا 'نازي بوكاشالكشي'، والذي ليس من الدم الملكي كحاكم عليهم، زحف 'أشورأوباليط' إلى كارديناش للانتقام 'لكارخرداش' ابن بنته وقتل 'نازريوكارش' ملك كارديناش، وعيّن 'كوريكالزو (الثاني)' الابن الأصغر 'ل-يورنابورياس' حاكماً عليهم⁽¹⁾.

كما تبرز فاعلية الفكر الوجودي الحربية في إطار صيغ التباهي والتفاخر على لسان الملك الأشوري "توكتي نورتا" (1208-1244 ق.م)، عندما قام بالهجوم على مدينة بابل، المحتلة من قبل الكشيين، إذ استطاع أن يهزم الجيش الكشي مع ملكهم "كاشتلياش"، في حدود (1242 ق م)، وأن يسيطر على سومر وأكاد،⁽²⁾ إذ جاء في خطابه: "أجبرت كاشتلياش ملك كاردونياس على دخول المعركة، فألحقت الهزيمة بجيوشه...، أمسكت يدي على كاشتلياش الملك الكشي...وجيشه، وهو مكبل ومُهان أمام الإله آشور... وأخضعت بلاد سومر وأكاد حتى أبعد حدودها لسلطتي"⁽³⁾.

أما آشور ناصر بال الثاني (883-859 ق.م)⁽⁴⁾ فقد خاض في إطار سياسة الفكر الوجودي حملات تأديبية ضد المتمردين سواء في الداخل أو الخارج بهدف تحقيق مبدأ الأمن والاستقرار، لذا اعتمد سياسة التخويف أكثر من غيره من الملوك الآشوريين بهدف إخضاع الشعوب، من خلال قتل الحكام العصاة وسلخ جلودهم ونشرها على أسوار المدن، وتعذيب المسجونين والمدنيين من الرجال والنساء⁽⁵⁾ وفي ذلك قال: "أقمت عموداً على بوابة مدينته وسلخت جلود كل الرؤساء المتمردين وكسوت العمود بها، وبنيت بعضهم داخل العمود، وخوّزْتُ عليه آخرين، وأوثقت بعضهم حول العمود...وبترت أوصال الضباط... الضباط الملكيين الذين أعلنوا العصيان، وحرقت العديد من أسراهم بالنار، واتخذت الكثير منهم عبيداً، وجدعت أنوف بعضهم، وقطعت أذانهم وأصابعهم، وقلعت عيون آخرين، وصنعت عموداً من الأحياء وآخر من الرؤوس كما علقت

(1) - على ياسين أحمد، المرجع السابق، ص 101-102.

(2) - ياسر هاشم حسين علي، عبارات التباهي والتفاخر عند بعض حكام وملوك بلاد الرافدين، ع107، مجلة الآداب، بغداد، 2014، ص 470.

(3) - Daniel David Luckenbill, Op.Cit, p 51.

(4) - نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص213.

(5) - إسماعيل حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضارته" بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة"، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص75-76.

جماعهم على جذوع الأشجار حول المدينة، ثم أحرقت شبابهم بالنار... أمسكت بعشرين رجلاً ودفنتهم أحياء في جدران قصره... أما بقية الجنود فقد أهلكتهم عطشاً في صحراء الفرات..."⁽¹⁾.

نجد أسلوب التخويف في أعمال "شلمنصر الثالث" (859-824 ق. م) الحربية ملقباً نفسه بالأفعوان الكبير "أوشوم جال"، حيث نجد في خطابه ما يوحي بأنه: "طحن أعداءه جميعاً كما لو كانوا من صلصال، وأنه المقتدر الذي لا يعرف الرحمة في الحروب... الخ"، ومن أعماله قوله: "هبطت إلى كلديا وقهرت مدينها وسرت نحو البحر الذي يسمونه البحر المالح-الخليج العربي-... الخ"⁽²⁾.

وفي سنة 732 ق.م سجل "تجلات فاللاسر" بعد إلحاقه الجزء الجنوبي لبلاد الرافدين حتى الخليج الفارسي ((البحر الأسفل)) في مدوناته العسكرية حيث قال: "لقد أخضعت لسطلي بلاد كاردونياش الواسعة- بلاد الكاشيين- كلها وأصبحت أسيطر عليها... وميروداخ بالادان ابن ياكين ملك بلاد البحر الذي لم يحضر أمام أسلافي الملوك ولم يُقبل أقدامهم، انتابه الهلع من القوة الرهيبة لملك أشور، لقد وصل إلى مدينة سايياً وبوجوده أمامي قبل قلمي...الذهب...بكميات كبيرة، فقد استلمت مصنوعات وحلياً ذهبية وأحجاراً كريمة وألبسة مبرقشة وأعشاباً مختلفة وأبقاراً وماشية كجزية منهم"⁽³⁾.

كما ذكر سنحاريب (704-681 ق.م) إلى جانب ألقابه الملكية، أعماله الحربية وفتوحاته، بإخضاعه للأمراء في جهات العالم الأربع، فضلاً عن تناوله جانباً من أعماله العمرانية التي أعقبت عمله الوحدي في الخطاب التالي:

A-First part:

1. *su'en-ah (E me) eriba./*
2. *arru (LUGAL) rabû (GAL) a rru d an-nuarki ati (u)*
3. *ar (LUGAL) m t a -ur arkib-r t-irrib-ti*
4. *mi-girilâni m e (DNGIR) rubuti me (GAL) a -ur*
5. *u i targi kakkia la ma- ar*
6. *u- at-li-mu-in-ni-ma*

(1) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 774؛ Georges roux, (Ancient Iraq...), Op.Cit, p 290-291

(2) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 775.

(3) - ك.ماتيف/أ.سازونوف، المرجع السابق، ص 190.

B-second part

1. *a-na ra-sa-atnak-ru-t i m tA -u ip-tu-u.*
2. *i-da-iai-na tu-kul-ti- u-un rabbitim(tim) (GALtim).*
3. *ul-tu i-tar a-d i il-la-an um-ma-na-ti-ia.*
4. *al-me luat-tab-bal-ma gim-ri mal-ki a- ib.*
5. *akib-rat ar-ba-im e- pu-u -a u -ka-ni -ma.*
6. *i- u -t u ap-sa-a-ni i-na u -mi- u-ma.*
7. *al ni-nu-a lbe-lut-ti-ia u-bat-su.*
8. *u- ra-ab-bi su-ki u mi-ti-iqgir-ri arri.*
9. *u- a-an-dil -ma u -nam-mir ki-ma u -me d ra.*
10. *u- al- u-u nak-li u -e-pi -ma u -zak-kir.*
11. *ur- a-ni i-na 60 ammatirabiti (tim) a ri- u-u.*
12. *u -rap-pi a -ra-taumgir-ri arri (LUGAL) a-na.*
13. *la u-u - u-riabnuna-re me u - e-pi -ma.*

الترجمة العربية للنص:

أ-المقطع الأول.

1-سحاريب.

2-الملك العظيم، الملك القوي، ملك العالم.

3-ملك بلاد آشور، ملك الجهات الأربعة.

4-حبيب الآلهة العظام، الإله آشور.

5-الآلهة عشتار، أسلحة (سلاحاً) لا يقهر.

6- أعطوني (سلموني).

ب-المقطع الثاني:

1-فتحو يدي لتدمير أعداء آشور.

2-اتكلت (اعتمدت) على قوتهم العظيمة.

3-قُدت الجيوش من طرف الأرض إلى الطرف الآخر.

4-كل الأمراء الساكنين في القصور.

- 5- في الجهات الأربعة عند قدمي أخضعت.
 - 6- وقد تحملوا وزري، في ذلك الوقت.
 - 7- وسعت مدينة نينوى، مدينة حكمي.
 - 8- عملت أسواقها بشكل أوسع وجعلتها على شارع ملكي
 - 9- جعلتها مضيئة كضوء النهار، السور.
 - 10- الجدار الخارجي بمهارة بنيت وجعلت عاليًا (عامر).
 - 11- وسعت خندقها المائي إلى 60 ذراع كبيرة.
 - 12- للأيام القادمة (للمستقبل)، الشارع الملكي.
 - 13- عندما لا يكون هناك تضيق للشارع الملكي، مسلات عملت⁽¹⁾.
- وفي شأن "أشوربانيبال" (668-626 ق.م)⁽²⁾، فقد أوثق نصوصه عَقَبَ القبض على "خوم بان كالداش" آخر ملوك العيلاميين مع "تام ماري تو" الملك العيلامي قائلاً: "ضممت مدينة "سوسة" و"مادكاتو" ومدناً أخرى إلى آشور واكتسحت عيلام بأسرها في شهر ويوم واحد، وحرمت تلك المملكة من عبور الحشم والأغنام وأيضاً من نغمات الموسيقى، وأذنت للوحوش والأفاعي وحيوانات الصحراء والغزلان أن يسكنوها"⁽³⁾.
- إذن يلاحظ أن ملوك آشور عملوا على الإشادة بأعمالهم⁽⁴⁾ الحربية، إذ تُبرز صورهم الفنية قيادتهم للجيش وكيفية إخضاع الزعماء من الخصوم والتمثيل بهم مع إضفاء الطابع الديني الممثل في تجسيد المعبود آشور على الصور الفنية، فضلاً عن صُور المشاة والخيالة من الجيش وفرسان العربات ذات العجلات الغليظة التي يستغلها اثنان أو ثلاثة أشخاص (الملك، تابع، حارس)، هذا بالإضافة إلى صور تحركات الجيش في حالة الكر والفر، وعمليات مهاجمة الأسوار بالمُدببات والسهام والفؤوس والعُمد الطويلة، كما صُوروا مشاهد تهديم المدن وحرقتها، وراحة

(1) - نواله أحمد المتولي، مسلات الشوارع الملكية في نينوى بين النص الكتابي والمشهد الفني، مج1، جامعة الموصل، بغداد، 2012، ص ص 61-63.

(2) - عارف أحمد إسماعيل المخلافي، المرجع السابق، ص 135.

(3) - حسن بيرنيا، تاريخ إيران القديم من البداية حتى العهد الساساني، تر: محمد نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي، ط1، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، 2013، ص 190-120.

(4) - سعيد إسماعيل علي، المرجع السابق، ص 63.

الجنود في معسكراتهم، وصور إذلال الأسرى وتهجير المدنيين، ومما يلفت الانتباه هو المبالغة في إظهار عضلات شخصيات الملوك في أغلب الأحوال، والتميز بين ملابس الأشوريين وملابس أعدائهم⁽¹⁾.

وُصِفَ أيضاً نبوخذنصر في إحدى الخطابات الحربية على أنه: "الفحل المحارب، الذي كرّس قواته للقتال، والذي يحمل قوساً مرعباً، الذي لا يخشى النزال... هزم بلاد الأموريين وأسر الكاشيين، البارز بين الملوك، الأمير المحبوب..."⁽²⁾.

ج- خطاب العدالة:

إن لضمان استمرار الوحدة في طابعها السياسي، لابد من وجود خطاب يهدف إلى تحقيق العدالة ويكون بدوره أساس فاعل في ترسيخ مبادئ الوحدة السياسية قديماً في بلاد الرافدين، إذ ورد في أحد الخطابات الموجهة للسلطة السياسية بالمنطقة: "إذا لم يكن الملك عادلاً فإن شعبه سيضطرب وسيصيب أرضه الخراب"⁽³⁾.

ويلاحظ أن سرجون قد بذل جهوداً كبيرة من أجل أن يجعل "العدالة" عنواناً كبيراً لحكمه فاتخذه اللقب "شاروكين" الذي يحمل معنى "السيد أو الملك العادل" يجعل جميع مؤيديه يلقبونه هذا الاسم، ثم إنه جعل من هيئته وقوة حكمه أداة حقيقية تشارك عملياً في رفع الحيف عن المظلومين، وفي أخذ الحق من الظالمين، بعد أن ألقى هيبة وسطوة القضاة الدينيين، ووجد نظام القضاء وأقام نظاماً قضائياً واحداً في جميع المناطق⁽⁴⁾.

كما جاء خطاب العدل واضحاً في مقدمة قانون أورنامو الذي استطاع: "أن يوطد العدالة في بلاد أور و سومر وأن يُزيل البغضاء والظلم والعداوة..."⁽⁵⁾، وكانت هي العبارات المألوفة لدى

(1) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 807-808.

(2) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 119.

(3) - حسين سيد نور الأعرجي، مفهوم العدالة في الخطاب السياسي في العراق القديم (3000-539 ق م)، مج 7، ع 3+4، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، بغداد، 2008، ص 199.

(4) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 342.

(5) - فوزي رشيد، (القوانين في العراق...)، المرجع السابق، ص 38.

عدد كبير من حكام الولايات في العصر البابلي القديم مثل : إيسن ولا رسا و أشنونا وبابل، ففي وثائق الأحداث السنوية مايلي: " لقد أوجد الملك نظاماً عادلاً في البلاد...." ⁽¹⁾.

يذكر يشمع دجان(1935-1953 ق.م) الذي سبق لبيت عشتار في الحكم في مجال وحدة العدالة أنه: "لم يعد المتنفس الجبار قادراً على السلب، ولم يعد بمقدور القوي أن يستعبد الأجراء، فالعدل حققته في سومر وأكاد، وتركت الناس ينعمون في العيش الرغيد" ⁽²⁾، أما عن إنجازات لبيت عشتار في مجال العدالة قوله: "...جعلت سومر وأكاد تتمسكان بالعدالة الخالصة،... أنا لبيت عشتار،... وضعت حداً للنواح والنحيب والصراخ والحرمان...، كما نشرت العدل والحق وقويت العدالة وثبت الخير للسومريين والأكاديين" ⁽³⁾، ويذكر أنه هدفه أيضاً " تثبيت العدل وإزالة الشكوى والقضاء على البغضاء والعصيان..." ⁽⁴⁾، وفي خطاب يقترب من المعاني السابقة نجد أن " لبيت عشتار، راعي نفر المتواضع، الذي جلب العدل لأور، الذي لا يتوقف عن الاهتمام بإريدوا الكاهن، زينة الوركاء، ملك إيسن، ملك سومر وأكاد محبوب الآلهة...، عندما أقام العدالة في سومر وأكاد" ⁽⁵⁾.

وتقدم لنا مسلة حمورابي الشهيرة نموذج لهذه الخطابات أيضاً، عندما يصف موقف الآلهة بالنسبة إليه، كما هو واضح في الخطاب الآتي: "لقد ظهر حمورابي في هذه البلاد، وهو الأمير المحترم الذي يخشى الآلهة، وقد قصد أن ينشر العدالة ويقضي على الشرور والأشرار، حتى لا يقدم القوى على ظلم الضعيف، وأن يُشرق كالإله الشمس فوق أولئك الذي يملكون الرؤوس السوداء-من البشر-، ولكي يعم النور في البلاد"، ويذكر كيف أنه بناء على رغبة الإله مردوخ "نشر الصلح والعدالة بالبلاد فازدهر الشعب" ⁽⁶⁾.

(1) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 115.

(2) - نفسه، ص 117-118.

(3) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص 187.

(4) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 50؛ وليد سعدي الميالي وزينب عبد الله هلال، الملك لبيت عشتار في ضوء النصوص المسمارية المنشورة، ع 202، مجلة الأستاذ، بغداد، 2012، ص 760.

(5) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 52.

(6) - هاري ساكز، (عظمة بابل...)، المرجع السابق، ص 88.



الصورة رقم 8: تمثل الملك الآشوري

سرجون الثاني عن:

<https://i.pinimg.com>

وإذا تقدمنا قليلاً، نجد سنحاريب
Sennacherib (705-681 ق.م)⁽¹⁾، ابن
سرجون الثاني (أنظر الصورة رقم 8)، قد ذكر
العدل ضمن مقدمة حولياته بأنه⁽²⁾: "سنحاريب
العظيم،...ملك العالم، ملك الجهات الأربع، حامي
الحق، ومحِب العدالة"⁽³⁾، كما وُصِف نبوخذنصر
البابلي في هذا الشأن بأنه "الملك المكين الذي
يُصدر قرارات العدالة"⁽⁴⁾.

III-تحديات الفكر الوجودي.

1-التحديات الداخلية:

حاول الملوك ممارسة دورهم الوجودي من خلال عملية الإخضاع للسلطة بشكل سلمي
وبعيداً عن المقاومة أو المناهضين لهم، فعلى سبيل المثال أخضع الشعب العراقي القديم لما يعرف
بقاعدة التفويض والاختيار الإلهي التي تجعل من الملك والملوكية من الأشياء المقدسة التي يصعب
تناولها والحديث عنها أو معارضتها، لأنها غُلِّفت بإطار ديني، لما للدين من تأثير قوي على الشعوب
القديمة بصورة عامة، محاولة السلطة تأكيد هذا المفهوم منذ بداية العمل السياسي في العراق القديم
حتى سقوط بابل 539 ق.م⁽⁵⁾، لكن تبرير التمرد والثورة على النظم الباغية، والشرعية في جواز
الثورة، بإعطائها بعداً إلهياً ألهمته الآلهة للناس، منحها بذلك وضعاً دينياً مقدساً⁽⁶⁾.

إن النظام القديم في سومر الذي آل إلى نهايته نتيجة أعباء وتناقضات ذاتية تحت وقع ثورة
اجتماعية، كون قوى الإنتاج التي أفرزها المجتمع السومري القديم لم تستطيع التطور أبعد في شكل

(1) - نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 222.

(2) - حسين سيد نور جلال الأعرجي، المرجع السابق، ص 205.

(3) - Daniel David Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, Vol-I I, The University of Chicago Press, U.S.A, 1927, p 115.

(4) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 119.

(5) - حسين سيد نور جلال الأعرجي، *الخطاب السياسي في العراق القديم (3000-539 ق م)*، مذكرة ماجستير، جامعة واسط، بغداد، 2005، ص 30.

(6) - حامد خيرى الحيدر، *فلسفة الثورة في الفكر العراقي القديم*، مجلة الحوار المتمدن، (د.د.ن)، بغداد، 2015، ص 1-2.

الملكية القديمة، فقد انحل الشكل الأخير في ملكية الزعامة الأرستقراطية التي اضطرت عشية لفظ الأنفاس وبغية التمسك وإطالة سيادتها الطبقية التي أضحت لا تُطاق إلى الاستعانة بالنظام الاستبدادي للملك سلالة أور الثالثة، فحين سقط هذا الكيان القديم للشعب السومري واندمج وسط الساميين⁽¹⁾، لم يصبح للسومريين وقع سياسي، ويمكن أن نسلّم بأنهم مجبرين لا مُخيرين لانطواء تحت وحدة سياسية غير وحدتهم.

ففي العصر الأكادي انتهت حياة سرجون السياسية على غير ما توقعه لنفسه، فنشبت ضده ثورات عدة، وأيّدت هذه الثورات جماهير سهل "سوبارتو"، وبلغ من عنف الثوار أن حاصروا عاصمته، ولكنه قاومهم بجيشه وشتّت شمل تحركاتهم ثم انتقم من مدّهم، بل استمرت في عهد خلفائه واستنفذت بعض جهود الدولة⁽²⁾، ويعزى السبب في ذلك إلى محابة العنصر الأكادي على العنصر السومري ما أدّى إلى تدمير المدن السومرية ومحاولتهم الانسلاخ عن هذه التبعية⁽³⁾.

توجّب على "ريموش" أن يُحافظ على تركة أبيه الثمينة، فقَضَى أغلب سنوات حكمه في إخماد نيران الثورات الناشبة على امتداد مساحة الدولة⁽⁴⁾، مُشيراً بذلك في كتاباته عن قيامه بخنق أنفاس المتمردين بقوله: "خاض ريموش، ملك كيش، المعركة ضد أور... وصرع 8040 رجلاً واقتاد بيده 5460 أسيراً، وأسر - كاكوج ملك أور... وحتى البلاد السفلى، واقتاد 5700 من سكان مدن سومر وخرّب مدّهم ودمّر أسوارها ودمّر مدينة "كاسالو" عندما نهضت ضده خلال عودته، وصرع ريموش ملك كيش أيضاً خلال هذه المعركة ضد "كاسالو" 12650 رجلاً وأسر 5764 واستولى على جميع مدن عيلام ودمر أسوارها"⁽⁵⁾.

رغم ما شهدته النهضة السومرية الجديدة من وحدة كبرى داخل وخارج حدودها، فقد أفقدها هذا الوضع السيطرة، وعمّ الاضطراب والفوضى داخل المدن التابعة لسلالة أور الثالثة، وبالتدريج استقلت بعضها عن السلطة المركزية في أور، حتى أصبحت سلطة الملك لا تتجاوز مدينة "أور" نفسها، ورافق الاضطراب والفوضى السياسية التي عمّت البلاد التدهور الاقتصادي، ويُعزى

(1) - ف.أ. بيلافسكي، أسرار بابل، تر: رؤوف موسى جعفر الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2008، ص 14.

(2) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 632-633؛ باسم ميخائيل جبور، المرجع السابق، ص 25.

(3) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 640.

(4) - باسم ميخائيل جبور، المرجع السابق، ص 25.

(5) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص 128.

السبب في ذلك إلى إهمال مشاريع الري وارتفاع الأسعار ارتفاعاً فحشاً، وكان ذلك من الأسباب التي الرئيسية التي عجّلت نهايتها⁽¹⁾.

وفي العصر البابلي القديم⁽²⁾ عمّت المجاعة في لارسا أرجاء البلاد، وضربت الفوضى أطنابها، واشتعل فتيل الحرب الأهلية إذ يحدثنا النص: "باندلاع المعارك في الساحات العريضة، واقتتل الناس بالخنجر، فعمّ الفساد الشوارع، وافترس الأخ أخه، ومن نجا من غائلة الجوع لاقى حتفه بالسلاح، وسلب الواحد أموال الآخر"⁽³⁾، وباعتلاء "نور هدد" عرش لارسا أعاد الأمور إلى نصابها (فطهر البلاد من الأعداء، وأمر بمحاكمة كل الذين تأمروا ومدو أيدي العون للغازي"⁽⁴⁾.

ولم تخلو انتصارات حمورابي المتتالية من التحديات الداخلية، فسرعان ما تجمعت ممالك بلاد الرافدين كمملكة لارسا و أشنونا وأشور وغيرها لتشكل قوة رادعة تجاه طموحاته الوحشية، اندلعت ثورات عدة ضده وضد حكمه، قام بها أهل مدينته بابل بأنفسهم، ولكن غالباً ما أتت من قبل المدن التي احتلها حديثاً، إذ حاولت مراراً الخروج من سيطرته واستعادة استقلالها، ومع توسع رقعة حكمه المتزايدة، أضحى الحفاظ على وحدة دولته واستقرارها الداخلي أمراً صعباً، وخصوصاً أنّ الوضع الاجتماعي المتردي قد ساهم في إشعال المزيد من الثورات الداخلية المدعومة من أعداء الخارج، فالأغنياء كانوا يزدادون ثراء على حساب الفقراء، والوزراء والموظفون والقضاة كانوا يضعون مصالحهم الشخصية فوق كل اعتبار، حتى أنّ الكهنة كانوا يستفيدون من سلطتهم لإنجاز مآربهم وللاِثراء غير المشروع⁽⁵⁾.

وأدرك حمورابي مدى أهمية الثورة ومدى تأثيرها على أعماله الوحشية، لذا جعل في خاتمة شريعته عقوبة للملوك الذين يجروون على إتلاف قوانينه، إذ تمنى لهؤلاء الملوك: "عسى الإله إنليل أبو الآلهة الذي دعاني للحكم، أن يُجرد ذلك الشخص سواء كان ملكاً أو أميراً أو حاكماً، أو أي

(1) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج1، ص67.

(2) - أحمد عبد الرحمان عابدين محمد حسان، المرجع السابق، ص18؛

Dominique Charpin, **Writing-Law-and King ship in Old Babylonian Mesopotamia**, Trans by: Jane Marie Todd, The University of Chicago Press, U.S.A, 2010, p 43.

(3) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص129.

(4) - نفسه.

(5) - الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، دار أبعاد، بيروت، 2011، ص59-60.

إنسان يحمل لقباً من أبهة الملك، ويُحطم صولجانه، ويعلن طالعته، وعسى الإله إنليل رب المصائر الذي أوامره لا تتبدل، مُوسّع مملكتي، أن يضرر الثورات التي لا يمكن إخمادها"⁽¹⁾.

بينما كان الملوك الآشوريون الأوائل قساة، فكلما وُجد عصيان يقومون بقمعه، وكلما وجدت معارضة يسعون لإحباطها، حيث وضح آشور بانيبال هذا التبرير لأعماله في نقوشه⁽²⁾، إذ يشير هاري ساكز في هذا المجال و حول الوضع العام المحاك ضد سياسة الوحدة خلال عصر آشور بانيبال وما تركه من حوليات جاء فيها بأن: "على وجه الأرض هناك الاختلافات وفي القصر هناك النزاع، وهذا النزاع وهذه الحالة تؤلني وتلازمني ولا تبرح جانبي، والعصيان والمؤامرات الشريرة تحاك باستمرار ضدي"⁽³⁾، بل نجد في تقارير "آشور بانيبال" الحربية نصوصاً هدفها القضاء على المتمردين ومفادها: "لقد خرست أسلحة الأعداء المتمردين، وفك المتمنطقون (أحزمتهم)...، وركنت رملهم إلى الهدوء...، وأصبح الأشرار ضعفاء، أولئك الذين خططوا لحرب وقتال من لا يستكين لهم... لم يعد أي لص يسفك الدماء...، لقد سكن الناس مناطق أمينة هادئة، وجعلت جهات العالم الأربع صافية كالزيت النقي... وحسب رغبة مردوخ لم يعد لي هناك منافس أو عدو..."⁽⁴⁾.

إنّ النصوص المسمارية التي تحدثت عن الملوك الآشوريين بصفة عامة وعن سرجون الآشوري بصفة خاصة، تبين أن شاغلهم الأكبر في فترات حكمهم هو إعمام السلام في أرجاء دولتهم، حيث ساهمت عدة عوامل في عدم الاستقرار نظراً للظروف التي مرت عليها واضطر بعض ملوكهم إلى القيام بهجمات استباقية لمناطق كانت تنذر بالتمرد والعصيان، كما هو الحال مع سرجون الثاني الذي كان يدرك أنّ السلام لا يمكن تحقيقه أحياناً بدون قتال⁽⁵⁾.

ما أن انهارت الدولة الآشورية وآلت إلى البابليين حتى تفككت البلاد داخلياً وضعفت السلطة المركزية وظهرت قوة المعبد في المدن الرئيسية الرامية إلى الاستحواذ على السلطة في الداخل وباتت مؤسسات المعابد تهدد سلطة الملك نفسه وتتدخل في شؤون الدولة الداخلية حتى

(1) - عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد، بيروت، 1981، ص 579.

(2) - هاري ساكز، (عظمة آشور...)، المرجع السابق، ص 159.

(3) - نفسه، ص 154.

(4) - محمود أمهر، في تاريخ الشرق الأدنى، مطبعة سور الأزيكية، بغداد، 2010، ص 285.

(5) - نبيل نور الدين حسين، أثر الاعتقاد الديني على شخصية الملك "شرو-كين الثاني/سرجون الآشوري"، ع 2، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، بغداد، 2010، ص 249.

انتهت بالسيطرة على ذلك عندما نصبت الملك "نبونائيد" على البلاد، ولو أن عصره طغى عليه الصراع الديني الذي انتاب البلاد في هذه الفترة، إذ كان من بين المشاكل الرئيسية التي واجهها آخر ملوك السلالة البابلية الحديثة، فكما هو معروف أن الديانة العراقية القديمة تقوم على مبدأ الشرك أي تعدد الآلهة، غير أن ظهور الديانة التوحيدية ونشر مفاهيمها في العراق بعد السبي البابلي الثاني لليهود، قد أدّى إلى زعزعة المعتقدات الدينية القديمة وظهور صراع ديني حاد بين الناس⁽¹⁾.

فكان للتواجد اليهودي الذي يضع مصالحه فوق كل الاعتبارات والقيم أثره، إذ على الرغم من الانجازات التي جناها القسم الأكبر منهم أثناء تواجدهم في بابل، إلا أننا نجد أن ذلك كان ينم عن مصالحهم السياسية، إذ لاحظوا أن عزم الملك "كورش" على إسقاط بابل هو أمر مؤكد، لذا اقتضت مصالحهم أن يتخلوا عن الملك البابلي في الداخل، وربطوا مصيرهم بالخارج بالتحالف مع الملك الفارسي معتبرينه "المسيح المنتظر" الذي جاء ليخلصهم من التسلط البابلي⁽²⁾.

2- التحديات الخارجية:

مما لا شك فيه أن الأقوام السومرية قد رفضت يحزم البربرية الجوتية، إلا أنها كانت حليفة الجوتيين ضد الأكاديين⁽³⁾، وبذلك كانت قسوة الظروف الخيطة بجسم الدولة الأكادية من الشمال والشرق والتي فرضت عليها استنفاراً وقاتلاً دائمين، قد جعلت دوائر المدن القديمة في الداخل، والتي أسبغ عليها سرجون العفو ومنحها الثقة، أن تفكر في العصيان ضده والتمرد عليه، وقد أثبتت الأبحاث أنها كانت تعقد التحالفات السرية مع الشعوب القبلية والمتواجدة في معاقلها خلف الجبال، من أجل الانقضاض على نظام الدولة الجديد، ويعتقد الباحثون في سياسة سرجون أنه ارتكب خطأ حينما أبقى على بُور الخصوم في الداخل، في الوقت الذي أيقن فيه بعدم تمكنه من تصفية الخصوم القبليين على الحدود في الخارج، الواقعة على القرب من مدن سومر و عيلام، فقد ترك بذلك المجال مفتوحاً للطرفين في أن يستمد كل منهما شجاعة التمرد من الآخر، والعمل ضد النظام السرجوني، وفي المقابل عجزه عن القضاء على الجوتيين والكاشيين المتربصين للوضع

(1) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج1، ص144-145.

(2) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص160.

(3) - انطوان مورتكات، المرجع السابق، ص104.

في جبال زاغروس، دون أن يُظهر بلاده من الداخل نهائياً من كافة الجيوب التي تُكنّ له العداة جراء سياسته الوحدية⁽¹⁾.

نجد هذا الوضع أيضاً عند اعتلاء "ريموش" حفيد سرجون العرش بوصفه لحال المقاطعات الموحدة سابقاً في قوله: "نهضت جميع البلدان التي خلفها والدي، ولم يبق أحد مخلصاً لي"⁽²⁾، لكنه عزز انتصاراته المختلفة ومنها القضاء على التمرد والعصيان العيلامي بقوله: "انتصر ريموش، ملك كيش، في معركة ابل-جاماش، ملك باراخشي وعلى واليه سيدجا وألقى القبض على أوزا؟ جابي حاكم إيشالي ودمّر مدنها بين أوان وسوا على نهري "كابيتيم" و "نيرودام"، وأذل مدن عيلام وخرب أسوارها واقتلع جذور باراخشي من الأرض العيلامية، وهكذا أخضعهم ريموش ملك كيش..."⁽³⁾.

نفس السياسة الخارجية اتبعتها "مانيشتوسو" * حفيد "ريموش" بتنفيذ حملة بحرية ناجحة أخضع من خلالها تمرد بلاد عيلام وبعض المدن المتحالفة، وصفتها نصوص عصره " فتجمعت لحربه جيوش ملوك اثنتين وثلاثين مدينة تقع في الجانب الآخر من البحر (مدن بلاد فارس)، فهزمهم وأخضع مدنها ثم أطاح بسادتهم وأصبح البلد كله في قبضته..."⁽⁴⁾.

وعلى وفق ما ورد في التراث الذي يؤيد الدليل الأثري إلى حد ما، فإن "نرام- سين" سيطر على مساحة كبيرة تمتد من أواسط أسيا الصغرى إلى الطرف الجنوبي للخليج العربي، وكان الانهيار لهذه السلالة أمام ضغوط موحدة من الجبال الشمالية والشرقية على الرغم من العمليات

(1) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 343-344.

(2) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص 127.

(3) - نفسه، ص 127-128.

* "Manishtousou" - ثالث ملوك السلالة الأكادية، حكم نحو (2269-2255 ق.م)، ابن سرجون الأكادي - للمزيد أنظر: هنري س. عبودي، المرجع السابق، ص 817.

(4) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 77؛

Georges roux, (Ancient Iraq...), Op.Cit, p 155.



الصورة رقم 9: مسلة نرام-سين مشهد يظهر تغلبه على أعدائه عن: أندره بارو، المرجع السابق، 195 م

الحربية التي قام بها هذا الحاكم⁽¹⁾ أثناء حكمه، إذ قام بضرب التجمع الإقطاعي الديني الذي كان يمثل حلفاً رجعياً داخلياً في مركزه الرئيسي "نيبور - معبد إنليل"، فاتجه رجال الدين إلى الجوتين، وتوطئوا معهم في توجيه الضربة الانتقامية تجاه الوحدة السياسية الأكادية⁽²⁾.
(أنظر الصورة رقم 9)

نجد من بين المؤامرات الخارجية (العيلاميون و الأموريون)، والتي أودت بسقوط الوحدة السياسية لدولة أور في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وقد مثل هذا السقوط إحدى نقاط التحول التاريخية الكبيرة في بلاد الرافدين، كونه لا يعبر عن سقوط سلالة

وإمبراطورية فحسب، بل يؤشر أيضاً إلى النهاية السياسية للسومريين في التاريخ، وإذا كان العيلاميون هم الذين أسقطوا العاصمة أور مما أدى إلى انفصال مقاطعات وأقاليم كاملة، فإن تدخل الأموريين كان من بين الأسباب لإنهاء السومريين أيضاً، إذ لم يمض وقت طويل حتى طرد العيلاميون من أرض العراق القديم، وبقي الأموريون محافظين على عروشهم⁽³⁾.

كما قام آشور ناصر بال الثاني (883-859 ق.م) حال ورود أنباء إعلان مدينة أرامية تابعة له العصيان في واد الخابور الأسفل، ولمعاقبة المتمردين قطع جيشه مسافة 300 كيلومتر، مشيراً إلى إنجازه بأنه "اقترب من مدينة سورو التابعة للملكة 'بيت حالوبي'، فأخذ أهلها الرعب ...، وسارع رؤساء وشيوخ المدينة إليّ لينفذوا بجلودهم وعانقوا القدم ولسانهم يقول: إن كانت تلك مشيئتكم، فاذبحنا أو إن شئت فدعنا أحياء، افعل بنا كل ما يتوق إلى قلبك...، وبشجاعة قلبي ويحد سيفي عصفت المدينة، فامسكوا بكافة العصاة وسلموهم إلي"⁽⁴⁾، وفي سنة 845 ق.م توجه شلمنصر

(1) - هاري و.ف. ساغز، المرجع السابق، ص 39.

(2) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 378-381.

(3) - Georges roux, (Ancient Iraq...), Op.Cit, p179.

(4) - Ibid, p288-289.

الثالث نحو الغرب للقيام بهجوم على الحلف الذي يقوده كل من ملكي دمشق وحماة، ويذكر هذه الحملة في النص: "عبرت نهر الفرات مع قواتي المتكونة من 120.000 جندي وقد كان في ذلك الوقت حدد -عزر ملك آرام وأرخوليني ملك حماة مع 12 ملكاً من مدن الساحل العلوي والسفلي، حشدوا جيوشهم بأعداد لا تحصى وتقدموا نحوي، قاتلتهم وهزمتهم، عرباتهم وسلاح فرسانهم دمرتها وأسلحتهم أخذتها منهم، وقد هربوا لينجوا بحياتهم" (1).

ونظراً لقدسية مدينة بابل من الناحية الدينية فقد تجنب الآشوريون اقتحامها عسكرياً نظراً للدم الواحد الذي يجمع الآشوريين بالبابليين، إلا أن عدم اعتراف هذا الأخير بالملوك الآشوريين من خلال التمرد عليهم والثورة ضدهم، دفعهم إلى تحريض القبائل والدول المجاورة ضدهم وهو ما قام به "مردوخ ابلا - ادنا" والذي بعث رسولاً إلى "حزقيا" اليهودي محملاً بالهدايا (2) في النص التوراتي التالي: "12 في ذلك الزمان أرسل برودخ بلادان بن بلادان ملك بابل رسائل وهدية إلى حزقيا، لأنه سمع أن حزقيا قد مرض 13 فسمع لهم حزقيا وأراهم كل بيت دخائره، والفضة والذهب والأطياب والزيت الطيب، وكل بيت أسلحته وكل ما وجد في خزائنه. لم يكن شيء لم يرهم إياه حزقيا في بيته وفي كل سلطنته. 14 فجاء إشعياء النبي إلى الملك حزقيا وقال له: [ماذا قال هؤلاء الرجال، ومن أين جاءوا إليك؟] فقال حزقيا: [جاءوا من أرض بعلية، من بابل، 15 فقال: [ماذا رأوا في بيتك؟] فقال حزقيا: [رأوا كل ما في بيتي. ليس في خزائني شيء لم أرهم إياه]. 16 فقال إشعياء لحزقيا: [اسمع قول الرب: 17 هوذا تأتي أيام يحمل فيها كل ما في بيتك وما دخره أبائوك إلى هذا اليوم إلى بابل. لا يترك شيء، يقول الرب. 18 ويؤخذ من بنيك الذين يخرجون منك الذين تلدهم، فيكونون خصبين في قصر ملك بابل]. 19 فقال حزقيا لإشعياء: [جيداً

(1) Daniel David Luckenbill, (Ancient Records of Assyria...), Op.Cit, Vol. I, p 240-241.

* (703-720 ق.م في فترتين منفصلتين) شيخ قبيلة "بيت ياكين" الكلدانية وخصم الآشوريين في بلاد بابل، أصبح ملك على هذا الأخير (710-721 ق.م)، وتولى العرش ثانية و لفترة قصيرة عام 703 ق.م، ذكر في الكتاب المقدس باسم "بردوخ بلدان" للمزيد أنظر: نيكولاس بوستغيت، المرجع السابق، 1991، ص 135.

(2) - علي ياسين أحمد، المرجع السابق، ص 104.

هُوَ قَوْلُ الرَّبِّ الَّذِي تَكَلَّمْتَ بِهِ]. ثُمَّ قَالَ: [فَكَيْفَ لَا، إِنْ يَكُنْ سَلَامٌ وَأَمَانٌ فِي أَيَّامِي؟] 20" (1)، وقد كان الهدف من هذه الإرسالية طلب المساعدة والثورة ضد الملك الأشوري سنحاريب (2).

ومن خلال استنطاق نصوص الوحدة التي سجلت التحالفات الكلدانية العيلامية ضد الأشوريين، نجد سنحاريب يسجل قضاؤه على هذا التحالف في كتاباته قائلاً: "سنحاريب، الملك العظيم، الملك الجبار، ملك الكون، ملك بلاد آشور،... في حملي الأولى دمّرت مردوخ بلادان - متمرّد كلداني-، مع حليفه جيش العيلاميين في سهل كيش... هرب وحده، ثم دخلت قصره في بابل والفرح يملؤني... وأخذت ما لا يُحصى من الغنائم الثقيلة..." (3).

كما أوردت نصوص تهديدات بلاد اللولبو* الخارجية لبلاد بابل التي واجهها نبوخذنصر ومنها أنّه "قهر بلاد اللولوبو القوية بسلاحه" (4)، بالإضافة إلى التهديد العيلامي في النص الذي "رفع سلاحه لينتقم لبلاد أكاد، من مدينة الدير...، فقطع مسافة ثلاثين فرسخاً في شهر تموز، شرع في حملة حربية، خلالها تصاعد الحرارة كاللهيب، وتوهجت المسالك كاللظى، لم يكن هناك ماء في مواضع التي كانت فائضة بالماء، وجفّت مواضع الشرب، أُكِلت أفضل الخيول وتراخت سيقان أقوى المحاربين، الملك البارز، يستمر...، يتقدم نبوخذنصر الذي لا مثيل له، لم يخشى المشاق، فَيَحُثُّ الحُطَى " شتى مردوخ" رئيس قبيلة بيت "كرزيبكو"، الذي كانت عرباته مرابطة على الجناح الأيمن من سيده، لم يتلکأ بل حافظ على عرباته جاهزة، أسرع الملك إلى ضفة نهر أولايا، تقابل الملكان واشتبكا في القتال، استمرت المعركة فيما بينهما، وأظلم وجه الشمس بالغبار، هبت

(1) - سفر الملوك الثاني: (20: 12-13-14-15-16-17-18-19-20).

(2) - علي ياسين أحمد، المرجع السابق، ص 104-105.

(3) - Daniel David Luckenbill, *The Annals of sennachrib*, the University of Chicago Press, U.S.A., 1924, pp.23-24.

* (Lullubu): شعب جبلي يمكن مقارنته بالجوتيين، وتنسب هذه القبائل إلى الأقوام القاطنة بالمنطقة الجبلية من الجهة الشمالية الشرقية للعراق القديم، وصفهم نرامسين والذي وقعت في عهده عدة كوارث من بينها تعرضه لغزو من جانب أقوام متوحشين غربيي الهينات بأنّ جوههم وجوه الغربان وأجسامهم أجسام الطير، كانوا ذوي قوة وبطش، إذ يتضح من العثور على نصوص وصورة عشتار على صخرة بأنهم كانوا على اتصال ببلاد النهرين خلال العصر الأكادي... الخ- للمزيد أنظر طه باقر، (مقدمة في آداب العراق....)، المرجع السابق، ص 142؛ هاني عبد الغني عبد الله بكر، حركات التحرر في العراق القديم من عصر فجر السلالات السومرية حتى نهاية الاحتلال الإخميني، مذكرة ماجستير، جامعة الموصل،

بغداد، 2005، ص 37؛ Leo Oppenheim, Op.Cit, p 408;

(4) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 119.

العواصف الترابية، واكتسحت ما حولها، في العاصفة قتالهما لم يكن المحارب في العربة يرى الآخر، "شتي مردوخ" رئيس قبيلة بيت "كرزيبابكو"، الذي تُرابط عرباته إلى يمين الملك، لم يتلأأ بل حافظ على عرباته جاهزة ولم يخشى القتال، نزل ضد الأعداء، اخترق صفوفهم...، أجبر "خلتيلودش-Halteludis"، ملك عيلام على الفرار، اختفى، وهكذا وُفق نبوخذنصر يظفر واستولى على بلاد عيلام...⁽¹⁾.

وتُعد أيضاً "ملحمة حرب عيلام" شاهداً حياً على وصف المعركة بين "نبوخذنصر" و"ريتي مردوك" عند نهر "أولا"، حيث اشتعلت النيران بين الخصمين، وتعاضم غبار الحرب حتى أضحى وجه السماء ملبدًا، ولم يعد المحاربون يميزون بعضهم بعضاً:

فحث الملك القوي سيره حتى بلغ نهر أولا.

التقى الملكان هناك وخاض المعركة.

اشتعلت النيران بينها.

بترابهما الذي أثاراه بات وجه السماء مُسوداً.

الزوابع جرفت، باتت العواصف هائجة.

في أثناء عاصفة معركتهما.

لم يعد المحارب صاحب المركبة الحربية يُميز زميله الذي معه⁽²⁾.

يزداد وضوحاً الحقد اليهودي الدفين⁽³⁾ من خلال قراءتنا لبعض النصوص التوراتية التي تجعلنا نكتشف خططهم وتحدياتهم مع الفرس في إنهاء الوحلة البابلية، معتبرة "كورش" بمثابة "المسيح المنقذ" في النص الذي يقول "1 هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ لِمَسِيحِهِ لِكُورَشَ الَّذِي أَمْسَكَتُ يَمِينَهُ لِأَدُوسَ أَمَامَهُ أُمَامًا وَ أَحَقَاءَ مُلُوكٍ أَحُلُّ. لِأَفْتَحَ أَمَامَهُ الْمِصْرَاعَيْنِ وَالْأَبْوَابُ لَا تُغْلَقُ: 2 «أَنَا أَسِيرُ قُدَّامَكَ وَالْهَضَابَ أُمَهِّدُ. أَكْسِرُ مِصْرَاعِي الثِّحَاسِ وَمَغَالِيقَ الْحَدِيدِ أَقْصِفُ. 3 وَأَعْطِيكَ دُخَائِرَ الظُّلْمَةِ وَكُنُوزَ الْمَخَائِبِ لِتَعْرِفَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي يَدْعُوكَ بِاسْمِكَ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ"⁽⁴⁾.

(1) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 119-120.

(2) - باسم ميخائيل جبور، المرجع السابق، ص 220.

(3) - هديب وفاء ورافد كاظم كريدي، اليهود في بابل بين التبلور الفكري والنهج العدائي، مج8، ع1، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، بغداد، 2005، ص5.

(4) - سفر أشعيا، (45: 1-2-3).

نمت فكرة الاتحاد الرافدي مع نمو الوعي السياسي لحكامها، غير أن بعض مشاريع الوحدة كانت بطيئة في بدايتها إلى غاية العصر السرجوني، وقد تزامنت هذه الفكرة مع محاولة نقلها عبر خارج حدود بلاد الرافدين، بتوحيد الأقاليم ثم الأقطار المحيطة، إذ أدى الفكر السرجوني الوحدوي إلى قلب الأنظمة القديمة بقوة السلاح واهتزاز نظام الدولة المدينة من أساسه وتغييره جذرياً، واستمر هذا الحكم والاتحاد إلى غاية سقوط الوحدة البابلية مع تذبذب خلال فترة العصر البابلي القديم .

فاتخذوا ألقاباً تدل على اتساع نفوذهم وسيطرتهم على أراض واسعة، فمثلاً عندما سيطر الملوك الأكاديون على مناطق واسعة شملت أراضي العراق وعليلام وبلاد الشام وغيرها، تبنوا ألقاباً تتلاءم مع تلك الانتصارات ومنها لقب "ملك الجهات الأربع" ، بل رغب ملوك الوحدة في وضع نظرية جديدة للحكم تتناسب مع اتساع سلطتهم والنجاحات التي حققوها وذلك من خلال محاولة بعض الملوك تقديس أسمائهم بإعطائها الصفات الدينية لتحقيق سياساتهم الوحدوية.

طالما أن دراسة تغير الألقاب وأنواعها تعكس تطور المجتمع على مستوياته كافة كما تعكس النظرة إلى الناحية الحربية من خلال التدرج في عملية التوسع الوحدوي وما صاحبها من منجزات سياسية، بل ويلاحظ نوع من التطور والتباين للأساليب المستعملة في ذكر الألقاب الوحدوية عبر العصور المختلفة المتتابعة وحسب طبيعة النص، إنما هو في حد ذاته تخليد لأعمالهم ومنجزاتهم في عالم العراق والشرق الأدنى القديمين على حد سواء.

بينما سائر الخطاب الوحدوي التحولات السياسية الكبرى التي حدثت للعراق القديم، كأسلوب موحد للشعب، و شكل أداة للتواصل بين الشعب والحكومة، كما كان إحدى أهم طرق إخضاع السلطة للشعب، فلم يكن خطاب الوحدة يهدف إلى الانصهار والاندماج داخل الوحدة السياسية والواقع الاقتصادي والاجتماعي المختلف من عصر لآخر، بل عمل على الزيادة من قوة الدولة وهيبتها بين الدول المحيطة بها، كما يزيد من قوة حكام بلاد الرافدين أمام شعوبهم من خلال عملية الإقناع والتأثير وزرع الثقة التي تولد التأييد والدعم لمواجهة المنهج الثوري المحلي والخارجي، بل ويلاحظ أنه كان محكوماً بالبعد العقائدي كونه السبيل في تحقيق الأمن والاستقرار.

بقدر ما جاء الخطاب موحداً، فقد كان ناقداً ومقاوماً ومعارضاً لكل من يستهدف اتحاد البلاد ، فهو يدفع إلى شن الحروب والتوسع وتحقيق النفوذ، وصناعة القبول للفئة الحاكمة ومن هنا حظي

الخطاب العسكري هو الآخر و الموجه للجيش باهتمام كبير من قبل ملوك بلاد الرافدين منذ أقدم العصور التاريخية، وذلك لأن الجيش يشكل العمود الفقري للعملية الوحدية، ويمكن القول أن الخطابات وصلت إلى مراحل متطورة انعكست على الانجازات العسكرية التي حققها ملوك تلك العصور، من خلال السيطرة السياسية على البلاد بأكملها، وردع أي خطر يهدد كيائها ووحدتها.

الأكثر من ذلك، شُجِن الخطاب الوحدي سواء السياسي أو الحربي أو ما تعلق بالعدالة برموز ومدلولات التوحيد ومنها المحافظة على صورة الحاكم وانجازاته الوحدية التي تأتي في شكل استعراض الأحداث التاريخية المستمرة وتدوينها وإيصالها للشعب الرافدي، وإعطاء تفاصيل لحروب الوحدة وما أسفرت عنه من انتصارات أو هزائم وفي المقابل بإحباط التمردات الداخلية والمؤامرات الخارجية من خلال استخدام لغة السلاح لضمان وتحقيق الوحدة.

ومن خلال استقراء النصوص السالفة الذكر يتبين أن القوى الخارجية التي كانت تميل إلى النيل من تلك الوحدة التي حاولت الامتداد نحو الخارج فشكت تحدياً، و لعبت من خلاله دورها في عرقلة هذا المشروع حتى لا يشمل أراضيهم بوجه خاص والشرق الأدنى بشكل عام، لهذا لم تجد بلاد الرافدين نفسها محصورة ضمن حدود طبيعية لتفرض ذاتها كلياً، وذلك تحت تأثير العوامل الداخلية والخارجية، ولعدم تدعيم سكان المنطقة لعنصر الوحدة صارت عرضة للنفوذ الأجنبي وللمؤثرات القطرية والتفكك خاصة خلال العصر البابلي القديم.

شكل في الأخير هذا الفكر انبعثاً وتجديداً للوحدة الحضارية العراقية القديمة على امتداد الشرق الأدنى القديم، وقد يتعداه أحياناً أخرى، إذ كوّنت حالات الانقسام والصراعات المحلية والتدخلات وبخاصة الأجنبية الانبعاث من مرحلة تاريخية إلى أخرى، ويبدو لنا أن هذه الوحدة كانت مغروسة في نفوس السكان، ومنها الاعتزاز بوحدتهم التي تبعث بالحماس والحيوية، إذ كانت غالبية العهود التاريخية محفزة تحمل وراء بعضها البعض أجيالاً يحافظون على هذا الشعور بالوحدة، بل تعميمه على خارج مناطقها حسب ما يقتضيه الحال والوضع.

الفصل الثالث:

الفكر الوحدوي في ظل الحياة
الاقتصادية

أبدى حكام العراق القديم اهتماماً كبيراً بالقطاع الزراعي كونه يمثل شريان الحياة الاقتصادية للدولة، لاسيما ما يتعلق بالرّي وشق القنوات وبناء السدود استكمالاً لمظاهر الوحدة، إذ تضافرت جهودهم من أجل القضاء على مشكلة الفيضانات التي أرقت اقتصاد و حضارة بلاد الرافدين، و مع أنّ ظهور دول المدن منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، والتي حاولت الاهتمام بمشاريع الرّي باعتبارها أهم واجبات الحكام من أجل إرساء قواعد الأمن والوحدة، والنهوض باقتصاد زاهر، فإنّ القيام بأي من المشاريع الإروائية الكبرى أو مشاريع درء أخطار الفيضان، إنما يتطلب جهوداً كبيرة تفوق جهود الدويلات- المدن الصغيرة، إذ يكون لازماً عليها أن تتوحد وتتكاتف وتعمل سوياً، ومن هنا ظهرت بوادر الفكر الوحدوي من أجل تسهيل مسألة الإشراف على تنظيم تلك الجهود وتوجيهها بما يخدم المصالح الكبرى دون الصغرى، إذ أن ظهور أولى الإدارات المركزية وأولى أشكال الحكومات لا تعتمد على التنظيم السياسي فقط، بل على أسس اقتصادية تساهم في خلق نظام زراعي متكافئ.

I- الأبعاد الزراعية:

1- الأراضي الزراعية:

بدأ ظهور الزراعة في المجتمعات العراقية القديمة قبل ظهور دولة المدينة على نوع من المشاعية البدائية المتمثلة في الملكية الجماعية للأرض وما عليها، وفي غياب الملكية الخاصة مثلت الملكية العامة للفرد الأساس في البنية الاقتصادية، ولكن مع ظهور السومريين ومع بداية تشكل الأسس الجديدة التي أدّت إلى ظهور الدولة- المدينة، بدأ يظهر بوضوح تغيير كامل في البنية السياسية والاجتماعية، وبخاصة الاقتصادية⁽¹⁾، إذ شكلت المدينة مظهراً من مظاهر الوحدة السياسية للبلاد، بينما شكّل المعبد هو الآخر مظهراً للوحدة الاقتصادية⁽²⁾، نلمحها من خلال إدارته لتلك

(1) - عمر محمد صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 139.

(2) - عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص 49-50.

الأراضي، التي كان فيها المعبد المالك الوحيد للأراضي الزراعية الواقعة ضمن حدود المدينة⁽¹⁾ - الدولة السومرية، والتي تمتد إلى مدى بضع أميال مُكوّنة وحدة سياسية مستقلة يحكمها ملك⁽²⁾. كما شكلت الزراعة أيضاً عامل استقرار، وصراع في الوقت نفسه لسبيين: يتمثل الأول في الحق في استخدام المياه لري المزروعات، والثاني ناتج عن الزيادة الطبيعية للسكان وموجات الهجرة، ما حتم أخيراً وبالضرورة ظهور السلطة والعقل التشريعي للحيلولة دون الصراعات المستمرة، وقد تتضح أكثر من خلال تحويل الصراع بعد الاستقرار والانتفاء منه داخلياً إلى الخارج بشن الحروب والغزوات لتوسيع رقعة السلطة باستغلال الفائض من الزراعة لإعداد وإمداد الفائض من السكان، لذا يتم توجيه هذا الأخير نحو ضرورة المساهمة في تكوين دولة واسعة من حيث الأراضي الزراعية⁽³⁾.



الصورة رقم 10: مخروط الملك أنميتينا عن
https://66.media.tumblr.com

وفي هذا الشأن يوضح مخروط⁽⁴⁾ "أنميتينا-Enmetena"⁽⁵⁾ (أنظر الصورة رقم 10) حاكم مدينة لجش، ذلك الصراع الذي قام حول حدود الأراضي الزراعية بين مدينة "أوما" ومدينة "لجش" المبني على أطماع اقتصادية بين الطرفين، إذ ينص بأن: "إنليل ملك جميع البلاد، حدّد الحدود بكلمته الثابتة بين ننجرسو وشارا، وعيّن ميسليم ملك كيش خط الحدود بموجب أمر المعبود ستران، وأقام نصباً هناك، ونقض "أوشو" حاكم "أوما" إرادة المعبودات والاتفاق وحطّم النصب ودخل سهل لجش، وعندئذ شن ننجرسو الحرب على "أوما" بأمره العادل، و بكلمة إنليل ألقى بالشبكة العظمى عليهم، وكدّس هياكلهم وجمعها أكداً في السهل في مواضعها المختلفة، لذلك عمّد إيانا تم حاكم لجش وعم أنميتينا على تعيين الحدود مع إيناكلى، وأجرى الخندق الخاص بالحدود من نهر

(1) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 46-47.

(2) - جيمس هنري بريستد، انتصار الحضارة "تاريخ الشرق القديم"، تر: أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011، ص 170.

(3) - شاكر شاهين، المرجع السابق، ص 98.

(4) - أحمد عبد الرحمن عابدين محمد حسان، المرجع السابق، ص 130-131.

(5) - صمويل كريمير نوح، المرجع السابق، ص 92-93؛ نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 51.

"أد-نن " إلى "جوادنا"، وأقام أنصاباً منقوشة على طول ذلك الخندق، وأعاد نصب ميسليم لموضعه السابق" (1).

إذن للحد من ظاهرة الوحدة في إطار سياسة الغالب والمغلوب، تم الاتفاق على تحديد الحدود، وربما قد تكون ظروف الوحدة غير كافية خلال تلك الفترة، والمتمثلة في وجود قوة عسكرية، تفرض قوتها على أراضي أخرى، فتزيد إلى مساحتها مساحات أخرى وإلى أراضيها الزراعية أراضي أخرى. وصف المفكر الإصلاحي "أوركاجينا" (أنظر الصورة رقم 11) حالة الفوضى الزراعية في



الصورة رقم 11 : إصلاحات أوركاينا عن:

L'histoire commence en

Mésopotamie, Musée du Louvre-

Lens ; Exposition / 2 NOV.

2016 - 23 JANV. 2017, p21.

البلاد بأنّ "أبقار الآلهة أستخدمت في إسقاء الحقول الخاصة بالإنسي، الحقول الطيبة كانت وقفاً على خدام الإنسي، وفي كل مرة يقطع الكهنة الشجرة من بستان والدة الفقير ويأكلون ثمارها، وعندما يمد الميت في القبر، ينال الكاهن -سبع-جرار من الخمر ليكون عنده ما يشرب..." (2)، كما يصف لنا رقيم طيني حالة خوف وهلع السكان داخل مدينة "لجش"، من جراء أساليب "لوكال زاكيزي" الحربية والبشعة اتجاه الأراضي التابعة للأماكن المقدسة "...أخذوا الحبوب من حقل "نجرسو" وكل ما كان مزروعاً، لأنهم دمّروا "لجش" والسلطة التي كانت من نصيبهم سوف تنتزع منهم، لم يرتكب "أوركاجينا" إثمًا، أما "لوكال زاكيزي" إنسي -حاكم- "أوما" فستحمل آلهته "نينزبا" هذا الإثم على رأسها" (3).

وحول المرحلة الأكادية، طرح أحد الباحثين سؤالاً قائلاً: هل استكانت القوى الإقطاعية الانفصالية في المدن وسلّمت بالأمر الواقع والوحدوي الجديد في إطار حكومة مركزية واحدة، أم أنها أخذت تغتنم فرص انشغال سرجون بمشروعه على كل الجبهات لتقوم بحركات العصيان ولتفسح المجال للقوى الخارجية بأن تُهيئ نفسها للانتقام لهزائمها التي ألحقها بها سرجون؟ (4).

(1) - أحمد عبد الرحمان عابدين محمد حسان، المرجع السابق، ص 130-131.

(2) - محمود أمهز، المرجع السابق، ص 115.

(3) - أنطوان مورتكات، المرجع السابق، ص 67.

(4) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 332.

ترد الإجابة على هذا السؤال لدى الباحث هورست كلينكل بقوله: "استطاعت السلطة المدنية المتمثلة في القصر منذ عصر سرجون من خلق وحدة سياسية مركزية، قضت بذلك على حكم المقاطعات واقطاعات حكام المدن، وأصبح الملك يدير شؤون المقاطعات الزراعية الواسعة وتنظيم أمور السياسة فيها دون أن يكون للأمرء والكهنة أي دور مؤثر في الاقتصاد الزراعي، وبما أن الملك كان حاكماً مطلقاً، فقد كان يملك مقدرات البلاد الاقتصادية في يديه بصفته أولاً مُمثلاً لأُملاك الدولة وثانياً بصفته الحاكم الذي يرفع مصالح البلاد، ولكن هذا لا يعني بشكل من الأشكال، وحسبما يرد في الوثائق الاقتصادية، المكتشفة داخل المعابد أن ملكية الأرض والعتاد أصبحت خاصة بالدولة فقط، فهناك مؤشرات كثيرة تدل على ملكيات زراعية خاصة، ولكن هذه الملكية الفردية تبقى محدودة ومشروطة من قبل مشايخ القرى، ويعتقد أن الملك كان يحاول أن يخضع اقتصاد الدولة المتنامي لأشراف القصر، إلا أن محاولاته باءت بالفشل، خاصة عندما اصطدمت بمصالح الملاك الزراعيين، ومشايخ القرى، لكن مع هذا الوضع فليس هناك وثائق تثبت أو تنفي ذلك"⁽¹⁾.

تؤكد الأبحاث أن الدولة الأكادية كانت تمنح الجنود النظاميين أراضي زراعية يستثمرونها أوقات السلم، وتستثمرها عوائلهم أثناء الحملات الحربية، وهذه الأراضي لم تكن ملكاً صرفاً للجندي، بل هي ملكه مادام ملتزماً بواجباته العسكرية، ولهذا يستطيع أبناءه من بعده استثمارها، وقد يخسرها وتخسر عائلته أيضاً إذا امتنع عن تأدية الخدمة العسكرية التي هي واجب مقدس على كل من يستطيع حمل السلاح⁽²⁾، ويبدو لنا أن أسلوب استمرار الوحدة السرجونية اقتضت منح امتيازات، الغاية منها تعزيز فكرة التوحيد واستمراريتها، فدفاع الجندي عن أرضيه هو في حد ذاته دفاع عن وحدة دولته حالماً تكون الدولة معرضة للانهايار، وبالتالي هذه الأساليب السياسية تدفع إلى مواصلة النشاط العسكري .

وفي ظل هذه الظروف، تدفق الجوتيون على الأراضي الزراعية وفرضوا وجودهم على أغلب أجزائها في فترات الضعف الأخيرة للدولة⁽³⁾، فتمكنت المركزية في أور عقبتها من

(1) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 39.

(2) - فوزي رشيد، (سرجون الأكادي...)، المرجع السابق، ص 38.

(3) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 641.

استرجاعها وإدارتها بتنظيم مساحات شاسعة وواسعة من الأراضي الزراعية، وإيصال المياه إليها بواسطة شبكة ري دقيقة التنظيم مما أدى إلى استصلاح أراضي جديدة قابلة للزراعة⁽¹⁾، كما وظّف ملوك سلالات العصر البابلي القديم الأراضي الزراعية بوصفها وسيلة سياسية يُراد بها تحقيق أهدافهم واستراتيجياتهم وبسط نفوذهم والهيمنة على موارد الممالك الأخرى واقتصادياتها، ولأنّ الغذاء والماء هما عصب الحياة لدى الإنسان على مرّ العصور، عمّدوا إلى تجويع شعوب الأعداء والمدن المتمردة وقطع موارد الماء عنها، بهدف قتل الروح النفسية للفرد وإحباط معنوياته وتفتيت الصف الوجودي، وعزل الشعوب عن حكامها وتحطيم البنى التحتية لكل المؤسسات الحكومية، فضلاً عن استقطاب ضعاف النفوس من أهالي تلك المدن وإغرائهم بالأموال للحصول على معلومات استراتيجية تؤدي إلى نقاط ضعف المدن وغيرها، ومن خلال الاطلاع على النصوص المسمارية، فقد أشارت سجلات ماري الملكية إلى انتهاج "يخدون-ليم" ملك ماري مثل هذه السياسية تجاه آشور، إذ يشير في إحدى سنوات حكمه إلى حرق محاصيل⁽²⁾ "شمشي أداد-Shamshi-adad"⁽³⁾ في النص المسماري: "سنة "يخدون-ليم" يحرق حصاد بلاد شمشي أدد"⁽⁴⁾. كما أرّخ الملك⁽⁵⁾ "ليبث عشتار-Lipit-Ishtar"⁽⁶⁾ أحد سنوات حكمه بالسنة التي "صنع فيها الحراث"، ووصف نفسه في مقدمة قوانينه "بالمزارع الضليع للوركاء"، و"فلاح مدينة أور"، ويتضح من ذلك اهتمامه بالزراعة أكثر من أسلافه، حيث كان الجانب الزراعي يلعب دوراً رئيسياً في الحياة الاقتصادية لبلاد الرافدين⁽⁷⁾، لكنه في نصوص أخرى مشابهة نجده يمزج بين العمل الزراعي والألقاب الوجودية في مظهرها السياسي بقوله: "ليبث عشتار، راعي نفر، الفلاح الحقيقي لأور...، ملك إيسن، ملك بلاد سومر وأكاد..."⁽⁸⁾، ومن نفس العصر يقول "دامق-

(1) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 40.

(2) - سالم يحي الجبوري، المرجع السابق، ص 329.

(3) - نيكولاس بوستغيت، المرجع السابق، ص 140.

(4) - سالم يحي الجبوري، المرجع السابق، ص 329.

(5) - وليد سعدي الميالي وزينب عبد الله هلال، المرجع السابق، ص 762.

(6) - نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 168.

(7) - وليد سعدي الميالي وزينب عبد الله هلال، المرجع السابق، ص 762.

(8) - نفسه، ص 765.

إيلشو -Damiq-Ilshu" (1816-1794 ق.م)، آخر ملوك سلالة إيسن الأولى⁽¹⁾ بأنه "المشرف



على كل الأراضي، الحارس الأمين، سيد القصور
العالية، الملك القوي، ملك إيسن، ملك سومر
وأكد....."⁽²⁾.

إبان الوحدة الرافدية التي قام بها حمورابي،
أصبحت الأراضي التي تُسيطر عليها نتيجة
الحروب ملكاً للدولة، وتقلصت تبعاً لذلك
أراضي المعبد، وكانت الأراضي (أنظر الصورة
رقم 12) على ثلاثة أصناف، الأراضي الملكية
الخاصة التي تستغل من قبل العاملين في القصر
الملكي أو التابعين له لسد حاجيات البلاط، ثم
الأراضي الملكية المقطعة أو الموزعة، وأخيراً

الصورة رقم 12: توضح الثورة الزراعية خلال مرحلة
الوحدة البابلية القديمة عن:
عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 33.
<http://hisgeo.tn/images/13.jpg>

الأراضي المؤجرة التي كانت تؤجر إلى الفلاحين مقابل أجرة مقطوعة أو حصة من الغلة الناتجة،
وقد أولى حمورابي اهتماماً بالغاً إلى الصنف الثاني من الأراضي ووسع من الإقطاعيات التي كان
يمنحها إلى بعض أفراد القوات المسلحة وعدد من أصحاب المهن والحرف والصناعات والتجار مقابل
الخدمات المجانية التي كانوا يقدمونها له، ومقابل الخدمة في القوات المسلحة، وكان يهدف حمورابي
وراء ذلك إلى ربط هؤلاء الأفراد بالأرض من جهة، و يضمّن ولاءهم ودفاعهم عن أملاكهم من
جهة ثانية⁽³⁾.

وفي العصر الكاشي تملك بعض المدن مقاطعات زراعية واسعة، وكذلك القبائل التي
استقرت في وسط وجنوب العراق، وكان الملك أحياناً يشتري مقاطعات زراعية من تلك المدن أو
القبائل ويمنحها لمن يريد، وكان الملوك يمنحون أراضي إلى موظفيهم وأفراد الشعب أو إلى المعبد،
كما تملك بعض العوائل إقطاعيات أيضاً، وقسمت تلك الإقطاعيات إلى قطع صغيرة يستغلها

(1) - محمد بيومي مهران، (مصر و الشرق الأدنى...)، المرجع السابق، ص 201.

(2) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 67.

(3) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 72-73.

الأفراد، وأضفوا عليها طابع الوراثة للشخص الذي أقطعها له الملك، لكنه خاضع إلى كل ما يفرضه الملك إلا إذا استحصل إعفاء تحريراً⁽¹⁾، وفي شأن تلك الأراضي التي كانت تحت تصرف وكلاء الملوك الآشوريين في الأقاليم المختلفة، وتلك التي كانت تحت تصرف النبلاء، فقد أظهرت أعمال رجال تلك الضياع أنّ ساكنيها كانوا مرتبطين بها، ويُعدون جزءاً منها⁽²⁾، إذ نلمس من جغرافية توسعات " تجلات فاللاسر " إلى الشمال، أنّ الباعث الرئيسي لهذه التوسعات في نقوشه: "جعل جميع أراضي آشور مجهزة بالمخارث بحيث يزيد مخزونات القمح فوق التي كانت في زمن أسلافي..."⁽³⁾. وفي رسائل آشور بانيبال⁽⁴⁾ نجد ما يوحي بوفرة الإنتاج الزراعي في عصره، وتحقيق الاكتفاء للشعب بقوله: "نمت الحبوب...كثرت المحاصيل...في عهدي كان هناك اكتفاء يصل إلى حد الامتلاء، وفي سنوات عهدي عمّ الرخاء"⁽⁵⁾، كنتيجة للأعمال الوجودية.

وفي نفس السياق نجد أنّ الرسالة التي أرسلها "إرميا" النبي من أورشليم إلى شيوخ السبي وإلى الكهنة والأنبياء وإلى كل الشعب الذين سباهم نبوخذنصر إلى بابل تشجيعهم على الإنتاج الزراعي في صياغ الأمر بقوله: "إِبْنُوا بُيُوتاً وَاسْكُنُوا وَاغْرِسُوا جَنَّاتٍ وَكُلُوا ثَمَرَهَا"⁽⁶⁾، وقد يعني هذا الأمر في حد ذاته إشارة إلى دعم العمل الوجودي في المجال الاقتصادي الذي قام به حكام بابل وخدمة للجانب الزراعي، ومثلما قد يعني التمكين لهم في بلاد الرافدين لأهداف خفية.

2- مشاريع الري:

أشار أكثر من دارس لتاريخ العراق القديم إلى أنّ السلطة إنما تأسست بسبب الحاجة إلى تنظيم المياه لري المزروعات، فالزراعة كانت دافعاً لاستقرار الإنسان الأوّل لاسيما في العراق الذي يمتلك أخصب الأراضي الزراعية، وقد أدّى هذا الاستقرار إلى الرغبة في الاستفادة من الأرض بشق

(1) - سامي سعيد الأحمد، الزراعة والري "حضارة العراق"، ج2، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985، ص 187-188.

(2) - عماد الجواهري، تقويم نمط الحياة الإقطاعية لنمط الإنتاج الآسيوي كما توضحها أوضاع شمال العراق في العصور القديمة، مجلة المؤرخ العربي، ع47، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1994، ص226.

(3) - هاري ساكز، (عظمة آشور...)، المرجع السابق، ص 84.

(4) - نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 241.

(5) -

(6) - Henri Frankfort, Op.Cit, p 310.

(7) - سفر إرميا، (29: 5).

جداول المياه، وبتكاثر الرغبات نحو المجال الزراعي تولّد الصراع حول توجيه المياه ⁽¹⁾، بحجة "من يسيطر على قنوات الري يمكنه الاستيلاء على جميع البلاد" ⁽²⁾، ولهذا الشأن تحتل أخبار شق الجداول والأنهار مكاناً بارزاً في كتابات الملوك والحكام، منذ نشوء النظام السياسي في العراق وبداية التدوين في مطلع الألف الثالث ق.م. وكثيراً ما اتُخذ حقلاً أو نهر جديد أو كَرِيه أو تطهيره حادثة يؤرخ منها في نظام التأريخ بالحوادث المشهورة ⁽³⁾، ومن هذا المنطلق أثارت الحاجة للاستفادة الحكيمة من شبكة الري، وحصر العلاقات الاقتصادية بين المناطق إلى توحيد سومر سياسياً ⁽⁴⁾، لاستخدام الري استخداماً عقلانياً، فتعزيز العلاقات الاقتصادية بين المناطق قد حفز الاتجاه إلى التوحيد السياسي لبلاد سومر، كما أنّ توطيد السلطة على العبيد قد شدّد هو الآخر بدوره من مركزية الحكم ⁽⁵⁾.

وقد وردت بعض الشواهد النصية منذ عصر فجر السلالات السومرية، تؤكد اهتمام الحكام والملوك بتأمين المياه لِمَا لها من أهمية كبيرة في إنعاش الجانب الاقتصادي للبلاد، فالملك ⁽⁶⁾. "أور نانشة-Ur-Nanshe" مؤسس سلالة ⁽⁷⁾ لجش الأولى (2450-2480 ق.م) تفخر وتباهى في نصوصه، بأنّه كرّس جزءاً كبيراً من حياته في تأمين مياه الري، من خلال حفر العديد من القنوات والبحيرات بهدف تنظيم مجري نهر الفرات وتوجيه المياه إلى الحقول بقوله: "أور نانشة ملك لجش...بنى معبد نانشة... حفر القناة..." ⁽⁸⁾.

كما يرى أحد الباحثين في ضرورة مركزية شبكة الري الاصطناعي والدفاع عن البلاد ضد الأعداء الخارجيين كالقبائل الجبلية والرعوية التي كانت في غالب الأحيان تخترق حدود بلاد النهرين، قد جعل توحيد كل بلاد سومر في دولة من نموذج الدول الشرقية القديمة ذات الحكم

(1) - شاكر شاهين، المرجع السابق، ص 96.

(2) - ساكر هاري، (عظمة بابل...)، المرجع السابق، ص 79.

(3) - طه باقر، (الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين..)، المرجع السابق، ص 46.

(4) - ف. دياكوف / س. كوفاليف، الحضارات القديمة، تر: نسيم وكيم اليازجي، ط 1، ج 1، دار علاء الدين، دمشق، 2000، ص 88.

(5) - برهان الدين دلو، المرجع السابق، ص 252.

(6) - أنطوان مورتيكات، المرجع السابق، ص 59.

(7) - نيكولاس بوستغيت، المرجع السابق، ص 142.

(8) - أنطوان مورتيكات، المرجع السابق، ص 59.

المطلق ضرورة مُلحة، وباعتبار أن "لوكال زاكيزي" أول من تولّى هذه المهمة الوجودية، فقد كان من نتائج هذه السياسة التوحيدية التي اتبعها هذا الحاكم أن ساعدت على ازدهار المدن السومرية⁽¹⁾، معتزاً في هذا المجال بأنه "أعطى أوروك البهجة والسعادة، ورفع رأس أور كرأس الثور حتى السماء، ووهب" لارسا "أحب المدن ميه السعادة"⁽²⁾.

وتذكر النصوص العراقية القديمة أيضاً أن سرجون الأكادي حاز سلطات هائلة بفعل سيطرته على مشاريع الري وإدارته لها، يحكم كونه الكاهن الأعلى، إذ أصبح تجسيداً لوحدة البلاد ورمزاً لها، مما أتاح له أن يُعبئ الرجال تعبئة عامة لمقاومة الغزو الأجنبي والقضاء على معارضة النبالة القديمة المحلية والإقليمية موحداً البلاد تحت سلطته الفردية المطلقة والمقدسة⁽³⁾، فكان من نتائج ذلك "أن تحققت له السيادة، واستقرت أحوال البلاد في سلام، وسُقيت الأرض بماء السعادة...، وروى لارسا مدينة إله الشمس بماء السعادة..."⁽⁴⁾.

أمّا في حقبة سلالة لجش الثانية (2250-2114 ق م)، فتعد من الحقب المهمة في تاريخ السومريين السياسي ونهضتهم، إذ بلغت هذه السلالة أوج ازدهارها في عهد جوديا⁽⁵⁾، وكشفت كتابات هذا الحاكم عن أسماء (131) مدينة وقرية زراعية تقع معظمها ضمن حدود مملكة لجش، ومن خلال دراسة النصوص المسمارية تم التوصل إلى معرفة عدد كبير من الحقول والبساتين البالغ عددها (480) حقلاً وبستاناً، وكان لهذا العمل الدور الكبير في إنعاش الجانب الاقتصادي، فضلاً عن أسماء القنوات المائية الموجهة لدعم الأراضي الزراعية⁽⁶⁾ التي ربطت ووصلت بينها.

وهذا ما وحد وجهة نظر مواطني سلالة أور الثالثة، وقادتهم إلى التجمع والعيش حول منابع المياه، حيث أفادت نصوصهم الاقتصادية أن كثيراً منهم فضلوا الاشتغال في الأراضي والحلات

(1) - ك. ماتيف و أ. سارزونوف، المرجع السابق، ص 70-71.

(2) - نفسه، ص 71.

(3) - عبد الرضا حسين الطعان وآخرون، المرجع السابق، ص 52-53.

(4) - محمد بيومي مهران، (مصر والشرق الأدنى ...)، المرجع السابق، ص 113.

(5) - Dietz Otto Ezdard, *Gudea and His Dynasty_ the Royal Inscriptions of Mesopotamia Early periods* , Vol 3/1, University of Toronto Press, Canada, 1997, p 26-180.

(6) - ياسر هاشم حسين علي، المرجع السابق، ص 475.

التابعة للدولة والمعبد، لكي يجنبوا أنفسهم خطر الوقوع في أزمات اقتصادية ناتجة عن قلة مياه الإرواء أو الجفاف أو الآفات الزراعية التي قد تصيب منتجاتهم⁽¹⁾.

وبعد تولي الأمورين مقاليد الحكم، وتأسيسهم لممالك من شمال إلى جنوب بلاد الرافدين، عملوا على الاهتمام بالزراعة وتطويرها خدمة لقوة المملكة واكتفائها ذاتياً، وبنجاح همورابي وتحقيقه لسياسة توحيد الممالك في دولة واحدة، دفعه هذا الأمر إلى الاهتمام بهذا المجال بتوسيع رقعة الأراضي الزراعية من خلال إقامة مشاريع الري وحفر القنوات⁽²⁾، إذ كان الغرض في العديد من حملاته العسكرية السيطرة على مياه دجلة والفرات⁽³⁾ باعتبارهما "ثروة الشعب التي تجلب ماء وفيراً لسومر وأكاد وتُحول ضفافهما إلى حقول مُزروعة وتُهيئ أكواماً من الغلّة وتزود شعبي سومر وأكاد بماء دائم الجريان"⁽⁴⁾، ولهذا الشأن أقام نقشاً على أهم القنوات فحواه: "همورابي فيض الشعب"⁽⁵⁾، بل وتذكر أخباره شقّه لنهر يخرج من الفرات، قريباً من بورسيبا ماراً بمدينة "أوما" و"لارسا" حتى الخليج العربي، هذا النهر الذي وحد مجراه كل هذه المناطق، التي شربت ورويت مزروعاتها من نفس المنبع، وقالوا عنه: "نهر همورابي واهب الخير للناس، حبيب الإله "أنو" و"إنليل" الذي غذا "نيبور" و"إريدوا" و"أور" و"لارسا" و"أوروك" و"إيسن"، بمورد مائي دائم"، وكان يبدأ من الفرات أسفل "كيش" ويمتد حتى الخليج العربي، وفي عصر "إيسن" بنى أحد ملوك "لارسا" سوراً فوق خزان عند فم قناة، وقد احتاج السور إلى حوالي مليون وثلاثمائة ألف طابوقة، وربما كانت هذه القناة هي التي سميت في العصور المتأخرة "إسنينيتوم" التي كانت تتفرع من الفرات شمال نيبور (نفر)، وكان حجم الخزان 130 ألف متر مكعب، وهناك نص يشير إلى تنظيف مجمع المياه من الحصى، أبعاده (72x240 متراً)، هذا إضافة إلى إشارات عن

(1) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ص 70.

(2) - جاسم شهد وهد، الزراعة خلال العصر البابلي القديم، مج 11، ع 3، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، بغداد، 2008، ص 31.

(3) - Sherman Hollar, Op.Cit, p 52.

(4) - ل. ديلاپورت، المرجع السابق، ص 111.

(5) - سبتيانو موسكاتي، (الحضارات السامية...)، المرجع السابق، ص 68.

الملك "ريم سين" (1822-1763 ق.م) من أسرة "لارسا" الذي قام ببناء قناة تأخذ المياه من دجلة لحل مشكلة المياه في لارسا⁽¹⁾.

ومن نفس العصر يشيد الحاكم "ياخدون-ليم" المؤسس الفعلي لمملكة ماري في قوله: "ياخدون-ليم، ابن يلجيدليم، ملك ماري وأرض خاناء، الذي شقّ القنوات وشيّد الأنهار...، وأقام الثّراء لرعاياه، وتّم- كل شيء- في أرضه"⁽²⁾، وهذا ما يوضح اتساع مشاريع الوحدة الإروائية.

وفي مجال المياه أورد ديودور الصقلي تدخل الملكة الآشورية "سميراميس-Sémiramis*" في اختيار موقع أكثر انخفاضاً في ضواحي بابل، قصد بناء خزان يأخذ شكل المربع في كل جانب منه 300 ستاد** أي (55 كلم)، وهذا الخزان كان مبنياً من الأجر المشوي والإسفلت، يصل عمقه إلى 35 قدماً، كما غيّرت لجله مسار أحد الأنهار باتجاهه⁽³⁾، ولأهمية النهرين دجلة والفرات، قامت سميراميس ببناء العديد من المدن على ضفافهما، احتوت مخازن مخصصة للسلع القادمة من بلاد الميدين والبلدان المجاورة، كما يُعطيان تسهيلات كبيرة في العلاقات التجارية لما احتوته في ضفافهما الغنية بالمخازن⁽⁴⁾.

نتج أيضاً عن سياسة وحدة الدولة الآشورية في حروبها الخارجية انجاز مشاريع الري الضخمة، باستخدامهم آلافاً من الأسرى الذين وقعوا في قبضتهم، وقد اتبع "سنحاريب"

(1) - محمد بيومي مهران، (الحياة السياسية والاقتصادية...)، المرجع السابق، ص 250-253.

(2) - محمد عبد اللطيف محمد علي، سجلات ماري وما تُلقّيه من أضواء على التاريخ السياسي لمملكة ماري من حوالي 1820 إلى 1760 ق م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985، ص 26.

* تعتبرها الأعراف السائدة في الشرق أيام الأخمينيين أنها ملكة آشور وبابل، ويُقال أنها وُلدت في فلسطين من اقتران رجل عادي بالآلهة "ديركيتو"، وتقول الأسطورة إنّ سميراميس رُميت في الصحراء فانتشلها الراعي "سيموس" وتزوج بها حاكم سورية العامل لحساب "نينوس" ملك نينوى الذي تزوجها من ثمّ ولم يلبث أن توفّي بعد زواجه بها، وأصبحت سميراميس سيّدة الإمبراطورية الآشورية، إذ حصّنت بابل وأنشأت فيها القصور الرائعة والحدائق المعلقة التي اعتبرت من عجائب الدنيا السبع، وقامت بتوسيع رقعة مملكتها ولكنها هزمت في الهند... الخ: للمزيد أنظر هنري.س عبودي، المرجع السابق، ص 493.

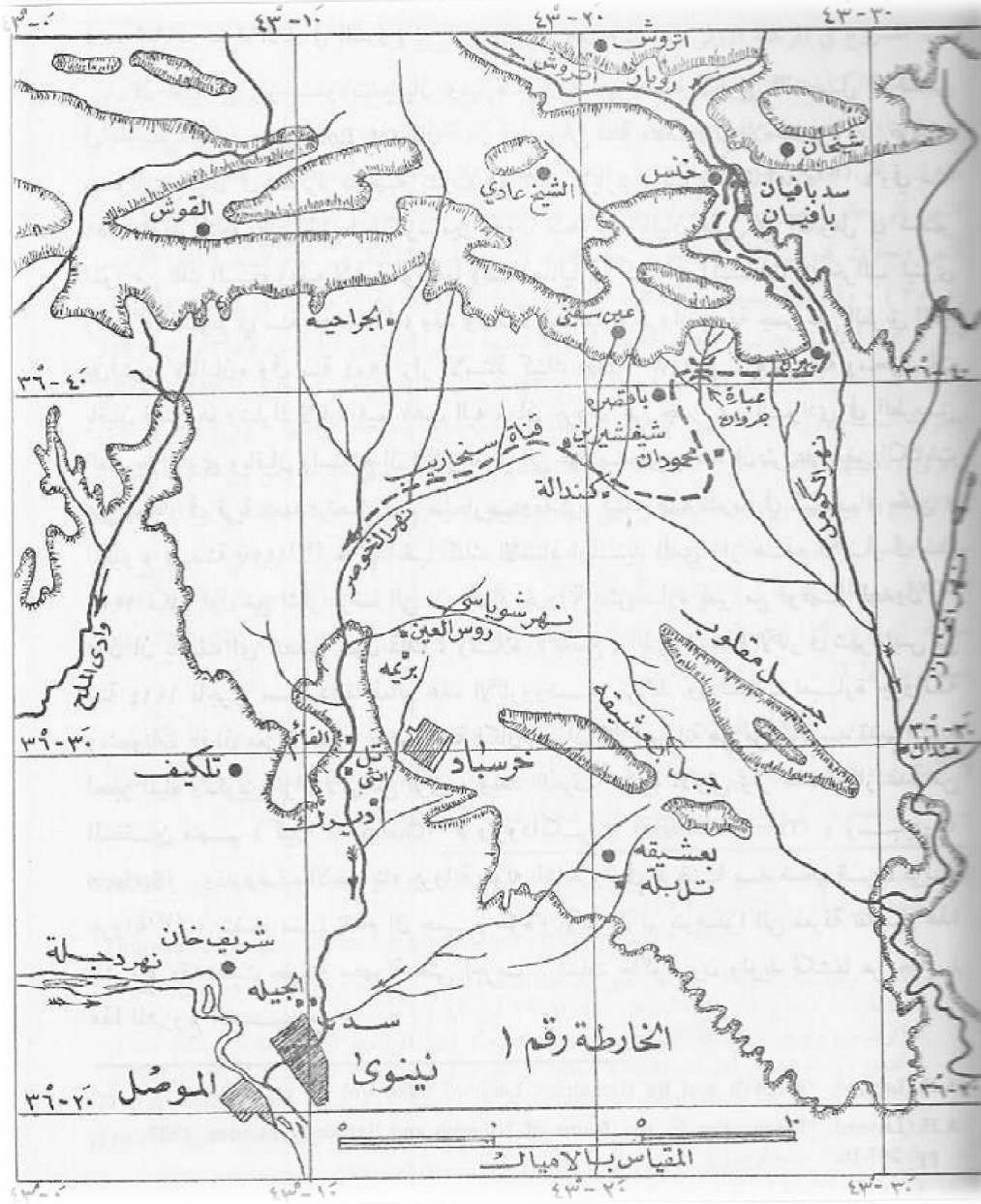
** يساوي واحد ستادي مسافة تتراوح ما بين 150 إلى 190 متر -انظر: ك. ماتيف/سازونوف، المرجع السابق، ص 98؛ نخبة من العلماء، المرجع السابق، ص 63.

(3) - Diodore de Sicile, Loc.Cit, livre II, IX .

(4) - Loc.Cit,XI.

الفصل الثالث: الفكر الوحدوي في ظل الحياة الاقتصادية

(أنظر الخريطة رقم 8) طريقة أسلافه في انجاز مشروع قناته، في استغلال أسرى الأقطار التي استولى عليها كالكلدانيين والآراميين والأرمن واليهود وغيرهم من الأقوام المغلوبة⁽¹⁾.



الخريطة رقم 8: توضح مشروع قناة سنحاريب عن:

أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 101.

(1) - أحمد سوسة، تاريخ حضارة واد الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الأثرية والمصادر التاريخية، ج2، المجمع العلمي العراقي، بغداد، (د-ت)، ص 114.

ومما يدل على الصلة والربط بين الوحدة السياسية الآشورية ومشاريع الإرواء الاقتصادية قيام سنحاريب في سنة 691 ق.م بقهر قوات "همبانيمنيا" ملك عيلام، موضحاً في مدوناته أنه أنجز هذه الأعمال في سنة وثلاث أشهر⁽¹⁾، إذ قام في نفس السنة بإرواء منطقة "أربيل" قائلاً: "أنا سنحاريب ملك العالم، ملك آشور، حفرت أنهاراً ثلاثة في جبال خاني في أعالي مدينة أربيل، وأضفت إليها مياه العيون التي في اليمين واليسار من جوانب تلك الأنهار، ثم حفرت قناة - تمتد - إلى أواسط مدينة أربيل موطن السيلة العظيمة الآلهة عشتار وجعلت مجراها مستقيماً"⁽²⁾.

وبهذا يمكن تقويم اثنين من المشاريع الإروائية وهما مشروع "إربيل" ومشروع "نينوى" بوصفهما من المشاريع التي أنجزت على أسس مادية اقتصادية ذات طابع استغلالي، إذ يمثلان مرحلة متقدمة من خطط الدولة الآشورية لإقامة قاعدة اقتصادية موحدة لتحقيق الاستثمار وبشكل منظم في عصر السلام الذي جاء كنتيجة سابقة وحافلة بالحروب الخارجية⁽³⁾، بل واقتضت سياسة سنحاريب الآشوري الحربية في مرحلة تخريبه لمدينة بابل سنة 689 ق.م تسليط مياه دجلة والفرات على أنقاضها حتى أغرقوها⁽⁴⁾، وفي العصر البابلي الحديث نجد رؤية أخرى، لا تندرج فقط ضمن الاستفادة من مشاريع الري وتوظيفها في العمل الزراعي فحسب، وإنما تستخدم لأغراض أخرى تندرج ضمن المحافظة على وحدة الدولة من خلال إقامة دفاعات حول بابل التي جددتها ووسعها الملك نبوخذنصر، ومنها إنشاء سدّاد شمالي بابل، وفي حالة تعرض المدينة لهجوم واسع لا يقوى على صدّه، تفتح الجداول والقنوات لتحيط بالمدينة بمسطحات مائية واسعة تمنع تقدم أي هجوم عليها مهما كان واسعاً وفي ذلك أورد نبوخذنصر⁽⁵⁾ خطابه قائلاً: "حتى لا يقترب العدو، الذي لا يرحم من بابل، أحطت البلاد بمياه... وقويت دفاعها بمهارة وجعلت مدينة بابل تشبه الحصن"⁽⁶⁾.

(1) - أحمد سوسة، المرجع السابق، ص 115.

(2) - نفسه، ص ص 118-120.

(3) - عماد الجواهري، المرجع السابق، ص 225.

(4) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 793.

(5) - محمد طه الأعظمي، (من المظاهر الحضارية العراقية القديمة...)، المرجع السابق، ص 197.

(6) - Stephen Langdon, **Building Inscriptions of the Neo-Babylonian Empire- Nabopolassar and Nebuchadnezzar**, part 1, Ernest Laroux, Paris, 1905, p 85.

وفي موضع آخر قال: "كَيْ أُرسِّخُ تحصينات بابل، كما لم يفعل أي ملك من سابق، سأحيط المدينة من الشرق بصور كبير على مرتفع من التراب المردوم يبلغ طوله أربعة آلاف ذراع، ويمتد من الضفة العليا للفرات حتى الضفة السفلى، وسأعمق مجرى النهر وأدعمه بالملاط والقرميد، وسأرفع حافته جداراً كالجبل...، وأشيّد له بوابات ضخمة مرتبطة بمصاريح من خشب الأرز الذي سأكسوه بالنحاس...، ففي ضاحية بابل، من ضفة الفرات حتى قناة أرحتو، سأرفع ردماً من التراب، وسأحيط المدينة بالمياه الجارية كي أقوي تحصينها، وسأهتم أيضاً بإقامة ردم آخر من التراب على مسافة أربعة عشر...، وذلك فوق أور، قرب سيبار، ومن ضفة نهر دجلة حتى ضفة نهر الفرات، وهناك أيضاً ستحيط المياه بالمدينة مثل أمواج البحر، وسأمكن الردم بالملاط والقرميد كي لا تقوُضه المياه، وهكذا تصبح حيلة الشعب سعيلاً في بابل..."⁽¹⁾.

وبالمقارنة مع ما سبق ذكره، نجد أنّ المياه استخدمت كسلاح ذو حدين في سياسة التوحيد، الأول في بناء المشاريع الإروائية من أجل ربط أكبر عدد من المدن والمناطق تحت إدارة مركزية واحدة تمثلها السلالة الحاكمة، والثاني من أجل إضعاف الخصم وإغراقه لكي يعلن انضمامه، ومن أجل استمرار طابع الوحدة في أنحاء بلاد الرافدين، اهتم الملوك بالجمال الصناعي لما له من أهمية هو الآخر في تعزيز الوحدة.

II- الأبعاد الصناعية:

لم تكن المواد الأولية لبلاد الرافدين كافية لقيام دولة مزدهرة قائمة على أسس متينة، فقد كانت تفتقر إلى الكثير منها، من معادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والأحجار الثمينة وأنواع الأخشاب الجيدة، لذا وجّهت طموحاتها الوجودية نحو التوسع الخارجي والانفتاح على أماكن و مصادر تواجد مادتها الصناعية، لتطوير هذا القطاع وجلب اليد العاملة الخارجية الخبيرة، وإغراق السوق الرافدية بالسلع المصنعة خدمة للدولة والمجتمع .

(1) - فليبي عطا الله، المرجع السابق، ص32.

1- الاحتكار الصناعي:

الصناعة أحد الأركان الثلاثة التي قامت عليها الحياة الاقتصادية للعراق القديم بعد الزراعة والتجارة، ومع أنّ نشاط العراقيين القدماء في الزراعة والتجارة كان يفوق نشاطهم في الصناعة⁽¹⁾، فقد شكّل المعبد في عصر السلالات نواة المدينة ومركزها، ونواة جميع النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومن الطبيعي أن يسيطر المعبد على معظم الحرف والصناعات، فكان لكل معبد عدد من المشاغل البسيطة، تُنتج السلع التي يحتاجها المعبد ويبيع الفائض منها كجزء أساس من واردات المعبد، وكان من بين هذه المشاغل عدة ورشات مختلفة، منها للنجارة والنحت والدباغة وغيرها، يعمل فيها عدد من الصناع والحرفيين من الصبيان والنساء فضلاً عن وجود الرقيق، ويخضعون جميعهم إلى سلطة المراقب العامل للمشغل⁽²⁾. ويمكن التخمين أنّ لكل دولة مدينة مؤسساتها الصناعية الخاصة بها، تستجيب لمتطلبات وحاجيات سكانها.

وقد عمل أصحاب الحرف الصناعية والتجار كُلياً لصالح الطبقة الحاكمة في القصر والمعبد، ورغم المحاولات الجادة التي بذلها التجار والحرفيون ليقفوا على قدم المساواة مع أرباب العمل، إلاّ أن محاولتهم غالباً ما كانت تبوء بالفشل نظراً لهيمنة السلطة الحاكمة اقتصادياً⁽³⁾، والتي نفت حكومتها وبشكل خاص عن نفسها صفة المُحتكر في هذا المجال⁽⁴⁾، ومن السومريين من يذكر حالة البؤس والفقر التي مرّت بها طبقة العمال من الصناع والحرفيين، وكيف أنّهم أصبحوا يشحذون قوتهم ويأكلون فضلات الطعام من أبواب المدينة، في حين كانت مخازن الحكام وقصورهم وبيوت حاشيتهم مليئة بالطعام وتفيض بالخيرات، إذ يرد في النص⁽⁵⁾: "لقد كان على الصناع أن يتسوّلوا

(1) - وليد الجادر، الصناعة، "موسوعة الموصل الحضارية"، مج1، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1991، ص 219.

(2) - طه باقر وآخرون، (تاريخ العراق القديم...)، المرجع السابق، ج2، ص 150-151.

(3) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 76.

(4) - رضا جواد الهاشمي، التجارة "حضارة العراق"، ج2، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985، ص 230.

(5) - أحمد لفّة رهمة القصير، المضامين الاجتماعية لإصلاحات الحاكم السومري أورو-اينمكينا (2365-2357 ق م)، مج 10، جامعة القادسية، بغداد، 2007، ص 251.



الصورة رقم 13: نموذج عربة من النحاس بأربعة عجلات تعود للفترة السومرية عن:

L'histoire commence en Mésopotamie, Musée du Louvre-
Lens ; Exposition / 2 NOV. 2016 – 23 JANV. 2017, p9.

من أجل الحصول على خبزهم، كانوا يأخذون خبز التّوسل، وكان على أصحاب المهن أن يلتقطوا فضلات الطعام(?) عند البوابة العظيمة⁽¹⁾.

وكما عمل هؤلاء الحكام على توحيد جهود البلاد⁽²⁾، فافتقارها إلى

معظم موارد البناء الضرورية مثل الخشب والمعادن والأحجار...الخ، وجهها نحو تحقيق عملية الاستيراد⁽³⁾، وكان استخدام النحاس هو الأكثر شيوعاً للاعتماد عليه في صناعة أدوات حربية⁽⁴⁾ للمحافظة على وحدة المدينة، ومن أشهر هذه الصناعات الحربية في دول المدن السومرية صناعة العربات الحربية (انظر الصورة رقم 13) والرماح والتروس أو المجنحات، والخنجر والسيوف والفؤوس...الخ⁽⁵⁾.

يرى العديد من الباحثين عدم وجود أي معدن أصلي في بلاد الرافدين، فكانت الأعمال المعدنية وكثير من الصناعات الأخرى إنما تعني وجود علاقات تجارية واسعة، حيث كان السومريون يحصلون على القصدير من شرق إيران، ومن أسيا الصغرى وسوريا، ويحصلون على الذهب من عيلام وكبادوقيا ومنطقة أنطاكية، في حين كانت تأتي الفضة والرصاص من جبال طوروس ومن الخليج العربي، وربما من القوقاز، كما كانت عمان مصدراً للحجر من أجل المطاحن اليدوية ومزاج الأبواب والتماثيل، وكان حجر اللازورد يأتي من فارس وأفغانستان، واللؤلؤ من الخليج العربي، وأصداف الزينة من الهند، وخشب الأرز والصنوبر من جبال لبنان والشام وجبال زاغروس في إيران⁽⁶⁾، ولأهمية المعادن شن "اينشاكوشانا-Enshakushanna-" أول ملوك سلالة الوركاء الثانية حرباً على "إيني عشتار"، الملك ما قبل الأخير في سلالة كيش الثانية، وحقق خلالها انتصاره

(1) Samuel Noah Kramer, Op.Cit, p 317-318.

(2) - عزمي سكر، المرجع السابق، ص 20.

(3) Mark Samuel, From Egypt to Mesopotamia : A Study of Predynastic Trade Routes Studies in Nautical Archaeology, Texas A&M University Press, U.S.A, 1998, p 9.

(4) - وليد الجادر، صناعة التعدين "حضارة العراق"، ج 2، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985، ص 240-241.

(5) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 50.

(6) - غلين دانيال، المرجع السابق، ص 86.

عليه، مما دفع سكان "أكشاك" وكيش تسليم المعادن الثمينة لملك الوركاء، تبعاً للنص الآتي: "كُرس ... أكشاك* وكيش ومعدنهما الثمين، وأحجارها الكريمة وممتلكاتها المصنوعة ... لا نليل ملك الأقطار"⁽¹⁾.

وبعد أن عمّ الأمن والاستقرار، وقويت الحكومة المركزية وسيطرت على المدن، كانت للدولة الكثير من المشاغل والمصانع الخاصة بالصناعات المحلية، كطحن الحبوب ومشاغل الأنسجة الصوفية والنسيج بصورة عامة، وصناعة الجلود، إضافة إلى صناعة السفن و بعض الصناعات البسيطة الأخرى⁽²⁾، فلم يقف اقتباس الأكاديين عن السومريين حول حضاراتهم أو تلك الأشياء التي تفيدهم في حالة السلم بل عرفوا منهم أيضاً ما يُفيدهم في الحرب، فتعلّموا كيف يصنعون الخوذات من الجلد أو من النحاس، وتزن الواحدة منها أكثر من رطلين، إذ كانت تلك الخوذات أقدم محاولة للإنسان باستخدام المعادن لحماية نفسه من الحرب⁽³⁾، بل وقد أحدث ذلك تطور اجتماعي أدّى إلى قيام دولة الحرفيين خلال الوحدة الأكادية⁽⁴⁾.

بينما أخذت قيمة المعادن في العصر البابلي القديم تزيد شيئاً فشيئاً⁽⁵⁾، وأصبحت الحرف والصناعات المختلفة تخضع لنظم معيّنة، وبعضها على الأقل كانت تحت رقابة دقيقة، فعملية النسيج كانت تتم تحت رقابة رؤساء عمال يعيّنهم الملك، وقد حدّد قانون حمورابي الأجور اليومية للعمال، كما حدّد أتعاب عامل المعمار والمبّيض، ونَصَّ على العقوبات التي تُفرض على من يخطئ في تنفيذ المطلوب منه، ويُفهم من قانونه أيضاً أنّ تعليم الصناعة كان يخضع لنظم معيّنة، ومنها⁽⁶⁾ المادة (188): "إذ تَبَنَّى حِرْفِيٌّ طفلاً صغيراً ورباه وعَلَّمه صنّعتَه، فلا يُمكن استعادته بالطرق القضائية"⁽⁷⁾ إلاّ إذ لم يُعلّمه شيئاً، وكان من الممكن أيضاً أن يعهد إنسان بعبده إلى رجل آخر

* تقع مدينة-Akshak- ضمن مقاطعة بابل أنظر: فاضل عبد الواحد علي، (من سومر إلى التوراة...)، المرجع السابق، ص27.

(1) - Samuel Noah Kramer, Op.Cit, p 308.

(2) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات....)، المرجع السابق، ج1، ص70-71.

(3) - جيمس هنري بريستد، المرجع السابق، ص179.

(4) - انطوان مورتيكات، المرجع السابق، ص93.

(5) - جيمس هنري بريستد، المرجع السابق، ص181.

(6) - محمد أبو المحاسن عصفور، (معالم حضارات الشرق...)، المرجع السابق، ص234-235.

(7) - عبد الحكيم الذنون، (التشريعات البابلية...)، المرجع السابق، ص67.

لِتَتَلَمَّ منه حرفته، وفي حالة عدم اكتسابه للمهنة الصناعية، فإن صاحب الحرفة مُلزم بدفع تعويض باعتبار أنه استخدمه لأغراض معينة دون أن يُفِيدَه⁽¹⁾.

أما الآشوريون (أنظر الصورة رقم 14) فقد اشتهروا بصناعة الأسلحة، ولكونهم حرصوا



الصورة رقم 14: جنود يصنعون الأسلحة في معسكر للجيش الآشوري عن:

Don Nardo, The Greenhaven encyclopedia of Ancient Mesopotamia, Ed: Gale, Cengage Learning, London, 2007, p319.

على اعتماد جيش قوي مجهز بالأسلحة المعدنية الثقيلة من أجل توسعاتهم الوجودية، فقد أنشأوا ورشات خاصة، يُشار إليها بأسماء منها مثلاً: "Bit Kutali"، وتمكّنوا من عمليات صب المعادن وخاصة الحديد لعمل الأسلحة، ويُعرف العاملون من المتخصصين في صناعة الأسلحة باسم "ShaHalluptiShunu"، ولعل أهم ورشاتهم كانت في مدينة نمرود⁽²⁾، كما استطاع "شيلمنصر الثالث" (859-824 ق م)،

أن: "يتلقى في بابل جزية -أديني ابن داكوري*- من الذهب والفضة وخشب أوشو والعاج"، التي صورها فنانوه، إذ كان يحملها أهلها بين صفوف النخيل، ويُشرف عليها حراسه وكتبته، كما صورها على أبواب قصره المصنوعة بصفائح البرونز⁽³⁾، الأمر الذي دلّ على كون الجزية المفروضة على المناطق التي انطوت تحت لواء الآشوريين، ومنها بابل، كانت تفرض عليهم مواد تستعمل في الصناعة. غير أن الآشوريين لا يختلفون كثير عن الحكام الذين جاؤوا بعدهم⁽⁴⁾ في العصر الكلداني⁽⁵⁾، إذ أدّت حروبهم إلى القضاء على السكان المهرة في الصناعة، باعتبارهم فئة تمثل مصدر

(1) - محمد أبو المحاسن عصفور، (معالم حضارات الشرق...)، المرجع السابق، ص 234-235.

(2) - وليد الجادر، (الصناعة...)، مج 1، المرجع السابق، ص 239.

* أنظر الكلدانيين : ص 78 وما بعدها.

(3) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 775.

(4) - جيمس هنري بريسند، المرجع السابق، ص 225.

(5) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 152.

لِلشراء والرِّخاء، إذا حدث هذا أوّل الأمر في نطاق بلادهم، ثم في باقي أنحاء الممالك الخاضعة ليوحدتهم⁽¹⁾.

كان السادة أيضاً من العصر البابلي الحديث يبعثون عبيدهم لدى المختصين لتعليمهم حرفهم مقابل هدية يتلقاها المعلم، وإلا فإنه يدفع تعويضاً إن هو أهمل تعليمه، إذ تُقدم الهدية عرفاناً بالجميل، أكثر منها أجراً، ومن بين الحرف التي اشتهرت في هذه الفترة، النسيج وصياغة المعادن والنجارة وتهذيب الأحجار وغيرها من مستلزمات الأمور⁽²⁾، ولكون استخدام المعادن في كثير من شؤون الحياة لها أهميتها، فقد كان النحاس والفضة والذهب يمثلون بدورهم متطلبات النقد المعدني من حيث القوة المادية والقوة الشرائية⁽³⁾، فمن خلال المعادن خطت الصناعات المحلية خطوات واسعة في سبيل التقدم والنهوض⁽⁴⁾، ومع العلم أنّ المعادن تحتل مركزاً خطيراً يتجلى في توجيهها واستخدامها كسلعة كان يفتقر إليها الشعب العراقي القديم لسد حاجاته الإنتاجية في كل مجالات الحياة الاقتصادية⁽⁵⁾، إلا أن نهاية وحدتها وضّحت لنا وضعها، كما بيّنته نصوص العهد الجديد بنوع من الوصف بأن: "22... كُلُّ صَانِعٍ صِنَاعَةً لَنْ يُوجَدَ فِيكَ فِيمَا بَعْدُ"⁽⁶⁾.

2- الانفتاح الصناعي:

لاشك أن تسريب المعادن إلى بلاد الرافدين بمختلف الأشكال كان ذا أثر في إنعاش الحياة الاقتصادية، فمثلما سهّل من مهمة الصناعات، فقد أنعش الأيدي العاملة ومهّد للثروة والرخاء للدولة، وباعتبار أنّ هذا المورد قد شكّل عاملاً أساسياً للربط الوجودي بمختلف أساليبه بين بلاد الرافدين والبلدان المحيطة بها، فالغاية والهدف من دراسة الانفتاح الصناعي كسياسة اقتصادية معرفة الأساليب التي اعتمدها حكام العراق القديم من أجل مدّ نفوذها وتعزيز المشاريع الوجودية، ولو أنّ هذه الأساليب كانت ولا تزال إلى حد اليوم من الذرائع المنتهجة عبر التاريخ للوصول إلى مصادر المواد والاستفادة منها.

(1) - جيمس هنري بريستد، المرجع السابق، ص 225.

(2) - محمد بيومي مهران، (الحياة السياسية الاقتصادية...)، المرجع السابق، ص 258.

(3) - محمد علي رضا آل جاسم، الائتمان و الصيرفة في العراق القديم، مطابع دار التضامن، بغداد، 1964، ص 111.

(4) - جيمس هنري بريستد، المرجع السابق، ص 233.

(5) - محمد علي رضا آل جاسم، المرجع السابق، ص 114.

(6) - رؤيا يوحنا اللاهوتي، (18: 22).

كان افتقار الأرض العراقية للمعادن والأخشاب والحجارة سبباً للسعي بالوسائل المختلفة لأجل توفيرها من خلال توسيع دائرة الاحتكاك والتفاعل والمتاجرة⁽¹⁾، إذ كان هذا الافتقار سبباً من أسباب نشوء أولى الحروب والمنازعات للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى مصادر تلك المواد، فكان من نتائج ذلك أن توحدت الدويلات الصغيرة في دولة القطر الموحدة التي ما لبثت أن أصبحت إمبراطورية تسيطر على الطرق التجارية الموصلة بين الخليج العربي من جهة والبحر الأبيض المتوسط من جهة ثانية، كما هي الحال في عهد الدولة الأكادية والدولة البابلية والدولة الآشورية⁽²⁾.

وعلى سبيل المثال فالتجارة في المواد الصناعية ولاسيما الخارجية كان لها نشاطاً ملحوظاً في الفترة السومرية، ويؤيد ذلك وجود كثير من المواد الخام المستوردة من بلدان أجنبية، كالمعادن على اختلافها والأخشاب وبعض أنواع الحجارة، وقد أشارت النصوص المسمارية إلى وجود علاقات خارجية تنطوي ضمن هذا المجال مع منطقة إرمينيا وأسيا الصغرى وبلاد سوريا وبلاد ميلوخا* وبلاد دلمون وبلاد ماجان إضافة إلى الهند وبلوخستان وبعض المنافذ البعيدة، وتطلب هذا الأمر ضرورة تأمين طرق مواصلاتها وهو من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى نشوء الحروب والمنازعات بين دويلات المدن السومرية والاتجاه العام نحو تحقيق المشروع التوحيدي للمنطقة لضمان السيطرة على تلك الطرق وضمان جلب المواد الخام التي تفتقر إليها البلاد⁽³⁾، حيث كانت الصناعة في أول أمرها قاصرة على سد الحاجات الضرورية في المبادلات التجارية، ولكن توسيع العلاقات مع الخارج شجعت على زيادة وتحسين الصناعات خاصة صناعة المعادن كالبرونز والنحاس والحديد على أيدي السومريين في مختلف شؤون الحياة⁽⁴⁾.

(1) - رضا جود الهاشمي، المرجع السابق، ص 27.

(2) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 17-18.

* حسب الدراسات الحديثة فإنها تقع في واد السند، أي ضمن حضارات باكستان الحالية، وهي المركز الثالث المرتبط مع العراق على مَرَّ العصور بعد دلمون ومجان من حيث البعد - للمزيد انظر : عادل هاشم علي، سفن الخليج العربي أهميتها ودورها في بلاد الرافدين "دراسة في النصوص المسمارية"، مج 1، ع 3+4، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، بغداد، 2013، ص 95.

(3) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 48-49.

(4) - محمد علي رضا آل جاسم، المرجع السابق، ص 23-24.

لم يقف طموح سرجون الأكادي الوجودي عند بلاد الرافدين وبلاد فارس، بل تعدّاه إلى شمال سوريا، حيث تتوافر الأخشاب، فبادرَ إلى غزوها ووصل إلى مدينة "ماري" مروراً بمدينة "توتول"، ثم مدينتي "إبلا" و"يارموتي" شمال شرقي المتوسط وجبال الأمانوس*، و في هذا الشأن يقول مفتخراً: "أخضعت البلدان من مطلع الشمس حتى مغربها، ومن البحر الأسفل (الخليج العربي) حتى البحر الأعلى (المتوسط) .. الخ"، وبالتالي قد تكون الغاية من التوسع الخارجي على هذه المواقع ليس من باب بسط النفوذ الوجودي وتحقيق الأهمية الاستراتيجية بقدر الاستفادة من الأخشاب في المجال الصناعي⁽¹⁾، إذ كان من نتائج السياسة الوجودية الخارجية التي تبناها سرجون وحفيده نرام سين امتداد نفوذهم إلى بلدان قاصية في الشرق والغرب، و بهذا الشكل صارت السفن والقوافل التجارية تنقل البضائع والمواد الأولية إلى العاصمة أكاد، فانتعشت الحياة الاقتصادية وعمَّ العمران والرخاء كل أنحاء البلاد، و يُعطينا النص الآتي بعض مظاهرها: "في تلك الأيام كانت مساكن أكاد مملوءة ذهباً، بيوتها الساطعة اللامعة مملوءة فضة، وإلى مخازنها كان يُحمل النحاس والرصاص وحجر اللازورد، عجائزها وهبوا سداد الرأي، وشيوخها وهبوا فصاحة اللسان، وشبابها عُرفوا ببطش السلاح، وصغارها منحوا قلوباً مفعمة بالفرح، في داخل المدينة كانت تصدح بالموسيقى، وفي خارجها تسمع أنغام المزمار، وفي موانئها حيث ترسو السفن، كان يعلو الصخب ويشد الزحام، وملكهم الراعي نرام سين، يخطوا كالشمس نحو عرش أكاد المقدس"⁽²⁾.

لا نعدو عن الحقيقة إذا أرجعنا الدوافع الأساسية التي تدفع حكام العراق القديم منذ الأزمان القديمة على القيام بالحملات الحربية الخارجية إلى ضمان الحصول على المواد الأولية من الخارج، علاوة على سلامة الطرق التجارية إخضاع الأقوام المارة من أراضيها، فمن نتائج الحملة البحرية التي قام بها الملك "مانيشتوسو"، إخضاع بعض المدن المتمردة والمحافظة على الطابع

* عرف بجبل اللكام وهو التواء فرعي يمتد من جبال طوروس التي تفصل سوريا عن آسيا الصغرى ويحيط بخليج الإسكندرون، فيشكل حاجزاً بين سوريا وكنيكية... الخ - للمزيد أنظر محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج1، ص218.

(1) - باسم ميخائيل جبور، المرجع السابق، ص25.

(2) - فاضل عبد الواحد على، (سومر أسطورة وملحمة...)، المرجع السابق، ص68؛ بهنام أبو الصوف، التاريخ من باطن الأرض "أثار وحضارات وأعمال ميدانية"، مطابع شركة الأديب، عمان، 2009، ص21-22.

الوجودي لدولته، ومن ذلك أيضاً الاستفادة من مواردها الصناعية حيث يذكر نصه أنه: "عبر مانيشتوسو...، بعدما أخضع "إنشان" و"شيريكوم" - جنوب بلاد فارس - والبحر الأسفل بواسطة السفن...، و أصبح البلد كله في قبضته حتى مناجم الفضة، وأخذ حجارة الجبال الواقعة وراء البحر الأسفل..."⁽¹⁾.

بينما أصبغ الملك جوديا هو الآخر طابع الوحدة على شعبه⁽²⁾، فنجد مزج بين مختلف أجناس الصُّناع والحرفيين الذين استقدمهم معه، وتعايشوا وتبادلوا الخبرات فيما بينهم، في قوله: "من عيلام جاء العيلاميون، ومن سوسة جاء السوسيون، وجمعت في ملجان و ميلوفا الخشب من جبالها...، وجمعهم جوديا مع بعض في مدينة "كرسو"، وفتح جوديا... ممراً داخل جبال الأرز التي لم يدخلها أحد من قبل..."⁽³⁾، هذا فضلاً عن جلبه للمواد الصناعية من أماكن أوردتها في نصه: "... ثم جيء بالحجارة...، وجُلِبَت علة معادن ثمينة إلى الأمير-جوديا-، فمن جبال النحاس في كيماش...، استخرج النحاس...، و لِجَل جوديا استخرجوا الفضة من جبالها، وجاءوا بالحجر الأحمر من ميلوفا بكميات كبيرة..."⁽⁴⁾.

يبدو أيضاً أن سياسة جوديا العسكرية قد تحكمت فيها النزعة المعمارية إذ يشير نصه الأوحد عن ضربه لمنطقتي إنشان و عيلام وإلى أنَّ انتصاره قد سمح له بإحضار العيلاميين وأهل سوسة من الصناع، وهذا يعني أن هدف حملته كان أساساً جلب الصناع الأكفاء للعمل في المنشآت الدينية، بجانب البنائين من رعاياه، إذ أكّدت نصوص عهده على حسن المعاملة لِمن اشتركوا في بناء المعابد⁽⁵⁾.

كما رافق الوحدة البابلية القديمة ازدهار التجارة بشكل موازٍ مع نمو وتطور الحرف والصناعات اليدوية، ولم يقتصر تصنيع المواد الأولية على تغطية السوق المحلية فقط بل تعداها

* مدينة فارسية تعرف حديثاً باسم "تل ملان"، ارتبطت في تاريخها مع عيلام كمملكة موحدة-للمزيد أنظر:

Jane R. McIntoch, Op.Cit, p 321 .

Georges roux, (Ancient Iraq...), p 155.

Ibid, p 167.

Ibid.

Ibid.

(5) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 92.

لِتُصْبِحَ من البضائع النفيسة للتصدير خارج البلاد⁽¹⁾، و يمكن التخمين على أن الاستحواذ على مناطق ومصادر المواد الخام أو استيرادها من خارج منطقة بلاد الرافدين ليست الغاية هو خدمة مصلحة المنطقة من الناحية الاقتصادية فحسب، وإنما تعداه الأمر إلى تحويل تلك المواد من طبيعتها إلى مواد مُصنعة تكفي حاجيات البلاد و يصدر الفائض منها نحو الخارج.

وتقدم لنا الحوليات الآشورية تفاصيل حول الحملة على بلاد الشام سنة (877ق. م)، التي قام بها الملك الآشوري آشور ناصر بال الثاني، بعد المسار الذي اتخذته وجيشه من كركيمش* حتى بلوغه ساحل أنطاكية عبر جبال الأورنتس، وأخيراً جبال لبنان والبحر العظيم في الأراضي الآشورية، حيث قام الملك بتكرار ما أجترحه الملوك السابقون⁽²⁾، إذ كان الهدف من الحملة دعم الدولة بالموارد الصناعية حيث جاء في حولياته: "غسلت أسلحتي في البحر العميق، وقدمت نذراً من الخرفان إلى الآلهة، استلمت الجزية من ساحل البحر من أهل تايير(صور)، سيدون (صيدا)، بيلوس، مخالاطا، مايزا، كايزا، أمورو، ومن أرفاد...، قوامها الذهب والفضة والقصدير والنحاس والأواني النحاسية والملابس المصنوعة من الكتان..."⁽³⁾.

ومن أساليب الانفتاح الصناعي لجوء الملك سنحاريب الآشوري في تعقب أحد الحكام الكلدانيين بعد فراره بأعوانه إلى الشاطئ العيلامي، إلى إنشاء أسطول بحري كبير في تاريخ الآشوريين، حيث اشترك في إنشائه صناع من صيدا و صور وقبرص، وعملوا فيه عاماً كاملاً على ضفاف دجلة والفرات، ونقلوا جزءاً منه على طريق البر، وعبر الآشوريون وحلفاؤهم به الخليج العربي وهزموا خصومهم⁽⁴⁾.

(1) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 81.

* مدينة تقع في مخاضة الفرات في نقطة العبور من سوريا إلى بلاد النهرين تعرف اليوم باسم جرابلس - للمزيد انظر هنري.س. عبودي، المرجع السابق، 712.

(2) - Georges roux, (Ancient Iraq...), Op.Cit, p289.

(3) - Daniel David Luckenbill, (Ancient Records of Assyria ...), Op.Cit, Vol. I, , p 166; Georges roux, (Ancient Iraq...), Op.Cit, p 289.

(4) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 793.

وخلال حكم آشور بانيبال (668-627 ق.م)⁽¹⁾ نجده يشير إلى نهب "سوزا" عاصمة عيلام بواسطة جيوشه⁽²⁾ قائلا: "لقد استوليت على سوزا العاصمة... ودخلت... إلى مخابئ قصورهم ومكثت هناك في ابتهاج وفتحت خزائنهم المكدسة بالذهب والفضة... وأخذت إلى آشور الفضة والذهب - الأموال والثروات و من سومر وأكاد وكذا من "كاردونياش" وكل ما أخذه ملوك عيلام الأقدمون في حملات عديدة وحملوه معهم إلى عيلام من "تساريرو" براق و"أشارو" لأمع وأحجار كريمة وأشياء ذات قيمة وحلي ملكية كان قد أعطاهها ملوك أكاد الأقدمون و"شماش شوم أوكين" كحلفاء إلى عيلام... والأسلحة الخاصة بالاحتفالات والحروب وحلي أيدي المحاربين... والأواني... والعربات والمركبات... والخيل والبغال يأتقنها الذهبية والفضية... كما حملت 32 تمثالاً من الذهب والفضة لملوك مدن سوزا "ماداكاتو" و"هورداي" وتمثال "أومانيجاس بن امبادارا".... الخ" كما يُضيف إلى جانب جلبه للمواد المصنوعة والشمينة... رؤساء المدن والقادة وراكبي العربات والفرسان وحملة الأقواس وحملة الدروع... الخ"⁽³⁾.

ويفهم من النص الأول الاستفادة من المواد الصناعية التي جاءت نتيجة الوحدة ذات الأسلوب العسكري، أما النص الثاني فالاستعانة بالخبرة العسكرية والاستفادة من الأسلحة الحربية لمواصلة مسيرة الحروب والتوسعات، فضلاً عن نشر روح الوحدة الآشورية في طابعها السياسي.

من غايات السبي البابلي الذي قام به "نبوخذ نصر"، كما يورده النص التوراتي الاستفادة من الجانب الصناعي على الصعيد الخارجي من خلال توظيف الخبرة الصناعية لليهود في مجال المشاريع والطموحات الوجودية، حيث ذكر في العهد القديم: ((15) وَسَبَى يَهُوْيَاكِينَ إِلَى بَابِلَ. وَأُمُّ الْمَلِكِ وَنِسَاءُ الْمَلِكِ وَخَصِيَّانَهُ وَأَقْوِيَاءُ الْأَرْضِ سَبَاهُمْ مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى بَابِلَ. 16 وَجَمِيعُ أَصْحَابِ الْبُاسِ، سَبْعَةُ آلَافٍ، وَالصُّنَّاعُ وَالْأَقْيَانُ أَلْفٌ، وَجَمِيعُ الْأَبْطَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ، سَبَاهُمْ مَلِكُ بَابِلَ إِلَى بَابِلَ))⁽⁴⁾.

(1) - محمد بيومي مهران، (مصر والشرق الأدنى...)، المرجع السابق، ص 419.

(2) - ل. ديلاپورت، المرجع السابق، ص 348.

(3) - برهان الدين دلو، المرجع السابق، ص 327.

(4) - سفر الملوك الثاني: (24: 15-16).

كما نجد في سفر إرميا بعثة متخصصة في المجال الصناعي أوفدها " صدقيا" ملك يهوذا إلى نبوخذنصر متكوّنة من " ... النَّجَّارِينَ وَالْحَدَّادِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ"⁽¹⁾، إذ قد يُشكل هذا الدعم للمجال الصناعي اعترافاً ضمناً بالقوة البابلية في مجال التوحيد.

III- الأبعاد التجارية:

تعد التجارة من بين الركائز الأساسية في اقتصاد بلاد الرافدين، إذ تنامت وازدهرت في إطار اتساع مشاريعها التنموية والوحدوية، التي انعكست على سير حركتها التجارية، نلاحظها خاصة في تثبيت و تحديد أوزانها و مكاييلها، من خلال فرض المراقبة والمحاسبة على حركة أسواقها التجارية الداخلية والخارجية، التي تساهم في انتعاش الحياة الاقتصادية بصورة عامة، هذا بالإضافة إلى فرض مجموعة من الضرائب، تبناها النظام السياسي في المحافظة على استمرارية وحدته سواء في مرحلة الدولة المدينة أو مرحلة الدولة الموحدة بهدف إيجاد الحلول المناسبة التي تدخل ضمن نطاق ما نسميه بالإصلاحات الاقتصادية .

1- الإجراءات الاقتصادية:

أ- وحدة المكاييل والأوزان:

منذ أن بدأ التفكير بوضع وحدات قياس للأوزان والأطوال والحجوم، بقيت بعض الاختلافات قائمة في حدود المقياس الواحد، وسبب ذلك قدم النشاطات الاقتصادية ومعاملات البيع والشراء، وكذلك قيام وحدات سياسية، دون اتحادها، بحيث أرست كل منها تقاليداً الخاصة بهذا الشأن، ولهذا نلاحظ تأكيد القوانين والتي تمثل رغبة الحكومة المركزية في إشاعة وحدة المقاييس تبعاً للوحدة السياسية القائمة آنذاك، والتي جمعت أبناء الوحدات السياسية المختلفة في إطار دولة واحدة⁽²⁾.

وبما أنّ هناك أنظمة مختلفة للأوزان والمكاييل في عصر دويلات المدن السومرية، فيلاحظ عند توحيد⁽³⁾ شمال وجنوب بلاد الرافدين، قد أدّى ذلك إلى إقامة نظام موحد للمقاييس والأوزان مما

(1) - سفر إرميا، (29: 2).

(2) - رالف لنتون، المرجع السابق، ص 233؛ رضا جواد الهاشمي، (التجارة....)، المرجع السابق، ص 231.

(3) - عامر سليمان، وحدة حضارة بلاد الرافدين في النظم الاقتصادية و القانونية، ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 2000، ص 116.

ساهم في تقوية العلاقات التجارية داخل البلاد⁽¹⁾، وبالتالي كان ظهور الفكر الداعي إلى دمج وضم المدن في سلطة مركزية قد ساهم هو الآخر في توحيد الأوزان، إذ قام ملوك أكاد وسلالة أور بتوحيد معظم الأنظمة والقوانين السائدة والإشراف عليها، وكان من بينها مسألة الموازين والمكاييل والمقاييس والتقاويم، وهذا ما عبرت عنه القوانين والوثائق الاقتصادية المكتشفة سواء في عهد الأكاديين وما بعد، وإن ظلت بعض الاختلافات البسيطة في القليل من المدن، لكن يلاحظ أن توحيد أنظمة الموازين ظلت مستخدمة في بلاد الرافدين في العصور التاريخية التالية وحتى زوال حكم آخر سلالة وحدوية في بابل عام 539 ق م⁽²⁾.

تضمنت مقدمة شريعة الملك "أورنامو" مؤسس سلالة أور الثالثة، ضبط الموازين والمكاييل وتوحيدها كحماية للثروة والاقتصاد⁽³⁾، ومنها أنه: "...أقر السيل البرونزي، وثبت المينا*، وثبت وزن الشقل الحجري والفضي بالنسبة للمينا"⁽⁴⁾، وتعود معظم أوزان هذه السلالة إلى زمن الملك "شولجي" (2095-2048 ق.م)، الذي اشتهر بإصدار العديد من الإصلاحات والتعديلات، ومن بينها الأوزان الملكية، ففي عهده تم استحداث دائرة لضبط الأوزان والمكاييل واستمر تطبيقها

(1) - فرح نعيم، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، دار الفكر، دمشق، 1972، ص 26-27.

(2) - عامر سليمان، (وحدة حضارة بلاد الرافدين في النظم الاقتصادية...)، المرجع السابق، ص 116.

(3) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 652؛ أبا ذر راهي سعدون الزيدي، لمحة في التنظيمات الاقتصادية لدولة سلالة أور الثالثة في ضوء النصوص المسمارية، ع9، مجلة الباحث، كلية التربية للعلوم الإنسانية، كربلاء، 2013، ص 320؛ محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 98.

* كانت وحدة الوزن كما يتضح من النص المقتبس أعلاه هي المينا التي اقتبسها الإغريق فيما بعد، كما انتقل الاسم إلى العربية، ويتألف المينا من 60 شاكل، ويضم الشاكل 180 حبة، ويساوي 505 غراماً من وزننا الحالي، وكل 60 مينا يساوي تالنت واحدة (وزنة) - للمزيد أنظر طه باقر وآخرون، (تاريخ العراق القديم...)، المرجع السابق، ص 143.

(4) - فوزي رشيد، (القوانين في العراق القديم...)، المرجع السابق، ص 38.

** شولجي: (2095-2048 ق.م)، ابن الملك أورنامو وخليفته في الحكم، كان عهده زاخراً بالأعمال العمرانية، ولاسيما تشييد المعابد والزقورات، إضافة إلى الأعمال العسكرية التي وجهها تجاه الأقاليم المتمردة ضده بعد وفاة والده، وعلاوة على ما سبق فقد كان من المهتمين بالتعليم والأدب والمعرفة، بل مؤلفاً بالكتابة والتأليف ومُغرماً بالعزف على عدد من الآلات الموسيقية، وكل ذلك يدل على الرخاء الاقتصادي والرفاه الذي نعمت به البلاد خلال فترة حكمه... الخ - للمزيد أنظر، محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج1، ص 66-67؛ قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص 131-132.

الفصل الثالث: الفكر الوحدوي في ظل الحياة الاقتصادية



الصورة رقم 15: وزنة في شكل بطة عن:
<https://i.pining.com>

حتى نهاية العصر البابلي الحديث⁽¹⁾ في مكتب خاص بمعبد "ننار أوسين"، لكن يلاحظ أنّ توحيد المحاسبة والضرائب ونشر نسق الموازين والمكاييل الذي أقرّه "شولجي" في كامل الدولة كان مقتبساً عن النظام الذي فرضه "جوديا" في لجش⁽²⁾.

ويمثل هذا الشكل وحدة للأوزان مصنوعة من حجر الديورانت، وتعود إلى حوالي 2100 ق.م، أي العصر السومري الحديث، أما الكتابة المسمارية التي تحملها فتعني: "من أجل سيده الإله "نانا" *قام شولجي الرجل العظيم، ملك أور، وملك الجهات الأربع، بتحديد هذه الوزنة ب 5 مينا تماماً"⁽³⁾، ويلاحظ أيضاً أنّ الأوزان تصنع عادة من الحجر على هيئة حيوانات كالبطة أو الأسد (انظر الصورة رقم 15 و16)، وينقش عليها بالكتابة المسمارية ما يوضح مقدار الوزن⁽⁴⁾، بل أهم مانلاحظه في وحدة الوزن الربط بينها وبين الألقاب الوحدوية.

ولهذا الشأن كانت هناك إدارة خاصة يشؤون الموازين والمكاييل، لكن لم يُعثر لحد الآن على ميزان، إلا أنه لابد أنهم عرفوا الميزان ذا الكفتين فالكلمة ((مثناة)) في اللغة إشارة إلى الكفتين

(1) - هيفي سعيد عيسى، الأسواق في العراق القديم (2800-539 ق.م)، ع4، مجلة التربية والعلم، مج19، بغداد، 2012، ص186.

(2) - عزمي سكر، المرجع السابق، ص172.

*Nanna : إله القمر لمدينة أور، يعرف في الأكادية باسم "سين" -للمزيد أنظر : Jane R.Mcintoch, Op.Cit, p 336.
(3) - عبد الله الحلو، المرجع السابق، ص 57.

(4) - طه باقر وآخرون، (تاريخ العراق القديم...)، المرجع السابق، ص143-144.



الصورة رقم 17: رجل يمسك ميزاناً صغيراً في يمينه وميزاناً ملفوفاً في يسراه، عن: نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص 196.

والفعل ((وزن -يزن))، إذ وجدت صورة فعلاً لرجل يحمل ميزاناً في يمينه ويُلَفُّ آخر في يسراه⁽¹⁾. (أنظر الصورة: رقم 17).

وقد عُثِرَ على وثائق من العصر البابلي القديم تُشير إلى المعايير المتخذة باستخلاص وحدات الوزن الشائعة من النصوص المدروسة دراسة جيدة وهي: كورن أو جران ويعادل حوالي 44 ميلغراماً. شقل ويعادل حوالي 8 غرامات.

مينا ويعادل 1/2 كغ.

تالت ويعادل تقريباً حوالي 30 كغ⁽²⁾.

ولكون بعض التجار كانوا يستغلون هذا الاختلاف فكانوا يبيعون البضاعة أو يقرضون المال بمكيال أو وزن صغير ويشترونها أو يستلمون الديون بمكيال أو وزن كبير وهذا ما أشارت إليه إحدى النصوص البابلية القديمة.

التسليم بالمقياس الصغير والتسلم بالمقياس الكبير

التسليم بالشاقل الصغير والتسلم بالشاقل الكبير

التسليم بالمينا الصغير والتسلم بالمينا الكبير⁽³⁾.

وقد يعزى هذا الاختلاف إلى تذبذب النظام الاقتصادي خلال العهد الأموري، فطول فترة الحروب الوجودية دون وضع حدٍّ لنهايتها يجعل سلطات الدويلات بعيدة عن مراقبتها للأسواق، وفرض وحدة مقاييس موحدة على المعاملات التجارية.

بينما تظهر الوثائق الآشورية أنَّ هناك ثلاثة أوزان رئيسية استخدمت للفضة في بلاد آشور خلال العصر الآشوري الحديث هي: منو الملك، منو التاجر، ومنو مدينة كركيمش، الذي شاع استخدامه بشكل كبير في بلاد آشور أثناء عهد حكم الملك سرجون الثاني وبعده حتى نهاية

(1) - نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص 195.

(2) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 83.

(3) - طه باقر وآخرون، (تاريخ العراق القديم...)، المرجع السابق، ص 143.

الفصل الثالث: الفكر الوحدوي في ظل الحياة الاقتصادية

الإمبراطورية الآشورية، ويرجع بعض الباحثين أن سبب استخدام هذا الوزن بشكل كبير خلال عهد سرجون الثاني، يرجع إلى الغنائم العديدة والكبيرة التي جاء بها من مدينة كركميش إلى بلاد آشور والتي تقدر بحوالي 2100 بِلَت من الفضة، بل وأكدت النصوص أن "منو مدينة كركميش" كانت الأكثر شعبية في بلاد آشور حيث أمكن الاستدلال عليها من خلال 112 نصاً⁽¹⁾. ويدل هذا على قابلية السلطة الآشورية في تبني واستخدام أوزان المناطق التي أصبحت تحت سيطرتهم مثل مدينة كركميش، مما يوضح سعة أفق السياسة الوحدوية التي رفضت الأفق الضيق المبني على التفوق العسكري والاقتصادي، المهم لديهم تسهيل عملية التعاملات الاقتصادية بصفة عامة، وفي شأن بعض الأوزان الرافدية القديمة لدينا هذا الجدول :

الموازين	مايقابل وزنها بالغرام
القمحة	0.046 غراماً
الشاقل الصغير	0.140 غراماً
المينت	2.805 غراماً
نصف الشاقل	3.208 غراماً
المينت المزدوجة	5.611 غراماً
الشاقل	8.416 غراماً
المينا	5.5 غراماً
الوزنة	30.505 كيلو غراماً

جدول رقم 1: بيان الموازين ومايقابلها بالغرام (يتصرف من الطالب) عن:

نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص 197 .

وعليه فقد رافق الاتحاد السياسي للبلاد اهتمام كبير لدى الملوك الرافديون لتوحيد الأوزان والمكاييل، لكن تعرضهم للإعتداءات الداخلية-فيما بين السلالات الرافدية الحاكمة-أو الاعتداءات الأجنبية أعاق وحدة البلاد في كل مرة، نظراً لانشغالهم المستمر بهذه الحروب الوحدوية، وهو ما أدى إلى الحيلولة دون توحيد هذه المكاييل والأوزان وبالتالي تذبذب قيمتها من فترة تاريخية

(1) - صفوان سامي سعيد جاسم، التجارة في بلاد آشور خلال الألف الأول قبل الميلاد في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الآثار القديمة، كلية الآداب، جامعة الموصل، بغداد، 2006، ص 65.

إلى أخرى، مما سهل على التجار التلاعب في المعاملات التجارية، ورغم ذلك نستطيع تمييز محاولات هؤلاء الملوك الدائمة من أجل توحيد وتعميم هذه الأوزان في كل المناطق التابعة لهم.

ب- توحيد الضرائب:

تطور مفهوم الضريبة بتطور احتياجات الأفراد والقبائل بعد أن اتسع نظام الحكم أو السلطات عن طريق اتحاد القبائل وتكوين الدويلات ومن ثم الدول، وقد عرف العراقيون القدماء جباية الضرائب كوسيلة تلجأ إليها السلطة لتمويل نفقاتها، فالباحث في القوانين العراقية القديمة، والمتصفح لرسائل الحكام يتبين أن الأمر كان يدور حول تخطيط مالي اقتصادي بالمفهوم الواسع وهذا ما كان يسمى بقطاع الدولة⁽¹⁾.

تمكّن الكهنة في العصر السومري القديم من تثبيت سلطانهم من خلال العامل الاقتصادي بغطاء سطوة الآلهة وتحكمها بمصير البشر، فكان لهم أبلغ الأثر في تزييف الوعي بالنقمة الدائمة لهذه الآلهة متى ما تأخر الإنسان عن دفع نذوره التي يعطيها للمعبد كضريبة حالما يشعر أن سلوكه سيئ، وبهذا يتم التحكم بعقول غالبية الناس بصورة لا واعية من خلال التخويف المستمر من الآلهة، ولإستمرار تمكّن الكهنة من السيطرة على الناس أوجدوا تحالفاً بينهم والحكام من خلال رفع شأن الحاكم إلى درجة عالية من القداسة مع الآلهة، وهذا ما أثر على طبيعة الإنتاج في المجتمع العراقي بربطه مباشرة بالحكم⁽²⁾، إذ كانت أحياء المدينة تخضع لإشراف موظفين حكوميين يهتمون بجمع الضرائب⁽³⁾، وقد يؤدي هذا السلوك المالي بدوره إلى فصل الحكام السومريين على تلك المدن لفداحتها، وما تسببه من ظلم، لكن قد يُعزى جمع الضرائب إلى استعانة حاكم المدينة بها في النشاط الحربي حتى تضمن لهم نوع من الوحدة والاستقرار.

وقد ذكرت سجلات أوركاجينا حاكم دولة (لجش) إصلاحاته في مجال الضرائب ومِلْكِيَة أراضي المعبد بعد أن انتشر الفساد وأخذ الناس يجهرن بمساوئي النظام الحكومي الذي أثقل كاهلهم، مما كان سبباً في إسقاط (أور-نانشة) ومجيء هذا الحاكم الجديد ليعيد الوحدة والنظام في

(1) - محمد حلو داود الخرسان، دور حضارة بلاد الرافدين في نشوء وتطور النظام المالي للدولة، ع17، مجلة العلوم الاقتصادية، جامعة البصرة، بغداد، 2006، ص115.

(2) - حسين سيد نور جلال الأعرجي، جذور الفكر في العراق القديم وروافده، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، بغداد، 2011، ص 258-259.

(3) - رضا جواد الهاشمي، (التجارة...)، المرجع السابق، ص 216.

البلاد، وفي هذا إشارة إلى أهمية السياسة الضريبية في إصلاح الأوضاع الاقتصادية والسياسية التي يمر بها بلد معين والتي تُتبع حالياً في معظم الدول⁽¹⁾، فقد كان الملك الممثل للمؤسسة التي تُصدر الأوامر بشأن تثبيت التقويم وتعيين نوع الضرائب⁽²⁾، وتدل أيضاً على توحيد كلمة المجتمع والتفافه حول ملكهم، من أجل تغيير الوضع، ولهذا قام "أوركاجينا" بإجراءات سجلها في خطابه الإصلاحية: "عندما أعطى نينجرسو، محارب إنليل، عرش لجش إلى أوركاجينا... أعاد النظام القديم... طرد المفتشين الذين يحققون في المبالغ التي تدفع... أَيْعَدَ الجُبة الذين يحققون في الضرائب التي يدفعها الكهنة للقصر... لم يعد هناك مفتشون داخل حدود أراضي نينجرسو..."⁽³⁾.

ومن المواهب الفذة في القيادة الأكادية، قيام سرجون بتنصيب القادة المخلصين من حكام الولايات لعدة اعتبارات، منها أن لا يضطر هؤلاء الحكام إلى الحصول على الأموال التي تحتاجها مناصبهم بأساليب قد تثقل كاهل سكان الولايات، ومن بينها الضرائب، بحيث تدفع أهلها إلى التذمر والتمرد، فقد قام بمنحهم أراضي زراعية كافية يستفيدون من إيراداتها لسد حاجياتهم⁽⁴⁾. وبالتالي محاولة خلق نظام يحول دون تفكك عناصر الوحدة في أقاليمه، والمتمثل في كبح أطماع حكام الأقاليم لكي لا يُثقلوا كاهل الناس بالضرائب.

وبالتركيز على جانب الضرائب فقد مَكَّنَ للتجار من إقامة مستعمراتهم التجارية، و التي يبدو أنه تم ضمها في إطار التوسع الخارجي، فكانوا يدفعون الضرائب إلى حكام الولاية، وكانت تساوي 20/1 من قيمة المنسوجات، و 65/2 من مادة القصدير، وفضلاً عن ذلك كانوا يدفعون النسبة نفسها إلى مسؤولي المستعمرة التجارية، فيصبح لهذه الأخيرة مورد مالي بحيث يُمكنها من اقراض التجار الذين يتعاملون معها، إذ كانت المستعمرة التجارية بمنزلة المصرف الذي يقرض الأموال⁽⁵⁾، فالضرائب العائدة إلى السلطة الأكادية بمثابة دليل على التبعية، لكن إذا افترضنا من باب التخمين أن هناك ضرائب تفرض على المواطنين محلياً فقد لا تكون مريحة للنظام الأكادي بالمقارنة مع النشاط الحربي والتجاري الضريبي.

(1) - محمد حلو داود الخرسان، المرجع السابق، ص 18.

(2) - نفسه.

(3) - محمود أمهر، المرجع السابق، ص 115-116.

(4) - فوزي رشيد، (سرجون الأكادي...)، المرجع السابق، ص 44-45.

(5) - نفسه، ص 67.

وقد لوحظ في عصر سلالة أور الثالثة العديد من الضرائب الحكومية يمكن إيجازها فيما يلي:

1. ضريبة التسليم، وتفرض على المقاطعات التابعة للدولة آنذاك وحسب إنتاجها ومواردها الاقتصادية من حيوانات ومواد زراعية.

2. ضريبة تعرف باسم ضريبة "رأس المال" (Bala-Landa)، وتفرض على رأس المال حسب الطلب والاحتياج بالنسبة للمقاطعات من السلع والمواد الغذائية والحيوانات والمنتجات الزراعية الخاصة بالمعبد.

3. "ضريبة الإنتاج" (Bala-Liestungen)، والتي تؤخذ على المنتجات الزراعية والحيوانات، وقد عُرفت هذه الضريبة على وجه الخصوص في مدينة دريهم.

4. ضريبة العُشر وهي الضريبة التي كان يدفعها التجار إلى معبد الإله "ننار" وزجته "ننكال" في أور، وتساوي 1/10 من المادة المتاجر فيها ولم تقتصر ضريبة العُشر على مادة معينة، ففي نصوص أخرى من أور تشير إلى أنها دُفعت في شكل حبوب وزيت وسمسم وتور وطحين وبعض الحيوانات واستمرت تدفع إلى العصر البابلي القديم، كما ذكرت نصوص سلالة أور بأن صيادي السمك دفعوا ضريبة العُشر إلى معبد الآلهة "إنانا" في الوركاء والتي تساوي عُشر السمك الذي اصطادوه⁽¹⁾.

وقد تم تأسيس عدة مراكز لجمع عوائد هذه الضرائب وتخزينها وتوزيعها، وهي مراكز أطلق عليها "مراكز إعادة التوزيع"، ومنها على سبيل المثال لا الحصر مركز "بوزريش داجان" الواقع قرب جنوب نيبور، والذي تذكر المصادر تخصصه في جمع رؤوس الماشية التي بلغت في عام واحد 28000 رأس من الأبقار، و 350000 من الأغنام، وقد جاءت جميعها من المقاطعات المختلفة ليتم توزيعها على المعابد والأسرة الحاكمة وكبار موظفي الدولة، وكان هناك أيضاً مركز "دوسابارا" الذي تخصص في جمع المنتجات الزراعية وإعادة توزيعها على النحو السابق، وما من شك أن أساليب جمع الضرائب قد استلزم بالضرورة تدريب العديد من الكُتبة والإداريين للارتقاء بأداء هذا النظام إلى أعلى مستوى⁽²⁾.

(1) - أبا ذر راهي سعدون الزبيدي، المرجع السابق، ص 322.

(2) - محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 101.

وفي العصر البابلي القديم نجد نصاً آخر للحاكم⁽¹⁾، "إشمي دجان-Ishme Dagan"⁽²⁾ (1935-1953 ق.م) الذي سبق "ليت عشتار" في الحكم بإصلاحاته داخل نيبور قائلاً: "واستثنت أهلها من دفع النقود....، وأعفيت سكانها من دفع الذهب والفضة، كضرائب تُجَبى من المدينة"⁽³⁾، كما ذكر في المقابل عدد كبير من حكام الولايات لتلك الحقبة مثل: مملكة إيسن و لارسا و أشنونا و بابل في وثائق الأحداث السنوية قولهم: "يتحطيم سندات الدين، وتخفيف أعباء الضرائب"⁽⁴⁾، ومن خلال استقراء هاذين النصين يتبين أن الهدف من هذا الإجراء الاستثنائي المحافظة على هدوء هذه المناطق واستقرارها خوفاً من التمرد الشعبي على حكوماتها، الأمر الذي يؤدي إلى تفكك وحدة البلاد. وفي عصر الوحدة البابلية شدد الملك حمورابي من خلال إشعار جامعي الضرائب المتأخرين في التحصيل وتذكيرهم بشدة إلى ضرورة تأديتهم واجبهم، والانتهاء منها دون أي تأخير⁽⁵⁾.

إذن فرضت الحكومة المركزية الضرائب على كل القوى العاملة في الاقتصاد، ويمكن تصنيف هاته الضرائب ضمن مجموعتين: الأولى تخص النشاطات الزراعية، والثانية المؤسسات الحرفية والتجارية، و ما هو جديد أن الضرائب فُرضت على الأشخاص والممتلكات لا على المجموعات فقط، كما كان الأمر في السابق، فكما حددت الضرائب على النشاط الزراعي والرعي وعشر الإنتاج وشملت المسؤولين الزراعيين والمُلتزمين العاملين على أراضي الدولة والمعابد، والرعاة والملاكين، فقد كانت تُجَبى مباشرة عن طريق موظفين تابعين للملك، أو عن طريق تلزيم الضرائب لأشخاص مرتبطين بالحكومة المركزية، وتُظهر مصادر ذلك العصر أن "العُشر" كان يدفع على شكل أقساط ويُعطى المكلف سنداً يُحدد فيه زمن الدفعات وكميتها وتُحفظ السجلات في أرشيف واحد داخل المعبد، إذ كانوا يرجعون إليه عند كل تخمين سنوي، وفيها يُذكر اسم المدينة

(1) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 117-118.

(2) - Georges roux, (La mésopotamie Essai...), Op.Cit, p164.

(3) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 117-118.

(4) - نفسه، ص 115.

(5) - جيمس هنري بريستد، المرجع السابق، ص 189.

المكلفة ومناطقها وأسماء المكلفين ومعلومات حول شخصياتهم⁽¹⁾. وهذا دليل على خلق حمورابي لنظام إدارة مركزي موحد، هدَفَ من خلاله السيطرة وتوحيد سياسته الضريبية في جميع أنحاء البلاد. كما اتصفت السياسة الكاشية الداخلية والخارجية باللين والميل إلى عدم الدخول في صدامات مسلحة مع البلدان الأجنبية أو إثارة السكان المحليين، فكانت فترة حكمهم على الرغم من طولها بمثابة هدوء نسبي، عَمِلَ خلالها الملوك الكاشيون على ترضية السكان المحليين، بتقليص الضرائب والرسوم والخدمات على السكان، كما حافظوا على حقوق السكان المكتسبة خلال العصور السابقة، وهما ما يُفسران عدم وقوع ثورات وتحركات كثيرة تهدد وحدتها⁽²⁾.

كنتيجة للفكر الوحدوي في أبعاده الاقتصادية جَنَت الدولة الآشورية ثمارها الضريبية من الدويلات التابعة لها خلال حكم الملك الآشوري "أد نيراري" بأشكال مختلفة كالعربات والدرة والخيول والأواني الذهبية والطعام بصورة عامة، والمواشي والأغنام، إذ لم تُنفق هذه الثروة المتزايدة جزافاً، بل كانت تستعمل في تطوير آشور اقتصادياً تبعاً لنص الملك: "لقد بنيت أبنية لإدارة المملكة خلال أراضيها، وقد أنشأت آلات لتأمين الرّي خلال بلادي، ولقد زادت مخزونات الحبوب في مملكتي إلى حدود لم تصل إليها الأزمنة السابقة، ولقد زدت أعداد الخيول والبغال التي تجر المحارث وتحمل النير"⁽³⁾.

ومن النصوص الآشورية ذات الأهمية في تأريخ نظام الحكم، والتي جاءت في شكل نصائح موجهة إلى الحكام، والتي يرجع تأريخها إلى العهد الآشوري الأخير، العثور على ألواح في مكتبة الملك الآشوري "أشور بانيبال" الشهيرة في نينوى (القرن السابع ق.م)، والتي وُضعت لحماية حقوق المواطنين في بعض المدن البابلية ويوجه خاص "سيار - نفر - بابل"، أما الملك المخصوص بتلك النصائح فيُرجح أن يكون ملك بابل "مردوخ بلادان" والمعروف باسم "مردوخ - ابلا - ادنا" المعاصر للملك سرجون الثاني (721-705 ق.م)، وارتأى باحثون آخرون أنّ الملك الآشوري "سنحاريب" (704-681 ق.م) هو المقصود، ومهما كان الأمر ورد في أحد نصوصها: "إذا فرضت الغرامات على أهل نفر أو سيار أو بابل أو إذا أودعهم السجن اعتباطاً، فإن المدينة التي فرضت

(1) - أمل ميخائيل بشور، المرجع السابق، ص 108.

(2) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 90.

(3) - هاري ساكرز، (عظمة بابل...)، المرجع السابق، ص 113.

على أهلها الغرامة ستخرب، وإذا جمع أهل سيبار ونفر وبابل وفرض عليهم السخرة فإن مردوخ حَكَمَ الآلهة سيسلم بلاده إلى أعدائه، فيفرضون على جنده وأتباعه عمل السخرة"⁽¹⁾. بمعنى أن استفحال فرض الضرائب على السكان سيؤدي إلى خراب تلك المدن، وبالتالي زعزعة وحدة البلاد.

كما يُفهم أيضا من نص آشوربانيبال أن الدولة الآشورية قد راعت أيضا مسألة تعميم تخفيض أو إعفاء الضرائب في قوله: "... وبعد التفكير وأخذ الرأي، فقد قررت وأعلنت أن الحقول والبساتين والأشخاص فيها، التي أصبحت من أملاكه، وتحت حمايتي، ولقد كتبت هذا ومهرته يختمى الملكي وسلمت الأمر إلى Bolta - الموظف الكبير-، وأن لا تحبس أية ضرائب على تلك الأراضي وتلك البساتين، ولا يجوز أخذ قشة منها، وكذلك أنسال المواشي، ولا ينبغي أن تدفع عنها ملتزمات المعابد أو خدمات الجيش، فهي معفاة من جميع الضرائب..."⁽²⁾.

ومن أجل تثبيت وحدة أركان الدولة، فرض الآشوريين العديد من الضرائب على الشعوب



الصورة رقم 18: الشعوب الخاضعة تجلب الجزية لشلمنصر 3

http://www.atthalin.fr/images_louvre/po_la_fileuse_neo_elamite_8s.jpg

الخاضعين (أنظر الصورة رقم 18) لهم فتعددت أنواعها، فإذا أظهر الثائرون خضوعهم بعد قيام الآشوريين بعدة عمليات عسكرية، فقد كان يطلب منهم دفع دفعة تُدعى "تامارتو" وهي بمثابة نوع من الغرامة الحربية، بالإضافة إلى ضريبة "الماناتو" وهي عبارة عن دفعة منتظمة ترسلها الدولة التابعة لآشور

إلى العاصمة سنوياً، وبالإضافة إلى الجزية المدفوعة من الدويلات المغلوبة والدويلات الموالية، كانت هناك ضرائب يدفعها الأفراد وهي المتعلقة بتأجير الأراضي، فقد كانت جميع الأراضي في آشور

(1) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق...)، المرجع السابق، ص 160-161.

(2) - هاري ساكز، (عظمة بابل...)، المرجع السابق، ص 281.

مُلكاً لِلملك نظرياً، علاوة على ما سبق كان الملك يَهَبُ كثيراً من الأراضي لِرجال الجيش وبعض الأفراد الموظفين المدنيين⁽¹⁾.

كما فرضت الدولة في العصر البابلي الحديث بعض الضرائب على الشعب كمساهمة منه في التكاليف العسكرية والعمليات الحربية، وتتألف هذه الضرائب من عينية وضرائب مالية، أو كأن يطلب إلى المكلف بأن يتعهد بدفع نفقات وتكاليف جندي من جنود الجيش⁽²⁾، ما يعنى أن المساهمة المادية في العمل الوحدوي تمس المشاركين وغير المشاركين في العمل العسكري.

ومن الواضح أيضاً أن الملك البابلي كان له حصة مما يُجَبى من الأموال للمعبد، إذ نصَّبَ ضباطاً ملكيين يداخله لهذا الغرض، لكن لا يمكن معرفة المبالغ بالضبط التي كانت من حصة الملك، لأنَّه كان هناك أنواع مختلفة من ضرائب العُشر والمكوس التي كانت المعابد تمثل الدافع والمدفوع له، وكانت حصة الملك تختلف بالنسبة لهؤلاء، ومن بين موارد الدخل الحكومي الذي كان من اختصاص المعبد فحسب، كانت ضريبة العشر على محاصيل التمر وصيد الأسماك والأجور التي تدفع بالمثل وليس نقداً، وعلى الأراضي المزروعة، وضريبة المواشي والتعاليم الطقوسية التي يقدمها الفلاحون في بعض الأعياد والمناسبات الدينية، علاوة على ضرائب الموت التي تُجَبى من الأغنياء والتي من شأنها شأن المكوس الأخرى، إذ كانت تذهب إلى الملك بشكل كلي، مع أن سلطات المعابد كانت مسؤولة عن تقدير وجباية هذه المكوس، والحقيقة يبدو أنه في القرن السادس قبل الميلاد عمل الملوك جاهدين للسيطرة والحصول على حصص متزايدة من دخل المكوس والضرائب، وبالتأكيد، فإنَّ هذه التغييرات الإدارية المذكورة عند بداية حكم الملك "نابونائيد"، كانت تعمل لمصلحة الملك، بينما يُوحى ذلك الحماس الذي لقيَّه الفرس من قبل المعابد وإداراتها في 539 ق.م، راجع إلى السياسة الملكية الداخلية التي لم تكن مقبولة لدى إدارة المعبد، ومن جهة أخرى ينبغي أن لا ننسى أنه على ضوء محاولة نابونائيد اغتصاب مركز مجمع الآلهة لمصلحة الإله "سين" بدلاً من "مردوخ"، أفقدت الملك شعبيته، التي كانت أسبابها دينية أكثر منها مادية⁽³⁾.

(1) - هاري ساكز، (عظمة بابل...)، المرجع السابق، ص 280.

(2) - حسين السيد حسين و وجيه الشيخ، تاريخ الحضارات العام، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2008، ص 137.

(3) - هاري ساكز، (عظمة بابل...)، المرجع السابق، ص 288-289.

وفي ضوء ما تقدم نجد أنّ الضريبة التي شرعتها القوانين العراقية القديمة قد اعتمدت على مفاهيم ومبادئ رئيسية لم يستبعدوا المفهوم المعاصر، ومن هذه المبادئ وفرة الحصيلة والعدالة والتدخل، إذ كان الاتجاه الفكري للسلطة دور أساسي في إبراز الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للضريبة بالإضافة إلى الجانب المالي، مما يعني أن المشرع العراقي القديم قد راعى المقدرة التكلفة للفرد أو ما يطلق عليه (العدالة الضريبية)، بحيث يتم توزيع العبء الضريبي طبقاً لمقدرة الأفراد، فهذه الفكرة لا تزال تلقى قبولاً جماعياً عند المختصين في الاقتصاد والمالية العامة في الوقت الحاضر والذي يعرف بمبدأ قياس الطاقة الضريبية⁽¹⁾.

2- التجارة في بلاد الرافدين:

أ- التجارة المحلية:

مثلاً قامت بين دويلات المدن صراعات عديدة، فقد شهدت في القليل منها علاقات الصداقة، ومنها علاقات التقارب بين بعض حكام "كيش" لمعاصريهم من حكام "لجش"، وتعود أسباب الصداقة والتقارب إلى الرغبة في تحقيق منافع ذاتية مثل الرغبة في بسط النفوذ على الجيران، وتأمين سبل التجارة، أو الرغبة في سد العجز من المواد الأولية التي تتوافر في مناطق قريبة⁽²⁾، إذ كانت الحياة الاقتصادية في المجتمع العراقي القديم تركز بشكل أساسي على الزراعة وعلى بعض المهن اليدوية البسيطة، وكان الإنتاج التجاري المحلي للبلاد يتحدد بالحاجة إلى تبادل السلع بين القرى والمدن⁽³⁾.

سادت أيضاً في الكثير من المدن السومرية النزعة الانفصالية، وشكّلت باعثاً على النزاع من أجل السيطرة على طرق التجارة وتوسيع حدود الدولة⁽⁴⁾، ما أدى إلى فتور وانقطاع أخبار دول المدن الجنوبية التي كانت لها الشهرة السياسية والاقتصادية خلال الألف الثالث قبل الميلاد، ومنها "لجش" و"أوما" و"الوركاء" و"نفر" و"أور"، مقابل ازدهار مدن الوسط والشمال مثل بابل

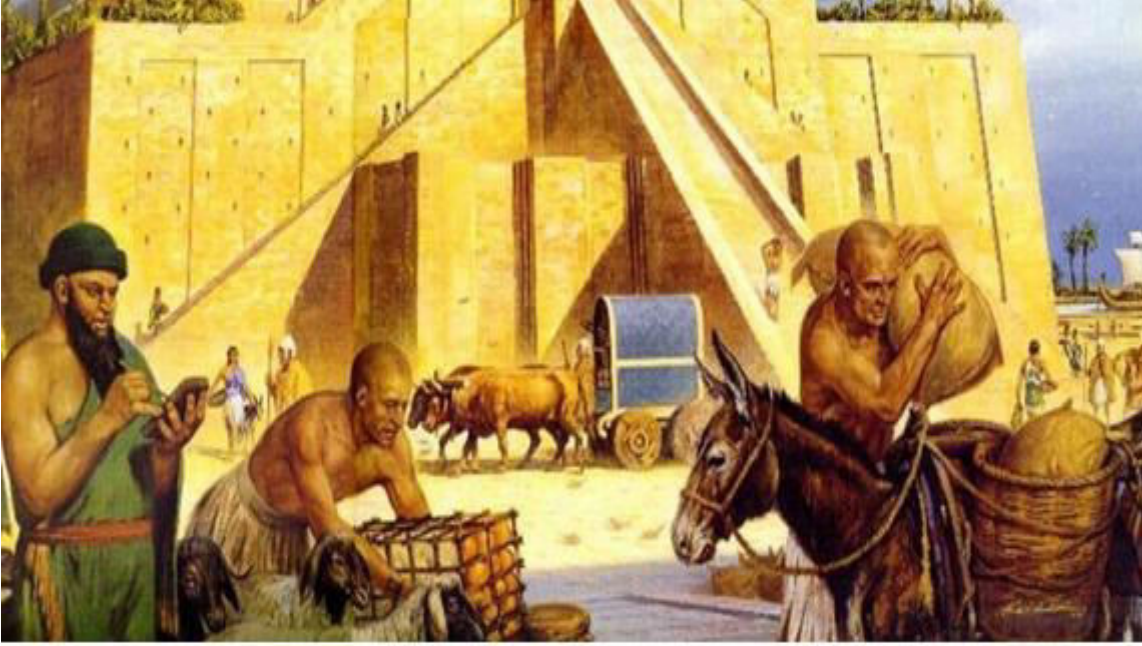
(1) - محمد حلو داود الخرسان، المرجع السابق، ص 18.

(2) - أحمد عبد الرحمان عابدين محمد حسان، المرجع السابق، ص 16.

(3) - محمد الحاج حمود، حقوق الإنسان في بلاد ما بين النهرين، مج 16، ع 3، مجلة المورد، بغداد، 1997، ص 33.

(4) - عبد القادر عياش، حضارة وادي الفرات "مدن فراتية - القسم السوري"، ط 10، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1989، ص 21.

و أشنونا وماري وأشور مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. ومما يرتبط بشؤون التجارة الداخلية موضوع الأسواق وطرق عرض البضاعة ومحلات العرض، ومع ميل الباحثين لنفي وجود الأسواق



الصورة رقم 19: رسم تخيلي للحركة التجارية في بلاد الرافدين عن:

<https://www.noonpost.org/sites/default/files/styles/article-main/public/field/image/sumerios>

بالصورة التي عرفتها مدن القرون الوسطى، في مدن الشرق القديم عامة، لكنهم يرون في انعقاد السوق في أماكن معينة من المدينة، فقد كانت الفسحات التجارية عند بوابات المدينة أو بعض الساحات العامة أو عند مداخل المعابد الرئيسية (أنظر الصورة رقم 19) بمثابة مراكز يجتمع عندها الناس يبيعون ويشتررون، ويتبادلون شؤون معاملاتهم المالية، ويعقدون الصفقات، كما حدث أن تخصص إحدى بوابات المدينة بأعمال البيع والشراء والمتاجرة بسلعة متميزة بخاصة إذا كانت هذه البوابة مدخل القادمين من منطقة توفر هذه السلعة أو مادتها الرئيسية التي تُصنع منها، وهناك من الإشارات ما تؤكد وجود أسواق تجارية محلية متخصصة في صورة أحياء منها سوق الخزافين، وسوق للنسيج والنساجين، أو سوق للماشية، بخاصة وأن كثير من الحرف والصناعات كانت تنجز في البيوت، وعليه فيكون الحي السكني سوقاً لسلعة أو بضاعة معينة بموجب مهارات أو اهتمامات سكان مختلف الأحياء⁽¹⁾.

(1) - رضا جواد الهاشمي، (التجارة...)، المرجع السابق، ص 215-216.

من الباحثين من يُعزّي دلائل ازدهار التجارة الداخلية لدى دول المدن السومرية ارتباطها الوثيق بمعاملات التجارة الخارجية، فحجم هذا الأخير الواسع يكشف بدوره عن أسواق نشطة في الداخل لاستيعاب المواد المستوردة، مثلما تنعكس ثانياً عن حجم المعاملات التجارية الداخلية التي تُهيء سلع التصدير اللازمة للتقليل من قيمة الواردات التجارية، ولعلّ وسائط النقل النهرية واستخدامها الواسع في العراق القديم ما يؤكد هذا الازدهار، وَلِكونها واسطة النقل الرئيسية والرخيصة بين المدن العراقية، فإن المواد المنقولة على ظهرها من حيث نوعيتها وكمياتها وأماكن صناعتها أو إنتاجها، تكشف بوضوح عن جوانب المبادلات في السلع والمنتجات بين مدن العراق القديم⁽¹⁾.

إن الاطلاع على النجاحات السياسية للأكاديين، يوحي بأنّ الدافع الاقتصادي مَنْ كان وراء هذه القوى الوحدوية العظمى، وإن كان يمكن الحصول على أرباح دائماً من النهب، أو فرض جزية ضخمة، أكثر بكثير من التجارة الأمنية التي تتطلب مبادلة، فكما كان احتكار التجارة مربح وواضح في نقوش الملوك الأكاديين، فإن هذه الأساليب كلها أُتبعَت للحصول على ثروة أعظم، بل جعلت التجارة الواسعة والحرية لِممثلي أكاد في الحصول على الموارد المحلية والجزية المفروضة من العاصمة الجديدة مدينة مزدهرة ومتألقة⁽²⁾.

في شأن عصر سلالة أور الثالثة كانت هناك محاولات تُبذل من التجار للانفراد ببضائعهم والتجارة بها لحسابهم الخاص إلى جانب الأعمال التجارية المكلفين بها من قبل القصر، وقد أفادوا كثيراً من تجاربهم وخبراتهم الماضية وعلاقاتهم مع المجتمع، مما شجعهم على الاستقلال لأنفسهم، والقيام بمبادرات ذاتية لتصريف البضائع دون وصاية أحد⁽³⁾، بل وتكشف لنا مقدمة قانون "أورنامو" عن حرص الدولة على حماية السفن التجارية وجعل مرساها في موانئ المدن أمناً ومحمياً⁽⁴⁾، حيث استطاع: "أن يوفر الحرية في بلاد أكاد للتجارة البحرية ضد سطوة مراقبي الملاحة ولِرعاة المواشي وضد سطوة ناهبي الثيران وناهبي الغنم وناهبي الحمير، وبذلك يكون قد وطّد

(1) - رضا جواد الهاشمي، (التجارة...)، المرجع السابق، ص 214.

(2) - جون أوتس، بابل تاريخ مصور، تر: سمير عبد الحليم الجلي، إصدار دائرة الآثار والتراث، بغداد، 1990، ص 57.

(3) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص 77.

(4) - رضا جواد الهاشمي، (التجارة...)، المرجع السابق، ص 227.

الحرية الكاملة في بلاد سومر وأكاد..."⁽¹⁾، بل مكّنت شبكة القنوات التي فتحت في الفترة السومرية إلى تنشيط واتساع التجارة بين دويلات المدن المختلفة وتسهيل الاتصال بواسطة النهر وبذلك ربط أكبر عدد من هذه المدن، وهذا ما يشكل شبكة نقل نهريّة آمنة وموحدة - إن صح التعبير - حيث نجد الملك شولجي من سلالة أور الثالثة يفتخر ببنائه القلاع ومراكز الحماية على ضفاف الفرات، من أجل توفير الأمن لمستخدمي الطرق النهريّة، والذي كان حافزاً للتوسع وتبني سياسة معينة من قبل المدن الأكثر ثراء وقوة، فكانت التجارة عاملاً في خلق الإدارات الموحدة والأنظمة السياسية الواسعة⁽²⁾.

وفي العصر البابلي القديم، تسبب تكرار العمليات العسكرية وما رافقها إلى إفقار الريف وتعطيل التجارة⁽³⁾، نظراً لانتشار ظاهرة الهروب إلى البوادي أو المناطق البعيدة عن أعين السلطة إذ لم يكن التأقلم بالأمر السهل داخلها، فحاولت الانحصار ضمن عشائر تربط بينهم أواصر الدم، مشكلين جماعات تشق عصا الطاعة على الدولة وتَحِيلُ طرق التجارة إلى سبل غير آمنة، وفي هذا الشأن اهتم⁽⁴⁾ "إدين - داغان-Iddin. Dagan" ثالث ملوك سلالة إيسن الأولى (1974-1954 ق.م)⁽⁵⁾ بالاستقرار الداخلي لإنعاش التجارة، ومن نصوصه أنه: "جعل الطرق والممرات آمنة، وتسبب في رفاهية البلاد...، وثبّت ملك بلاد سومر، وأقام أُسساً ثابتة لبلاد سومر وأكاد، وبأمر الإله "أنو" و"إنليل" قهر جميع الأعداء"⁽⁶⁾.

يتردد أيضاً على لسان بعض الملوك الإجراءات التي اتخذوها والأعمال التي أنجزوها ليجعلوا طرق التجارة سالكة وآمنة ومريحة، فكان بعضهم يقوم بجولات تفتيشية ويُبثُّ نقاط الحماية من قلاع و تحصينات، ويوفر للقوافل وأصحابها أماكن للراحة، مع التأكيد على قطع دابر الفساد واللصوصية في هذه الأماكن، كونها دُور استراحة المسافرين والتجار، مع ضرورة أن تخضع

(1) - فوزي رشيد، (القوانين في العراق القديم...)، المرجع السابق، ص38.

(2) - شيبان ثابت مصطفى الراوي، التجارة عبر الفرات في بلاد الرافدين، ع2، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، بغداد، 2012، ص262.

(3) - أمل ميخائيل بشور، المرجع السابق، ص109.

(4) - هورست كلينكل، المرجع السابق، 1990، ص127.

(5) - Georges roux, (La mésopotamie Essai d'histoire....), Op.Cit, p164.

(6) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص43.

باستمرار لرقابة الحكومة، والراجح أنها كانت تُدار من قِبل النساء خلال الوحدة البابلية⁽¹⁾، فكان للجيش الدور الكبير في الحفاظ على هدوء البلاد وسلامة حدودها، إذ كانت القوافل التي تحمل تجارتهم تذهب من مدينة إلى أخرى آمنة مطمئنة، وبهذا الشكل صارت الأسفار أمراً يسيراً في بلاد الفرات الأعلى وساهمت في نشأة مراكز للتجارة⁽²⁾.

وفي شأن سعة حجم التجارة الداخلية الأشورية خلال مرحلة عظمتها، فقد كانت البضائع والمواد المختلفة تنقل من المناطق التي تنتجها إلى تلك التي تحتاجها وتفتقر إليها، فمنتجات المنطقة الجبلية كانت تُجلب لِتصريفها إلى جميع المدن الأشورية، ويتم نقل المحصولات الزراعية والمواشي والمنتجات الصناعية المختلفة من مدينة لِأخرى بواسطة التجار المحليين الذين إما أن يبيعوا لِتجار آخرين أو إلى باعة المفرد، وكانت العلاقة قوية بين جنوب العراق وشماله حيث يتم نقل ما تحتاج إليه المدن الشمالية من منتجات الجنوب ونقل ما يحتاجه الجنوب من محاصيل وصناعات الشمال⁽³⁾، فكانت التجارة في مختلف الجهات أساس الرفاهية الأشورية، ويعزى هذا الرفاه الاقتصادي إلى النجاحات العسكرية، الأمر الذي دفع الملوك إلى التفاخر بهذا المجال واعتدال الأسعار في عهودهم⁽⁴⁾.

كما نجد في خطاب "نبوخذنصر" القائل فيه: "لقد بدّلت الشُّعاب العسيرة بالطرق المريحة"⁽⁵⁾، بمثابة تحقيق للأمن والسلام وحرية التنقل بين أرجاء الدولة الرافدية و مظهراً من مظاهر الوحدة التي سعى جل الحكام إلى تحقيقها.

ب. التجارة الدولية:

لعبت التجارة عبر التاريخ دوراً أساسياً ومهماً في التفاعل بين الشعوب والأمم، فإلى جانب التبادل التجاري كانت تتم عملية التعرف والتأثر والتأثير بين الثقافات في العالم

(1) - رضا جواد الهاشمي، المرجع السابق، ص 227.

(2) - جيمس هنري بريستد، المرجع السابق، ص 191.

(3) - سامي سعيد الأحمد، التجارة، "موسوعة الموصل الحضارية"، ط 1، مج 1، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1991، ص 192 _ 197.

(4) - شيماء على النعيمي، من النشاطات الاقتصادية لمعابد بلاد آشور في العصر الأشوري الحديث (911-612 ق.م)، ع 30، دراسات موصلية، بغداد، 2010، ص 72.

(5) - فليب عطا الله، المرجع السابق، ص 314.

القديم⁽¹⁾، لكن النزاع بين دول المدن السومرية، وتضارب مصالحه الاقتصادية، والتنافس فيما بينها كان من بين العوامل المعوّقة لازدهار التجارة الخارجية⁽²⁾، ومع ذلك أدّت هذه العلاقات السومرية في رأي الباحثة العراقية "سهيلة كاظم مدلول" إلى إكساب إنسان المنطقة تجارب أوسع من المجتمعات الخارجية نتيجة لتساع نطاق الصلات بين شعوب المنطقة، ويبدووا هذا في الناحية الفكرية التي تتمثل بوضوح في الأقلمة الخارجية، مما يُعزّز احتمال قيام نوع من الصلات الحضارية بين المجتمعات المختلفة وتشابه مظاهر الحياة العامة المتمثلة ببلوغ مرحلة الاستقرار، ويتضح من أحدث النتائج التي توصلت إليها أبحاث الأثريين أنّ معظم الشعوب كانت على صلة فيما بينها، ويبدووا ذلك واضحاً في العديد من المظاهر الحضارية التي تُشير إلى زيادة الإقبال على التجارة وتبادل المصنوعات المختلفة واتصال الشعوب بعضها ببعض الآخر، كما يتبيّن من الأدلة الأثرية المختلفة أنّ العراق القديم قد أثر بالحضارات المجاورة⁽³⁾، وبالتالي سادت الفترة السومرية نوع من الأقلمة مع الشعوب المجاورة بدلاً من فرض الوحدة عليها، ويُعزى السبب في ذلك إلى طبيعة نظام الحكم في مدن المدن السومرية.

يفترض أنّ مثل هذه العلاقات بين العراق والخليج قد بدأت منذ أن نشأت الدول والممالك المستقلة في عصر فجر السلالات السومرية (2900 ق.م)، أي مع بداية مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، إذ من المستبعد لأي دولة أو مملكة أو مدينة مستقلة مهما كانت صغيرة من حيث مساحة أراضيها وقلة سكانها، أن تعيش بمعزلٍ عن غيرها من الدول أو المدن الأخرى، لاسيّما المجاورة لها، بل من المسلم به أن تنشأ علاقات سياسية واقتصادية، خصوصاً مع جار الخليج، فلم تكن حضارتها محلية مقتصرة على سومر وأكاد، بل امتدت إلى بلدان وأقاليم قريبة وبعيدة من خلال العلاقات السياسية والتجارية فيما بينهم⁽⁴⁾.

(1) - بشار خليف، (دراسات في حضارة المشرق...)، المرجع السابق، ص 127.

(2) - طه باقر، (الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين...)، المرجع السابق، ص 391.

(3) - سهيلة كاظم مدلول، أسس التعليم في العراق ودوره في النهوض الفكري، ع 123، مجلة الآداب، بغداد، 2017، ص 182-183.

(4) - قصي منصور التركي، العلاقات السياسية العراقية الخليجية في الألفية الثالثة قبل الميلاد، ع 6، مجلة دراسات التاريخية، بغداد، 2014، ص 2.

عندما نصل في متابعتنا للتجارة في العصور التاريخية بحدود مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، تتضح الأهمية الكبيرة التي احتلتها في حياة العراقيين القدماء وفي مجمل نشاطاتهم الاقتصادية، ويتحول الاهتمام من الطابع الفردي إلى الطابع الجماعي المنظم الذي تشرف عليه الدولة، فلم يُخفى الملوك العراقيون عنايتهم بهذا الجانب إلى الحد الذي دفعهم لإرسال حملات عسكرية لضمان طرق التجارة وتهيئة أسباب تدفق المواد الأولية من المناشيء الأصلية⁽¹⁾.

استلزم تطور العلاقات بين العراق والخليج العربي إلى ظهور الدولة القوية المركزية- دولة القطر الموحدة- وذلك بتوحيد دول المدن القديمة المتضاربة في مصالحها فكانت أول محاولة في التاريخ لتحقيق الوحدة السياسية وقيام المملكة الموحدة الكبرى على يد حاكم مدينة "أوما" لوكال زاكيري، مع نهاية عصور فجر السلالات، أي حوالي 2400 ق.م، إذ لُقّب نفسه ملك البلاد أو ملك الإقليم، وبما أنّ مراكز الممالك السياسية في الخليج العربي تعتمد في ازدهارها على استقرار الأوضاع السياسية القائمة في الأقسام الجنوبية من العراق، لذا يمكننا عدّ مدة حكم الملك "لوكال زاكيري" خلال سنواته الأولى وسيطرته على الأقسام الجنوبية من العراق، وقيام أول وحدة سياسية في بلاد الرافدين، ولم يقتصر الأمر على المحاولة الناجحة للملك "لوكال زاكيري"، بل حتى الانتصارات التي حققها الملك الأكادي "سرجون" على دويلات المدن بجنوب العراق حتى وصل إلى الخليج العربي معلناً وحدته الكبرى⁽²⁾.

إنّ الصادرات الزراعية لبلاد النهرين تعزى في الأساس لتوافر المياه (دجلة والفرات) وأثرها البالغ في توفر المنتج بمختلف أنواعه، فضلاً عن خصوبة التربة، فمن الحاصلات الزراعية الحنطة والشعير والرز، وهذا الإنتاج الصالح للتصدير، لا بد أن يكون أداة مهمة أو سلاح غذائي، لاسيما مع المناطق القريبة التي تفتقر لهذه المنتجات الغذائية الرئيسية، وكذلك تصدير الزيوت النباتية والسمن الحيواني، كما تتمتع بلاد النهرين بجملة محاصيل كبيرة من الفواكه لاسيما الكروم ذات الأصناف الجيدة وبغزارة إنتاج التمور التي تدخل في العديد من الصناعات مثل صناعة عسل التمر والخمور والخل.... الخ، الأمر الذي جعلها محل استقطاب للتجار للإفادة من الخيرات، وتتجلى براعة

(1) - رضا جواد الهاشمي، (التجارة...)، المرجع السابق، ص 196.

(2) - قصي منصور التركي، المرجع السابق، ص 22-23.

زعماء الوحدة في أبعادها الخارجية إلى دعوة التجار لجلب منتجات الأقاليم الأخرى التي تشتهر بإنتاجها⁽¹⁾.

كان لتنظيم شؤون التجارة الخارجية ما يستلزم من تسيير القوافل والحفاظة على الطرق التجارية من العوامل المؤثرة في سير الحضارة الرافدية وتطورها، سواء أكان ذلك في التنظيم السياسي والاجتماعي أم نشوء الأساليب والطرق الخاصة بالمعاملات التجارية، فعلى الصعيد السياسي استلزم ضمان ازدهار التجارة الخارجية ظهور دولة القطر الموحد، بتوحيد دول المدن المتضاربة في مصالحها التجارية⁽²⁾، إذ مثّلت بحق أهم الإمبراطوريات الاقتصادية في العالم القديم على اعتبار أن البيئات المحلية والدولية للأمم تساهم في تشكيل سياساتها، وتركيزها على الاقتصاد بالدرجة الأساس، وبهذا الشأن شكلت السياسة الأكادية إمبراطورية تجارية بحتة⁽³⁾ من خلال فرض السيطرة العسكرية على منطقة الخليج طلية مدة حكم الأكاديين كونهم لا يمتنون بصلة للعراق السومري، وبذلك ترك مؤسس السلالة الأكادية وخلفاؤه نصوص انتصاراتهم وتفاخرهم في الهيمنة على منطقة الخليج والمناطق المؤدية إليها⁽⁴⁾.

الشيء الملفت للنظر في العلاقات بين ممالك الخليج وحكومات العراق من خلال دراسة النصوص المسمارية، تبين أنه خلال العصر الأكادي انتهج حكام أكاد أسلوب الحملات العسكرية في فرض السيطرة على ما أسموه البحر المنخفض أو البحر السفلي (تاممشابيلتم - Tamimsabelitum)، كما تفيد النصوص أن كل من مجان ودلون لم تكن خاضعة إلى حكومة أكاد بشكل نهائي، وإلا لما تواترت الإشارات المتكررة لكل ملك من ملوك أكاد في حملاتهم العسكرية⁽⁵⁾.

فعلى الصعيد الخارجي، كان سرجون يتمتع بحس استراتيجي قل أن يتمتع به قادة آخرون في ذلك الزمن، ومراقبته لمسرح الأحداث، إذ كان يرى من خلال طموحه الوحدوي، التوسع من

(1) - قيس حاتم الجنابي، المرجع السابق، ص ص 196-200.

(2) - طه باقر، (الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين...)، المرجع السابق، ص 41.

(3) - حسين سيد نور جلال الأعرجي، أثر السياسة الاقتصادية على السياسة الخارجية للدولة الأكادية (2230-2370 ق.م)، جامعة واسط، بغداد، 2008، ص 3.

(4) - قصي منصور التركي، المرجع السابق، ص 11.

(5) - نفسه.

شواطئ الخليج العربي إلى البحر المتوسط، ومن البحر الأسود إلى شواطئ العرب، فضلاً عن أهمية البحر الأحمر الاستراتيجية بالنسبة لخطوط مواصلاته التجارية مع مصر وإفريقيا والهند، ومن أجل إيصال منتجات شبه الجزيرة العربية إلى عاصمته، سعى إلى الحفاظ على منطقة البحر الأحمر ولاسيما الشرقية منها، ومن جهة أخرى كان يدرك بحسه الاستراتيجي الذي تمتاز به دولته الموحدة ودورها في قلب العالم القديم، أنه لا بد من استثمار هذه الميزة الفريدة إلى أقصى مدى من خلال توجيه ضربة قاصمة للقبائل المناوئة خلف جبال زاغروس شرقاً وطوروس شمالاً، وبالتالي توفير الشروط اللازمة لتحقيق مطامح دولته وشعبه في التجارة الخارجية⁽¹⁾، بالسيطرة على الطرق التجارية في الشمال والتمكّن من إيصال المنتجات الأجنبية التي تحتاجها بلاده وخاصة الحجارة والمعادن والنحاس⁽²⁾.

ويتبيّن من النصوص الوحدوية لحملة سرجون الأكادي جهة الشمال الغربي أنّ الهدف منها، كان الوصول إلى مصادر الأخشاب والمعادن (غابة الأرز وجبال الفضة) التي تفتقر إليها دولته، بمعنى أن الهدف كان اقتصادياً قبل أن يكون سياسياً يرمي إلى تحقيق مجد عسكري، ونستطيع أن نلمس هذا البعد الاقتصادي أيضاً مما أشارت إليه النصوص المتأخرة عن نفوذ سرجون في الجهة الغربية، والتي لم تُعنى بإعطاء أية تفصيلات عن حملته، بينما حرصت على إيضاح الهدف من مدّ هذا النفوذ وهو إحضار جزية أراضي البلاد الغربية⁽³⁾، كما اتجه إلى الشمال حتى ماري وإبلا، ووصلت جيوشه نحو الجنوب إلى دلون وماجان، كما هو وارد في النص الذي يجمع بين الوحدة السياسية والتجارة الخارجية: "... وكان سرجون، ملك كيش، منصوراً في أربع وثلاثين حملة - استطاع خلالها - أن يجرد - كل المدن من حصونها، ووصل إلى ساحل البحر وجعل في ميناء أكاد سُفنًا ترسوا، سُفنًا من ميلوخا، سُفنًا من ماجان، سُفنًا من دلون (أي جعلها ترسوا في ميناء أكاد). سرجون، الملك، خرّ ساجداً، وألقى بنفسه على الأرض ممدداً متعبداً للإله داجان Dagan في

(1) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 328-329.

(2) - نفسه، ص 332.

(3) - محمد عبد اللطيف محمد علي، (تاريخ العراق القديم ...)، المرجع السابق، ص 263.

توتول Tutul -الذي- أعطاه المنطقة العليا- ماري-أرياموتى و إبلا حتى غابة الأرز وجبل الفضة..."⁽¹⁾.

هناك ملحمة معروفة باسم " ملك الحرب"⁽²⁾ تؤكد أحداثها أنّ التجار الأكاديين في مدينة "بورشخندا" الأناضولية قد نالهم بعض الظلم من حكام المدينة مما دفعهم إلى الاستعانة بسرجون الأكادي⁽³⁾ من خلال مراسلتهم له بهدف طلب الاستعطاف والحماية من الاضطهاد الذي حال بهم داخل المدينة⁽⁴⁾ وسطوة حاكمها مقابل حصوله على ثروة كبيرة من التجار⁽⁵⁾. وقد يمثل هذا النوع من الاعتداء محاولة التقليل من حجم الهيمنة الأكادية من الناحية السياسية والاقتصادية.

وفي إحدى النصوص التي اهتمت بالتجارة الأكادية الخارجية خلال عصر نرام-سين تؤكد هذا الطابع الوحدوي المستمر حول ضرورة جلب السلع المتنوعة إلى أكاد من العديد من المناطق الخاضعة له، ومنها: "مارتو الأراضي الجبلية الذين لا يعرفون القمح، يجلبون له (أي ل نرام-سين) ثيراناً لا شائبة فيها وحيدياناً لا شائبة فيها، سكان "ميلوخا"، رجال الأرض السوداء، يجلبون له كل أنواع السلع الغربية، ويحمل العيلاميون و السوبارتيون الأحمال له كأنهم حمير تحمل أثقالاً، جميع

(1) - علي جاسم آل ثاني، المرجع السابق، 1997، ص 80-81؛ بهنام أبو الصوف، (قراءات في الآثار والحضارات...)، المرجع السابق، ص 17.

(2) - تمثل الملحمة أقدم شاهد تاريخي للعلاقات بين منطقتي بلاد الرافدين والأناضول، كونها أول نص مسماري يتحدث عن أخبار الأناضول وتحديداً مدينة بورشخند المعروفة باسم "هجم أيوك قرب بحيرة الملح"، إذ تروي أخبار الحملة العسكرية التي شنتها سرجون ضد المدينة وملكها "نوردجال"، الذي تعمّد الإساءة لبعض التجار الأكاديين بالقول الآتي: "عندما سمع"نوردجال" حاكم "بورشخندا" بقدوم جيش الملك...، وبعد مدة من الحصار تمكّن سرجون من عمل فتحة عريضة في سور المدينة توغل منها الجنود... فتمكن سرجون وجيشه من الدخول... وبعد أن تمّ للملك سرجون فتح المدينة خاطب جنوده قائلاً: إن "نوردجال" قد ادعى بأنه المفضل من قبل...، وجاوب حاكم بورشخندا على كلام سرجون: أنا لم أدع ذلك، ربما اختلق هذا الكلام عني... واعلم علم اليقين أنه ليس هناك ملك ينافسك، خصومك لا وجود لهم...، فأرجوا أن يكون في قلبك رحمة...، إن هذا التنازل من قبل حاكم "بورشخندا" قد خفف كثيراً من غضب الملك سرجون، مما دعاه لأن يعفو عن المدينة وعن أهلها... أنظر: فوزي رشيد، (سرجون الأكادي..)، المرجع السابق، ص 58-60.

(3) - فوزي رشيد، (سرجون الأكادي...)، المرجع السابق، ص 56؛

Marc Van De Mieroop, *Cuneiform Texts and the Writing of History*, Routledge, London, 1999, p 67.

(4) - طه باقر، (الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين...)، المرجع السابق، ص 397.

(5) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 74.

"الإنسيين" أي الحكام، يأتون بهداياهم مباشرة إلى مدينة أكاد في كل شهر وفي اليوم الأول من كل سنة"⁽¹⁾.

وفي عصر سلالة أور الثالثة⁽²⁾ تمت عملية استيراد النحاس والتوتياء والأحجار الكريمة والعاج من المناطق الواقعة حول الخليج العربي⁽³⁾، ذلك لأن المواد الخام التي يستطيع العراق القديم تقديمها بكميات وفيرة الطين والبوص والجوب، فكان عليهم أيضا استيراد كتل الخشب اللازمة لبناء المنازل والأحجار المخصصة لتمثيل الآلهة، فامتدت الطرق التجارية إلى مسافات أبعد، ونشأت مراكز تجارية كان يشرف عليها التجار السومريون في أماكن بعيدة مثل أسيا وفلسطين، علاوة على التجارة عن طريق الخليج الفارسي للاستفادة من الموارد الرئيسية وعلى رأسها الأخشاب⁽⁴⁾، وأستطاع بذلك "أورنامو" أن يعيد طبيعة النظام إلى نصابها، وأن يعيد للتجارة الخارجية مع بلدان الخليج نشاطها مجدداً، واشتركت دويلات المدن التابعة لأور في الأعمال التجارية كافة، حيث كان يتم التقاء أصحاب التجارة الخارجية والقوافل والسفن بها، وتنظم لوائح حسابات الباعة مع الكشوف الشهرية وتقديرات العائدات السنوية، وكل ذلك بموجب إيصالات، وتجري الحسابات وأعمال الجرد تماماً كما هو الحال في عصرنا هذا⁽⁵⁾.

لكن من الباحثين من اعتبر أن التجارة الخارجية كانت حكرًا على ملوكها، فقد شكّلوا جهازاً ضخماً من الموظفين لإدارة الأعمال التجارية والسهر على حسن تنفيذها وجباية الواردات وتكليف تجار مهرة بترويج البضائع في البلدان الممتدة من الخليج العربي حتى ساحل البحر المتوسط، ونظراً لطبيعة العلاقات الاقتصادية الخاصة بكثرة موارد التجارة، فقد اغتنى القصر غناءً فاحشاً وأدّى إلى تقوية الحكم الاستبدادي المركزي وإلى استثمار واستغلال قوى الشعب العاملة، واستطاعت الدولة المركزية القوية أن تُنجز ما لم تقدر عليه دول المدن الصغيرة⁽⁶⁾.

Samuel Noah Kramer ,Op.Cit, , p 278.

—(1)

(2) — هاري ساكز، (عظمة بابل....)، المرجع السابق، ص258.

(3) — هورست كلينكل، المرجع السابق، ص77.

(4) — رالف لنتون، المرجع السابق، ص232.

(5) — عبد الله الحلو، المرجع السابق، ص68-69.

(6) — هورست كلينكل، المرجع السابق، ص39-40.

أما ملوك بابل فبذلوا اهتماماً كبيراً لحماية الطرق التجارية والقوافل إلى درجة أنهم طالما جردوا حملات لتأديب الأقوام والشعوب التي تتعرض للقوافل التجارية، وفرضوا عليها العقوبات والغرامات وأخضعوها لسلطانهم وبنوا عليها القلاع والحصون العسكرية⁽¹⁾ حتى أن تحول السلطة من شخص إلى آخر لم يكن يضايق التجار مادامت قوافلهم تتابع رحلاتها في مختلف الاتجاهات⁽²⁾، لكن إبان حكم حمورابي لازمه توسع هائل في التجارة من الشمال والغرب نتيجة التوسع العسكري لبابل المتحدة، كونها العاصمة الجديدة والمركز الحقيقي لتجارة الشرق، وذلك بفضل مركزها الجغرافي بين آسيا العليا والدنيا حيث يتقارب النهران، ولقد كرّس المشرع كذلك مواد عديدة من قانونه لأعمال كبار التجار ونظم العلاقات بين صاحب العمل والمستخدم⁽³⁾، ولهذا الشأن وُجد في إحدى النصوص مجهولة المؤلف والتي يمكن أن تُعزى لهذا الحاكم "أنا فتحت كل الطرق لمستوطنتي بابل وبكافة الاتجاهات، لذلك فيمكنهم المتاجرة مع كل البلدان"⁽⁴⁾.

وفي شأن التجارة الآشورية حول مرحلتها القديمة، فإن قلة المعلومات السياسية حولها تجعل المعلومات التجارية مقتضبة، والحقيقة أنه يُعرف الكثير عن تجارة آشور ما بين 2000 ق.م، وزمن "شمشي أداد الأول" المعاصر لحمورابي أكثر مما نعرف عن السياسية، ولا تأتي معظم المعلومات من آشور نفسها، ولكن من مصدر واقع على مسافة مائة من الأميال إلى الشمال، وتتألف معظم هذه الشواهد مع بعض الألواح الفخارية التي وجدت في موقع يدعى "كولتيب" بـ"كابادوكيا"، وهذه الألواح بمثابة محفوظات تعود إلى أجيال عديدة لإحدى المستعمرات التجارية الآشورية، إذ كانوا يعيشون هناك في بداية الألف الثاني ق.م، و تذكر نصوصها عشرون مستوطنة من هذا النوع في الأناضول، لكن هناك مستوطنات عرفت عن طريق الألواح التي وجدت في مواقعها، ولا نعلم كم من الزمن كان التجار الآشوريون يعملون في الأناضول، إذ أن أقدم التواريخ

(1) - محمد علي رضا آل جاسم، المرجع السابق، ص 27.

(2) - عبد الله الحلو، المرجع السابق، ص 78.

(3) - ل. ديلاپورت، المرجع السابق، ص 119.

(4) - ميثم مرتضى مصطفى و زين العابدين موسى جعفر، إشارات كتابية مسمارية مهمة حول مدينة بابل، ع 4، مجلة جامعة كربلاء العلمية، بغداد، 2014، ص 73.

في السجلات الآشورية الموجودة في كبادوكيا لا تُثبت أقدم الأزمنة التي عملت فيها المستوطنات التجارية⁽¹⁾.

لعلّ الكلام السابق يجعلنا نؤمن بوجود نفوذ خارجي للآشوريين من الناحية التجارية لكن هل هذا يجعلنا نؤمن بأنه قد صاحب هذا المجال نفوذ سياسي أو توسع عسكري؟ وهو ما يصعب التأكد منه حول تلك الفترة، لكونه لا توجد أدلة كافية وقد يمكن التخمين أنّ التجارة الآشورية حاولت فرص نفسها على الصعيد الخارجي، لكن لكي تحمي منتجاتها ومستوطناتها وتجارها وأرباب المال الآشوريين، يجب أن يصحب هذا الواقع نفوذ سياسي وعسكري بتلك المستوطنات، وإذا سلمنا بهذا القول فإننا نجد أنفسنا أمام مشكلة وهي هل حققت آشور وحدتها السياسية في الداخل وحتى تجارياً حتى تفرض نفسها سياسياً واقتصادياً نحو الخارج؟ وإذا بحثنا عن تفسير لهذا



الصورة رقم 20: جلب الأخشاب من لبنان عن:

Don Nardo, Op-Cit, p 261.

الأمر فإننا نقول بأن سقوط سلالة أور الثالثة ومع صاحبه من قيام ممالك أمورية في كافة المنطقة الرافدية والصراع فيما بينها جعل آشور تستغني بنفسها عن هذا الأمر لتوجه مجهودها نحو الخارج.

لذلك بعد أن استقام لهم الأمر، اهتم ملوكهم بتنمية اقتصادهم بالاعتماد على المقومات الزراعية للبلدان المجاورة،

وبخاصة الأخشاب (أنظر الصورة رقم 20)، كما خُزنت مزروعاتهم من الحبوب داخل المدن الملحقة ببلادهم، كي يستفاد منها في أوقات الحاجة، ولإطعام الجيش المُعسكر خارج بلادهم، إذ بُنيت هذه المخازن لحفظ الحبوب من التلف، وبذلك صارت المدينة مركزاً تموينياً، وعلاوة على ما سبق بنى ملوك آشور مَدناً على ساحل البحر المتوسط بهدف إنشاء موانئ آشورية تُسيطر على حركة التجارة ومنافذها، بل وقامت باستنزاف خيرات المدن بجلبهم الأخشاب والأحجار التي لا تتوافر في بلادهم باعتبارها من المواد الأولية اللازمة في بناء القصور والمعابد⁽²⁾.

(1) - هاري ساكز، (عظمة آشور...)، المرجع السابق، ص 42.

(2) - أحمد زيدان الحديدي، المرجع السابق، ص 36-37.

يلاحظ في السياسة الحدودية للحكام الآشوريين الجمع بين الحرب والتجارة في آن واحد، إذ لم يكن الغرض من بسط نفوذهم القضاء على التمردات والعصيان في البلدان والأقاليم المجاورة وإنما ضمان أمن وسلامة القوافل التجارية المؤدية إلى مصادر الخام⁽¹⁾، فأخذت التجارة الآشورية طابعاً حربياً في بلاد الشام العليا للحصول على مختلف المواد فضلاً عن جبي الجزية، وهو ما اعتمده الملك الآشوري " تجلات فالالاسر الأول (1112-1074 ق م)، من خلال فرض سياسية التبعية الاقتصادية للدلالة على رابطة تجارية في قوله: "إلى جبال لبنان ذهبت... وقطعت ونقلت، إلى عمرو وعدت...، بكاملها غزوت، أخذت الجزية من جبال صيدا، أرواد استلمت، وعبرت بسفن أرواد من أرواد القائمة عند شاطئ البحر، حيث سيميرا في بلاد عمورو...قتلت"⁽²⁾.

نستشف أيضاً من كتابات سرجون الثاني الآشوري التي أشار فيها إلى دوره في فتح العلاقات التجارية بين سكان بلاد آشور وسكان مصر إذ نجده يقول في أحد نصوصه: "فتحت ميناء بلاد مصر المغلق وأدمجت سكان بلاد آشور مع سكان بلاد مصر وجعلتهم يشتغلون سوية بالتجارة."⁽³⁾.

وفي حوليات آشور بانيبال نجد من أساليبه العسكرية نصاً فحواه: "سرت يومئذ محاذياً لبنان، وطلعت إلى البحر الكبير في بلاد العموريين، في البحر العظيم غسلت أسلحتي،...وجبيت الجزية من ملوك الساحل، ومن أهالي صور وصيدا وجبيل ومخالا وامايزا وكايزا و عمورو و أرواد، التي تقع في وسط البحر ذهباً وفضة ورصاصاً ونحاساً وآنية من برونز، وثياباً من صوف ملون، وثياباً من كتان، وحميراً كبيراً، وقرداً صغيراً، وخشب قبقب، وخشب بقس، وعلجاً، ونهبت - من مخلوقات البحر - كل هذا أخذته منهم، ثم عانقوا قدمي"⁽⁴⁾.

كما أوردت نصوص العهد الجديد وصفاً لأهمية التجارة مع بابل بعد سقوطها على يد الفرس⁽⁵⁾ " 11. وَيَبْكِي تُجَارُ الْأَرْضِ وَيَنُوحُونَ عَلَيْهَا، لِأَنَّ بَضَائِعَهُمْ لَا يَشْتَرِيهَا أَحَدٌ فِي مَا بَعْدُ، 12. بَضَائِعِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالْبَزِّ وَالْأَرْجَوَانِ وَالْحَرِيرِ وَالْقَرْمِزِ،

(1) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...) المرجع السابق، ج 1، ص 121.

(2) - سبتيانو موسكاتي، (الحضارة الفينيقية...)، المرجع السابق، ص 30-31.

(4) - صفوان سامي سعيد جاسم، المرجع السابق، ص 28.

(3) - سبتيانو موسكاتي، (الحضارة الفينيقية...)، المرجع السابق، ص 40.

(5) - رحمة بنت عواد بن أحمد السناني، تيماء تحت الحكم الكلداني في عصر الملك نابونيد، أطروحة دكتوراه، جامعة طيبة، المملكة العربية السعودية، 1430هـ/2009م، ص 134 .

وَكُلُّ عُوْدٍ ثِيْنِيٍّ، وَكُلُّ إِنَاءٍ مِّنَ الْعَلَجِ، وَكُلُّ إِنَاءٍ مِّنَ أَثْمَنِ الْخَشَبِ وَالنَّحَاسِ وَالْحَدِيدِ
وَالْمَرْمَرِ، 13 وَفَرْقَةٌ وَبَخُورًا وَطِيبًا وَلُبَانًا وَخَمْرًا وَزَيْتًا وَسَمِيذًا وَحِنْطَةً وَبِهَائِمَ وَغَنَمًا وَخَيْلًا،
وَمَرْكَبَاتٍ، وَأَجْسَادًا، وَنُفُوسَ النَّاسِ 14 . وَذَهَبَ عَنْكَ جَنَى شَهْوَةِ نَفْسِكَ، وَذَهَبَ عَنْكَ كُلُّ مَا
هُوَ مُشْحَمٌ وَبِهِيٌّ، وَلَنْ تَجِدِي فِي مَا بَعْدُ 15 . تُجَارُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّذِينَ اسْتَعْنَوْا مِنْهَا، سَيَقْفُونَ
مِنْ بَعِيدٍ، مِنْ أَجْلِ خَوْفِ عَذَابِهَا، يَبْكُونَ وَيَنُوحُونَ، 16 وَيَقُولُونَ : وَيْلٌ ! وَيْلٌ ! الْمَدِينَةُ
الْعَظِيمَةُ الْمُتَسَرِّلَةُ يَبِزُّ وَأَرْجُوَانِ وَقَرْمِزٍ، وَالْمُتَحَلِّيَةُ يَذْهَبُ وَحَجَرٍ كَرِيمٍ وَلَوْلُؤُ 17 ! لَأَنَّ فِي
سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَرِبَ غِنَى مِثْلُ هَذَا . وَكُلُّ رُبَّانٍ، وَكُلُّ الْجَمَاعَةِ فِي السُّفُنِ، وَالْمَلَاخُونَ وَجَمِيعُ
عُمَّالِ الْبَحْرِ، وَقَفُوا مِنْ بَعِيدٍ 18 وَصَرَخُوا إِذْ نَظَرُوا دُخَانَ حَرِيقِهَا، قَائِلِينَ : أَيُّهُ مَدِينَةٍ مِثْلُ
الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ؟ 19 وَأَلْقَوْا تُرَابًا عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَصَرَخُوا بَاكِينَ وَنَائِحِينَ قَائِلِينَ : وَيْلٌ !
وَيْلٌ ! الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ، الَّتِي فِيهَا اسْتَعْنَى جَمِيعُ الَّذِينَ لَهُمْ سُفُنٌ فِي الْبَحْرِ مِنْ نَفَائِسِهَا !
لَأَنَّهَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَرِبَتْ 20 ! إِفْرَحِي لَهَا أَيُّهَا السَّمَاءُ وَالرُّسُلُ الْقُدِيسُونَ وَالْأَنْبِيَاءُ، لَأَنَّ
الرَّبَّ قَدْ دَانَهَا دَيْنُونَتَكُمْ" (1).

يمكن القول أنَّ نشاط ملوك الدولة الرافدية كان مقتصرًا على توسيع حجم النشاط التجاري
الخارجي الذي تأثر بدوره بطبيعة العلاقات السياسية، فتارة تكون العلاقات متوترة من خلال
الحملة العسكرية، أو تنظيم الصلات التجارية بالطرق السلمية، ويبدو أنَّ إدراك السلطة
السياسية بأنَّ هذه الفعاليات بدون شك هي التي تؤدي بالنتيجة إلى تقوية سلطتها والحفاظة على
وجودها وكيانها السياسي، في قيام الدولة الموحدة، (2)، وبقي التعامل التجاري للعراق القديم مع
البلدان المجاورة مستمرًا على مر العصور التاريخية بدءًا من عصر فجر السلالات وحتى دولة بابل
الحديثة، فكان لبلاد الرافدين علاقات تجارية مع بلاد عيلام وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وبعض
جزر البحر المتوسط وبلدان الخليج العربي.

حيث يتبين لنا أنَّ هناك عددًا من السمات العامة ميّزت الحياة الاقتصادية في بلاد الرافدين
وقواعد عامة نظمت تلك الحياة المتبعة في جميع أنحاء البلاد وفي مختلف العصور التاريخية على

(1) - رؤيا يوحنا اللاهوتي، (18: 11-12-13-14-15-16-17-18-19-20).

(2) - قصي منصور التركي، المرجع السابق، ص 21-22.

الفصل الثالث: الفكر الوحدوي في ظل الحياة الاقتصادية

الرغم من التقلبات السياسية والتغيرات العرقية التي شهدتها المنطقة عبر تاريخها الطويل، مع الاعتراف بوجود خصوصية لكل زمان ومكان في التفاصيل وليس في جوهر الأسس العامة، وأنّ ذلك يؤكد وحدة النظم الاقتصادية باعتبارها أحد أهم مظاهر الوحدة الحضارية⁽¹⁾.

(1) - عامر سليمان، (وحدة حضارة بلاد الرافدين في النظم الاقتصادية...)، المرجع السابق، ص112.

الفصل الرابع:
مظاهر الفكر الوحدوي
في المجتمع الرافدي

إنّ من الممكن انطواء جماعات بشرية كثيرة تحت لواء الأنظمة الوجدوية ومشاريعها المختلفة كما أسلفنا الذكر في الفصول السابقة، لكن تبقى مسألة التركيب الاجتماعي صعبة خاصة ما يتعلق بالعلاقات الأسرية، فقد يولد المرء في طبقة اجتماعية معينة ويختلط بأفراد من الطبقة التي ينتمي إليها، ويختار زوجته عادة في محيط طبقته، وقد يرتفع المرء من طبقة إلى أخرى أو ينزل من طبقة إلى طبقة أدنى، فيكون مصير كل فرد يرتبط إلى حد كبير بالطبقة التي ينتمي إليها⁽¹⁾، فهذا النوع من العلاقات يؤدي إلى تباين طبقي، مكوناً بذلك الطبقة العليا الحاكمة والطبقة الشعبية، التي حتماً ستشكل لاحقاً وحدة أضداد أو وحدة اتفاق.

وفي مجال الحياة الاجتماعية، قد يكون لبعض الحكام الوجدانيين الذين يملكون شعوراً وحدوياً الدور والأهمية الكبيرة في صقل هذا الشعور، ففي المسرح الوجداني ليس هناك أمة واحدة، وإنما احتوت شعوباً مختلفة امتازت بكيانات خاصة بها، وتكلمت بلغات متباينة، وتعود إلى أصول وثقافات مختلفة، ولكن صهر هذه العناصر السكانية أو الجماعات الإثنية المختلفة بعضها ببعض بحيث يتحقق التفاعل والتلاحم في وحدة اجتماعية، والحد من انتماءاتهم الإقليمية أمر شكّل صعوبة كبيرة داخل المجتمع الوجداني، حاولت من تتبع مساره البحث عن مظاهره الوجدوية.

I- المجتمع الوجداني:

نحاول في هذا البحث أن نسلط الضوء على موضوع الاستقرار الأسري باعتباره جانب بالغ الأهمية في تاريخ العراق القديم، إذ تخلّلت مراحل متباينة وأخرى مختلفة، بالاعتماد على النصوص الملائمة لموضوع الفكر الوجدوي لنوضح مدى تأثير الحروب والصراعات على الوحدة الأسرية، وفي المقابل مدى تأثير الأمن العام لدول بلاد الوجدانيين والاستقرار السياسي الحاصل آنذاك على الحياة اليومية، باعتبار أنّ أساليب التوحيد، قد تؤثر سلباً من حيث التشتت الأسري وفقدان أحد أفراد أو كامل العائلة، أما إيجاباً فقد تحفظ حياة الأسر بتجنب زرع الخوف العام الذي تُسببه الحروب الوجدوية.

(1) - أندريه جوسان، **طبقات المجتمع**، تر: السيد محمد بدوي، مر: أحمد عزت راجح ، ط2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، بغداد، 2011، ص15.

1- الحياة الأسرية:

الأسرة هي المنوال الأوّل للمجتمعات السياسية، فمثلما يكون الرئيس الصورة عن الأب يكون الشعب صورة عن الأولاد⁽¹⁾، ويكون العائلة أساس المجتمع والدولة وأشبه ما تكون بالدولة نفسها، فكما كان يحكم الملك الرافدي في مملكته كأب، كذلك كان مركز الرجل في أسرته، إذ كانت حقوقه وواجباته تجاه عائلته أشبه ما يكون بحقوق الملك تجاه رعيته⁽²⁾.



الصورة رقم 21: تمثل المرأة عن:
أندره بارو، المرجع السابق، ص
230.

لقد كان للدافع الاقتصادي أهمية كبيرة في ترغيب معظم الأسر العراقية القديمة بالإنجاب والإكثار من الأولاد، إذ يشكل الذكور منهم عوناً مالياً في إدارة شؤونها إلى جانب الدور الكبير للأب في ذلك، وكذا دور المرأة (أنظر الصورة رقم 21)، كما أنهم ضمان للأبوين عند الشيخوخة والكهولة والعجز، فمن الطبيعي أن يقوم أولئك الأولاد بواجبات الرعاية والإعالة تجاه الوالدين في المستقبل، من أجل ضمان استمرارية ووحدة الأسرة⁽³⁾.

وقد بيّنت دراسة الوثائق المسمارية والمراسلات الخاصة بأن الحياة المنزلية لدى السومريين، كانت تشبه بكثير الأسر الحالية، إذ لم تكن هناك عشائر أو مجموعات كبيرة تربطها وشائج القرابة، ومن المحتمل جداً الاحتفاظ بنظم عائلية على نطاق واسع في مدينة مزدهمة يميل من فيها من السكان إلى حياة يكون فيها كل فرد غير مسؤول عن غيره، ونتيجة لذلك تكون العائلة الصغيرة التي تحتفظ فقط بالرابطة التي لا تزيد عن رابطة الوالدين والأبناء هي أقوى وحدة اجتماعية⁽⁴⁾.

(1) - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، تر: عبد العزيز لبيب، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011، ص80.

(2) - طه باقر، (مقدمة في تاريخ الحضارات ...)، المرجع السابق، ص 406.

(3) - فانتن موفق فاضل، مضامين نصوص الصلوات في العصر الآشوري الحديث (911-613 ق م)، مج8، ع31، مطبعة جامعة الموصل، بغداد، 2012، ص197. أنظر الهامش رقم 46.

(4) - رالف لنتون، المرجع السابق، ص 234-235.



الصورة رقم 22: رسم تخيلي للحياة العائلية في بلاد الرافدين عن:

<https://i.pinimg.com.jpg>

فالعراقي القديم تحيط به السلطة بشكل دوائر ابتداء من دائرة الأسرة، (أنظر الصورة رقم 22) حيث يجب عليها أن يحترم ويطيع الأب والأم الأكبر منه سنًا، ثم دائرة العمل، فالمجتمع فالدولة فالآلهة، وهو لا يتصور مجتمعا أو جماعة بلا قيادة⁽¹⁾، لذا يُوصي العراقيون القدامى بضرورة التحلي بالأخلاق التي تؤدي إلى الترابط الأسري⁽²⁾، وفي أقوالهم: "اسمع كلمة أمك كما تسمع كلمة إلهك"،

"احترم أخاك الأكبر"، "اسمع كلمة أخيك الأكبر كما تسمع كلمة أبيك" و"لا تغضب قلب أختك الكبرى"⁽³⁾، وبهذا الشكل مثّلت الأسرة في المجتمع السومري وحدة اجتماعية متماسكة ترتبط برابط الحب والاحترام والواجبات العائلية المشتركة، ومن النصوص المسمارية الدالة على الصداقة العميقة وعلى الاستقرار الأسري الذي وصل إلى حدّ التلاحم والعيش جنباً إلى جنب بين البابليين في بابل والسومريين في أور، إذ يذكر هذا النص بأن: "الوركاء وبابل عائلة واحدة، يتعاملون بقلب مفتوح"⁽⁴⁾، أما في خطاب لبيت عشتار فنجد ما يدعو إلى التلاحم العائلي في قوله: "جعلت الأب يحمي بنيه والأبناء يحمون آباءهم، جعلت الأب يقف إلى جانب أولاده وجعلت الأولاد يقفون إلى جانب أبيهم... في بيت الأخ وفي بيت الأخت..."⁽⁵⁾.

ونجد أيضاً نماذج من النصوص المسمارية تعبر عن طبيعة الحياة اليومية التي تعكس مدى حب وتماسك أفراد العائلة الواحدة: "يستيقظ" بيل -ابني " وزوجته قبل طلوع الشمس فيقبل أحدهما الآخر ويُقبلان الأطفال....، وتقوم الزوجة بالإشراف على الإماء والعبيد الذين يُعدون

(1) - شاكراً شاهين، المرجع السابق، ص 90-91.

(2) - نفسه، ص 91.

(3) - توركلويد جاكوبسن وآخرون، المرجع السابق، ص 239.

(4) - ميثم مرتضى مصطفى و زين العابدين موسى جعفر، المرجع السابق، ص 73.

(5) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص 183.

طعام الفطور، بينما يأخذ الزوج الأطفال يتمشون فوق سطح المنزل يتعبدون ويتطلعون إلى شروق الشمس، وبعد تناول طعام الفطور يذهب السيد "بيل - ابني" إلى معبد صغير قريب من البيت ويقدم قرباناً... عاد "بيل - ابني" مع ابنه "كودا" إلى الدكان وأخذ يعملان حتى غروب الشمس، ثم عادا إلى البيت لتناول وجبة العشاء، وقد أقيم في ذلك المساء احتفال صغير في أحد المعابد، فارتدى أفراد العائلة ملابسهم النظيفة والجميلة وصفّ كل واحد منهم شعره وذهبوا للتمتع بالاحتفال...، ولما قارب الاحتفال على الانتهاء تهيأ "بيل - ابني" وأفراد العائلة للعودة إلى البيت ... وتناول الجميع طعاماً خفيفاً أو بعض الحلوى، وهكذا اختتم اليوم من حياة الأسرة العراقية القديمة⁽¹⁾.

كما تناولت النصوص المسمارية ما وصل إليه المجتمع من رفاهية واستقرار خلال حكم "نبوخذنصر" إذ صار "في عهد الملك...العجز يقفون، والنساء في نشوة وسرور، يلدن صبياناً وبناتاً، أولئك الذين كانوا مرضى منذ أيام عديلة يشفون، والجياح يشبعون، والضامرون يسمنون⁽²⁾، غير أنّ هذا الروابط الدالة على الاستقرار الأسري في مختلف الفترات التاريخية، قاطعتها سيوف الأعداء، إذ ورد مثلاً في النص السومري التآبيني بأن:

العاصفة لا تعرف الأم، العاصفة لا تعرف الأب.

العاصفة لا تعرف الزوجة، العاصفة لا تعرف الابن الصغير.

العاصفة لا تعرف الأخت، العاصفة لا تعرف الأخ.

العاصفة لا تعرف الصديق، العاصفة لا تعرف الصديقة⁽³⁾.

يُعبّر هذا النص عن تلك الحروب والنزاعات المستمرة بين دول المدن السومرية من أجل تحقيق الوحدة، والتي تهب كالعاصفة الهوجاء، فلا تفرق بين الأم والابن، أو بين الصغير والكبير، وترك بذلك الكثير من الأسى والحزن في عائلات أفرادها قتلت وشردت.

كما نتج عن تلك الصراعات التي ميّزت عصر فجر السلالات، تدمير العديد من المدن ونهب ممتلكاتها، الأمر الذي شكّل فقدان للاستقرار الأسري، فعلى سبيل المثال نجد في النزاع

(1) - فاروق ناصر الزواي، جوانب من الحياة اليومية "حضارة العراق"، ج2، دار الحرية، بغداد، 1985، ص377-380.

(2) - فليب عطا الله، المرجع السابق، ص256.

(3) - Samuel Noah Kramer, Op.Cit, p 256.

الذي حدث بين "اينشاكوشانا" أول ملوك سلالة الوركاء الثانية و"إيني عشتار"، الملك ما قبل الأخير في سلالة كيش الثانية، إذ شنَّ الأول حرباً على الثاني وحقق انتصار عليه، مما دفع سكان "أكشاك" و كيش إلى التنازل عن ممتلكاتهم له مقابل عُدوله عن تدمير المدينة⁽¹⁾، وهذا الأمر يشير إلى خوف السكان البالغ على أنفسهم ومدنهم، فدفعهم هذا إلى التخلي عن أموالهم مقابل الحفاظ على حياة أسرهم وعلى مدنهم⁽²⁾، حيث أكد النص القائل بأن: "اينشاكوشانا" حاكم سومر، ملك البلاد... أعلن الحرب على كيش وأسر "إيني عشتار"، ملك كيش، وعندئذٍ توسل إليه سكان -أكشاك- وسكان كيش، يَأْلاً يُدْمَر...، لقد أعاد لهم مدينتهم كما أرادوا... الخ"⁽³⁾.

ويبدو أنَّ الغزو الجوتي في بلاد الرافدين قد شكّل هو الآخر صدمةً اجتماعيةً لسكانها واستقرار أسرها، فبالرغم مما تعكسه النصوص لدى إحدى كتابات الشعوب المقهورة حول طبيعتهم البربرية التي تصفهم "بمغتصبي النساء وخاطفي الأطفال"، فهُمْ مَنْ "أبعد الزوجة عن زوجها والطفل عن أبيه، وقام بنشر العداوة والفوضى في البلاد"⁽⁴⁾، ويسبب هذه الأفعال فقد ظلّوا عالقين في أذهان الكثير من الأجيال كمخربين ومدنسين لارتكابهم فظائع تركت أثراً نفسياً لا يُمحى بسهولة، إذ يمكن أن نتصور ما تركه أفعال مثل اغتصاب الزوجة واختطاف الأطفال من أحضان الوالدين من جرح عميق داخل الأسرة العراقية القديمة، كما يتجلى هذا الشعور بالنقمة ضد هؤلاء الجوتين في إحراقهم للعاصمة "أور" والعديد من المدن الأخرى⁽⁵⁾.

حتى الأساطير وصفت الوضع الأسري الداخلي وبشكل خاص حال النساء في البيوت، أيام أوشكت وحدة سلالة أور الثالثة على السقوط: "عندما كنت وكلّي حزن وأسى أتوقع يوم العاصفة ذاك، المقدّر لي، المفروض عليّ، وكلّي دمع وبكاء، المكتوب عليّ، أنا المرأة، ارتجفت وارتعدت ليوم العاصفة ذاك، يوم العاصفة الظالم المقدّر لي، لم يكن لي مهرب من اليوم المحتوم آنذاك، ليلة البكاء العاتي المكتوبة عليّ، وعلى كاهليّ حطّ الخوف من دمار العاصفة الشبيه

(1) Samuel Noah Kramer, Op.Cit , p 308.

(2) سعدون عبد الهادي برغش الأمير، التأثير النفسي للصراعات السياسية على العراق في تاريخه القديم، مج10، ع24، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، بغداد، 2014، ص343.

(3) Samuel Noah Kramer , Op.Cit , p 308.

(4) عامر حنا فتوح، المرجع السابق، ص 289 .

(5) انطوان مورتكات، المرجع السابق، ص 103.

بالطوفان، وعلى حين فجأة وأنا في فراشي، حُرمت الأحلام كلها، حُرمت النسيان كله، ولأنّ هذا البكاء المرقد قدّر لبلاي، ولأنّي لم استطع حتى ولو جُبت أرجاء الأرض أن أستعيد شعبي..."⁽¹⁾.
وقد برّر الملك سنحاريب سبب الخراب الذي تعرض له البابليين المغلوبين، إلى عدم توفر حياتهم على الاستقرار الاجتماعي والأسري بقوله: "لقد كانوا من قبل يُدّلون الضعيف، وشاع الطغيان في مدينتهم والرّشّ والنهب، وكان الولد يسبّ أباه في الطريق، والعبد يُهين مولاه، والجارية تعصي سيّدتها..."⁽²⁾.

ومن المظاهر المؤثرة أيضاً على الاستقرار الأسري المجاعة التي بلغت حداً يكاد لا يوصف، بحيث أصبح الآباء يتركون أبناءهم خارج البيوت وأمام الشوارع، فلجدير بالذكر أنّ هناك نصوص مسمارية تتحدث عن بيع الأبناء والنساء في أوقات الظروف العصيبة، كأن تتعرض المدينة للمجاعة بسبب حصار عسكري، ولهذا الصدد نجد أن: "طفلة في مدينة نفر بيعت بسعر 22 شيقلا من الفضة يحضر أمّها المسماة إما-نبو "Ima-Nippu"⁽³⁾، واستمرت عادة بيع الأطفال عند العراقيين القدماء حتى أواخر الحكم الأشوري والحكم البابلي الحديث، فمثلاً نقرأ في نص يرقى تاريخه إلى العصر الأشوري الحديث بأنّ "امرأة باعت ابنتها بـ 30 شيقلا من الفضة"، وفي نص آخر يعود للفترة نفسها "رجلا باع ابنه بسعر 16 شيقلا من الفضة"⁽⁴⁾.

إلى جانب الحروب المدمرة التي أعاققت استمرار الاستقرار الأسري، هناك ممارسات أوردتها المؤرخ اليوناني هيرودوت حول بعض المظاهر الجنسية ومنها ظاهرة "البغاء المقدس" حيث قال: "البابليون كانوا يتبعون عادة مرذلة ومخجلة للغاية، حيث يجب على كل امرأة ولدت في تلك البلاد أن تذهب مرة واحدة في حياتها فتجلس في معبد عشتار حيث يضاجعها رجل غريب، وتذهب كثيرات من نساء الأثرياء اللواتي يأنفن من الاختلاط بالأخريات إلى المعبد في عربة مقفلة يتبعها جمع كبير من الخدم ثم تتخذ مكانها هناك، أما العدد الأكبر من النساء فيجلسن داخل سور المعبد ويضعن الأكاليل على رؤوسهن، ويوجد هناك دائماً جمع غفير من الناس بعضهم قادم وبعضهم عائد، وتحدد الممرات في جميع الاتجاهات وسط النساء بلحبال، فيمر الأغراب بينهن

(1) - توركلید جاكوبسن وآخرون، المرجع السابق، ص 232-233.

(2) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 793.

(3) - رضا جود الهاشمي، (أصالة الحضارة العراقية القديمة...)، المرجع السابق، ص 61.

(4) - Isaac Mendelsohn, *Slavery in the Ancient Near East*, Oxford University Press, U.S.A, 1949, p 9.

ليختار كل منهم من تروقه ... وهكذا تذهب المرأة مع أول رجل يرمي القطعة في حجرها وليس لها أن ترفض أي شخص، وبعد عودتها إلى منزلها، فإنه لا يمكنها أن تفرط في عفافها"⁽¹⁾.

ما سجّله هنا هيرودوت يخص ظاهرة البغاء المقدس، ويدخل ضمن الطقوس الدينية، أما تعميمه على كل امرأة بابلية هو ادعاء ليس له نصيب من الصحة إطلاقاً على حد قول الباحث فاضل عبد الواحد علي، لأنه لا يتفق والعرف الاجتماعي الجديد القائم على مبدأ " المرأة لرجل واحد"، غير أن الإيمان بهذه الطقوس وبضرورة إقامتها دفع المجتمع لأن يتبنى فكرة تكريس بعض من الفتيات في المعبد ليقمن من خلال ممارسة البغاء المقدس بدور آلهة الخصب ذات العشاق العديدين، وبالتالي فالنساء اللاتي شاهدن هيرودوت يجلسن في ساحة المعبد كانوا من بغايا المعبد، وعلى الأغلب من صنف الكاهنات "القادشتو"، وليس في كل امرأة بابلية، ويتضح مما كتبه هيرودوت بالإضافة إلى بعض الإشارات في الكتابات المسمارية أن البغاء المقدس كان وثيق الصلة بالآلهة عشتار وبعبادها، فهذا لكي يحصل المعبد نصيبه من النساء المكرّسات لممارسة البغاء"⁽²⁾.

ولو سلمنا في رأينا بقول هيرودت حول البغاء المقدس وما أورده في نصه حول تلك الحقة التاريخية، فإننا نجد القوانين تُشدّد وتضبط القواعد الأخلاقية الاجتماعية منها والأسرية، إذ نجد مواد التشريع الرافدي تحرم وتستنكر مثل هذه الأفعال المشينة منها مثلاً ما جاء في شريعة حمورابي، المادة 128: "لو اتخذ رجل امرأة زوجة ولم يعقد عليها، هي ليست زوجته" بمعنى ضرورة وجود عقد زواج بين الطرفين لتصبح علاقة زوجية رسمية، وفي القوانين الآشورية، مثلاً في المادة 41: "لو شاء رجل أن يستر وجه خليلته، فعليه أن يستدعي خمساً أو ستاً من جيرانه ليكونوا شهداء على ذلك ثم يستر وجهها أمامهم مُردداً "إنها زوجتي" فتصبح زوجته..."⁽³⁾. وهذا دليل على أن المجتمع الرافدي لم يحبذ هذا النوع من العلاقات، حيث دعا في قوانينه إلى الالتزام بروابط الزواج.

بينما تولّت آشور سياسة التشجيع على الإكثار من النسل، شأنها في ذلك شأن جميع الدول العسكرية، ولكون حقوق المرأة لدى الآشوريين ضئيلة، ومنزلتها غير سامية، لم يكن يسمح

(1) - Hérodote, Loc. Cit, 199.

(2) - فاضل عبد الواحد علي، أعراس الإله تموز ومأساته في طقوس الزواج المقدس والحزن الجماعي، مج 28، ج 2، مجلة سومر، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1972، ص 73-74.

(3) - مجموعة من المؤلفين، شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم، تر: أسامة سيرا، ط 2، دار علاء الدين، دمشق، 1993، ص 64.

للمتزوجات من السيدات اللاتي ينتمين إلى الطبقة الحرة أن يخرجن إلى الطريق العام دون حجاب، وبهذه الوسيلة كان يمكن تمييزهن عن نساء الطبقات الأخرى، وكانت القوانين تهدف إلى إحاطة المرأة بكثير من الضمانات، لكي تبقى عفيفة، أمينة على عرضها، ولذلك كانت عقوبة الزوجة الزانية تصل إلى حد الإعدام⁽¹⁾، لهذا السبب أرجع العديد من الباحثين هذا التردّي أو التشدد بأنّ الآشوريين كانوا من الحاربين الذين لم يتوقفوا عن الحروب طيلة فترة حكمهم، ومادامت الحروب تقوم على سيطرة الرجال، فإنهم يعتبرون تمييز الرجال عن النساء في المجتمعات والدول الحربية أمراً طبيعياً بالرغم من التطور الكبير في الحضارة الآشورية⁽²⁾.

2- النظام الطبقي:

كان المجتمع العراقي القديم كغيره من المجتمعات القديمة والحديثة، يتألف من فئات وشرائح عدّة، منها الفئة الحاكمة والمتنفذة سياسياً واقتصادياً أو دينياً، و في مقدمتهم تقف الأسرة الملكية التي اكتسبت على مرّ العصور قدسيّة واحتراماً خاصين نظراً للمركز الذي كان يتمتع به الملك وأسرته لدى عامة الناس، ويولي الأسرة المالكة في السُّلم الاجتماعي فئة النبلاء وأصحاب الإقطاعات الكبيرة والملأك وكبار الكهنة والموظفون وقادة الجيش والحكام وغيرهم، وكان لهذه الفئة كل الحقوق والامتيازات سواء في القوانين أو وفق الأعراف والتقاليد السائدة، بينما كانت الفئة المحكومة تضم عامة الناس من العاملين في الحقول والمزارع والمشاغل والحرف والمحلات التجارية الصغيرة وغيرهم من الشرائح الفقيرة المعتمدة على جهودها اليومية، ومنها الفئة المملوكة العديمة القوة والنفوذ⁽³⁾، التي مثلت وسيلة التداول بين هذه الفئات و انطوت تحت نظام طبقي، ونحاول من خلال دراستنا إيجاد نقاط الالتقاء بين هذه الفئات التي حاولت خلق مظهر من مظاهر الوحدة، سواء مع بعضها البعض، أو مع بقية الطبقات، والتي تنقسم -كما سبق وذكرنا- إلى:

أ- الطبقة الحاكمة:

نشأت هذه الطبقة ضمن ظروف معينة، حيث ساهمت خلال مراحلها الأولى في ظهور عنصر الهيمنة الذي جسّد شخصية الكاهن في المجتمعات الأولى المستقرة في بلاد الرافدين، على أنه

(1) - سعيد إسماعيل علي، المرجع السابق، ص 59؛ إبراهيم رزقانة وآخرون، المرجع السابق، ص 341-342.

(2) - عمر صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 138.

(3) - عامر سليمان، (جوانب من حضارة العراق...)، المرجع السابق، ص 186-187.

صاحب السلطة السياسية أحياناً والمعبر عن مصلحة السلطة السياسية أحياناً أخرى⁽¹⁾، إذ كانوا - الكهنة - في البداية شيوخ المشتركات القروية الذين يمثلون جماعاتهم في المعبد، وتطورت أوضاعهم مع تطور مجمل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والدينية، وغمر القرى الزراعية ثم المدن، ليصبحوا في الحقيقة فئة اجتماعية متميزة، ليس فقط لأنها المسؤولة عن الطقوس الدينية والتقرب من الآلهة فقط، بل أيضاً لأنها تتولى المسؤوليات الجديدة الاقتصادية والاجتماعية في توجيه أمور المدينة، بل وأكثر من ذلك، ليصبح كبير شيوخها وهو في الوقت نفسه كبير كهنتها صاحب السلطة السياسية العليا في كثير من الأحيان، وحتى في المراحل التي لم يكن فيها الكاهن هو نفسه الملك، فإن هذه الفئة كانت هي المسؤولة عن توجيه شؤون المشتركات المدنية وكانت دوماً تمثل الحلقة الوسيطة بين السلطة والأفراد⁽²⁾.

ويقدر ما كانت الفئة الدينية تمثل قوة اقتصادية بسبب أن القسم الغالب من الأرض كان مُلكاً للمعبد الذي تهيمن عليه وتستفيد من موارده، فإن الصراع ما بين الكهنة والملك، كان يجبر هذا الأخير إلى العمل على تجريد الفئة الدينية من كل عناصر قوتها، بما فيها القوة الاقتصادية⁽³⁾. وهناك من يعزوا تعدد الآلهة سبباً في ظهور المجتمع الطبقي والحياة السياسية بالجنوب العراقي، إذ انعكست تلك التنظيمات الاجتماعية على مجمع الآلهة من ناحية الاختصاصات والوظائف⁽⁴⁾، لتكون طبقة الإقطاع الديني المتفوق على مصالح الأنانية الضيقة في نظام الدولة المدينة أثرها، حيث قامت بترتيب أمور عقائدية كهنوتية غطت بها عمليات استغلالها للأرزاق المواطنين وجهودهم، كما أضفت على ذلك مساحة من مشيئة الآلهة، بل تمكنت خلال الفترة السابقة لسرجون من أن تكون نوعاً من القوات المرتزقة تستخدمها حين اللزوم في تصفية مناوريتها، دون أن تأخذ في اعتبارها خطورة مثل هذه الأعمال عليها وعلى نفسها وعلى مستقبل المنطقة ووحدها ككل⁽⁵⁾.

(1) - عمر محمد صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص 76.

(2) - نفسه، ص 128.

(3) - عبد الرضا الطعان، المرجع السابق، ص 421.

(4) - خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1997، ص 166.

(5) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 334.

فقد ورد من عصر أورو-اينمكي (2365-2357 ق.م) بأن الأغنياء والرجال من الكبار التافذين و الثُّنَّار يزدادون ثراءً على حساب المواطنين الفقراء⁽¹⁾، إذ كانت "بيوت الإنسي، وحقول الإنسي، وبيوت حرم القصر، وحقول حرم القصر، وبيوت أطفال القصر، وحقول أطفال القصر تزاحم بعضها البعض..."⁽²⁾، دون أن تُشكل بذلك وحدة ومساواة بين فئات المجتمع في تلك المرحلة.

كما تعرضت الفئة الدينية إلى التدنيس والاعتداء في بعض مراحل تاريخ العراق القديم بُغية تحقيق مبدأ التوسع والوحدة، وهو ما نجده في الصراع الذي استمر لمدة طويلة بين مدينتي الوركاء و لجش، وانتهى بقيام حاكم "أوما" لوكال زاكيزي بالاستيلاء على مدينة لجش والاعتداء على مؤسساتها الدينية وإخضاعها لسلطته، حيث: "أحرق رجال أوما معبد انتاسورا، معبد الإله ننجرسو في لجش، وأخذوا معهم الفضة والأحجار الكريمة... وأهرقوا الدماء في معبد "ايانكور" العائد إلى الآلهة "نانشة"،*، وحملوا معهم الفضة والأحجار الكريمة أيضاً، اقترب رجال أوما الإثم...، أما بالنسبة إلى لوكال زاكيزي أمير أوما...، فلتجعله الآلهة يحمل إثمه الكبير على جبهته"⁽³⁾. بعد أن تحقق مشروع الوحدة في عصر "لوكال زاكيزي"، حاولت الطبقة الحاكمة أن تحافظ بكل امتدادها ومؤسساتها على بقائها باستخدام سياسة التسلط وابتزاز الإتاوات والأرباح، فلم تكن هذه الفئة الدينية لتبخل عليهم مادياً، كما لم تبخل عليهم من أتباعها من المقاتلين المرتزقة سواء كانوا أبناء البلاد أو من أبناء القبائل الذين تسللوا إلى المنطقة سلماً، أو أولئك الذين بقوا فيها من أسرى الحروب⁽⁴⁾.

(1) - أحمد لفظة رهمة القصير، المرجع السابق، ص 251.

(2) - Samuel Noah Kramer, Op.Cit, p 318.

* آلهة سومرية محلية في مدينة لجش، وهي إبنه الإله إنكي و أخت (نينجرسو) و (نيسابا)؛ وكزوجة (أور شانبي)، كانت تقوم بطقوس رؤية الطالع وتفسير الأحلام، وتظهر في الأناشيد السومرية على أنها رُسُولة الإرادة الإلهية والنظام الأخلاقي، يُستعان بها مع بعض الآلهات الأخرى ضد العفاريت... الخ- للمزيد أنظر: د. اندارد وآخرون، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) وفي الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، تر: محمد وحيد خياطة، ج 2، دار الشرق العربي، بيروت، (د-ت)، ص 166.

(3) - نواله أحمد المتولي، المرجع السابق، ص 92.

(4) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 334-335.

لا شك أيضاً أنّ سرجون الأكادي وُلد في زمن احتدام الصراع السياسي والديني، وليس من شك أن الفئة الدينية التي سادت المعابد مثّلت مراكز تكثف الصراع، ففيه تناقش يومياً مختلف وجهات النظر لدى هذه الفئة لِمَا يجري على الساحة السياسية الداخلية والخارجية معاً، هذا الأمر حفّز سرجون للتعرف على رجال الدين، وعلى كل التناقضات، ونقاط القوة والضعف التي تكتنف مؤسسات المعابد، وهو ما أتاح له فرصة لا يمكن أن تُتاح لغيره في التعرف عن كثب بكل ما يحدث في البلاد من أحداث وعلى شتى الأصعدة، وحينما رُقّيَّ إلى وظيفة ساقٍ للملك كانت مناسبة أخرى جعلته يقبع في مركز الدّوامة السياسية، فيتعرف على واقع فئات الشعب من فلاحين ورعاة وصناع وبحارة وتجار الذين كانوا ضحية هذه الطبقة الحاكمة من الفئة الدينية، وعلى جميع الأساليب التي يُبتز فيها أفراد الشعب من قِبَل حكامهم والقائمين على أمورهم في المعابد، وفوق هذا وذاك ألهم الحماس الوحدوي ضد الأوضاع السائدة ومنها الشعور بالقلق والضيق من احتمال عجزهم عن الدفاع أمام أية تدخل خارجي⁽¹⁾، وقد لوحظ في سياسة الفكر الوحدوي لسرجون الأكادي على الصعيد الداخلي الجمع بين عنصرين كان كل منهما يُناقض الآخر:

أولاً: الدعوة إلى تحرير الفلاحين والحرفيين والفقراء من سطوة أصحاب السلطة المتحكمين بهم وبأرزاقهم.

ثانياً: ضرب الإطار السياسي، ألا وهو إطار نظام الدولة المدينة، والعمل على توحيد البلاد، ومن هنا نفهم أن الدولة المركزية الموحدة التي ارتبطت بأذهان الناس بعصر سلطة و"سطوة" لوكال زاكيري"، كان على سرجون الأكادي الاستفادة من تجربتها، وذلك بالتخلص من سطوة المتنفذين من خلال إقناع الفئات المظلومة، إلا أنه وجد صعوبة في ذلك، نظراً لعدم وجود واسطة للاتصال المباشر معها⁽²⁾.

إن الثغرة التي بقيت في مشروع توحيد الدولة الأكادية، إغفال حاكمها سرجون تصفية المؤسسات الاستغلالية، والذي من شأنه أن يُحقق رخاء وازدهار يعم أوسع الأوساط الشعبية انتشاراً، وهو ما يجعل المؤسسات الرجعية الضيقة تتخلى عن مشاريعها الاستغلالية، وتندمج ضمن عملية التغيير الوحدوي الكبرى، لكن الواقع أثبت عكس هذه التوقعات، فقد تبين أن

(1) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 324.

(2) - نفسه، ص 328.

تلك الدوائر الرجعية الضيقة لم تمتنع عن الاندماج في دورة الحياة السياسية الجديدة، وإنما باتت تُعد في الخفاء كامل العدة للانقضاض على مؤسسة الدولة الموحدة والجديدة في اللحظة المناسبة، كما أن بعضها لم يتورع في التعامل مع القبائل الهمجية، الأشد وحشية وعداء، من أجل تدمير المشروع الجديد للدولة السرجونية وكل مؤسساتها، وإرجاع حركة التاريخ إلى الوراء من جديد⁽¹⁾، علاوة على احترام سرجون للمؤسسات الدينية السومرية، إذ في الوقت نفسه نجده يلقب نفسه "كاهن أنو" * و"إنسي إنليل العظيم"⁽²⁾.

ونجد أيضا في عصور مختلفة، استطاعت زوجات الملوك إدارة الأموال والأموال الضخمة ولعل أهمها تقلد بناتهم من الكهانة محولين ترسيخ السيطرة العامة على المدن⁽³⁾، ففي العصر الأكادي، كانت هناك أهمية خاصة لبعض التعيينات في منصب الكاهن الأعلى، فحين عيّن الملك سرجون الأكادي ابنته "انخيدوانا" في هذا المنصب، كان هدفه الاستفادة من هذا المنصب الديني لتحقيق هدف سياسي، وهو تعزيز لوحدة البلاد سياسيا ودينيا بين الأجناس المختلفة، وتتجلى نواياه الدينية في إقامة وحدة في الطقوس والشعائر الدينية بين المراكز الدينية في المدن السومرية⁽⁴⁾.

وقد كان من نتائج الوحدة تهديدها لامتيازات الطبقة الدينية، فصار نظامهم مهدد بالزوال، كما لم يتمكنوا من القيام بأي عمل كبير يحول دون ذلك مباشرة، فلجأوا إلى إحناء الرأس في وجه العاصفة الوحدوية، وتركوا موجة هذا الفكر تمر طريقها لتكتسح جهات أخرى وملوكا آخرين، لكنهم أبقوا على مؤسساتهم الدينية والعسكرية كما هي، وركنوا إلى الانتظار يتحينون فرصة غياب سرجون عن الساحة أو موته لبدء التحرك، إذ أن الفراغ الذي تتركه سياسته الوحدوية يجعل

(1) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 335.

* نفسه الإله "أن" في اللغة السومرية، بينما في اللغة الأكادية "أنو"، وهو الإله الرئيس في مجمع الآلهة السومري: للمزيد أنظر: د. ادوارد وآخرون، المرجع السابق، ص 86.

(2) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 331.

(3) - Bruce G. Trigger, **Early Civilizations: Ancient Egypt in Context**, The American University in Cairo Press, Egypt, 1993, p37.

(4) - فوزي رشيد، (سرجون الأكادي....)، المرجع السابق، ص ص 87-89.

كل الكيانات الهزيلة تتحرك، لئلا ذلك الفراغ إن لم يقضى عليها من قبل، ويُستعاض عنها بكيان منظم وموحد يرتكز على قاعدة شعبية واسعة من لهم مصلحة في التغيير⁽¹⁾.

يكفي الاستدلال هنا بالطبقة السومرية الحاكمة في عصرها الثاني بالاستناد على الحفريات التي اكتشفت بمدينة الأموات الملكية في أور، إذ كانت مبنية بالأجر، ومؤلفة من عدة غرف، فليت المزدان بالحلي كان مدفوناً مع عربات مقرونة إلى ثيران، ومحاربين مسلحين، وفصيل من العبيد من الجنسين، ومنها قبور الملوك في أور بالإضافة إلى مراكز أخرى مثل كيش وماري⁽²⁾، فهذه الآثار قد تعكس الواقع الطبقي قبل وبعد الموت لدى الطبقة الحاكمة.

وفي شأن بعض الفئات الحاكمة خلال العصر البابلي القديم، يذكر "عبد السّاتر لبيب" أن ثمة طبقة من النبلاء، هي طبقة النبلاء بالوراثة، يحتفظ أفرادها بشعر طويل، يتدلى فوق الكتفين، رسائلهم معنونة بلقب "أميلو" أي النبيل، من بينهم يُنتقي أعضاء مجلس الشيوخ في المدينة، لهم الصدارة في القضاء ولا مردّ لإحكامهم، مقربون من الملك كأعضاء الحاشية، شديدة التأثير على الحكم، سواء كانوا من أصحاب المناصب أم لا، يستأثرون بأعلى مراتب القيادة العسكرية في الجيش البابلي⁽³⁾.

كما كانت إقامة البابليين لدولة شاسعة ذات حكم فردي خلال عصر حمورابي بمثابة إحياء لنظام الحكم القديم (حكم سرجون الأكادي) وتوسيعه، بإزالة مظاهر الحكم الذاتي في دول المدن وتعزيز سلطة الحكومة المركزية، إلا أن السند الرئيسي كما يراه بعض المؤرخين للسلطة السياسية البابلية المتمثلة في الدين أكثر منه في شريعة حمورابي الشهيرة، فقد كان يُعزى للملك في الأوساط الشعبية سلطة إلهية وإن لم يكن إلهاً، فكانت آلهة المدن العديدة التي تضمها الإمبراطورية تُباركه وتدعم حكمه، بالاستناد إلى طبقة واسعة من الموظفين والكهنة التي سعت إلى تثبيت فكرة الاختيار الإلهي للملك في أذهان الناس، وبالتالي استمرار النظام الاجتماعي الذي يضمن لهذه الطبقة النافذة امتيازات واسعة على حساب الجماهير الكادحة⁽⁴⁾.

(1) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 335.

(2) - ف. دياكوف / س. كوفاليف، المرجع السابق، ص 83-84.

(3) - لبيب عبد السّاتر، الحضارات، ط 17، دار المشرق، بيروت، 2008، ص 61.

(4) - ملكة أبيض، المرجع السابق، ص 22.

ويبدو أنَّ النقوش الملكية الآشورية مليئة بمثل هذه الدعوات التي تلتبس من الآلهة تقبل مطالبهم، والتي من شأنها أن تحقق مشاريع الآشوريين الوحدوية كالتماس "تجلات فاللاسر" من المعبودين "أنو" و"أداد" * بالالتفات إلى طلبه بقوله: "ألا فليرضيا عني عندما أرفع يديا ويسمعا دعواتي، ألا فليمنحا حكمي أمطاراً غزيرة وأعواماً من الثروة والرخاء، ألا فليعاوناني على الخروج من الحروب وطينين المعارك سالماً أمناً، ألا فليخضعوا تحت قدامي كل الأقاليم المعادية لي وكل الأقاليم والأمراء والملوك الذين يخاصمونني، ألا فليُسبغا بركاتهما عَلَيَّ وَ عَلَيَّ نسلي الكهنوتي، ألا فليُثبتا كالجبال إلى الأبد كهنوتي أمام آشور وأهتها"⁽¹⁾، وبذلك كانت استشارة ملوك آشور للآلهة في الأمور الهامة، والاستسلام لِرغباتها من خلال الطبقة النافذة في المجتمع من الكهان والعرفان، أو من خلال الأحلام كغاية تُرجى، ومنها أن تُستشار في القيام بعمليات عسكرية، أو تعيين كبار موظفي الدولة، وفي المقابل يقدم هؤلاء الملوك التقارير التفصيلية إلى الآلهة ومنجزاتهم العسكرية والعمرانية⁽²⁾.

نجد أيضاً في نصوص "آشور بانبيال" ملامح الوحدة التي عكست نفس الموقف لأفراد شعبه -مهما كانت طبقاتهم- التي هُلَّت بمنجزاته في قوله: "لقد نظرت الآلهة الكبرى بابتهاج وسرور إلى منجزاتي الخيرة، وجلست حسب مشيئتها العظيمة، مصحوباً بالخط السعيد...ووسع الكبار، أي القادة، سلطتي وأسَرَّهم حملي لمقالييد الحكم، لقد فرحت وهَلَّت جهات العالم الأربع عند تسميتي باسمي العظيم...وبعثوا إلي رُسل التهاني والأفراح بمناسبة استلامي مقالييد الحكم"⁽³⁾.

وفي العصر البابلي الحديث نلمس تراجع للوحدة في قالبها السياسي والعسكري الذي انعكس على تماسك ووحدة المجتمع، خاصة إثر وفاة "نبوخذنصر"، إذ خلفه في الحكم ملوك ضعفاء تخلَّلت فترات حكمهم الاضطرابات الداخلية نتيجة سيطرة طبقة رجال الدين (سلطة الكهنوت)

* اسم سامي (أكادي)، من مهامه الإشراف على المطر والعواصف والزَّوابع، يتخذ الصفة والشخصية المعروفة لدى السومريين باسم الإله ((إيشكور))، وهو ابن إله السماء "أنو"، ومن مهامه إنتاج النبات لرعي الحيوانات - للمزيد أنظر : Jean Bottéro, Op.Cit, p287 ؛ Jane R.Mcintosh, Op.Cit, p 319 .

(1) - ل. ديلاپورت، المرجع السابق، ص.319.

(2) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ص126.

(3) - محمود أمهر، المرجع السابق، ص285.



الصورة رقم 23: تمثل ركوع ياهو Jehu حاكم مملكة إسرائيل ، أمام شلمنصر

الثالث

Don Nardo, Op-Cit, p257.

وتدخلهم في شؤون الحكم، علاوة على التيارات الدينية الجديدة التي تعرضت لها المعتقدات الدينية في البلاد من جراء تلك الاتصالات والتأثيرات الخارجية خاصة العلاقة مع اليهود (أنظر الصورة رقم 23) الأسرى في بابل ونشرهم لدينهم و مزاحمتهم لمعتقدات الشرك⁽¹⁾، ليكون الصراع الذي نشب بين الملك والكهنة وبالأعلى وحدة الدولة⁽²⁾.

يبدو أنّ الطموحات الوحدوية

قد ولدت أيضاً من رحم الدين وبتأثير من الفئة الدينية، واستمر مرتبطاً بها طوال مراحلها التاريخية، ولذلك لم يرقى ذلك الفكر إلى مستوى النظرية السياسية، إذ بقيت اليد الطويلة للدين توجهه نحو المسار الذي ترغب فيه، ومثلما كانت السياسة خاضعة للدين، كان الأخير خاضعاً للتأثيرات السياسية بالدرجة الأولى، وهذا يعني أن الطبقة السياسية قد قبلت الدين بما يتلاءم ومصالحها في إدارة شؤون الدولة.

ب- الطبقة المحكومة:

عبّرت العديد من النصوص القديمة عن الأحوال المتردية للطبقة السومرية المحكومة بأنه: "إذا امتلك الخبز عديم الملح، وإذا امتلك الملح عديم الخبز، فإذا كان لديه اللحم لم يكن لديه البهار، وإذا كان لديه البهار لم يكن لديه اللحم، الشراء صعب المنال، ولكن الفقر معانا على الدوام"، وفي شأن وضعه وصلته بالسلطة الحاكمة نجد الأمثال السومرية تروي بأنه: "ليس للفقير سلطة، ما أحطّ

(1) - نخبة من أساتذة التاريخ، المرجع السابق، ص 234.

(2) - محمد بيومي مهران، (الحياة السياسية والاقتصادية...)، المرجع السابق، ص 72.

الرجل الفقير... رداؤه المُمزق يبقى يلا رتق، وما يفقده لا يفتش عنه أحد"⁽¹⁾، وأنّ: "الفقراء هم الصامتون وحدهم في بلاد سومر"⁽²⁾.

ويلاحظ من طموحات سرجون الوحدوية، إلغاءه سياسة الوكلاء الإقطاعيين الذين كانوا يُنشئون الجيوش في المدن ويقدمونها للملك حسب أهوائهم، إذ ارتكز في تنظيم جيشه على الأوساط الشعبية مباشرة، ولأول مرة في التاريخ، وبذلك شلّ أيدي الأمراء الإقطاعيين العسكريين، الذين كانوا كثيراً ما يستبدون ويرتشون ويُنظمون لأنفسهم العصابات المقاتلة إلى جانب ما يجمعون من المقاتلين لتعزيز جيش الملك، فقطع بذلك نفوذهم في المدن، وأخذ يبعث المفوضين من قبّله للتعامل مع أوساط الشعب مباشرة من أجل تنظيم وتعبئة المقاتلين في جيش الملك دونما واسطة من أحد، وكان لهذا الفكر السرجوني الهادف إلى تجميع وتوحيد هذه الفئة، أثره الكبير في تخلي الكثير من الجهات عن سادتها السابقين، فضلاً عن إلقاء أفراد الشعب الخوف والرعب في نفوس الأمراء المستبدين والمستغلين لتلك الفئة العسكرية⁽³⁾.

عاش السكان السومريون في عصر وحدتهم الحديثة انبعاثاً جديداً غرس في نفوسهم الاعتزاز بحضاراتهم وتراثهم، على حساب المجتمع الأكادي الذي امتزج به، وفي الوقت نفسه شهد نوع من التمردات الشعبية ضد السلطة خاصة عقب وفاة الملك "أورنامو"، لكنه ولد في الوقت نفسه صراع قومي بالمعنى الحديث، جعلت الطبقة السومرية الحكومة تعيش نوع من المضايقة من طرف حكام أور نتيجة التمييز بينهما وتأليههم أنفسهم، إذ أحدث تأثير القداسة الإلهية لدى بعض الملوك في نفوس الشعب السومري نوع من التذمّر اتجاههم، بل تعدّاه أكثر ليحمل ملوكها أسماء أكادية، وقد أثبتت هذه الألقاب الملكية والنشاطات العمرانية التي شملت جميع الفئات الحكومة من المدن السومرية والأكادية، بأنه لم يكن هناك شعور لدى الحكام بوجود فرق بين هذين العنصرين، بل شهدت هذه الحقبة تدفق الأقوام الأمورية على المنطقة وهو ما يصعب علينا تشخيص وضع الطبقة السومرية الحكومة⁽⁴⁾.

(1) Samuel Noah Kramer , Op.Cit, p 263.

(2) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق...)، المرجع السابق، ص 157-158.

(3) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 344.

(4) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 66-71.

لكن نشير في شأن الطبقة الحكومة وبصفة عامة بأن اعتماد "أورنامو" وتعميمه لمبدأ الغرامة⁽¹⁾ في تشريعه المتعلق بالعقوبات الجزائية، إنما يؤكد على الحالة الاقتصادية الجيدة التي كان يتمتع بها سكان سلالة أور الثالثة زمن الملك المذكور، حيث لو كانت أوضاعهم المادية رديئة والناس فقراء لا يملكون شيئاً لَمَا وضع المشرع الغرامة المادية عقوبة، لكون هذه الأخيرة تكون قابلة للتنفيذ من جهة، ورأدة من الجهة الأخرى، ولأنها تهدد ممتلكات المذنبين حال تكرار الإساءة، فهي غير قابلة للتنفيذ عندما يكون الغالبية من المجتمع لا يملك ما هو فائض عن الحاجة⁽²⁾.

ويمكن الإشارة إلى الفئة المملوكة من أسرى (أنظر الصورة رقم 24) وعبيد، وبما أنها أدرجت ضمن الطبقة الحكومة في آخر السلم الاجتماعي، إلا أن القانون الرافدي منح لها العديد من الحقوق منها ما تعلق بمسألة تحرير العبد،



الصورة رقم 24: يظهر أسرى الحرب، بعد الاستيلاء على عيلام.

عن: Peter Chrisp, Atlas of ancient worlds, Ed :DK publishing, New york, 2009 ,P13.

إذ نجد في تعقيب ذكره الدكتور عبد العزيز صالح حول خطاب مقدمة شريعة لبيت عشتار الذي جاء في نصه: "إنه ابتغى أن يحرر أبناء مدن سومر وبناتها من الرق الذي فرض عليهم"، لكن ليس في تشريعه ما ينص على نوعية هذا التحرر إن كان تحريراً للرق المدينين، أم هو فتح لأبواب التحرر من الرق بوجه عام، أو هو تقليل من

واجبات الخدمة، ومع هذا فقد عالج بعض ما أهملته التشريعات السابقة للطبقة الحكومة⁽³⁾.

ينبغي أن نشير أيضاً إلى أن المجتمع الرافدي بصفة عامة، لم يعرف معنى التمايز العرقي والطبقي خلال الوحلة البابلية الأولى، إذ عمل حمورابي على فصل الدين عن السياسة، لتمكنه من توحيد البلاد، وبذلك يكون قد خلق لسلالته ظروفاً جديدة تتلخص في أنها قد ضمت تحت

(1) - هذا المبدأ "التعويض" نجده أيضاً في إصلاحات أوركاينا التي سبقته، لكن في قانون أورنامو كانت واضحة وعممت على الكثير من جوانب الحياة.

(2) - فوزي رشيد، (القوانين في العراق القديم...)، المرجع السابق، ص 47-48.

(3) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 682.



الصورة رقم 25: تظهر الحياة اليومية للعبيد في الفترة
الأشورية، وهم يعملون بالمحجر عن:
Don Nardo, Op-Cit, p 265.

لوائها قوميات ومعتقدات كثيرة، بحيث بلغ عدد الآلهة في زمانه ما يزيد على الألف إله، لذلك أصبح عليه من الصعب أن يحكم دولته الموحدة وفق مفهوم ديني واحد، لأن ذلك يُثير بلا أدنى شك الخلافات الدينية والطائفية، ولهذا توجب عليه أن يخلق لدولته نظام حكم واضح لا غموض فيه ولا تفرقة دينية كانت أو قومية، لِيَسَدَّ الطريق على الأعداء والخصوم الذين ينفذون عادة من خلال إثارة النعرات

الدينية والعرقية⁽¹⁾، بمعنى يمكننا التخمين وإسقاط ما حاول همورابي القيام به في تلك الحقبة الزمنية، التي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد من خلق فكر جديد نُعرِّفه اليوم بـ"العولمة"، التي تهدف إلى إسقاط كل الحدود الثقافية والدينية والعرقية من أجل خلق عالم واحد.

كما لم يكن النقاء العرقي للأشوريين ذا قيمة بالنسبة إليهم، فمنذ أقدم الأزمنة كان لديهم مجتمع تاريخه خليط من عدة عناصر، ومع أن أجدادهم لم يتأثروا بهذه الأمور منذ أواخر الألف الثاني والأول قبل الميلاد، إلا أن أنهم كانوا على تمام الوعي بأن شعوباً من خارج بلاد آشور كانوا يتوافدون ويضافون إلى الأعداد الأصلية من البلاد ويمتزجون بها، كما كانوا يمثلون طبقة محكومة ويعاملون كأهل البلاد الأصلية⁽²⁾.

في المقابل استغل هؤلاء الأشوريين العبيد لخدمتهم في الحاجر والأراضي وغيرها(أنظر الصورة رقم 25)، وعلى العكس من ذلك يلاحظ في وضع الطبقة المملوكة والمحكومة من عبيد العصر البابلي الحديث حصولهم على حقوق اقتصادية وقانونية، مثلت بدورها انحلال النظام العبودي في البلاد بشكل عام، فاشتراكهم في قطاعي الزراعة والصناعة مكنهم من الحصول على ثروات، ساعدتا على تطوير حركة الاقتصاد وارتفاع المستوى المعاشي للسكان⁽³⁾، إذ شهد وضعهم

(1) - فوزي رشيد، (القوانين في العراق القديم...)، المرجع السابق، ص 85.

(2) - هاري ساكز، (عظمة آشور...)، المرجع السابق، ص 173.

(3) - حياة إبراهيم محمد، المرجع السابق، ص 93.

القانوني تطوراً واضحاً، فأصبح للعبد حق الدخول في عقود ومعاملات تجارية مع عبيد آخرين أو مع مواطنين أحرار، كما كان يحق لهم امتلاك ختم خاص بهم⁽¹⁾.

وفي بلاد بابل ساد وضع لا يقل تعقيداً، إذ عمّ القلق البلاد، فحينما كان أعيان بابل و بورسيبا و سيبار وأور... الخ وغيرها من المدن يعيشون الرفاهية، كان هناك الشعب العامل تحت نير الفقر، فتركزت الارستقراطية على العقارات المترامية الأطراف وثروات المعابد، وصار الكثير منهم ملاك ضياع نشأت على حساب إفلاس الملاك الصغار والمتوسطين للأرض، بل أعفت الطبقة العليا نفسها من جميع الواجبات والفروض إزاء الدولة، فيما استأثرت لنفسها بحقوق وامتيازات المواطنة، فاستحوذهم على السيادة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المجتمع أفقر المواطنين البسطاء وأوصلتهم إلى حالة يرثى لها، وحطت من قدر الملوك لغاية ما جعلت دورهم أشبه بالدُمى الفاقدة للسلطة السياسية، بل استنزفت الارستقراطية في الوقت ذاته المملكة البابلية التي لم تعد لها وجود من الناحية الفعلية، وبذلك أضحت البلاد في تشرذم سياسي وفوضى، وتواصل احتدام الصراع في البلاد⁽²⁾، الأمر الذي أدى إلى سقوط الدولة البابلية الحديثة، وفقد مجتمعها تلك الروابط التوحيدية التي جمعتها عبر مراحل تاريخية طويلة سابقة.

بالاعتماد على سبق يمكننا أن نلخص تغيرات هذا المجتمع حسبما يراه المؤرخ عبد الرضا الطعان بأنّ النظام الطبقي الرافدي حمل بين طياته لواء الوحدة، وأنّ هذه الطبيعة التوفيقية ترجع إلى واقع البنية الاجتماعية للعراق القديم، التي تحكمها علاقة جدلية قائمة ما بين الدولة - المشترك - من جهة، والتباين الاجتماعي ما بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة من جهة أخرى، إذ من الملاحظ أن وحدة الدولة - المشترك - كانت قد جعلت من الإنسان العراقي القديم لا يجد هويته إلا عبر هذه الوحدة، ولكن بالمقابل فإنّ التباين الاجتماعي جعل الإنسان يستشعر وجوده الذاتي ومصالحه الخاصة في إطار التشكيلة الاجتماعية التي ينتمي إليها، كما فُتح أمامه إمكانية الثورة، فالإنسان العراقي القديم وجد نفسه أمام قطبي العلاقة الجدلية، محكوماً بأزمة لم يكن بالإمكان الخروج منها إلا باللجوء إلى التوفيق بينهما، فالثورة يقوم بها تعبيراً عن التباين الاجتماعي، لكن لا يمكن أن تقوده إلى تجاوز وحدة الدولة - المشترك التي ينتمي إليها، فليس أمامه إلا إخضاع الثورة

(1) - Isaac Mendelsohn, Op.Cit , p70-71.

(2) - ف.أ. بيلافسكي، المرجع السابق، ص 23.

لمتطلباته، وهذا بالضبط ما يُضفي على الثورة طابعاً توفيقياً⁽¹⁾، ومن جهة أخرى نلاحظ أنّ وحدة الدولة - المشترك - يقدر ما تحتضن الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة في نفس الوقت فإنها ستمثل وحدة أصداد، ولكن وحدة الأصداد لا يمكن أن تتحقق إلا عند نقطة ينعزل فيها كل ضد بنفسه، أو بالأحرى عند نقطة مُرضية للضدّين وهذا بالضبط التوفيقية في إطار الوحدة⁽²⁾.

هذا الإطار الذي ارتبطت بنيته الاجتماعية لبلاد الرافدين بحركة تدفق الشعوب وتمركزها وتنوّع نشاطاتها وعلاقتها بالخارج والحروب التي خاضتها، تضافرت عواملها لتكون بنية اجتماعية قامت على نظام طبقي وتكرّست فيها قوانين⁽³⁾.

II- الحريات الاجتماعية:

1- حرية إبداء الرأي:

كان لحرية إبداء الرأي ميزتها الخاصة في بعض النصوص السومرية والأكادية، خاصة بين الموظفين والحكام أو بين الحكام أنفسهم من خلال كتاباتهم، وذلك من خلال العبارات النصّية التي تدلّ على أنّ هناك بعض الموظفين أو الحكام التابعين لملوكهم قد نصّحوا الملوك من خلال إبداء آرائهم بدافع الحرص على مصلحة الدولة ووحدتها، وهؤلاء الملوك كانوا يتقبلون هذه الآراء كونها تستهدف خدمة الملك⁽⁴⁾، ولعلّ هذا يعني أن سياسة الملوك الوحدوية لم تكن حكراً سلطوياً، بل تفسح المجال للتعبير بما يتلاءم وطبيعة الوضع الاجتماعي السائد.

ظهرت حرية إبداء الرأي في بلاد الرافدين منذ عصر فجر السلالات السومرية، واستناداً إلى رأي الباحثين كانت السلطة العليا في أقدم مجتمع سومري بيد مجلس عام يضم جميع المواطنين (الرجال والنساء)، إذ يجتمع ليقرر ما يجب عمله في الحالات الطارئة والتي تنذر بالخطر مثل حالة الحرب أو الفيضان المفاجئ أو تفشي الوباء، وكان لكل مواطن حرية إبداء الرأي، غير أنّ

(1) - عبد الرضا الطعان، المرجع السابق، ص 604-605.

(2) - نفسه، ص 605.

(3) - عكاشة محمد عبد العال وطارق المجذوب، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2004، ص 96.

(4) - ياسر هاشم حسين علي، جوانب من الحرية في بلاد الرافدين، ع 114، مجلة الآداب، بغداد، 2015، ص 627.

إبداء رأي بعضهم لاسيما الرجال المُسنين كان أكثر وزناً من رأي الآخرين، وكان النقاش يستمر حتى يتم الوصول إلى قرار نهائي وبالإجماع⁽¹⁾.

وتشير قصة "جلجامش" حاكم مدينة الوركاء⁽²⁾، و"أجا" حاكم مدينة كيش في أواخر عصر فجر السلالات الثاني، وفي حدود 2500 ق.م إلى أن جلجامش عندما أراد أن يخوض الحرب ضد الملك "أجا"، بدأ يأخذ رأي المُسنين أول الأمر وعندما عارضه هؤلاء، لم يقيم جلجامش بتنفيذ الخطوات المرسومة إلا بعد أن طلب عقد مجلس عام ضمّ الذكور من المواطنين ليتم التشاور وإبداء الرأي لاتخاذ القرار المناسب، وقد جاء تأكيد ذلك في إحدى النصوص التي تقول: "إن رُسُل-أجا- ابن-اينمباراجيس*-، شرعوا بالسفر من كيش إلى جلجامش ملك الوركاء، فوضع السيد جلجامش أمام شيوخ مدينته الأمر طالباً لِكَلِمَتِهِمْ...الخ"⁽³⁾، وفي نص يليه: "...لم يقتنع جلجامش،...بكلمات شيوخ مدينته قناعة قلبية،...مرة أخرى عرض جلجامش الأمر على رجال وشباب مدينته وطلب كلمتهم...الخ"⁽⁴⁾، إذ كان ممثلو الشعوب خلال تلك المراحل يرون في إعلان الحرب على الدول الأخرى وفي مسألة إبرام معاهدات السلام أمراً يخص مصير الشعب، ولذلك كانت تُقرّ بتمثيلهم الديمقراطي، فلم يشأ جلجامش إعلان الحرب على كيش إلا بعد أن طرح الأمر على المجلسين (الشيوخ ونواب الشعب) اللذين مثلاً شعب دويلة المعبد للاقتراح عليه، وهذا برهان ينقض ما يراه كثير من المستشرقين من أن جميع ملكيات الشرق القديم كانت تتصف بالاستبداد المطلق⁽⁵⁾.

استناداً لما ورد في ملحمة جلجامش السّالفة الذكر، نجد أنه اجتمع بالمجلسين، مجلس الشيوخ الذي معظم أعضائه مُسنين ومن الطبقة العليا، ومجلس العامة المتكون من المواطنين، جلّهم من

(1) - كريم صمويل نوح، المرجع السابق، ص ص 81-88.

(2) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 716.

*حسب النص الوارد وما تذكره قطعة المرمز بشأن "اينمباراجيس-En-mebaragesi" والمحافظة حالياً في المتحف العراقي ببغداد فهو والد الملك "أجا"، وأنه الملك 22 من أسرة كيش التي حاربت ضد جلجامش - للمزيد أنظر: محمد بيومي مهران، (مصر والشرق الأدنى..)، المرجع السابق، ص 69؛ صمويل كريم، المرجع السابق، ص 86.

(3) - Samuel Noah Kramer, Op.Cit, p187.

(4) - Ibid, p188-189.

(5) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص ص 10-11.

الشباب المحاربين، وَهَدَفَ من هذا الاجتماع الاستماع لمختلف الآراء، وهذا دليل لتبنيه سياسة حرية التعبير، إلى جانب ذلك نجد أن الأخذ برأي الأكبر سنًا (مجلس الشيوخ) ليس بالضرورة دائماً، فعلى الحاكم الأخذ بسديد الرأي الذي يُفضي إلى المصلحة العامة للبلاد، وبالتالي نجد أن مجلس المسنين لم يكن دائماً صاحب القرار الأخير الذي يتوجب على الحاكم أو الملك الالتزام والأخذ به في المجالس السومرية الأولى.

كما لم تلغي هيمنة القصر في عهد الحكومة الأكادية على السلطتين السياسية والعسكرية وجود المجالس الاستشارية والهيئات الاجتماعية والإدارية التي كان لها إسهامها الاستشاري في صنع القرار، فمن خلال كتابات "مانشتوسو" (2306-2292 ق.م) ثالث ملوك السلالة الأكادية على مسلته، وقصة حرب "نرام سين" (2291-2255 ق.م) مع حاكم كيش، يتضح وجود لِكِلا المجلسين، ومن النصوص العائدة لعهدهم والتي يمكن الاستدلال بها على وجود مجالس المدن "كبير مجلس الشورى، بوزور بيت قُرني الأعمى..."⁽¹⁾.

ومن عصر سلالة أور الثالثة⁽²⁾، نقرأ في إحدى الرسائل الموجهة من قبل حاكم مدينة إيسن "إشبي إيرا" إلى الملك "إبي سين"، عن قيام الملك أبي سين بإصدار أمر إلى "إشبي إيرا"، لشراء كميات من الشعير من مدينة إيسن، وذكر "إشبي إيرا" في الرسالة معلومات مهمة وخطيرة عن الوضع الاقتصادي في المدن السومرية الخاضعة لسيطرة "إبي سين"، ونلاحظ في هذه الرسالة أن "إشبي إيرا" يُبدي رأيه للملك "إبي سين" وبكل صراحة وبدون خوف من أن لا يتجه الملك "إبي سين" في طلب مساعدة اقتصادية أو عسكرية من العيلاميين أو عقد تحالف معهم، وهذا يؤكد أن حرية إبداء الرأي والمشورة من قبل الحكام إلى ملوكهم كانت موجودة في عصر الإحياء السومري بحسب ما تقتضيه الظروف سواء أكانت اقتصادية أم سياسية، ويوضح مفهوم الرسالة على مدى حرص الملك "إبي سين" على توفير مادة الشعير بوصفه غذاءً رئيسياً في مدينة أور والمدن السومرية الأخرى التابعة لحكمه، وفيما يلي مقتطفات مما جاء في هذه الرسالة: "إلى إبي سين ملكي، قل، هكذا يقول إشبي إيرا خادمتك: لقد وكّيتني مسؤولية حملة على إيسن و كزالو

(1) - عامر ناجي حسين، مجالس المدن في العراق القديم (3000-1000 ق.م)، ع14، مجلة كلية التربية "واسط"، بغداد، 2013، ص141.

(2) - Albert Champdor, **Babylon**, Copyright © Elek Books Limited, U.S.A. 1958, p 44.

لشراء الشعير، لقد وصل الشعير...، وإذا احتجت إلى الشعير فإنني سأجلب الشعير لك...، إنَّ العيلاميين قد ضعفوا في المعركة، ...لا تضعف ولا توافق على أن تكون عبداً لهم ولا تمشي وراءهم..."⁽¹⁾.

ويأتي العصر البابلي القديم (2004-1595 ق م)⁽²⁾، والذي يلاحظ فيه طول الفترة الزمنية التي شغلتها هذه الحقبة التاريخية في الصراع الوحدوي، إذ شهدت اختلاف الأوضاع السياسية العامة، ومن خلال قراءة معظم نصوص هذه الفترة تظهر لدينا تعابير عامة يفهم منها عبارات نُصح وإبداء رأي، إما بين عامة الناس أو بين الحكام أو بين الموظفين المُعيَّنين من قبل الملوك، فمثلاً نقرأ في إحدى رسائل الملك "إشمي دجان" (1781-1742 ق.م) إلى أخيه "يسمح أدد" وهو يؤنبه لسوء تصرفه وعدم استشارته لآراء الآخرين عند اتخاذ القرارات في قضايا عامة تخص مجتمع بلاد ماري، وفيما يلي بعض مما جاء في الرسالة: "بخصوص ثبات - تعيين -" أياش تولا" على مدينة قطانم، تلوم نفسك وملامتك تعود إلى الملك...، لماذا أطيل عليك و لأكتب لك...، في ذلك لم ينصحوك - يشاوروك"⁽³⁾.

نجد هذه النوع من الحرية في تولّى الحكام الآشوريين لعرش الحكم، بالإضافة إلى موافقة الآلهة، إذ كان أي حاكم يجد نفسه ملزماً على أن يجمع الجمهور، بالإضافة إلى مجلس الشيوخ بقصد الموافقة على توليه العرش⁽⁴⁾، لتصبح القواعد الدينية والعرفية والقانونية كلها مشكّلة قيوداً على سلطة الحاكم، وهناك نص من العصر الآشوري الحديث جاء فيه: "أن الملك إذا لم ينشر العدالة... وإذا لم يستمع إلى نُصح مستشاريه، فإنَّ حياته ستكون قصيرة، وإنَّ رعيته ستثور عليه وأنَّ مملكة ستهاوى"⁽⁵⁾، بل "إذا أطياع الملك الأشرار فستبدل مصائر بلاده"⁽⁶⁾، ومن هذا النص يتضح جلياً المشاركة الفعالة للفاعلين في الحكم لإنارة رأي الحكام الآشوريين في أعمالهم وقراراتهم خاصة تلك

(1) - ياسر هاشم حسين علي، (جوانب من الحرية...)، المرجع السابق، ص 633.

(2) - wolfgang Heimpel, *Lettres to the King of Mari*, Eisenbrauns Winona lake, U.S.A, 2003, p 38.

(3) - ياسر هاشم حسين علي، (جوانب من الحرية...)، المرجع السابق، ص 633.

(4) - عبد الرضا الطعان، المرجع السابق، ص 680.

(5) - ياسين محمد حسين، *حقوق المرأة في حضارة وادي الرافدين*، ع2، مجلة التراث العلمي العربي، بغداد، 2015، ص 196-197.

(6) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق...)، المرجع السابق، ص 161.

المتعلقة بالوحدة السياسية، إذ أن انفراد الحاكم برأيه وقراراته قد يُسبب الفوضى الاجتماعية لما لهذه الأخيرة من أثر على وحدة الدولة.

نلمس أيضاً روح التشاور في بابل الحديثة ما بين الملك والسلطة الدينية-المعبد- و المواطنين في النص المسماري: "الملك، وفلان شتام معبد الإيساكيل، ومستوطني مدينة بابل مع أعضاء مجلس معبد الإيساكيل، كلهم تداولوا الأمر فيما بينهم.... الخ"⁽¹⁾، فهذا النص يشير إلى الحرية العامة وسعة التشاور بين أطراف الحضور.

2- حرية المعتقد الديني:

قد تدين الجماعات بمعتقدات مختلفة بدلاً من ديانة واحدة، وقد تُعبر عن رأيها السياسي، أو تحافظ على لغتها الخاصة، ومن هنا كانت الضرورة في مراعاة الحريات المختلفة كالتعارض بين لغة الدولة وحرية المعتقد وإبداء الرأي، فحاولت النظم المختلفة بصفة عامة إعطاء نوع من المراعاة لهذه الجوانب دوغما المساس أو الصدام معها، لذا احتلت الحرية الدينية حيزاً مهماً في مجتمع بلاد الرافدين، إذ كانت ممارسة العبادة وتأدية الطقوس من الأمور التي أولى لها الناس أهمية بالغة، فاختيار العراقيين القدماء لمعتقدهم الديني كان نابعاً من إرادتهم الحرة دون أي إجبار أو إكراه، والدليل على ذلك تعدد الآلهة لديهم⁽²⁾.

لو أخذنا عينة حول المدن السومرية في أوج عطاؤها من الشمال إلى الجنوب لوجدنا أن لكل دولة إلهها الخاص بها، فمثلاً نجد: ((سيبار وإلهها "أوتو"، كيش وألهتها "ننماخ"*)، نيبور وإلهها "إنليل"، أدب وألهتها "ننماخ" أيضاً، أوما وإلهها "شارا"، لجش وإلهها "نينجرسو"، بادتيير وإلهها "إنانا"**)، أور وإلهها "نانا"، إيردو وإلهها "إنكي"⁽³⁾.

(1) - ميثم مرتضى مصطفى و زين العابدين موسى جعفر، المرجع السابق، ص 72.

(2) - ياسر هاشم حسين علي، المرجع السابق، ص 627.

*تعني التسمية (السيدة العظيمة)، وهو الاسم القديم للآلهة (نينهورساج) السومرية- للمزيد انظر هنري س. عبودي، المرجع السابق، ص 873.

** تعني إنانا لدى السومريين سيدة السماء، أما "عشتار" فهو اسمها السامي الذي استخدمه الأكاديون، وتعني لديهم الحروب والخلاف على العكس من السومريين إذ مهتمها إرساء الحب، كان أحد مراكز عبادتها في مدينة الوركاء، ومع أنها لم تحظى بإكرام المجتمع إلا أن لها معابد في كل مكان تقريباً، وكانت أهميتها عظيمة بحيث طغت على معظم الآلهات

الأخرى- للمزيد أنظر: Jean Bottéro, Op.Cit, p 29

(3) - وديع بشور، المرجع السابق، ص 38.



الصورة رقم 26 : آلهة بلاد الرافدين عن:
<https://i.pinimg.com.jpg>

يتبين لنا في العهد السومري بأن لكل دولة مدينة إلهها الخاص بها، أو دعنا نقول أنه كان لكل إله مزرعة كانت تتخذ شكل دولة-مدينة أو قسماً من دولة مدينة، ولم يكن هؤلاء الآلهة (أنظر الصورة رقم 26) المحليون ذوي مكانة في مجمع الآلهة، كما لم يستطيعوا الوصول إلى أي مركز هام في مجمعها⁽¹⁾،

لكن يبدو من هذا التعدد في الآلهة أنّ مرحلة الانقسام السومري تطلبت الاستقلالية في اختيار المعتقد الديني، وقد يكون أحد عوامل إعاقة مسألة الطموحات الوحدوية، فالدفاع عن المدينة وحدودها قد يقابله الدفاع عن حرية المعتقد بالدرجة الأولى ثم المجال أو الحيز الجغرافي و السياسي لدولة المدينة.

ويبدو من واجبات كل دولة مدينة فرض نفسها سياسياً، مادامت قد وقفت ضد تيار الوحدة، بدعوى الحرية السياسية في الاعتماد على نفسها، لكن قد يكون حرية المعتقد السائد لدى كل دولة مثلاً من جهة مظهر من مظاهر الوحدة التي لا تشترط التقيد بدين معين للعيش في مجتمع آخر، ومن جهة أخرى اعتبر عائق حال دون تحقق اندماج داخل الوحدات السومرية، الذي قد يُقضي من شأنه العديد من الآلهة، وبالتالي فقد تكون الحريات الدينية المشكل الأساسي الذي صعب التعامل معه لتحقيق نوع من الاندماج السياسي، حتى لو كان هناك مظهر آخر من مظاهر الوحدة الدينية في جميع المراحل التاريخية، تتمثل في وجود الإله الأكبر رئيس مجمع الآلهة، وكذا تصوراتهم عن الخلق والعالم الآخر.

لذا أولى الحكام ومنهم سرجون الأكادي احترامه للمؤسسات الدينية من خلال تشييده للمعابد التي كانت بمثابة سياسة تقليدية تعارف عليها معظم الحكام، بل تعدّاه إلى حمل لقب (كاهن الإله) لكل من (أنو-انليل)، كما نصب ابنته الكبيرة لكاهنات آلهة القمر في أور⁽²⁾ دون أن

(1) - هاري ساكز، (عظمة بابل...)، المرجع السابق، ص 359.

(2) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص 75.

يفرضوا سلطانهم على سومر، أو يسعوا وراء ذلك من تحريم معبوداتها، واكتفوا بأن يمنحوا المعبود الاسم السامي الشائع في بلاد أكاد، فإنه الشمس "أنو" في "لارسا" يُماثله "شمش" إله الشمس السامي الذي ازدهرت عبادته في "سيبار"، وأما كوكب الزهرة التي عُدت تحت اسم "إينينا" في مدينة الوركاء السومرية كانت هي "عشتار" الأكادية⁽¹⁾.

وأبدى سرجون في مشروعه الوحدوي نوعاً من التراخي والتساهل مع مدن الجنوب السومري حيث قوة النفوذ الهيكلي الديني، فترك للمدن هناك بعض الاستقلال الداخلي، وبقيت كل مدينة تُدير شؤونها بنفسها تقريباً، كما كان عليه الحال من قبل، بل ساهم في إنشاء وتجديد وتوسيع العديد من المعابد، وكرّس بذلك نزعتها الانعزالية الاستقلالية عن جسم الدولة ككل، كما أمّن بذلك استمرار نفوذها على الأوساط التي كانت تهيمن عليها سابقاً، واكتفى بتعيين مراقبين يشرفون على سير الأمور فيها⁽²⁾، فكان هذا الإجراء في حد ذاته نوع من الحرية الدينية باحترام وتقدير مؤسسات - المعابد - لضمان استمرارية الوحدة بهذا القسم الجنوبي، لكن فرض رقابة على مدن الجنوب يعتبر نوع من الاحتياط السياسي للحركات الدينية التي تقف ضد الوحدة.

وظّف السومريون خلال عصر الانبعاث خبرتهم الدينية استكمالاً للمسيرة التاريخية في حرية المعتقد التي خطها السومريون الأوائل⁽³⁾، إذ يلاحظ في قيام "شولجي" خليفة "أورنامو" بتجريد سلطانه من كل سمة تسلطية محلية، بإعادته إلى جميع حواضر الآلهة التي انتزعت منها، وإدخاله إلى العاصمة أور عبادة الآلهة الغربية والمعبودة في الأجزاء المختلفة من دولته الموحدة⁽⁴⁾، إذ أنّ الظاهر في حالة سيطرة ملك على أراضٍ أجنبية، كان يذهب لتقديم تكريماته إلى الإله الأعلى للبلاد المحتلة، ويقدم الضحايا والقرايين، وذلك من أجل أن يستحصل عطفه وتأييده بقدر ما يمثل الملك الحقيقي للبلاد، فالإله عند ذاك يُضفي عليه من قوته وعزمه، وهكذا فإن المنتصر يُصبح الملك الشرعي للأرض، كما يصبح ملك البلاد يسلطتها السياسية⁽⁵⁾.

(1) - نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص 106.

(2) - أحمد داوود، المرجع السابق، ص 343؛ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 640.

(3) - رنا طعيمة حسين الصافي، الأثر الجغرافي وأبعاده في بلورة الفكر الديني في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، أطروحة دكتوراه، جامعة الكوفة، بغداد، 2012، ص ص 46-48.

(4) - عزمي سكر، المرجع السابق، ص 166.

(5) - عبد الرضا الطعان، المرجع السابق، ص 394.

إلا أن العصر البابلي القديم مثل انعطاف جديد في تشييد المعابد الصغيرة المخصصة لعبادة الآلهة الثانوية، وهذا يشير على علاقات شخصية مع الآلهة، وهو اتجاه جديد قائم على تعلق الأفراد بالآلهة عن طريق السلطة⁽¹⁾، لكن أثناء امتداد الدولة المدينة - بابل - خلال حكم حمورابي، وبسبب الحروب والانتصارات الوحدوية، فإن المناطق التي احتلها تظل تحت نفوذ آلهتها باستمرار، لكن قيادة المجمع الإلهي، أو ما نسميه نظرياً السيطرة السياسية لبابل كانت منحصرة بالإلهين "أنو-انليل"، فعقب اكتساب حمورابي السلطة في نيبور، لا توجد آثار تشير إلى محاولته رفع قيمة الإله مردوخ بحيث يصل إلى مرتبة "أنو" و"انليل"، وهو بمثابة مراعاة لنوع من الحرية الدينية⁽²⁾.

أما الآشوريون فقد تطورت الأمور بينهم خلال الألف الثانية حتى سقوط نينوى فاشتد الارتباط أحياناً، واشتد الجذب أحياناً أخرى، ورغم ذلك فإنه في جميع الأحوال كانت تسيطر على الديانة الآشورية فكرة الإله الوطني "أشور"، وجهد الدين الآشوري في أن يتحرر من رقبة سلطان العناصر البابلية، ومع ذلك نلمح نوع من الحرية، إذ لم ينتقص الآشوريين من قدر المعبودات الأخرى أو يدنسوها⁽³⁾.

مما يلفت الانتباه أكثر اسطوانة "تجلات فالالسر الأول"، حيث وجدنا فيها ما يدل على أن الآشوريين كانوا يسمحون بحرية المعتقد لكنهم في الوقت نفسه يمارسون الوحدة باسم التعددية في المعتقد مع الرفع من شأن الآلهة الآشورية في النص الذي يقول ((في البدء: "أشور" السيد العظيم الذي يحكم مجموعة الآلهة، الذي يمنح الصلح والتاج الذي يدعم الملكية، "انليل" ملك كل "أنوناكي"، أب الآلهة، سيد الأقطار، "سن" العاقل سيد التاج الممجّد في فخاره، "شماش" قاضي السماء والأرض الذي ينهي بالعدم محاولات العدو ويساعد في العدالة، "أداد" القوي الذي يُحطّم الأقاليم المعادية والأراضي والبيوت، "اينورتا" البطل الذي يُحطّم الأشرار المعادين ويُشبع رغبة القلب، "عشتار الأولى" بين الآلهة سيدة الصراع التي تفض المارك العنيفة - الآلهة العظام الذين يحكمون السماء والأرض والذين يعني هجومهم المارك والهلاك والذين عظموا ملكية تجلات فالالسر الأمير المحبوب المفضل في قلوبكم، البطل الرائع الذي اختارته قلوبكم

(1) - سعدون عبد الهادي الأمير وحسين سيد نور، العبادة السياسية في العراق القديم، ع26، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، بغداد، (د.ت)، ص183.

(2) - هاري ساكز، (عظمة بابل...)، المرجع السابق، ص359.

(3) - نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص107.

العطوفة، ذلك الذي توجتموه بالتاج العظيم، ذلك الذي عينتموه في وقار ملكاً على أرض 'إنليل' وأعطيتموه الحكم والمجد والقوة ورسمتم له إلى الأبد مصيره الملكي لتمام القوة ولذريته الكهنوتية مكاناً... الخ، تجلات فاللاسر الملك القوى ملك (العالم) كله الذي لا منافس له، ملك الأقاليم الأربعة، ملك الأمراء جميعاً، سيد السادة، ملك الملوك القوى الطاهر الأعظم الذي أعطى له بأمر "شماش" صولجان باهر، ذلك الذي حكم الأمم، رعايا "إنليل" في جموعهم... ذلك الذي يأمر "إنليل" ليس له منافس والذي جَنَلَ وصرع أعداء "أشور"⁽¹⁾.

إن الملك شيلمنصر الثالث الذي دُعِيَ إلى بلاد بابل، لِيَقْضِي على تمرد حدث فيها، لم ينسى بعد أن قضى على المتمردين، وضمن استسلامهم، أن يذهب إلى الهياكل العظمى في كوثي وبورسسيا وبابل، وذلك بقصد الحصول على الشرعية لهيمنتته، فبعد هذا الحدث الدامي، وضمان التأييد لسيطرته على بلاد بابل، فقد كان هذا الحاكم على يقين بأن ذلك لا يتحقق إلا بالحصول على موافقة الآلهة، إذ ترك وصفاً لزياراته الدينية التي تؤكد احترامه لمعتقدات السكان في قوله: "شيلمنصر، وصل إلى كوثي مدينة -أداد العظيم-، عند باب المعبد سجد بخشوع وترجي لقبول قرابينه، وبعد أن دخل بابل، صعد إلى -إيزجيلا-*، وهو مملوء بالخشية المعبرة عن الاحترام، واتجهت قدماه نحو- بعل مردوك- و-بيليت- في -إيزجيلا-، وقدم القرابين مُرضية وضحايا نقية، لقد زار كل أحرام -إيزجيلا- حاصلاً على قبول الآلهة لِضحاياه النقية، لقد ذهب إلى بورسسيا مدينة الإله -نابو-*، لقد دخلها وصعد في الحال إلى -إزيذا- وسجد في المعبد، ويكل تقوى اتجه يقدميه نحو- نابو- نحو- نانا-، وقدم ثيراناً مدهشة وخرافاً سمينة... وبعد أن نظرت الآلهة العظام يعين الرضا نحو شيلمنصر الملك القوى، توجهوا بوجوههم نحوه، وارتضوا توسلاته، وأصغوا إلى صلواته... الخ"⁽²⁾.

(1) ل-ديلابورت، المرجع السابق، ص 346-347.

* اسم معبد الإله مردوخ في بابل، عبارة عن برج عالٍ مدرج يعرف باسم الزاقورة-للمزيد انظر هنري س-عبودي، المرجع السابق، ص 178؛ Jane R.Mcintoch, Op.Cit, p 328

** اسم أكادي يُجهل أصله، وهو اسم إله ظهر بصورة متأخرة نسبياً في مجمع آلهة بلاد الرافدين، ويُنظر إليه مثل ابن الإله مردوخ، وكان مركز عبادته في مدينة بورسسيا (برس نمرود)، وفي بعض الأوساط مَالَ النَّاس منذ الألف الأول ق.م إلى جعله خلفاً لأبيه في زعامة الآلهة- للمزيد أنظر: Jean Bottéro, Op.Cit, p 298-299

(2) عبد الرضا الطعان، المرجع السابق، ص 394-395.

في مجال الحروب الوحدوية، وعلى الصعيد المحلي، يبدو أن الملوك الآشوريين كانوا قد تعاملوا مع الآلهة البابلية، بعد سيطرتهم على بلاد بابل، بنوع من الاحترام والتقدير، حيث فضلوا الحصول على تأييدها، وتوسيع نطاق هيمنتهم على الجنوب، بدلاً من أن ينتزعوا البلاد منهم عنوة، وعلى العكس من البلدان البعيدة، إذ يلاحظ أن الملك المنتصر كان يقوم بحملها كهدايا إلى الإله "أشور"، ومع أن هذا السلوك لا يشكل قاعدة عامة، فقد لوحظ في بعض الملوك وفي أحوال معينة، لكن أغلبهم يُعبّرون عن احترامهم للآلهة حتى بالنسبة للبلدان البعيدة، فقد كتب شيلمنصر الثالث قائلاً: "سافرت من بلاد الحثيين وتقدمت باتجاه مدينة هالمان وقدمت القرابين إلى الإله-أداد- إله مدينة هالمان"، والملاحظ بصورة عامة أن الملك المنتصر لم يكن يُقصر في القيام بمثل هذه المهمة عندما يريد أن يحتفظ بالسيادة على البلدان المختلفة، فما فعله الملك "أداد-نيراري الثاني" أثناء حملته على القسم الشمالي من بلاد الرافدين، والذي شاء أن يحوِّله إلى إقليم آشوري، زيارته لعدة مدن يقصد تقديم تكريماته إلى الإله "أداد"، ومن ثم الحصول بالمقابل على الحق الذي لا ينازع فيه في ممارسة السلطة السياسية على الأراضي⁽¹⁾.

في مجال احترام الديانات وتقديس آلهة الغير "قيام الملكة سميراميس بتشييد معابد أطلق البابليون عليها فيما بعد تسمية "بيلوس-Bélus"، استمر تواجدها إلى غاية عصر هيرودوت وتمّ تهديمها من طرف الفرس"⁽²⁾، وفي موضع آخر ذكر ديودور الصقلي "أنّ المعالم الدينية تتميز بخصائص معمارية، فقد استعمل الإسفلت والأجر في قمم تلك المعابد، وتوجد في قمم تلك المعابد تماثيل للآلهة مغطاة بصفائح ذهبية"⁽³⁾.

ظلّ التقليد قائماً في عهد الأسرة البابلية الجديدة التي أسسها "نابوبلاصر" وخلفاؤه وبخاصة⁽⁴⁾ "نبوخذنصر" الذي راعى حريات احترام المعتقد بقوله: "لقد أخضعت للاحترام آلهة البلدان البعيدة، والجبال المرتفعة من البحر الأعلى حتى البحر الأدنى، فلم يحد سكانها عن طريق الطاعة ولا المخرفاء، ولم يتجاهلوا شروط الهزيمة"⁽⁵⁾، واشتهر آخرهم "نبونائيد" بالعاطفة الدينية

(1) - عبد الرضا الطعان، المرجع السابق، ص 395-396.

(2) - Diodore de Sicile, Loc.Cit, II, IX.

(3) - Loc.Cit, IX.

(4) - نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص 108.

(5) - قليب عطا الله، المرجع السابق، ص 314.

حيث أمر بحفر أسس المعابد ليستخرج ودائع أساسها ويحفظها من التلف توقيراً واحترماً لها ، فقد عُرف بالتقي والورع وبولعه بجمع الأخبار القديمة واهتمامه بشؤون الدين ومصالح الكهنة، وقد وَجَدَ في "سيبار" مثلاً عندما كان يُجدد بناء معبد "شمش" أخبار التأسيس الأصلية مُطمورة في أسس المعبد منذ عهد الملك الأكادي "نرام سين" أول من شيّد معبداً في هذه البقعة ليُقيم بهذا الاكتشاف احتفالاً ضخماً⁽¹⁾.

إذن فكما أنّ مبدأ الشرك الذي تتصف به الديانات العراقية القديمة، يوحى بتهيئة أسباب الخلاف والتنازع بين مختلف عبدة الآلهة وبين الكهنة وبين المدن، لكن الواقع الذي يراه الدكتور رضا جواد الهاشمي أنه لا يُستشعر أي خلاف من هذا النوع في كل السجلات القديمة المتوفرة، وفي حالة تقديرنا بشكل دقيق لأهمية المعتقد في نفوس وحياة الشعوب، يُقدَّر جلياً هذا النجاح الرائع الذي حققه العراقيون في مجال الوحدة الفكرية التي تُشكل غالباً أساساً راسخاً لأشكال التوحد في مجالات الحياة الأخرى⁽²⁾، فقد صاحب الاهتمام بمعابد بابل اهتمام مماثل بمعابد المدن الأخرى ذات الشهرة الدينية، فجددت في مدينة بروسيا بها زاقورة تشبه زاقورة بابل، وتحدثت نصوص العصر نفسه عن عربة صغيرة للربة "إنانا" أو "عشتار" بالوركاء، شُدت إليها أسود، أعادها نبوخذنصر إلى معبدها⁽³⁾.

حققت مشاريع الحكام الوحدوية نجاحاً في طابعه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، لكنها لم تفلح في توحيد الآلهة، وقد قابل هذا الأمر وجود آلهة رئيسية ذات شأن كبير اعتمد عليها حكام العراق القديم في تحقيق الوحدة، ولعل المعبودان "مردوخ" و"أشور" من أشهر هذه الآلهة التي تقمّصت دور الإله الرئيس، وبالتالي يكون الفكر الوحدوي الرافدي في طابعه الديني فكراً تفريدياً، مثّل جزء غير مكتمل من مظاهر الوحدة الدينية، إذ سمح في نفس الوقت بتعدد المعتقد، وإن كان هذا يمثل إحدى مميزات الحرية، فإن عدم احترامه قد يسبب مشكلة تعيق الوحدة في كافة المجالات، إذ قد يؤدي فرض المعتقد من السلطة الحاكمة على المجتمع إلى تهميش الكثير من المعبودات، و لأن المساس بالمعتقد يعني المساس بطقوسه وأعرافه الدينية، فيمكن القول أن حكام

(1) - نجيب ميخائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص 108.

(2) - رضا جواد الهاشمي، (أصالة الحضارة العراقية...)، المرجع السابق، ص 22.

(3) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 838.

بلاد الرافدين نجحوا في تحقيق وحدة الإله الأكبر في مجمع الآلهة، وانعكست سياستهم في تعدد الآلهة إلى احترام مبدأ الحرية الدينية لخلق مجتمع محب للحياة محترماً لمعتقد غيره، وبالتالي العيش في أمن وترباط ووحدة.

3- حرية اللغة:

ظلّ العراق القديم على حد تعبير سليم مطر، منذ انبثاق الدولة الواحدة ورغم المنافسة بين السلالات عبر تاريخه القديم، موحداً لغوياً (اللغة السومرية، ثم اللغة الأكادية بلهجاتها البابلية والأشورية)، كما بقي موحداً سياسياً حتى في ظلّ الدول الأجنبية الدخيلة⁽¹⁾، لكن ما ذكره هذا الباحث قد يكون مرتبط بلغة دولة في كل مرحلة وحدوية، إذ أنّ غايتنا البحث في مدى تعايش تلك اللغات في كل مرحلة تاريخية، فقد يكون مسموحاً بحرية اللغة كما هو الحال بالنسبة في إبداء الرأي وحرية المعتقد.

كانت اللغة السومرية منذ ظهور التدوين في بلاد وادي الرافدين في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد اللغة السائدة في البلاد، على الرغم من وجود الساميين جنباً إلى جنب مع السومريين، فكما مثل السومريون الطابع الثقافي بلغتهم من حيث الآداب والمعارف المختلفة، فإلى جانب هذا الطابع، مثلت لغتهم الطابع السياسي المميز في تلك الفترة⁽²⁾، إذ ورد في أحد الأساطير السومرية بأن: "في تلك الأيام كانت أرض الشرق، موضع الخير العميم وموضع الأحكام العادلة، وكانت بلاد سومر ذات اللسان الواحد المنسجم، هي البلاد العظيمة التي تنبعث منها أحكام الإمارة"⁽³⁾، إذ من المعاني الغريبة لهذه الأسطورة، أنها تقول لغة واحدة، لكن أنظمة مستقلة عن بعضها البعض.

من الممكن أيضاً أن يحدد الباحث المعاصر تاريخ تدوين أي لغة من اللغات البشرية قديمها وحديثها، وأن يحدد تاريخ نهاية تدوين تلك اللغة، استناداً إلى النصوص المدونة، وهذا يمكن تحديده على نحو تقريبي بالنسبة إلى اللغة الأكادية التي خلّفت نصوصاً مسمارية كثيرة، وأما تحديد تاريخ بداية استخدام اللغة كلغة تخاطب وتفاهم بين المجتمع في مكان معين فهذا لا يمكن تقديره، إلا إذا

(1) - سليم مطر، المرجع السابق، ص 34.

(2) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق...)، المرجع السابق، ص 37.

(3) - فاروق ناصر الراوي، (العلوم والمعارف...)، المرجع السابق، ص 271.

أمكن تحديد تاريخ قدوم تلك المجموعة البشرية إلى ذلك المكان، وهذا أمر يصعب تحديده بالنسبة للأقوام الأكادية، ومع ذلك، فإن الدلائل الأثرية المتوفرة، تشير إلى وجود الأقوام الأكادية في بعض أجزاء القسم الجنوبي من بلاد الرافدين، مما عرف بعد ببلاد بابل، ولاسيما الأجزاء الشمالية منه، منذ منتصف النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، إلا أنها لم تظهر بوصفها قوة سياسية مهيمنة على الوضع السياسي في المنطقة إلا في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، عندما وضع سرجون الأول أسس الوحدة السياسية، وبعبارة أدق، فإن اللغة الأكادية كانت مستخدمة، ولكن على نطاق أوسع نوعاً ما كلغة تخاطب بين الأفراد الأكادية قبل توليهم الحكم، ومن ثم أخذت طريقها إلى التدوين، ومن الأدلة ما يؤيد أن أسماء كثير من حكام المدن السومرية في عصر فجر السلالات (3000-2371 ق.م) وردت بصياغة أكادية، فمثلاً نجد نصف أسماء ملوك كيش الأولى التي حكمت بعد الطوفان بالاعتماد على ما جاء في جداول الملوك السومريين هي أسماء ذات صياغة أكادية، فضلاً عن أن هناك الكثير من المفردات الأكادية الدخيلة في لغة المدونات السومرية من عصر فجر السلالات، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على وجود الأقوام الأكادية وشيوع لغتها إلى درجة أثرت فيها على اللغة السومرية السائدة، وفي أواخر عصر فجر السلالات، وقبيل الوحدة الأكادية، وصلت اللغة الأكادية من الأهمية بحيث دوّن الملك السومري " لوكال زاكيزي " نصاً تذكاريّاً على تمثاله الخاص باللغة الأكادية⁽¹⁾.

إذن نتيجة الالتماس المباشر والمبكر بين السومريين والأكاديين ونتيجة للتأثيرات المتبادلة بينهما⁽²⁾ كان للازدواج اللغوي دوره باستخدام اللغة السومرية إلى جانب اللغة الأكادية، فكِلتاهما تحتل مكانة خاصة وأهمية في نفوس العراقيين القدماء، فإلى جانب تأثير كل من هاتين اللغتين في الأخرى تأثيراً واضحاً من حيث استخدام المفردات اللغوية والمصطلحات الفنية والقانونية ومن حيث أساليب التعبير، فقد كان له الأثر الكبير في تحفيز الكتبة الذين استخدموا اللغة السومرية أو اللغة الأكادية على حد سواء أو الكتبة الذين عكفوا على استنساخ النصوص القديمة⁽³⁾.

(1) - عامر سليمان، (اللغة الأكادية...)، المرجع السابق، ص 94-95.

(2) - Dietz Otto Edzard, *Sumerian Grammar*, Brill Leiden, Boston, 2003, p 4.

(3) - عامر سليمان، (اللغة الأكادية...)، المرجع السابق، ص 96.

صاحب قيام سرجون الأكادي توحيده لدويلات العراق القديم وتكوين أول دولة موحدة⁽¹⁾ سيادة في اللغة الأكادية كلغة عالمية محل اللغة السومرية⁽²⁾ وتزايد اتساع التدوين والتكلم بها أيضا حتى طغت على اللغة السومرية⁽³⁾، لكن عصره وخلفاؤه اكتفوا فيه بترسيخ لغتهم، وفرضها على المجالات السياسية والإدارية، في حين بقيت السومرية لغة للأدب والشعر والثقافة، باستخدامها في كتابة تراثهم، ومنها نصوص "أنخيدوانا" الترتيلية لابنة سرجون والمصبوغة باللغة السومرية تمجيداً بالآلهة "نانا" آلهة الحب والحرب⁽⁴⁾.

ويبدو أن الصراع بين اللغتين يغلبة اللغة الأكادية وزوال السومرية كلغة رسمية ولغة تخاطب وتفاهم بين الأفراد، فإن اقتصار استخدامها في التراتيل والنصوص الدينية لم يحد من زوالها⁽⁵⁾، ولكن في إطار الهيمنة الكبرى شاع استخدام اللغة الأكادية في عدد من البلدان والأقاليم المجاورة والبعيدة، إذ أثبتت التحريات الأثرية التي أجريت في كل من بلاد عيلام وجنوبي غربي فارس وفي آسيا الصغرى في إقليم كبادوكيا، وفي سوريا وواد النيل استخدامها يخطها المسماري في هذه الأقاليم لمدة معينة من التاريخ القديم⁽⁶⁾.

ومع بروز العناصر السامية، منتصف الألف الثالث، حدثت تغييرات لغوية في مجتمع بلاد الرافدين، حيث اتسمت بازدواجية اللغة عندما نافست اللغة الأكادية اللغة السومرية وفرضت نفسها حتى على بعض الملوك السومريين، ورغم أن اللغة السومرية استعادت دورها الرسمي والثقافي في العصر السومري الحديث، بيد أنها لم تستعد مكانتها في مجمل البلاد، ففي الشمال أصبحت الأكادية لغة الحياة اليومية الأمر الذي يدل على فاعلية الوحدة الأكادية على مجتمع بلاد النهرين أكثر منه حول الفاعلية السومرية⁽⁷⁾.

(1) - سليم مطر، المرجع السابق، ص 55.

(2) - Pierre Miquell, L'Antiquité- L'orient de L'égypte Ancienne à Alexandre le grand , édition

Fernand Nathan, , paris, 1983, p 67.

(3) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق...)، المرجع السابق، ص 38.

(4) - باسم ميخائيل جبور، المرجع السابق، ص 13.

(5) - علاء عبد الدائم، الصراع اللغوي بين الحضارات السامية القديمة، مج 2، ع 1، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، بغداد، 2012، ص 372.

(6) - عامر سليمان، (اللغة الأكادية...)، المرجع السابق، ص 102.

(7) - أمل ميخائيل بشور، المرجع السابق، ص 48.

بالرغم من زوال السومريين من الحياة السياسية في الألف الثاني ق.م، ظلت لغتهم، مثل اللاتينية في أوربا، لغة ثقافية سياسية، كما بقيت الثقافة السومرية حيّة واستمر التدوين بها جنباً إلى جنب مع اللغة الأكادية بفرعيها الأساسيين البابلية والأشورية إلى آخر عهود بلاد الرافدين تقريباً⁽¹⁾.

من المعروف أنّ اللغة السومرية أخذت بالزوال بعد سقوط العاصمة أور، لتحل محلها اللغة البابلية، التي أصبحت اللغة الرسمية ولغة الخطاب اليومي في البلاد، فعلى الرغم من سيادتها على هذا الجزء، فقد تمّ في ذلك العصر تدوين واستنساخ نصوص كثيرة باللغة السومرية، ومنها الكتابات النذرية للملك سلالّة إيسن و لارسا وكتابات ملك سلالّة بابل الأولى، ولا بد من التنويه هنا بدور المدارس البابلية، و النُسخ البابليين في حفظ التراث السومري في هذا العصر عن طريق استنساخه من الوثائق السومرية⁽²⁾.

إذا أردنا التعليق على الكلام السابق فإن فترة العصر البابلي القديم التي شهدت انقسام مابين الممالك الأمورية ثم وحدة شاملة شملت كامل البلاد وحتى خارجها خلال عصر حمورابي، فإنّ استمرارية اللغة والحفاظ على التراث السومري ولغته، التي كانت أهم عناصر الوحدة خلال عصر سلالّة أور الثالثة، إنما يعني أن هناك فكر وحدوي أموري سيهتم بالماضي السومري لكن تحت سيادته وفي ظل وحدته.

ومن النصوص المسمارية التي توضح حرية اللغة، ما نجده بين مدينتي بابل وأور، إذ ورد "حقاً، إن أوروك وبابل عائلة واحدة، وهم يتحدثون مع بعضهم بصراحة"⁽³⁾.

كانت اللغة من العوامل الأساسية التي وحدت الأشوريين أنفسهم، لكنهم اعتقدوا أنّ الشعوب القاطنة في الجبال وحولهم كانوا يتكلمون بشكل مضحك، حسبما أوردته النقوش الأشورية الملكية، إذ ذكرت هذه الأخيرة أنّ بعض الغنائم لها أسماء من الصعب كتابتها، هذا الأمر ليس بقضية كافية للاختلاف نظراً لأنّ الجيران الجنوبيين في بابل كانوا يتكلمون لهجة مختلفة ولكن بنفس اللغة⁽⁴⁾.

(1) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق...)، المرجع السابق، ص 38.

(2) - فاضل عبد الواحد علي، (من سومر إلى التوراة...)، المرجع السابق، ص 36.

(3) - ميثم مرتضى مصطفى و زين العابدين موسى جعفر، المرجع السابق، ص 73.

(4) - هاري ساكز، (عظمة آشور...)، المرجع السابق، ص 171.

بينما استخدمت اللغة البابلية بلهجتها خلال العصر البابلي الحديث (626-539 ق.م) كلغة رسمية، وعلى الرغم من محاولات كهنة بلاد بابل اليائسة في المحافظة على لهجتها، فقد كان تقليدهم الأساليب اللغوية القديمة فيه نوع من الحريات، إذ أخذت طريقها إلى الزوال⁽¹⁾، ولو أنّ خصائص هذه الفترة لم تكن سوى استمرار للحضارات السابقة لها واقتباسها لأساليبها مع بعض التغيرات والتبدلات البسيطة⁽²⁾.

يمكن القول أنّ سيطرة فئة معينة من الشعوب الرافدية على السلطة قد يعني سيطرة لغتها، لكن يبدو أنّ التوحيد العام للبلاد قد سمح بحرية اللغة، بل وساهم في إحداث نوع من التفكير والتفاهم بين جميع شعوبها وطبقاتها نظراً لانتماء غالبيتهم إلى أرومة جزيرية.

4- الأمن والاستقرار الوحدوي:

إنّ الحروب المؤلدة للموت القسري، تتناقض كلياً مع الفترة المثالية التي عرفها العصر البطولي في سومر، ولو أنّ ذلك العصر تمثل في مثاليّة تصوّر حفظته ذاكرة وأحلام الشعراء، الذين ابتدعوا نصوصاً، حبّبت إلينا أبطال وأحداث تلك الفترة، حيث كانت الخلافات بين الممالك، لا تولّد حرباً دامية على حياة الناس، بل كان يُتخذ القرار بشأنها، بحلّ الخلاف بالوساطة والتحكيم، فإذا قارنا هذا الاحتمال مع النصوص التي وصلتنا من عصر سومر، تكون الدلالة واضحة بينها وبين حروب الدمار الشامل الذي يقتل وينفي، والأبعد من ذلك، فإنها لم تكتفي بالانتقام من الأحياء، بل كانت تنتقم حتى من الأموات⁽³⁾.

كان أسلوب الحياة السومرية مرتبط بالخوف من العديد من المظاهر الحياتية ولعلّ أهمها الخوف من الرؤساء والحكام ومن العدو الأجنبي، فضلاً عن عنف الطبيعة، ومن الحيوانات المتوحشة، ومن المرض والموت، ولعلّ التحرر من الخوف هو أهم مظهر من مظاهر العصر الذهبي لحياة الإنسان حسب رأي السومريين حيث ورد عند شعرائهم:

في يوم من الأيام لم توجد حية ولم توجد عقرب. لم يوجد ضبع ولم يوجد أسد.
لم يوجد كلب متوحش ولا ذئب. ولم يوجد هناك خوف ولا رعب.

(1) - عامر سليمان، (اللغة الأكادية...)، المرجع السابق، ص 107-108.

(2) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 144.

(3) - قاسم الشواف، المرجع السابق، ص 13-14.

ولم يكن للإنسان منازع⁽¹⁾.

وإذا أردنا أن نربط بين حياة الإنسان وعملية التوحيد قام في هذا الصدد صمويل نوح كير بعملية إسقاط تاريخي بقوله: "إنّ الحافز إلى التفوق والشهرة قد طبع يعمق النظرة السومرية إلى الحياة ولعب دوراً كبيراً في سياساتهم...، هذا بنظرية مبدئية مفادها أنّ الولع بالمغامرة نحو النزاع والحركة الطموحة من أجل البروز كان يمد المجتمع السومري بشكل لا يختلف عما في الحضارة الأمريكية الحديثة من تأكيد شديد على المنافسة والنجاح...، ومن الحزن القول بأنّ حب المنافسة والبروز حمل في طياته بذرة تدمير النفس وساعد على إثارة الحروب الدموية المصحوبة بالكوارث بين دول المدن وعرقلة توحيد البلاد بكاملها، وبهذا تعرضت بلاد سومر وسكانها للهجمات الخارجية التي قضت عليها في نهاية الأمر⁽²⁾."

صحيح أن الحقد والانتقام من الأحياء والأموات من خلال مشاهد الحرب والدمار، يجعلنا نعتبر أن الحياة والموت في بلاد الرافدين والاستقرار بعد الموت، وعدم الموت في بلد غريب، تُلغي من شأنها قيمة الأحياء⁽³⁾، ولهذا الشأن أولى "لوكال زاكيزي" المجال الإنساني فقرات تمجد أعماله، حيث: "جعل البلدان تنعم بالأمان، وغمر البلاد بالحبور...، في ذلك الحين جعل أوروك تُشع حبوراً...، سقى "لارسا" المدينة المحبة بحية النعم...، لوكال زاكيزي، ملك أوروك، ملك البلاد..."⁽⁴⁾. وفي العصر الأكادي نستطيع التأكيد أنّ قيام سرجون الأكادي يرفع أسوار المدن قد حقق فعلاً وحدة للبلاد وقلل في الوقت نفسه من حركات التمرد، وهذا من غير شك قد منح الاستقرار الداخلي، إذ لو لم تكن الحياة اليومية مستقرة لَمَا كان ممكناً للملك سرجون أن يذهب إلى منطقة كبادوكيا للوقوف إلى جانب التجار في محنتهم⁽⁵⁾.

(1) - فاروق ناصر الزاوي، (العلوم والمعارف...)، المرجع السابق، ص 262؛ 271، Samuel Noah Kramer , Op.Cit, p 262-271.

(2) - Samuel Noah Kramer , Op.Cit, p 267-268.

(3) - قاسم الشواف، المرجع السابق، ص 452.

(4) - أنطوان مورنكات، المرجع السابق، ص 67-68.

(5) - فوزي رشيد، (سرجون الأكادي...)، المرجع السابق، ص 43.

من نصوص العصر الجوتي الدالة على الاطمئنان إلى الحياة اليومية ما ذكره الملك جوديا" في ذلك اليوم لم يستخدم المعول في المقبرة، ولم تدفن أي جثة، وكاهن الـ((الكالا)) لم يعزف على قيثارته، لم تعرف أي أغنية حزينة، والنائحة لم تردد التعازي"⁽¹⁾.

أما إنجازات "أورنامو" في هذا المجال فقد تعدت السيطرة السياسية التدخل في المدن، وحدد حدودها، وفق ما تنطوي عليه نصوص حدود تلك الحقبة، ولإحداث الاستقرار في الحياة اليومية داخل وخارج المدن، حاول أن يطهر البلاد من اللصوص وقطاع الطرق والمتمردين، إذا تجاوزت نطاق تشريعاته في هذا المجال نطاق المحلية إلى مدن الرافدين الأخرى؛ لأسباب أهمها هيمنته السياسية على تلك المدن فعلياً⁽²⁾ وإرساء دعائم السلام كلياً⁽³⁾.

يشير "ريم-سين" ملك "لارسا" المعاصر لحمورابي إلى حادثة يعينها بعد مضي 31 سنة عنه حكمه إذ يقول: "عندما فتح الراعي الحق- ريم سين- المدينة الملكية....، صان مواطنيها دون أن يمس أحداً منهم يأذى، وترك أبناءهم يتكاثرون، فقد خلد اسمه الملكي إلى أبد الأبدن"⁽⁴⁾.

أما الحاكم "يشمع دجان" (1935-1953 ق.م) فقد سبق لبيت عشتار في سن بعض الإصلاحات تتعلق برعايته لمدينة نيبور المقدسة بقوله: "المدينة البهية التي يضاهي بهاؤها من الداخل ومن الخارج بهاء السماء وجمالها، نيبور عماد السماء والأرض، جعلتها ترفل بالنعيم... ولم أترك جيشها يشهر السلاح"⁽⁵⁾.

في السياق نفسه يقول لبيت عشتار: "لقد أُنجزت حرية أبناء وبنات "نفر" وأبناء وبنات "أور" وأبناء وبنات "إيسن" وأبناء وبنات "سومر وأكاد" الذين فرضت عليهم العبودية"⁽⁶⁾، وفي خاتمة قوانينه: "نشرت الرفاه في بلاد سومر وأكاد وأقامت هذه المسلة"⁽⁷⁾.

(1) - شيماء عصام البلداوي وحسن جاسم محمد، الموسيقى والطرب في العراق القديم، ع46، مجلة مركز دراسات الكوفة، بغداد، 2017، ص111.

(2) - حسن محمد محي الدين السعدي، المرجع السابق، ص ص 96-98.

(3) - توفيق سليمان، المرجع السابق، ص145.

(4) - هورست كلينكل، المرجع السابق، ص22.

(5) - نفسه، ص117-118.

(6) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 50.

(7) - فوزي رشيد، (القوانين في العراق...)، المرجع السابق، ص63.

تحدث سرجون الثاني عن معاملته لمزيج من الشعوب المستوطنين بجانب عاصمته الجديدة "دور شروكين" ودجهم في الحياة اليومية الآشورية قائلاً: "هناك شعوب من جهات الدنيا الأربع، ذو لغات غريبة وكلام مختلف يسكنون في الجبال والسهول، لقد استوليت عليهم لقد جعلتهم ذوي غرض واحد، ونية واحدة، وجعلتهم يسكنون في داخل المدينة - أي دور شروكين - وجعلت مواطني آشور الماهرين في عمل كل الأعمال مراقبين ومشرفين لكي يعلموهم العادات وأن يخدموا الملك"⁽¹⁾.

وُصِف "نبوخذنصر" بأنه الحاكم "الذي أنعش ناسه - شعبه -، والذي يحمي الحدود ويصون التخوم"⁽²⁾، ويقول واصفاً دوره: "أنا نبوخذنصر، ملك بابل العظيم الجليل،...الذي فكّر بإحياء بيت "ساغاتو" وبيت "زيدا"، الذي عظم مجد بابل ومجد بورسييا..."⁽³⁾، وربما لهذا السبب نجد أن "أراميا" يطلب من اليهود الدعاء بالخير للبلاد التي ساحتهم وسمحت لهم بالحياة في المدينة البابلية"⁽⁴⁾ "7اطْلُبُوا سَلَامَ الْمَدِينَةِ الَّتِي سَبَيْتُكُمْ إِلَيْهَا وَصَلُّوا لِأَجْلِهَا إِلَى الرَّبِّ لِأَنَّهُ يَسَلِّمُهَا يَكُونُ لَكُمْ سَلَامٌ"⁽⁵⁾.

III- التراث الوحدوي:

ترك التراث الوحدوي أثراً ونصوصاً دالة على الشعور العام الذي يتجلى في الأناشيد الوحدوية المحافظة على الانتماء العام للبلاد، كما تركت كثرة مراثي المدن هي الأخرى أثرها على المجتمع ككل، كي تشيد الأجيال المتعاقبة على التوحد، بل و تعطينا الأساطير سيادتها على الخيال الشعبي مع نظرتها الوحدوية التي تستحق العناية والاهتمام. إذ يحاول الشعب الرافدي عدم الخروج عن مجرى تاريخه الوحدوي الطويل المرتبط بالمساهمة الفكرية التي حاول فيها العراقيون القدماء ترك بصمتهم الأدبية والشعرية برموزها الأثرية الشاخصة منها:

(1) - هاري ساكز، (عظمة آشور...)، المرجع السابق، ص 177.

(2) - عباس علي الحسيني، المرجع السابق، ص 119.

(3) - فليب عطا الله، المرجع السابق، ص 314.

(4) - هديب وفاء ورافد كاظم كريدي، المرجع السابق، ص 2.

(5) - سفر أراميا، (29: 7).

1- الأناشيد والرموز الوجدانية:

نعم علينا التاريخ بمدوناته منذ أقدم الحضارات المسجلة لمضامين الفكر الوجداني في طابع الأناشيد، إذ نجد من بين الأناشيد السومرية النشيد الوطني المعروف بـ "نشيد الحب الأسمى".

يا سومر أيها البلد العظيم.

يا أعظم بلد في العالم.

لقد غمرتك الأضواء المستديرة.

والناس من مشرق الأرض إلى مغربها.

هم طوع شرائعك المقدسة.

إن شرائعك سامية وقلبك عميق.

الملك الذي تليده يزين نفسه بالحلي.

والرب الذي تعبدونه يضع التاج على رأسه⁽¹⁾.

بحوزتنا أيضاً نشيد يصف عصرًا ذهبياً تتميز بأنه عصر الطاعة :

يوم يحجم المرء عن السفاهة إزاء غيره، ويكرم الابن أباه.

يوم يبين الاحترام مجلياً في البلاد، ويجلُّ الصغير قدر الكبير.

يوم يحترم (?) الأخ الصغير...أخاه الكبير.

ويرشد الولد الأكبر الولد الأصغر ويتمسك ((الأخير)) بقراراته⁽²⁾.



الصورة رقم 27: رمز
مدينة لجش: رمز القوة
والجبروت عن :
أندره بارو، المرجع
السابق، ص 189.

هناك عدة نُصب تعطي فكرة أخرى عن الحياة العسكرية، وهي فكرة اتخاذ رمز أو شعار للبطولة مرادف للرؤية المستعملة حالياً، ولنأخذ مثلاً شعار مدينة "لجش"، إذ يمثل الأسد والنسر رمزاً للقوة والضراوة في هذا الشعار (أنظر الصورة رقم 27).

كما برزت في العصر الأكادي القصيدة المعروفة باسم "سيدة التواميس الإلهية" للكهنة "انخيدوانا" ابنة الملك سرجون الأكادي،

(1) - شيماء عصام البلداوي وحسن جاسم محمد، المرجع السابق، ص 109.

(2) - شاكر شاهين، المرجع السابق، ص 91.

إذ أكّد من خلالها الباحث فوزي رشيد على أنّها تقع ضمن إطار المنهج الذي اتبعه سرجون بخصوص ربط أواصر الأخوة بين السومريين والأكاديين من جهة وبين القوميات المختلفة من الجهة الأخرى⁽¹⁾، ومن أهمها:

لقد ملأت البلاد الأحقاد كالتنين ضد الأعداء..
وهم يقدمون أناشيدهم الحزينة، ويبكون أمامك..
وفي خضم المعركة كل شيء يتحكم أمامك..
تجعلن الأناشيد الكثيرة تنطلق من قيتارة الأحران..
إنّهم مستعدون للموت عند سماع أغنيتي المقدّسة..
أنت شهيرة، إنّ ما أنشده لم يكُ من أجل الإله "نار"، بل من أجلك..
أنت سامية كالسماء... فليعرف الجميع..
أنت واسعة كالأرض... فليعرف الجميع..
أنت تدمرين البلاد النائرة... فليعرف الجميع..
أنت تعصّفين على البلاد... فليعرف الجميع..
أنت تضربين الرؤوس... فليعرف الجميع..
أنت تُحرزين النصر... فليعرف الجميع... الخ⁽²⁾.

تم القضاء على الوحدة الأكادية كما بيّنته بعض الأناشيد الوطنية السومرية في كلمات تدل على انعدام الرحمة، مع طابع القساوة والشراسة الجوتية ومنها أن:

البلاد في أيدي الأعداء..
والآلهة أخذت إلى الأسر..
والسكان بالهتهم والضرائب أغرقوا..
والأقنية والسدود فُتحت..
ولم يعد نهر دجلة طريقاً للمواصلات..
والأراضي لا تسقى..

(1) - فوزي رشيد، (سرجون الأكادي...)، المرجع السابق، ص 91.

(2) - نفسه، ص 91-97.

والأراضي لا تعطي الحاصلات⁽¹⁾.



الصورة رقم 28 : الراية السومرية المعروفة بـ "راية أور" و "راية جهة السلام" عن: أندره بارو، المرجع السابق، ص 174-175.

ولو أنّ الأناشيد تُلقن للأجيال
فإنّ بعضها يوضع مع جثمان المتوفى
من الملوك كما هو الحال في المقبرة
الملكية في أور⁽²⁾، ومنها راية أور
المعبّرة على الوحدة:

بالمناسبة تُدعى هذه التحفة

الفنية "الراية الملكية"، وقد اكتشفت في إحدى المقابر الملكية لمدينة أور، وهي تعكس بالواقع فكرة
"الحرب والسلام"، حيث أنّ أحد جانبيها في الأسفل يُصور مشهد الحرب والجانب الآخر في
الأعلى يصور مشهد السلام (أنظر الصورة رقم 28) متضمناً شرب الأناخاب وإحضار الأغلال⁽³⁾.
أما في العصر البابلي القديم فقد وردت أناشيد تصف وتُذكرُ بقدرات الملك لبيت عشتار
وكفاءته ومنها أنه:

نبيل النبلاء.

الذي يُقيم الطقوس الدينية.

ويحسم الصّراع بين الناس في الجهات الأربعة.

شباب حقيقي يعيون مشرقة.

وارث العرش.

المُزدان رأسه بالعمامة والتّاج الحقيقي.

الذي منع السلطة على ذوي الرؤوس السود.

الرّاعي الحكيم.

الذي يقود الناس لخيال جميل على ضوء القمر المريح.

السيد الثور العظيم.

صوتك تام للكلام....الخ⁽⁴⁾.

(1) - ك. ماتيف و أ. سazonوف، المرجع السابق، ص 81-82.

(2) - شيماء عصام البلداوي وحسن جاسم محمد، المرجع السابق، ص 87-97.

(3) - عبد الله الحلو، المرجع السابق، ص 42.

(4) - وليد سعدي الميالي وزينب عبد الله هلال، المرجع السابق، ص 765-766.

ومن أناشيد الحقبة نفسها والتي تُنشده بحق ويشار له فيها بالمشعر:

لييت عشتار.

الفخور إزاء العظام.

أنت أقيمت القانون وأطلقت حرية الناس.

أنت الذي جعل العدالة تزدهر⁽¹⁾.

وَرَدَ أيضاً في عهد حمورابي نشيد الإله "شمش" الذي يحتوي مضامين وحدوية.

تتبوأ الجبال وتمرع الأرض بناظريك.

ترعى شعوب الأرض.

تؤتي القوت كل مخلوق حي.

وكل مسعى للبشر، بأيّ لسان عبّروا عنه.

أنت عالم به، وعالم بالأعمال.

كل الجنس البشري شاخص بأنظاره إليك.

أي شمس، الكون متعطش لضيائك.

كل سيء نية تعطل مسعاه.

وتهدم بيوت المستبدين.

وتجاذي بالسجن من اعوجّ من القضاة.

وتعاقب السيد الشرير الفاسد.

وكل مستقيم يحمي الوضّعاء⁽²⁾.

كما ظهرت فرقة الإنشاد في العصر الأشوري والمؤلفة من رجال قصر الملك الأشوري شيلمنصر الثالث⁽³⁾، وفي هذا العصر نجد مساهمة المرأة في فرق الموسيقى العسكرية، كإنجاز لم يثبت بعد للنسوة في بعض الحضارات الأخرى مثل حضارة وادي النيل والحضارتين الإغريقية

(1) - وليد سعدي الميالي وزينب عبد الله هلال، المرجع السابق، ص 766.

(2) - لبيب عبد السّاتر، المرجع السابق، ص 49.

(3) - صبحي أنو رشيد، الموسيقى "حضارة العراق"، ج 4، دار الحرية، بغداد، 1985، ص 409.

والرومانية⁽¹⁾، ومنها جملة الأناشيد الآشورية المترجمة إلى لغات علمية عديدة ألّفت لشخص الملك "أسرحدون":



الصورة رقم 29: رمز
الكلدان القومي عن:

<https://i.pinimg.com>
[m.jpg](https://i.pinimg.com)

أنا قائد ملوك الأرض، أنا الملك أسرحدون.

إليكم أيها القادة والسلاطين أقول.

في لحظتي استلامي السلطة.

خيم فوقنا ((سيدون)). ولمصر أصبح كلامي قانوناً.

وأبنت ليعلام مصيرها ينظرة واحدة.

وأشدت عرشي الكبير في عظام الأعداء.

إليكم أيها السلاطين والقادة أقول...

فمن سيبقى؟ ومن له أن يكون مثلي؟

لقد اجتثت حتى القاع كل المجد الأرضي.

وها أنا أقف وحيداً مُرْتَوٍ بالشموخ.

أنا قائد ملوك الأرض، أنا الملك أسرحدون⁽²⁾.

يبدو ولأول وهلة أنّ هذا الاهتمام بالماضي يعود إلى دافع سياسي قوي وهو رغبة البابليين والآشوريين في دراسة وتسجيل أحداثهم كمرحلة ضرورية من مراحل توحيد عناصر الحياة البابلية والآشورية، وتحقيق وحدة حضارية لشعوب العراق القديم، والاستفادة أيضاً من دروس الماضي من أجل التخطيط لحاضر ومستقبل بلاد الرافدين⁽³⁾، بل كانت الأناشيد ذات الطابع الديني في العصر البابلي الحديث تُقام احتفاءً بالعدل نبوخذنصر ومنها: "تهياً كي تفرح بالسلام العادل"⁽⁴⁾، علاوة على ما سبق، جسّد الكلدانيون علماً يمثل رمزاً للوحدة (أنظر الصورة رقم 29).

وفي شأن رموز علم الكلدان ومعانيه، فلخطان العموديان يمثلان نهري دجلة والفرات الخالدين وينبعان من الشمال ويصبان في الجنوب ويرمزان للوفرة العطاء، فيما ترمز الأضلاع والإشعاعات الثمانية والقرص الدائري الكبير للشمس رمز الخير والعدل والمساواة والمدنية، وإذا

(1) - صبحي أنو رشيد، المرجع السابق، ص 444.

(2) - ك. ماتيف و أ. سazonوف، المرجع السابق، ص 161.

(3) - محمد خليفة حسن، (التفكير التاريخي والحضاري عند الشعوب...)، المرجع السابق، ص 120-121.

(4) - فليب عطا الله، المرجع السابق، ص 313.

ما أضفنا الدائرة الداخلية التي تمثل القمر فإنهما سيرمزان للأجرام السماوية الرئيسية في المعتقد البابلي الكلداني، ويرمزان ضمناً إلى حضارة الكلدان وابتكاراتهم في مجال العلوم ومنها علم الفلك الكلداني القديم الذي يعد أساس علم الفلك المعاصر، وفي شأن يوم العلم الكلداني، فهو من أجل تكريم الملك "نوبلاصر" مؤسس السلالة الكلدانية ومحرر بابل بتاريخ 626 ق. م، لتسلمه عرش عاصمة العالم القديم⁽¹⁾.

2- الأساطير الوجدانية:

يعتبر الإنتاج الأدبي السومري في هذا الصدد بالغ الأهمية⁽²⁾ لأنه يمثل نسقاً أسطورياً يساهم هو الآخر بالمقارنة مع نصوص الأناشيد الوجدانية في تصوير إرهابات الوحدة عبر مراحل تاريخ العراق القديم السياسي، ولعل "جلجامش" كان أول ملك توحيدي، حلم بفكرة التوحيد المركزي، الذي يمتد من الخليج العربي إلى البحر المتوسط، حيث تنقل هذه الأسطورة التي وصلتنا في عدة روايات جميعها حول صراع جلجامش وانتصاره على "خُبابا" سيد غابة الأرز، إذ كان مسرح الأحداث من عاصمة سومر الكبرى "أوروك" الحمية بالأسوار، والتي يهز سكانها رؤوسهم المثقلة بالهموم، بسبب حُب سيدهم للمغامرات إلى غربي سوريا البعيد حيث وصل جلجامش ورجاله بعد سفر طويل باتجاه منبع نهر الفرات⁽³⁾، مُعلنًا: "أنا هو الملك، أنا وحدي" في خطباته⁽⁴⁾.

أوردت الأساطير أيضاً تفاصيل وافية عن سجايا هذا البطل المعروف أيضاً بـ "سليّل الوركاء"، وعن شجاعته الفائقة في الإقدام والمغامرة سواء نحو الجبال الشاهقة أو البحور الواسعة، وكيف جابَ جهات العالم الأربع، وبالغت في وصفه بأن: "ثُلثيه إله وثلثه الآخر بشر"، وعلى أنه: "البطل وسليّل الوركاء والثور المُجنّح، المُقدّم في الطليعة، وهو كذلك في الخلف ليحمي إخوانه وأقرانه، إنه المظلة العظمى، حامي أتباعه من الرجال، إنه موجة الطوفان العاتية التي تحكم

(1) - عامر حنا فتوح، المرجع السابق، ص 272-273.

(2) - محمد رشيد الناصوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، ج 1، دار الجامعة العربية، مصر، (د.ت)، ص 294-295.

(3) - علي القيم، الوحدة الحضارية بين سوريا والعراق، ع 511، مجلة الموقف الأدبي، سوريا، 2013، ص 50-51.

(4) - قاسم الشواف، المرجع السابق، ص 275.

الحجر...، وهو الذي فتح مجازات الجبال، وعبر المحيط إلى حيث تطلع الشمس، لقد جاب جهات العالم الأربع، ومن غير جلعامش يقول أنا الملك؟، ثلثا إله وثلثه الباقي بشر"⁽¹⁾.

ابتدع الكاتب الأشوري المتُمرن "أدد مُشامِر" ابن "نرجال توكولتي" رسالة على لسان جلعامش في نص عُثر عليه، و يعود إلى القرن السابع ق.م تصوراً لشخصية جلعامش التي كان قد كتبها إلى أحد الملوك: "هكذا تكلم جلعامش...هو الذي، مثل حبلٍ مشدود، من الأفق وحتى سمت السماء، يسيطر على جميع البلاد، بينما الملوك الجالسون على عروشهم، يُقبلون رجله، الملك الذي يمسك بزمام البلاد كلها، من الشرق إلى الغرب"⁽²⁾.

ذكرت الأساطير ملوك إلى جانب "جلعامش"، الذين سعوا لتحقيق الوحدة: "أين الملك ألولو الذي حكم 3600 سنة؟ أين جلعامش العظيم الذي سعى إلى الحياة الأبدية، أين هوأوا.....؟ أين إنكيدو الذي شهّر في البلاد قوته؟ أين الملوك العظام الذين فيما مضى وحتى يومنا هذا؟ لم تعد الأرحام تحمل مثلهم ولم يولد مثلهم، كذلك هو قدر البشرية"⁽³⁾.

نقتبس تمجيذاً آخر يحمل معاني الوحدة في أسطورة "إنكي" التي تقول: "يا سومر، أيها الجبل العظيم، يا بلد العالم، المولود ملكاً، الذي يضع التاج الأبدي على رأسه، المولود سيّداً، الذي يضع التاج على رأسه، أيها البيت - ياسومر - عسى أن تشيدك حظائرك العديدة، عسى أن تتضاعف أبقارك، وعسى أن تشيد حظائر أغنامك العديدة، وعسى أن لا تُعد أغنامك...الخ"⁽⁴⁾.

من نفس الأسطورة نجد وصفاً آخر لمدينة أور فحواه: "أيتها المدينة، التي تملك كل ما هو لائق، المطهرة بالماء...، يا منصة خير الجبال...، أنت خضراء كالجبل، يأور، يا من هي مزار، عسى أن ترتفعي إلى عنان السماء"⁽⁵⁾، لكونها مثلت مرحلة تاريخية مهمة في الوحدة. وفي شأن وجهة النظر السومرية حول عصرهم الذهبي نجد قصة الملحمة المعنونة بـ "إينمركار" * وأرض إرتا" والتي

(1) - فاضل عبد الواحد على، (من سومر إلى التوراة...)، المرجع السابق، ص 119-120.

(2) - قاسم الشواف، المرجع السابق، ص 443-444.

(3) - نفسه، ص 441-442.

(4) - Samuel Noah Kramer , Op.Cit, p 177.

(5) - Ibid. p 178.

*أحد ملوك سلالة أوروك الأولى، كان يحمل لقب "أن" الكهنوتي ومعناه "السيد" دون أن يحمل لقب ملك، وهو بطل أسطوري تروى ملحمة حربه مع ((سيد إرتا))، و الذي يُرجح أن يكون من الفرس - للمزيد انظر: هنري س. عبودي، المرجع السابق، ص 144.

تصف لنا حالة السلام والأمن ، إذ ورد في ترجمة بعض عباراتها: "في سالف العصور... لم يكن هناك خوف ولا فزع، ولم يكن للإنسان منافس، وفي غابر الأزمان كانت بلاد شؤبر وهمازي وبلاد سومر الكثيرة الألسنة... البلد العظيم ذا النواميس المقدسة الخاصة بالإمارة، وبلاد أور البلاد التي احتوت كل ما هو لائق وبلاد مارتو، كانت أمنة مطمئنة، وجميع الكون والناس في وحدة وألفة"⁽¹⁾.

سجلت أيضاً القصيدة السومرية الموسومة بعنوان " -اينمركار- وسيد -إرتا-" السالفة الذكر أحداثاً تنطوي على استعمال الأساليب السياسية من أجل الغلبة والقوة، التي يتبعها المعاصرون في العصر الراهن، وتذكر بأنه "كان يعيش بطل سومري مشهور اسمه -اينمركار- ويحكم في مدينة "إرك"، وهي دولة مدينة "City- States"، وإلى الشرق منها وبمسافات بعيدة، في بلاد فارس، كانت تقع دولة مدينة أخرى تسمى "إرتا" التي يفصلها عن "إرك" سبع سلاسل من الجبال، وهي فوق قمة جبل شاهق يصعب إدراكها وبلوغها، زد على ذلك أن "إرتا" مدينة مزدهرة وغنية بالمعادن والأحجار، وهي المواد التي تفتقر إليها تمام الافتقار تلك البقاع الواطئة المستوية حيث تقع "إرك"، فَلَا عَجَبَ إذا وجه "اينمركار" أنظاره الطامعة إلى "إرتا" وثرواتها، مصمماً على جعل أهلها وحكامها تابعين له، وشرع لتحقيق ذلك بشن حرب الأعصاب على حاكم "إرتا" وعلى أهلها، فأفلح في كسر روحهم المعنوية وتثييط هِمَمِهِمْ، حتى وصل بهم الأمر إلى الرضا بأن يتخلوا عن استقلالهم ويصيروا أتباعاً لمدينة "إرك"⁽²⁾، ومن خلال التمعن في القصيدة السومرية، يبدو أنه للحصول على المواد الصناعية لابد من انتهاز مبدأ الوحدة الذي يفرض التبعية على مدينة "إرتا" وبالتالي الوصول إلى مصادر تلك الثروات.

أيضاً أسهمت الخطابات الأولى الموجهة للحكام والتي جاءت في شكل ملاحم بدورها في مجال الأساطير الوحدوية، بالرغم من صبغتها الدينية، فملحمة الملك البطل "اينمركار"، عززت لدينا هذه النظرة، فقد كان "اينمركار" وحاكم إرتا، بعد أن بدأت الأزمة بين الطرفين كانت الآلهة (انانا) ملكة جميع البلدان مُضطلعة بدورها الإرشادي، فبعد أن سألها أجابته: "خاطبت اينمركار ابن الإله (أوتو) و قالت له هَلُمَّ يا (اينمركار) سأقدم لك النصيح فاعمل بنصحي وإرشادي،

(1) -سعد صائب، دور سوريا في بناء الحضارة الإنسانية عبر التاريخ القديم، ط 1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1994، ص 38-39.

(2) - صمويل كريم، المرجع السابق، ص 62-63.

سأكلمك بكلمة فاستمع لكلامي، اختر لك رسولاً حكيم المنطق من ...، ودع الكلمات العظمى التي فاهت بها (انانا) الحكيمة تبلغ إليه في...، إن (ارتا) ستدعن إلى (إرك) وإن أهل (ارتا) بعد أن يأتوا بأحجار الجبال من بلادهم، سيننون لك المزار العظيم مزار الآلهة، وسينفذون لك التواميس المقدسة في (كلاب)، ويقام لك (ابسو)* كالجبل المقدس ويطهرون لك (إريدو) كأنها الجبل...، إن أهل إرتا سيركعون لك مثل خراف البلاد الجبلية، يا صدر البيت المقدس الذي يشبه ظهوره الشمس، أنت المحبوب الذي يؤزر وُته، (يا) (اينمركار) يا ابن الإله (أوتو) لك التبجيل"⁽¹⁾.

كانت الأزمات في العصر الأكادي باعثاً على الألم والحسرة والمشاعر الجياشة لفقدان الأحبة والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ومع أن المفكرين آنذاك لم ينسوا واجبهم تجاه بلدهم في تلك الظروف غير الاعتيادية من خلال بث روح التفاؤل والأمل بالمستقبل بين أبناء بلدتهم بغية التخلص من التأزم النفسي الذي يعانيه الفرد واستعادة الشعور بالقوة المعنوية ليتمكنوا من القضاء على العدو، ومن ثم الانطلاق في عملية ما خربه الأعداء⁽²⁾، إذ يمكننا تحسس الشعور الوجودي للمجتمع الرافدي وبوضوح في الأسطر الآتية من أسطورة إيراء* "سكان هذا البلد الذي قضي على معظمهم، فليستعيدوا كثرتهم، ولتطرح أكاد رغم إضعافها بالجوثنين الأقوياء، وليستق كل واحد منهم سبعة منهم - مثل ماشية صغيرة، سوف تجعل من تجمعات سكنهم خراباً وتحول ريفهم إلى صحراء، والغنائم الثقيلة التي تكسبها منهم، سوف تنقلها إلى أشنونا، و سوف

* العنصر الذكري في العالم، يُمثل لدى السومريين المياه العذبة (المياه الجوفية) والإله الزوج لآلهة" تيامات" التي تمثل المياه المالحة، شكّل معاً المادة الأساسية التي انبثقت منها جميع الآلهة، وعُرف هذا الإله لاحقاً باسم "إنكو" وذكره بعض المؤرخين باسم "أباسون": -للمزيد أنظر هنري س. عبودي، المرجع السابق، ص39؛ Jean Bottéro, Op.Cit, p 289

(1) - كريمر، صموئيل نوح، المرجع السابق، ص ص72-73.

(2) - سعدون عبد الهادي برغش الأمير، المرجع السابق، ص356.

** يُذكر باسم "إر" أو "إيرا"، وهو الاسم الآخر لـ "نركال"، ويقوم بدور البطل، ذُكر في قصيدة تحتوي نحو 700 سطر مدون على خمس ألواح تُدعى (قصيدة أو ملحمة إيراء)، وقد ضاع ثلثها تقريباً، إذ كُتبت في حدود 870 ق.م، وتقوم بشرح المصائب التي لحقت بالمدينة بابل... الخ- للمزيد أنظر: Jean Bottéro, Op.Cit, p 294

تُعبدُ آلهة البلد سالمة إلى مقرها، وفي هذا (البلد نفسه) سوف تعيد إنزال (شاكأن* ونيسابا**) ألتهان ومن أجل (هذا البلد) سوف تستخرج من الجبال... وفرتة ومن الجبال نِتاجها، وإلى حقوله الخبرة، سوف تعيد إليها (من جديد) ثمارها، وليحمل كافة الحكام في جميع المدن جزياتهم الثقيلة إلى قلب أشنونا⁽¹⁾.

وفي أسطورة "إيرا" نُورد "انهض لماذا تبقى في المدينة مثل شيخ هرم... هل علينا أن نأكل خبز إمرأة كمن لم يخرج أبداً للمعركة...، فذهابنا إلى المعركة كأنه العيد للشباب، ومن يبقى في المدينة...، سوف تفضح أفواه شعبه ويُحتقر...، و مهما عظمت قوة من يبقى في المدينة، كيف يمكنه التغلب على من كان في المعركة..."⁽²⁾، ويبدو من هذا النص أن التراجع عن المشاركة في الحروب الوحدوية نوع من الإذلال في حالة التقاعس عن هذا المبدأ سواء من طرف الشباب أو الأقوياء في المدينة.

وفي العصر البابلي القديم، توقع المجتمع الرافدي أن ينزل عليه غضب الإله، فيرسل سنين عجاف يقل فيها المطر ومختلف أنواع القوت، فينتشر المرض ويعتري الناس الجو، الأمر الذي يعود بالسلب على تلاحم ووحدة المجتمع، حيث حفظت قصة الطوفان البابلية "أترخاسيس"*** منقذ البشرية⁽³⁾ من الفناء تفاصيل وافية عن المجاعة التي حلت بالبلاد مدة ست سنوات تقريباً: "وفي الأسفل سُدت الأنهار وتدفق الفيضان من العمق، وأنقصت الحقول وغلاتها، فأصبحت الحقول السوداء بيضاء، وأنتجت الحقول مَلْجاً. وتمردّ رحم الأرض، فلم تنبت البقول ولم تنمو الحبوب،

* إله البادية والحيوانات البرية، وهو أحد آلهة العالم الأرضي، يعرف في اللغة الأكادية باسم (سوموكان)، للمزيد أنظر: د. ادزارد وآخرون، المرجع السابق، ص 141.

** آلهة الحبوب السومرية- للمزيد أنظر: Martha t.Roth, law Collections from Mesopotamia and Asia Minor, Second Edition, Society Of Biblical literature, U.S.A, 1997, p 271.

(1)- قاسم الشواف، المرجع السابق، ص 537-538.

(2)- صلاح سلمان رميض الجبوري، أدب الحكمة في وادي الرافدين، مر: فاضل عبد الواحد علي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000، ص 50.

*** قصيدة يعني اسمها الحكيم الخارق، ويبدو أن هذا اللقب خاص ب (أنكي/ايا) وقد أُطلق على أحد عباده، وكان الإله قد أنقذه من الطوفان في سبيل الجنس البشري، وهو موضوع قصيدة ميتولوجية طويلة تقع في حوالي 1200 بيت على ثلاثة ألواح حُفظت ثلاثة أرباعها، كما أنها ذات أهمية بالغة لاسيما فيما يتعلق بعلم نشأة الإنسان - للمزيد أنظر:

Jean Bottéro, Op.Cit, p 290.

(3)- فيصل الوائلي، من أدب العراق القديم، مج19، ج1+2، مجلة سومر، مديرية الآثار العامة، بغداد، 1963، ص 30-40.

وأُنزل مرض "إسكو" على الناس، فأصبحت الأرحام ضامرة ولم تلد مولوداً، وعندما حلت السنة الثانية، أصبحوا يعانون من الجرب، وعندما حلت السنة الثالثة، تشوّهت ملامح الناس بفعل الجوع، وعندما حلت السنة الرابعة، قصُرت سيقانهم الطويلة، وانكمشت أكتافهم الواسعة، وصاروا يسرون محدوبين في الشوارع، وعندما حلت السنة الخامسة، صارت الأبنية تنظر إلى أمها وهي تدخل البيت، غير أنّ الأم لم تفتح الباب لابنها، وعندما حلت السنة السادسة، اتخذوا من الابنة عشاء لهم، ثم اتخذوا من الابن غداء لهم، ولم يشبعوا، حتى التهم كل جار جاره"⁽¹⁾.

يُلاحظ إسهام الأساطير في البعض من مراحل الوحدة في بلاد الرافدين، ويبدو لنا أنها هي الأخرى قد تمتعت بنوع من الفاعلية في تعزيز الفكر الوجداني، لكن في أسلوبه العسكري، فكما كان لها انعكاسها على المجتمع، فيبدو أن لِمراثي المدن هي الأخرى فاعليتها في هذا السياق.

3- مراثي المدن والدول:

امتاز شعراء العراق القدماء بإتقانهم هذا اللون من ألوان الشعر -الرثاء-، لما له من أهمية في استحضار المآثر واستذكار البطولات، لِمَن يحملُه حنينه إلى مرابع الوطن والأهل والأحبة من جهة وجراحات القلوب أو بكاء الأحبة وفقدان الأوطان من جهة أخرى، كونه أصدق العواطف الإنسانية وأخلدها على مرّ الأزمان ولحدّ وقتنا الحاضر، إذ قد يخاطب عزيزاً فارق الحياة أو ملكاً اقتيد أسيراً إلى بلاد الأعداء، أو أوطاناً دارت عليها عواذي الزمن، وقد يحكي واقع الحزن وطبعه الذي استقر في نفسية المجتمع العراقي قديماً، بل وحديثاً، ويتعداه هنا نحو النواحي السياسية الناجمة عن الغزو والحروب والاحتلالات والمطامع المتتالية، علاوة على النواحي الاقتصادية الناجمة عن قلة الأمطار أو الفيضانات الطارئة على البلاد، والتي تخلف من شأنها أيضاً وضعاً اجتماعياً يتراوح بين الجوع والهلاك⁽²⁾، إذ تضمنت النصوص المسمارية وصفاً من الأهمية بمكان حول مدى خطورة هذه الأوضاع على الوحدة، ومنها أن: "الجنود بلا ملك، غنم يغير راعيها، والعمال بلا مراقب كالمياه يلا مفتش ري، والفلاحون بلا مشرف كحقل بلا حارث"⁽³⁾.

(1) - فاضل عبد الواحد علي، المعتقدات السومرية والبابلية "تأثيرها في التوراة"، مج8، مجلة جمعية المؤرخين والأثريين في العراق، مطبعة الأمة، بغداد، 1990، ص49-50.

(2) - سالم يحيى الجبوري، الوصف عند البابليين "دراسة أدبية"، ع14، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة الموصل، بغداد، 2014، ص18.

(3) - شاكِر شاهين، المرجع السابق، ص90-91.

انحصرت هذه القصائد حول موضوع رثاء تدمير المدن والقضاء على السلالات الحاكمة من جانب الأعداء⁽¹⁾، إذ أصبح هذا الرثاء من الميزات الواضحة في أشعار العراقيين القدماء من سومريين وبابليين وغيرهم، لكثرة ما تعرضت له تلك الممالك من مصائب ومحن، بل وتوضح مدى انعكاس الويلات التي عانى منها الموطن على النفوس ومدى تأثيرها على الألحان والأغاني التي تُغنى في المناسبات الدينية والاجتماعية سواء في الأفراح أو الأحزان، وهذا ما نلمسه لحد وقتنا الحاضر إلى جانب الأشعار التي تأتي في شكل قصائد⁽²⁾، وتعد: مرثية تخريب مدينة أور، ومرثية مدينة سومر وأكاد، والمعروفة بمرثية "إبي سين"، علاوة على مرثية مدينة نفر، الوركاء، وإريدو، ومرثية تخريب مزار لجش من أهم المراثي في بلاد الرافدين⁽³⁾.

ورد في خاتمة لوحة كتب عليها كاتب من لجش هذه المرثية عن تخريب مدينته في أيام أوركاجينا: "رجال أوما... أشعلوا النار... واحرقوا الـ "أنتاسورا"، نهبوا الفضة والأحجار الثمينة، أسالوا الدماء في قصر "تيراش"، وأسالوا الدماء في قصر الـ "ابزوباندا"، وأسالوا الدماء في هيكل إنليل وهيكل بابار، وأسالوا الدماء في "أهوش"، ونهبوا الفضة والأحجار الكريمة...، وأسالوا الدماء في "أي بابار"، ونهبوا الفضة والأحجار الكريمة، وأسالوا الدماء في "جيكانا-نما" بالغابة المقدسة... الخ"⁽⁴⁾.

ومن الكوارث المدمرة التي لم يستطع اللّجاشي* العجوز إلا أن يبدي حولها هذه الأمنية في مرثيته بأن: "رجال أوما بإتلافهم لجش قد ارتكبوا إثماً ضد ننجرسو، وستسترد منهم القوة التي كانت مُنحت لهم، إنّ إثماً لم يحدث من جانب أوركاجينا ملك ننجرسو، وبالنسبة إلى لوكال زاكيزي ايشاكو* أوما فلتضع آلهته "نيسابا" هذا الإثم على رأسه"⁽⁵⁾.

(1) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق...)، المرجع السابق، ص 213.

(2) - سالم يحي الجبوري، (الوصف عند البابليين...)، المرجع السابق، ص 23.

(3) - شيماء عصام البلداوي وحسن جاسم محمد، المرجع السابق، ص 113-114.

(4) - ل-ديلابورت، المرجع السابق، ص 205.

* المقصود هنا رجل كبير طاعن في السن من مدينة لجش - للمزيد حول هذه المدينة أنظر: ص 66.

** لقب كان يُطلقه الأكاديون على أميرهم، ومعناه "كاهن الإله أو وكيله"، كان الحكام الحاملين لهذا اللقب يتمتعون بالسلطتين الدينية والمدنية... للمزيد أنظر: هنري س. عبودي، المرجع السابق، ص 180.

(5) - ل-ديلابورت، المرجع السابق، ص 205.

نحلل هنا إحدى الوثائق المهمة لتوضيح أوجه الأهمية لهذه المادة، نظراً لأن أغلب نصوصها تتعلق بتدمير مدينة أكاد ونهبها وتخريبها، فقد كان يُظن أنّ هذا التأليف من نوع الرثاء الخاص بالمدينة، على الرغم من أنّ صياغته وأسلوبه تختلف اختلافاً بارزاً عن تلك التأليف الممكنة بمقارنتها بها من نصوص الرثاء، مثل رثاء مدينة أور ورثاء مدينة نمر⁽¹⁾، فنقرأ في هذه الوثيقة أن كاتباً سومرياً يقدم تفسيراً للأسباب التي تكمن وراء تلك الحادثة التاريخية المشهورة التي كانت كارثة كبيرة على بلاد سومر بوجه عام، وبالنسبة إلى مدينة أكاد بوجه خاص⁽²⁾، والذي لا مراء فيه أنّ هذا الخطب الجلل والنكبة المشينة قد شغلت قلوب وعقول الكثيرين من المفكرين في بلاد سومر، واستحث بعضهم على الأقل لبحثوا عن أسبابه، وكان من هؤلاء الذين بحثوا عن أسباب ذلك مؤلف الوثيقة التاريخية التي نبحث فيها الآن، وقد وُجد الجواب الصحيح، بمقتضى وجهة نظره، وكان هذا يتفق بلا شك مع وجهة نظر السومريين ولا سيما أهل نمر، وموجز ذلك: "أنّ نرام-سين"، الملك الرابع في سلالة أكاد، قد دمر مدينة "نمر"، وارتكب جميع أنواع الامتهان والتدنيس إزاء "أيكور"، لذلك اتجه "إنليل" إلى "الجوتيين"، وجعلهم يأتون من مواطنهم الجبلية ليُدمروا أكاد، ويثأروا لمعبده الذي يُحبه، زد على ذلك أن ثمانية من الآلهة السومرية، من أجل أن يُهدئوا من غضب ملكهم "إنليل"، أصدروا لعنتهم لـ "أكاد"، وحكموا عليها بأنها ستظل إلى الأبد خراباً مهجورة"⁽³⁾.

كما قارن مؤلف الميثية بين مجد أكاد وقوتها وسلطانها السابقين يوم ظهورها وبين الخراب والدمار اللذين حَلَّ فيها عقب سقوطها في الأسطر الآتية: "بعد أن أهلك "إنليل"، وهو متهجم غاضب، أهل مدينة "كيش"، كما يفعل ثور السماء، وكالثور العظيم سحق بيت "إرك" وجعله تراباً، وبعد أن حبا "إنليل" في الوقت المناسب "سرجون" بالسيادة الملكية على البلدان العليا والسفلى، أخذت عندئذ مدينة أكاد تزاد رفاهية وعظمة يتدبير ألهتها الحامية "إنانا" ورعايتها، فامتلأت منازلها بالذهب والفضة والنحاس والقصدير وحجر اللازورد، وتُميّز شيوخها وعجائزها بسداد الرأي وحسن الشورى، وأطفالها كان يغمرهم الفرح، وكانت الموسيقى والأغاني تتجاوب

(1) - كريمر، صموئيل نوح، المرجع السابق، ص 387-388.

(2) - نفسه، ص 388.

* المعبد العظيم الخاص بالآله "إنليل" في مدينة نيبور - للمزيد أنظر: Martha t.Roth, Op.Cit , p 268

(3) - كريمر، صموئيل نوح، المرجع السابق، ص 389.

في كل مكان، وعاشت جميع البلدان المجاورة في سلام وطمأنينة، جعل "نرام-سين" معابدها سَنية الأجداد ورفع من أسوارها وجعلها كالجبال، في حين أنَّ أبوابها كانت تترك مفتوحة، كان يأتي إليها من الغرب البدو المسمون "مارتو" وهو القوم الذين لم يعرفوا الغلة، جالبين معهم خيار أبقارهم وأغنمهم، وإليها كان يأتي أيضا من "ميلوخا"، قوم الأرض السوداء، حاملين معهم بضائعهم الغربية، ويأتي إليها العيلاميون والسوبارتيون من الشرق والشمال ومعهم الأحمال، وكان يقصدها جميع أمراء السهل وشيوخه جالبين معهم الهدايا كل شهر، وفي السنة الجديدة، ثم حلت الكارثة⁽¹⁾.

وعلى العكس ورد في وثيقة المؤلف للمرثية واصفاً الوضع بأنَّ "أكاد المطروحة ساقطة...إنَّ "إنانا" المقدسة تركت هداياهم وقرابينهم فلم تمسها، لقد حلَّ الرعب في "أولماش" معبد الإلهة "إنانا" لأنها هجرت المدينة وتركته، وكالعذراء التي تهجر حجرة مخدعها. هجرت "إنانا" الطاهرة مزارها في "أكاد"، وكالحارب الشاهر السلاح أخذت تهجم المدينة وتشن عليها الحرب القاسية وعرضتها إلى هجمات الأعداء، وهكذا في مدة قصيرة، لم تزد على خمسة أيام ولا عشر أيام انتقلت السيادة والملوكية من "أكاد"، وتحزَّب الآلهة ضدها، فتحوَّلت "أكاد" خراباً، وصار "نرام-سين" يقاسي الآلام وحده، ولبس المسوح وأصبحت مركباته وسفنه مطروحة مهملة⁽²⁾.

إذن ما ينطبق على الإنسان ينطبق على الأمم والممالك، فحياة الأمم والممالك هي أيضاً في يد الآلهة ولها نهاياتها المحددة، والممالك التي تحظى بالازدهار وتكسب الانتصارات المتوالية، هي ممالك حظيت بعناية الآلهة ورضاها، فكما رضيت الآلهة عن الملك سرجون وعلى مملكته، صَبَّتْ غضبها على "نرام-سين" فأصاب أكاد الدمار في عهده، وانتهت دولته، لأنها لم تحظى بعناية الآلهة، ويبدو هنا أن التاريخ أشبه بدورات متكررة تتأرجح بين رضا الآلهة وغضبها، بين بركتها ولعنتها، والرخاء والازدهار الذي تمنحه، والدمار والفوضى التي تسببها، فكان على الإنسان أن يدرك هذا الدرس التاريخي، إذ أصبح التاريخ وظيفة تعليمية تثقيفية تُهذب سلوك الأمم وتوجهها في المستقبل، فقد استخدمت الآلهة بعض الممالك لتُعطي دروساً تاريخية لممالك أخرى، وكل مملكة كانت الوسيلة التي استخدمتها الآلهة كعقاب للمملكة السابقة، وقد تستخدم الآلهة شعباً غريباً لتوقع عقاباً على

(1) - كريم صموئيل نوح، المرجع السابق، ص 390.

(2) - نفسه ، ص 390-391.

بعض الممالك التي عصى ملوكها إرادة الآلهة، وقد تتخلى عن ملك حظيَ بِرِضاها في البداية نتيجة معصيته⁽¹⁾.

ويعزى لدينا السبب في نهاية الوحدة الأكادية حسب رواية النص السومري القديم إلى أن "نرام-سين"، في غضون السنوات السبع التي توطّد فيها حكمه، لم يَنْصع لِأمر "إنليل"، وأذن لجنده بأن يهجموا على معبد "إيكور" وينهبوا بساتينه، لقد خرب أبنية "إيكور" بفؤوس النحاس فأصبح ذلك البيت وقد تمدّد كالشباب المطروح الميت، وحلّ الدمار والخراب في جميع البلدان، وفوق هذا في الباب المُسمّى "الباب الذي لا تقطع منه الغلة"، قُطعت الغلة ودُمّر الباب المُسمّى "باب السلام" بالفأس، لقد دُنس الآنية والأوعية المقدّسة، وقطع أحراش معبد "إيكور"، وسحق ذهبه وفضته وأواني النحاس فيه وجعلها تراباً، وحمل جميع أموال مدينة "نفر" المدّمة في سفن أرساها عند معبد "إنليل" نفسه، ونقلها إلى مدينة أكاد⁽²⁾.

ويضيف النص السومري: "ولم يكد ينتهي مما فعله في "نفر" حتى هجرت...مدينة أكاد وتحولّ نهي أكاد إلى حق وجنون، أما "إنليل" الطوفان الهائج الذي لا منافس له ولا نِدْ له، فمن أجل تخريب بيته المحبوب ما أشد الدمار الذي أوقعه، إنه صوّب نظره إلى الجبال وأتى "بالجوتين" القوم الذين لا يصبرون على سلطان عليهم، فغطّوا وجه الأرض كالجراد، ولم يسلم من قبضتهم أحد، لقد انقطعت المواصلات والطرق في الأرض والبحر وفي جميع بلاد "سومر"، ولم يعد بإمكان الرسول أن يسير في طريق سفره، وراكب البحر لم يستطع أن يُبحر يقاربه...، وامتلأت الطرق باللصوص، وتحولّت أبواب مداخل البلاد إلى طين، وأخذت جميع البلدان المجاورة تُضمّر الشر في داخل أسوار مدنها، وعمّ القحط والجوع بلاد "سومر" نتيجة لذلك، والحقول الكبيرة والمراعي لم تُنتج الغلال، ومواضع صيد الأسماك لم تنتج الأسماك، ولم تنتج البساتين المسقية عسلاً ولا خمراً، ومن جراء هذا القحط ارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً بحيث أنّ الجمل الواحد لم يُشترَ به إلاّ بنصف "سيلا" من الدهن أو نصف "سيلا" من الحبوب أو نصف "ميناً" من الصوف⁽³⁾.

(1) - محمد خليفة حسن، (التفكير التاريخي والحضاري عند الشعوب ...)، المرجع السابق، ص 137.

(2) - كريم، صموئيل نوح، المرجع السابق، ص 391.

(3) - نفسه، ص 391-392.

النص الأدبي الثالث بمثابة قصيدة سومرية مطولة مثل باقي القصائد السابقة ذكرها، ومع أن هذه القصيدة ليست رثاء صرفاً، بيد أنها قريبة من هذا الباب فهي "لعنة إلهية" نتج عنها حدث تاريخي مهم وهو تدمير مدينة أكاد، ويرجع زمن النسخ لهذه القصيدة إلى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، والمرجح أن ناظم القصيدة كان من الكتبة المتضلّعين، و من مدرسة نفر، وأنّه عاش في زمن أور الثالثة⁽¹⁾، وفي الميثية المعنونة بـ "لعنة أكاد" نقتبس بعض المقتطفات:

"يا إنليل البطل عسى أن يكون مصير المدينة التي أحلتّ الدمار بمدينتك مثلها إلى الدمار، وعسى أن تمتلئ الآبار بجماجم أهلها وعسى أن لا يعرف الأخ أخاه، أيتها المدينة التي تجرأت على تدمير "أيكور" ألا تعلمين، أهنت "إنليل" ووجهت هجوماً عليه، فعسى أن يتعالى الندب والبكاء في أرجائك فتُردد أصداءه أسوارك، فاسقطي و انطرحي مترنحة مثل السكارى من ضخم الجبال، وليعدّ طينك إلى أصله... وعسى أن يعود قمحك إلى أحاديده وعسى أن تلعنه "أشنان" *، وعسى أن تعود أشجارك إلى غاباتها، وتحلّ بها لعنة الإله "نلدوا"، وعسى أن يذبح جزار البقر فيك امرأته بدلاً من الأبقار، و يذبح جزار الضأن طفله بدلاً من الضأن، وعسى أن يرمي الفقراء أبناءهم إلى الماء، وعسى أن تتمدد البغي المومس عند باب أخيها، يا أكاد عسى أن تفارق أقوياءك قنوتهم فيحلّ بهم الوهن، وأن يهلك القحط والجوع أهلك، يا أكاد عسى أن يجري في أنهارك الماء الأجاج بدلاً من مائك العذب الصافي⁽²⁾، فقراءك، عسى الجوع يجبرهم على إغراق أطفالهم الأعزاء، يا أكاد قصرك المشيد بالفرح عساه يتحول خراباً مُحزنًا، وعسى طرق مركباتك لا ينمو فيها (النبات الباكي)، وفوق ذلك في أماكن جر القوارب والرُسو، وسهولك حيث تنمو النباتات المسرة للقلب، عساه لا تنمو سوى (قصب الدموع)، ومن يقول - أريد أن أسكن تلك المدينة - لا يجد مكاناً صالحاً للمسكن، ومن يقول (سأضطجع في أكاد)، لن يجد مكاناً صالحاً للنوم"⁽³⁾.

(1) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق..)، المرجع السابق، ص218.

*أشنان: من آلهة الحبوب، كانت تُسمى في اللغة السومرية (إيمر) وهي إينة الإله (إنكي)، يُمكن التعرف عليهما من أسطورة الجدل الإلهي بين (لاحار وأشنان)، ويذكر هذا الأخير في النصوص الأدبية على أنها هي المسؤولة عن زراعة الحبوب؛ ويظهر في العصر البابلي القديم إله يحمل نفس رمز الآلهة الكتابي يُدعى (زينو)، ولكن لا يوجد ما يُثبت علاقة الإثنين ببعضهما أو تشابههما في عصور أقدم، بل ويذكر اسمها مع اسم إلهين آخرين (كوسو و باسكيل) في تشيد المعبد من عصر جوديا...الخ- للمزيد أنظر د. اذارد وآخرون، المرجع السابق، ص74.

(2) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق...)، المرجع السابق، ص220-221.

(3) - وديع بشور، المرجع السابق، ص143-144.

هكذا تحققت لعنة الآلهة على أكاد بحيث عمَّها الدمار والخراب، ومما يجدر التنويه به أن نبوءة هذه القصيدة تُصور لنا حقيقة تاريخية بالنسبة إلى مصير الوحدة الأكادية، بحيث أنقطع أي ذكر للمدينة في الألوف الكثيرة من النصوص والوثائق المتنوعة التي وصلت من عهد سلالة أور الثالثة⁽¹⁾.

ولم تمثل هذه القصيدة "لعنة أكاد" لعنة الآلهة على المدينة فقط، بل حتى على الناس حيث أنزل الإله غضبه عليهم، عن طريق إرسال جحافل من الأعداء يحتلون البلاد وينهبون خيراتها ويقتلون أهلها، وقد حملت هذه القصيدة في أبياتها حقداً عميقاً على "نرام-سين" رابع ملوك السلالة الأكادية الذي أجاز لنفسه بموجب هذه القصيدة الإقدام على تخريب وتدنيس معبد الإله "إنليل" في مدينة نفر، وتصف القصيدة كيف أن الملك الأكادي أطلق العنان لجنوده الذين دخلوا المعبد وانتهكوا حرمة وهدموا جدرانها بالفؤوس، وقد كان ذلك مدعاة من وجهة نظر الشاعر السومري إلى سخط الإله "إنليل" وغضبه، فأنزل اللعنة على العاصمة أكاد وأهلها، ويذكر الشاعر السومري بهذا الخصوص أن الإله "إنليل" أرسل ضد العاصمة أكاد جحافل الجوتيين فاحتلوا عاصمتها واسقطوا واحدة من أعظم الدول الوحدوية في حدود 2230 ق.م، ونقتبس أدناه مقطعاً من تلك القصيدة السومرية

قوم لا يخضعون وبلاد لا يحصى أهلها، بلاد الجوتيين، بلاد لا تكبح جحافلها.
هؤلاء جاء بهم الإله "إنليل" من الجبال فغطوا الأرض بأعداد ضخمة كالجراد.
وامتدت أيديهم إلى السهول وكأنها مصيلة للبهائم.
فلم يفلت من يدهم شيء ولم يهرب من يدهم أحد.
فلا رسول على الطريق ولا ملاح في قاربه على النهر.
لقد وضعوا الرقباء عند ضفاف الأنهار ووضعوا اللصوص على الطرقات.
ومداخل المدينة أصبحت تحت التراب وأطلقت البلاد صرخة حزن داخل أسوارها⁽²⁾.

يبدو هذه نهاية الوحدة الأكادية من وجهة نظر الدين والأديب السومري، إذ كان على الأرجح من الكهان، أما من الوجهة التاريخية فإنه من المعروف لدى الباحثين أن نهاية وحدتها

(1) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق...)، المرجع السابق، ص 221.

(2) - رضا جود الهاشمي، (أصالة الحضارة العراقية القديمة...)، المرجع السابق، ص 51-52.

تكمن في جملة من الأسباب لعل أهمها استنزاف قوة الإمبراطورية في الحروب العسكرية الرّادعة التي شنتها ضد القبائل المستوطنة في المناطق الجبلية إلى الشمال والشمال الشرقي من البلاد مثل قبائل "اللؤلؤبو" و"الجوتيين"، والجدير بالذكر أن هذه القبائل كانت غير متحضرة، لكنها تعلّمت فنون الحرب والسلاح من الأكاديين واستطاعت في النهاية القضاء عليها⁽¹⁾.

اختفت القوة السياسية والثقافية للنهضة السومرية بعدما دامت قرناً من الزمن، إذ امتصتها المجموعات الأمورية⁽²⁾ في المنطقة، فبالإضافة إلى أكاد، يعتبر نهاية دولة سلالة "أور" الموحدة واحداً من الأحداث البارزة في تاريخ بلاد الرافدين وذلك بسبب النهاية المأساوية التي آلت إليها هذه السلالة، فالمعروف تاريخياً أن هناك جملة من الأسباب السياسية والاقتصادية والعسكرية أدت مجتمعة إلى سقوطها، فالوثائق السومرية المعاصرة لـ "إبي-سين" آخر ملوك سلالة أور الثالثة تُشير إلى حدوث حركات انشقاق قام بها بعض حكام المدن المهمة وأدت إلى استقلالهم عن السلطة المركزية في العاصمة، كما تشير تلك الوثائق أيضاً إلى ارتفاع كبير في أسعار المواد الغذائية الأساسية كالسمن والحبوب وإلى الحاجة الشديدة للحنطة في العاصمة أور وفي غيرها من المدن الأخرى، بل وتذكر الوثائق قبائل المارتو "الأموريين" واقتحامهم الأسوار والمراكز الدفاعية التي أقامها السومريون ضد هجماتهم من كل هذه الأسباب التي مهّدت الطريق لليلاميين لأن يغزو البلاد ويسقطوا السلالة السومرية الحاكمة في أور، هذا من وجهة النظر التاريخية، أما من الوجهة الدينية فالمسألة تختلف تماماً، إذ هناك قصيدة سومرية تعرف بين المختصين بـ "مرثية أور"، يُصور فيها الشاعر المأساة التي حلّت بالمدينة نتيجة لهجوم العيلاميين الذين اسقطوا الحكم وأخذوا آخر ملوكها م "إبي-سين" في الأسر إلى عيلام، فالشاعر السومري يُرجع في قصيدته التي تزيد عن خمسمائة بيت النكبة إلى سبب آخر يختلف تماماً عن الأسباب التي ذكرناها، فهو يرى أن الآلهة العظام هم الذين قرروا ذلك المصير المأساوي للبلاد وأهلها عندما عطّلوا فيها سيادة القانون والعدل والحكم، وأقدموا على تخريب المساكن والمدن وإبادة الأغنام والماشية والمحاصيل الزراعية، ثم يذكر كيف أن الآلهة أرسلت أولاً جحافل الجوتيين لينشروا الدمار والرعب في البلاد، وفي النصف الثاني ينتقل الشاعر إلى ذكر العاصمة ويصف ما كانت تُعانيه من مجاعة قاسية، ويُصور الشاعر

(1) - رضا جود الهاشمي، (أصالة الحضارة العراقية القديمة...)، المرجع السابق، ص 52-53.

(2) - محمود شاكر، (موسوعة الحضارات القديمة...)، المرجع السابق، ج 1، ص 72.

القديم حَال "أور"، فيقول⁽¹⁾ بأن: "أور في داخلها موت وفي خارجها موت، في داخلها نحن نموت بالجوع، وفي خارجها نُقتل بأسلحة العيلاميين، لقد أخذ العدو "أور"، ورفعوا مزاج بواباتها، وها هي أبوابها مشرعة إلى اليوم، لقد داسها العيلاميون مثل سيل العرم، فتحطمت أور بفعل السلاح مثلما يتحطم إيناء الفخار"⁽²⁾.

في المقابل ترك شعراء سومر قصيدة شعرية تتناول سقوط الوحدة السياسية لأور جاء فيها "وامتلأت الطرق بجثث القتلى الذين حطمتهم الرُمح و المقامع، وظلّوا تحت وهج الشمس حتى أذابت الشمس شحومهم... تراكم الوحل في أنهار مدينتي...وما عاد الماء يجري فيها...وهجرها عمالها..."⁽³⁾، كما ورد أيضاً... أن تلك المدينة قد حُولت إلى رميم... وتصدعت جدرانها والناس يثنون، في أبوابها العالية،...حيث رميت جثث الموتى،...وفي شوارعها المشجرة، حيث كانت تنصب اللوائم، وفي كل طرقاتها...سُجّت جُثث الموتى، وفي ميادينها...استلقى البشر كالأكوام...، أور التي أكل الجوع أقويائها وضعفائها، وكوّت النيران الآباء والأمهات الذين لم يبرحوا منازلهم،...وفي المدينة هجرت الزوجة و هجر الابن وانتشرت الممتلكات في كل جانب،..لقد دمرت أور وشُرِّد أهلها"⁽⁴⁾.

يتضح من النص المدون في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد حالة الفوضى التي وصلت إليها البلاد، والحزن العميق الذي انتاب السومريين إثر سقوط مدينتهم وشعورهم بقيمة النظام الذي زال من حياتهم، ذلك أنّ الفوضى التي انتابت السومريين، قد يكون الحاكم فيها أحد الأطراف المسببة لها وبتقصيره في أداء مهامه المنوطة به⁽⁵⁾.

ومن الشرق استغل العيلاميون الفرصة، فانقضوا على مدينة أور وضربوا حصاراً عليها، رغم الأسوار الجديدة التي وصفها "أورنامو" بأنها "عالية كجبل يلمع في الشمس"، وبعد أن

(1) - رضا جود الهاشمي، (أصالة الحضارة العراقية القديمة...)، المرجع السابق، ص53-54.

(2) - رضا جود الهاشمي، (أصالة الحضارة العراقية القديمة...)، المرجع السابق، ص54-55؛ Piotr Michalowski, *The Lamentation Over The Destruction of Sumer and Ur*, Eisenbrauns Winona Lake, U.S.A, 1989, pp 59-67.

(3) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص675-676.

(4) - Georges roux, (Ancient Iraq...), Op.Cit, p178.

(5) - محمد العيهار، إرهابات التشريع في العراق القديم - الأسباب - النتائج - الإنعكاسات"، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 2013، ص111.

نهبوا المدينة تماماً وأشعلوا فيها النيران، ظهرت مراثي اعتبرت تدميرها كارثة وطنية، وأقيمت تلك المراثي بأصوات عالية، وليس هناك ما هو أكثر تعبيراً وتأثيراً على النفس من هذا النص الفخاري الذي ورد فيه: "عندما يطلع نجم السنة متجهاً إلى الغرب...، ثم ينظر في السماء...، وعندما لا تصفر الرياح...، سيكون هناك جوع كبير...، وسيلقي الحاكم مصير 'أبي سين' ملك أور...، الذي اقتيد بالسلاسل إلى إنشان"⁽¹⁾.

قدّم هذا التدمير الذي أُطبق على المدينة وصفاً جاء فيه: "امتلاّت الطرقات والأبواب بجثث الموتى، وكُدّست بها مواضع الأعداء، وتعالى أنين الجرحى وصراخهم، فلا من يُغيثهم ويُسعفهم، لقد هلك الأقوياء والضعفاء جوعاً، ومات كثير من الناس في حرائق بيوتهم، وجُرفت المياه الأطفال والرُضع، أنكرت الأم طفلها وتخلّت عنه، هجرت الزوجة ونبت الطفل، التهمت النيران المخازن والأهراء، وعملت الفؤوس الضخمة في معبد "أي - كشركال"، ذلك الطود الشامخ المنيع، دنسه العيلاميون و السوبارتيون الذي أحلّوا الدمار والخراب في المدينة"⁽²⁾.

كانت تلك الفترة نقطة تحول هامة ونهاية للعصر السومري الحديث الذي يعتبر نهضة سومر الأخيرة، وانتهى دور كياناتها السياسية في الجنوب الرافدي، وذاب السومريون شيئاً فشيئاً في بحر الجماعات الأمورية، ولم يظهر لهم بعدها أي دور يُذكر، بل حتى اسم السومريين اختفى عن مسرح السياسة وبقي في ذمة التاريخ⁽³⁾.

ويبدو من قراءتنا لهذه المراثي التي تمثل انعكاساً لما آلت إليه الوحدة، فهي تعكس المشاعر التي سببتها الصراعات الوجودية، كما تعكس انتهاك كل شيء يخص المدن، وهو الأمر الذي دفع إلى التعبير بأسلوب أدبي راقٍ، وكأنها تمثل مشاعر الجميع الذين طالتهم الكارثة، فتدمير أور على يد العيلاميين في نهاية آخر ملوك سلالة أور الثالثة 2004 ق.م الملك "إبي سين"، أوحى لسكان بلاد الرافدين كتابة مراثي تحمل الحزن والأسى والإحساس بالظلم، ويبدو لنا أيضاً أنّ النهاية المأساوية لوحدة سلالة أور الثالثة دمست باقي المدن الأخرى التي لاقت المصير نفسه من حيث الدمار.

(1) - عبد الله الحلو، المرجع السابق، ص 72.

(2) - طه باقر، (مقدمة في أدب العراق ...)، المرجع السابق، ص 215.

(3) - عبد الله الحلو، المرجع السابق، ص 72-73.

في المقابل نُظمت قصائد كثيرة في مدح الملك ليبت عشتار، والتي كانت في أغلب الأحوال لا تخلو من مقارنة الملك بإله الشمس، باعتباره الرسول على وجه الأرض، وبالتالي فهو يشيع الضوء الذي يشيعه هذا الإله، إذ ورد في تمجيدِه أنه:

ليبت عشتار الملك الشامخ.

الأمير المبجل، النسل اللائق للملوكية.

الذي يمشي مثل الإله "أتو" كضوء مُشع على الأرض⁽¹⁾.

هذا بالإضافة إلى المدائح التي يقدمها أفراد الحاشية، التي لم تخلو هي الأخرى من الرفع بمكانته⁽²⁾ حيث خاطبوه قائلين:

أوه يا ابن إنليل أنت الذي جعلت العدل يفتح.

أنت المستشار ذو القول السديد.

أنت أقمت العدالة في سومر وأكد⁽³⁾.

ومن المدائح الوجدوية المذكورة في النصوص المسمارية حول مدينة بابل، نقتبس مايلي :

بلاد الفضل وعاتقة الأغلال .

بلاد الصلح والعدالة.

بابل التي تهب السلام لشبابها.

بابل بلد عدو- خصم- الرجال الأشرار.

المدينة التي يشبع سكانها بالولائم⁽⁴⁾.

من خلال تسليط الضوء على كل ما يشير إلى تجسيد مظهر من مظاهر الفكر الوجدوي نستنتج ما يلي:

- واجهت الحكومات الوجدوية الرافدية العديد من التحديات التي تشكل تهديداً خطيراً على الاستقرار العام من حيث الوحدة الأسرية وواقع الحياة اليومية، إذ تُعرض الحروب الوحدة العائلية إلى الانفلات والتشتت، بينما يسود الحياة اليومية الخوف والقلق العام، لكن في المقابل قد

(1) - وليد سعدي الميالي وزينب عبد الله هلال، المرجع السابق، ص 765.

(2) - نفسه، ص 766.

(3) - عبد الرضا الطعان، المرجع السابق، ص 546.

(4) - ميثم مرتضى مصطفى و زين العابدين موسى جعفر، المرجع السابق، ص 74-76.

يحفز التماسك الأسري واستقرار البلاد النظام السياسي لمواصلة النشاط الوحدوي في أصقاع مختلفة من منطقة الشرق الأدنى القديم، وعلى هذا النحو تؤدي الأسرة العراقية وظائفها من الناحية الاجتماعية، إذ يتركز دورها على تنشئة الأولاد تنشئة دينية وأخلاقية في ضوء القيم والمبادئ السائدة آنذاك، علاوة على الإنجاب وماله من أهمية بالغة في ضمان مستقبل الأسرة وتوطيد الروابط بين أفرادها ودورها الكبير في استقرار الحياة الزوجية والحفاظ عليها وعن أهمية الإنجاب من النواحي الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية.

- حفلت حضارة بلاد الرافدين بالعديد من الحريات التي عجلت مختلف الشؤون الدينية كالتيعيش بين مختلف المعتقدات واللغات، وبخاصة من الناحية السياسية، إذ كان الباب مفتوح للأخذ بالآراء المختلفة والمشاركة في المجالس السياسية، خاصة تلك المتعلقة بالشؤون الحربية، إذ نلمس السير الوحدوي في الخطوات الأولى نحو الحكومة الديمقراطية من خلال الهيمنة على سلطات الملك والاعتراف بهذه المجالس مع تفعيل دورها في مسألة اتخاذ القرارات المصيرية.

- سرعان ما تعرضت الطموحات الوحدوية للعراقيل الخارجية والتدخل الأجنبي مثل الجوتيون والكاشيون... الخ، لم تُحطم معالمها الحضارية والإدارية فتصاب هذه المؤسسات بالتراجع فحسب، وإنما شجع هذا الوضع إلى إقامة أنظمة وحدوية قد لا تختلف عن العصور السابقة، إلا أن هذا التدخل قد أفرز تراثاً وحدوياً، إذ لم يكن كل سقوط في إحدى المراحل الوحدوية خسارة للدولة أو عاصمتها، بل تعدى الأمر ذلك، فكلما حُرقت مدينة وهُدمت مؤسساتها الدينية والدينية، أُبيحت البلاد بيد أعدائهم.

- يتضح لنا من خلال النصوص التي توصلنا إليها أن المجتمع الرافدي يتمتع بحس إنساني جعله يتخذ من الأناشيد والأساطير والمراثي مدعاة للتعبير عن أفراحه وأحزانه وآلامه، كما مثل لديهم وجهاً للحياة المتجددة، وما كان التذكير بحالة الماسي من سقوط دول وظهور أخرى على الساحة السياسية يُفهم أكثر إلا من خلال رثاء المدن، ومن هنا فإن التراث الوحدوي ظهر كاستجابة لأنواع من الحياة عاشها العراقيون القدماء سواء تعلق الأمر بالكوارث السياسية أو ما يقابلها من نجاحات على الصعيد الوحدوي كما هو الحال خلال عصر الإحياء السومري.

- يبدو من الأناشيد الوحدوية أنها وسيلة اتصال اجتماعي وتربوي ووطني بتعبيرنا المعاصر، والهدف منها إنعاش النفوس وإدخال البهجة والسرور وحب البلاد على المجتمع، كما تهدف إلى

نقل الحب للشعب الرافدي لبلاده ووحدتها والعالم الذي ارتبط به خارجياً، وفي المقابل تهدف إلى حَمْلُ العداء ضد سياسات دول الشرق الأدنى القديم المعارضة لِتوجهاتها الوحدوية، إذ تكمن أهميتها في كونها إحدى الوسائل التي يتم بواسطتها إحياء الماضي في الحاضر السياسي للحقبة المعاشة، وكما أنَّ الأناشيد الوحدوية تعكس حماس المجتمع العراقي القديم، فإن حذرهم من حوادث الانهيار في المراثي الذي يُسببه العدو الداخلي والخارجي يعكس الرؤيا و الواقع الاجتماعي، ويُفسر في ذلك تراجع العمل الوحدوي للمجتمع الرافدي بأكمله إلى تخليه عن الآلهة وقد نسميه في عصرنا الأخلاق الدينية.

-الملاحظ أيضاً حول الموضوع الأكثر بروزاً في المراثي هو تدمير المدينة كلها بما فيها من: الأسوار، والبوابات، والمعابد، والمواطنين، والنبلاء، والجيش، ورجال الدين، والعلامة من الناس، والغلال، الطعام، القطعان الماشية، والقرى، والقنوات، والطرق، فتصبح الحياة فيها معطلة، بل وتحدّد المراثيات هذا التدمير وما يتبعه من والويلات، والنكبات كالجوع، والبرد، وتخريب الحقول، والخوف، والتشرد، وسفك الدماء، في المقابل يتبيّن من مراثي المدن والدول أنها تعبر عن الوحدة المنشودة، والتي كانت الشكل الطبيعي للحياة السياسية في بلاد الرافدين، أما التجزئة الحادثة في بعض الحقب الزمنية فما هي إلا الشكل الشاذ لحكم البلاد، و حول هذا الموضوع يتبيّن أيضاً أنَّ الدول والممالك لا تقوم وتزدهر فتصل إلى أوج عزّها ووحدتها حتى تأتي ساعة انحدارها.

من هذا المنطلق يبدو أنَّ التراث الرافدي الوحدوي قد خدم الإنسانية العراقية القديمة من خلال تحقيق توحيد بين أحاسيس البشر ومختلف عناصر الحياة في المجتمع الواحد وبين المجتمعات المختلفة، وحاولت التمكين من التعبير عن الفرد والجماعة في تنسيق ووحدة من خلال فعاليات زعماء الوحدة والشعوب القاطنة في أراضيهم وتحت لوائهم، دون أن ننسى أنها اقتبست من حضارات جيرانها أو تواصلت معها في إطار التفاعل الحضاري أو ما نسميه (التأثير + التأثير).



خاتمة

توصلنا بعد دراستنا لموضوع أبعاد الفكر الوجدوي في بلاد الرافدين إلى النتائج التالية:

- الملاحظ حول هذا الموضوع، أنّ المصادر المادية والأدبية قد ساهمت في التمكين لهذا الفكر في التاريخ القديم عموماً وتاريخ العراق القديم خصوصاً، وكما أولته اهتماماً كبيراً، فقد صار السند الأساسي المعوّل عليها عند تتبع أو دراسة وكتابة تاريخ وموضوعات هذا النشاط الوجدوي لحكام بلاد الرافدين من حيث الأبعاد والتأثيرات المختلفة وفي شتى الميادين، فحسب رأينا تكشف لنا المصادر بدورها بعض الجوانب الغامضة أو الناقصة، ومنها السكوت الذي يتحرج ملوك الوحدة من ذكره، لاسيما ما تعلق بالهزيمة والانتكاس أو التراجع نتيجة الفشل، والاهتمام بذكرهم للإيجابيات المشاريع والانجازات الوجدوية الناجحة مع التغاضي عن سلبياتها.
- كان للعامل الجغرافي أثره على تكون فكرة الاتحاد الرافدي، إذ أثرت البيئة الطبيعية والجغرافية في هذا المجال، فكان للشعوب من القبائل والأقوام التي عاشت أو جاورت المنطقة دور في خلق نوع من الصراع يشق أشكاله وعبر مراحل التاريخ كنتيجة لهذا الفكر، بل كانت الفاعلة في رسم تأرجح الوحدة الجغرافية بمحدودها بين التقلص والامتداد.
- إلى جانب العوامل الجغرافية، نلاحظ دور الهجرات والحركات السكانية للأقوام السومرية والأكدية والبابلية والآشورية والكلدانية، ومراكز الاستيطان أثرها الكبير على الصعيد الوجدوي، حيث ساهمت في صياغة وحدتها بين الصدام والاحتكاك لخلق نوع من التعايش.
- يمكن وصف هذا النوع من الفكر على أنه منهج سياسي اعتمده حكام العراق القديم بهدف جمع شمل الفئات القاطنة والوافدة إليها، وتوحيدها في منظومة سياسية واحدة، رغم اختلاف أصول الأصقاع الوافدة منها، والتي قد تؤدي من شأنها إلى التفريق والعصبية أو التشتت السياسي، ناهيك عن تعدد لغاتها ومعتقداتها.
- وجدنا في هذا الصدد أنّ السومريين لم يعنوا بتشكيل دولة موحدة تجمع شتات دويلات المدن، إذ عاشوا في شقاق دائم وحروب دامية فيما بينهم، وعندما تنبهوا لضرورة التوحيد، نجد أنها كانت تقطع أشواطها الأخيرة، حيث جاءت الوحدة السومرية في وقت متأخر جداً، وضمن شروط لم تسمح لها بالحفاظ على مكتسباتها، واستطاع بعدها الأكاديون والبابليون والآشوريين والكلدانيون التعاقب عليه، وأن يحملوا هذا شعار السياسي كلما ارتفعت قوة أحدهم وتراجع بعضها أو غالبيتها.

- كانت العناية من الناحية السياسية لزعماء العراق القديم بقيام الدولة الواحدة التي تتخذ شكل الدولة المركزية للأمم مختلفة داخل رقعة جغرافية واحدة من خلال كسر الحدود السياسية القديمة والعمل على إسقاطها كلها، إذ كانت التقسيمات الإدارية المناوئة من الداخل تعتبر بمثابة معارضة لهذا المشروع السياسي على الصعيد المحلي، ومُعطلة لإطموح الحكام على الصعيد الخارجي في توسعها على نطاق أوسع وأشمل.
- كان الدور الخطير للفئة الدينية أن جعلوا الدين وسيلة لإخضاع الحكام، وبحكم العلاقة الطردية بين الفئة الدينية المتمثلة بالكهنة والسلطة السياسية، كان التنافس بين السلطتين في أوقات معينة على أشده، وبعد أن انفصلت الثانية عن الأولى من ناحية الوظائف والمهام التي توجب على كل طرف أن يؤيد الآخر، ففي كثير من الأوقات كانت السلطة السياسية على درجة كافية من القوة بحيث استطاعت أن تجعل السلطة الدينية تسير تحت جناحها، وبذلك تحسنت العلاقة بين الطرفين.
- أما في الأوقات التي تكون فيها السلطة السياسية ضعيفة، فإن السلطة الدينية كانت تحاول الاستفادة من هذا الضعف لتجعل من الملك تابعاً لها، وإلا قامت بإبعاده عن ممارسة السلطة ونشاطه الوحدوي، لكن هذا لا يعني أن السلطتين لم تتعاونوا في أوقات أخرى، ذلك لأن الكهنة كانوا مستفيدين من الامتيازات الكثيرة التي كانوا يتمتعون بها جراء خدمتهم للآلهة، فقد شكلت هاته الفئة مجتمعاً مغلقاً له قوانينه وحقوقه وطقوسه الخاصة.
- ولاشك أن سياسة التوحيد للحكم قد وضعت العديد من الحكام وعلى رأسهم همورابي أمام وضع جديد، بحيث يفرض عليهم أن يكون بمستوى الأحداث، باتخاذ إجراءات في غاية الأهمية، ومنها فصل السياسة عن الدين، لأن دولته تضم قوميات وأديان مختلفة، وإزالة أسوار المدن التي خضعت لسيادته، لكي لا تكون تلك الأسوار سبباً مشجعاً يدفع سكان المدن للتمرد على السلطة المركزية، فضلاً عن تحقيق العدالة في البلاد وإيجاد قانون موحد لسكان دولته بما يضمن المحافظة والاستمرارية لسياسته الوحدوية.
- توضح الأدلة النصية أن حوليات وكتابات الحكام، لاسيما تلك التي تطرقت إلى عبارات التباهي والتفاخر من خلال تبني ألقاب وحدوية، لم تكن في أغلب الأحيان لأغراض دعائية من أجل إظهار القوة والشدة وإثارة روح الفزع والرغبة في نفوس الأعداء والأقوام المتمردة

والمتحالفة ضد التوحيد بمفهومه القديم، بل نجدها مملوءة بالتعظيم اللامتناهي، وبالمبالغة والإدعاء الواضحين في مضامينها، لكن هذه الألقاب مثلها مثل الخطابات الوحدوية كانت بمثابة القوة الموحدة للبلاد والأعظم فعالية.

• ارتكز مشروع التوحيد في بلاد الرافدين على الخطاب العام والموحد لجميع الشعوب والفئات، حيث نجده من أنواعه:

-الخطاب العسكري لتحقيق الوحدة باستخدام أسلوب القوة وفرض التبعية.

-الخطاب السياسي الذي يهدف إلى التوافق والتراضي وإقناع الفئات الشعبية.

-خطاب العدالة الذي يضع مختلف الأقوام على اختلاف أصولها ومشاربها أمام القانون.

• وما يمكن استنباطه من النصوص المختلفة:

-أنها تنادي بضم الأرض إلى الأرض والبشر إلى البشر، ولو أنه يحمل صفة الغالب والمغلوب، إلا أنه يركز بشكل عام على دور الأداة العسكرية أكثر منه على دور الجماهير أو الشعوب كما هو الحال اليوم في واقعنا المعاصر، إذ اعتمد الخطاب الوحدوي من الناحية التطبيقية أسلوب التدخل السياسي والعسكري المباشر باعتباره الأسلوب الناجح في العملية الوحدوية، دون اللجوء إلى الوسائل السلمية كالحوار أو التفاوض كونه الأداة الأفضل في مقاومة التجزئة الإقليمية.

-اشتمل الخطاب الوحدوي على عبارات وكلمات لا تؤدي معنى الوحدة إلا باستخدام القوة، إذ تثير من شأنها انفعالات المجتمع الرافدي لهذا التوحيد من جهة، وتثير انفعالات الجيش للمحافظة على هذا المبدأ، بل وقد تُحدث تأثيراً نفسياً بالغ الأهمية كالشعور بهوية الدولة والمجتمع.

-يسعى الخطاب الوحدوي لتحطيم المعنويات الهادفة إلى التمرد على السلطة وعلى الحرب ضدها، كما يمثل هذا الأسلوب نوع من الدعاية بمفهومنا المعاصر، وهو الاستجابة الشعبية للسلطة الحاكمة بدلاً من الاستجابة للدعاية التحريضية، مع الغياب التاريخي لهذه النصوص المغرضة، ولو أن الثورات الداخلية والاجتياح الخارجي قد شكّلت سبباً في عرقلة مسيرة ومشاريع التوحيد في أبعاده المختلفة، ومع أن ظاهره الدعوة إلى التحرر والتخلص من الدخيل الأجنبي، إلا أن هدفه الباطني فرض الهيمنة وتعزيز فاعلية التوحيد ضمن المحيط الخارجي.

- تباهى الحكام في نصوصهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، طبقاً لما ورد في مقدمات وخواتم القوانين العراقية القديمة، بأنهم نقلوا إلى مجتمعاتهم قواعد الوحدة في خطاباتهم، ليعلنوا عن تمسكهم واعتزازهم بالقيام بهذا الجانب البالغ الأهمية وإعطائه شرعية سياسية وصبغة دينية، خصوصاً وأن ذلك كان من شأنه أن يرقى بهم إلى مستوى الأنبياء الذين يوحى إليهم - الاختيار الإلهي -، مما يزيد من هيبتهم ويسهل لهم احتفاظهم بالسلطة السياسية، ويبدو أن هذه الصورة التي كان الملوك يطمحون أن يجدوا لأنفسهم بها مكانة.
- يتأكد من خلال النصوص على أن سياسة قتل الملوك، أو موتهم المفاجئ، كانت له أبعاد نفسية بالغة الأهمية، كونها إعلاناً للنصر أمام الشعوب الأخرى من جهة، وتمزيقاً للوحدة من جهة ثانية، إذ أن رمز البلاد إذا كان مصيره الموت أو القتل فإن مصير الوحدة صار في وضع لا يحسد عليه.
- تعبئة الشعوب العراقية لمواجهة التحديات والأزمات التي تنشب في داخل كيانه السياسي، كانت من أولويات الملوك، وهذا الأمر يتم بطرق مختلفة، فكان الدين من أبرز العوامل التي استخدمت في تحفيز الشعوب على القتال والمواجهة، بتوظيف العديد من أسماء الآلهة في نصوصهم وألقابهم وخطاباتهم، إذ لا تحمل في معانيها أفراحاً وأحزاناً أو سلام يقدر ما تدعو إلى الحروب الهادفة لتحقيق مجتمع موحد.
- وإذا كان هدف الحملات العسكرية هو المحافظة على وحدة العراق القديم، فإن من أبعادها اعتبار المؤسسة العسكرية الرافدية إحدى أدوات السلطة والوحدة، ذلك أن اختزال قيادة الجيش في السلطة السياسية هو ضمان لأمنها وحماية وجودها في الداخل بالإضافة إلى مواجهة الأخطار الخارجية وهو ما أفرزته الخطابات الحربية.
- لعلّ الغالب في المشروع الوحدوي الرافدي في طابعة العام وبما لا يقبل الشك أنه مشروع عسكري طغى عليه استخدام الأسلوب الحربي للوقوف ضد نقيض حالة التجزئة، وبما أنه يعمل على إسقاط الدول المناوئة والمعارضة ومؤسساتها وضمها ضمن دولة القطر الواحد، فإنه البديل الوحيد والأنجح بالمقارنة مع أسلوب الدمج السلمي الهادف إلى إتحاد وحدة جزئية بين قطرين أو ثلاثة أو إتحاد بين هذه الأقطار.

• شمل التهديد والتحدي الخارجي مختلف جهات وجبهات حدود العراق القديم، وجعلتها تلجأ إلى الحفاظ على وحدتها في الداخل مع السعي إلى تحقيق نجاح خارجي، وليس هذا بمؤشر حقيقي للدفاع عن مصلحة البلاد السياسية بقدر رغبة حكامها في تحقيق الحد الأدنى من الاستقرار في الداخل ومع بلدان الجوار التي ضمتها إلى وحدتها، ونزعتها لإضم الأقاليم والبلدان التي تحاول إسقاط مشروعها قبل أن يصل أراضيها.

• في المجال الاقتصادي أدى مشكل جغرافية الأراضي الزراعية وتوزيع المياه إلى النزاعات الداخلية ونشوب الحروب، الأمر الذي يقتضي من زعماء الوحدة تعديل سياساتهم الاقتصادية حفاظاً على هذا القطاع لارتباطه بالسلطة المركزية وعلى قطاع المياه الحيوي بإيصاله إلى أراضي القرى والمدن.

• إذا كان المجتمع الرافدي موحداً في المجال العام وخاصة السياسي، فقد كان يشجع على الاختلاف في المجال الاقتصادي من حيث نوعية الانتاج، وقد ترتب عن ذلك توحيد النظم المختلفة الزراعية منها والصناعية والتجارية التي تخدم هذا المشروع الوحدوي، إذ يلاحظ في مختلف العصور التاريخية أنّ التقلبات السياسية والتغيرات العرقية التي شهدتها منطقة بلاد النهرين قد سايرت مسألة المحافظة على وحدة نظمها الاقتصادية، ففي هذا الصدد كانت العوامل - الري والزراعة وزيادة السكان الناجمة عن سياسة التوسع الوحدوية بمثابة عوامل استقرار وصراع في الوقت نفسه، فعانت السلطة السياسية مسؤولية توزيع الأراضي وتحديد مساحاتها، وإيصال المياه إلى الأراضي والمدن والقرى بهدف الحيلولة دون الصراعات المستمرة وتنظيم الحياة.

• نجد أن النصوص الاقتصادية في صياغها العام تهتم بتقوية وتثبيت السلطة في يد الفرد الواحد، وتجعل الحاكم محل تقدير واعتبار لدى جميع المزارعين، إذا يبدوا من النصوص أن القناعات قد ترسخت لدى الجميع بدوره في تأمين الخير والرّفه للجميع، وبأنّ كل شيء مرتبط بالحاكم، فيفضله يتأمن إصلاح الأراضي، والإنتاج، وتكون الوفرة في الغذاء، علاوة على أمن الأفراد واستقرارهم في أراضيهم الزراعية، وبذلك يتم تأمين أمنهم من اعتداءات الخارج بتنظيمه الجهود لصد أي عدوان خارجي، وينتج عن هذا الأمر الانصياع لأوامر الحكام الزراعية.

- لاحظنا من خلال معاينة النصوص التجارية بأن التجارة الخارجية بين بلاد الرافدين ودول الشرق الأدنى القديم كانت سابقة للحملات العسكرية الوحشية، وقد ساعدها في ذلك موقعها الجغرافي، فكانت الدول المحيطة بها بمثابة مصادر للمواد الخام من أخشاب ومعادن وأيدي عاملة ماهرة، فلا شك أن يكون ضم تلك الدول إلى أراضيها قد يرفع من مستوى المعيشة في بلاد الرافدين وعلى زيادة تأثير انتشار الوحدة الحضارية للمنطقة الرافدية في الخارج.
- وتعتبر الأوامر التي يصدرها الملوك والحكام في المجال الاقتصادي حول الأراضي الزراعية أو مشاريع الري بمثابة إجراءات احترازية تقتضي العناية والأهمية في ربط الأرض والمياه بعضها ببعض، استكمالاً للتوحيد، وفي العادة هي قرارات تهدف إلى التقرب من السكان من أجل إظهار أنفسهم بمظهر المختلفين عن سابقيهم في هذا المجال، لكي يحوزوا حب الرعية وثقتهم، كما تصدر في أوقات معينة بعض القرارات لمعالجة أمور طارئة مثل: تثبيت أسعار الضرائب أو تخفيضها أو الإعفاء منها بالإضافة إلى فرض عقوبات أو استرداد أرض وما إلى ذلك، لكن قد يحقق التوحيد نوع من الثراء من خلال فرض الضرائب على المواطنين للدولة، ونوع من الهدوء والاستقرار من خلال تخفيضها أو إعفاءهم منها في حالات معينة.
- نشير أيضاً إلى أنّ الاتصال العراقي القديم مع الخارج في المجال التجاري قد عايش الانقطاع في بعض محطاته التاريخية وبخاصة إبان صراع الحكومات أو الاجتياحات من قبل الشعوب، فانعكس الوضع الحدودي سلباً على المنطقة، وعلى سياسة دمج أو ضم مناطق تحت هذا الشعار، ومن هنا أفرز هذا الواقع ومنذ وقت مبكر ضرورة تنظيم الأمور السياسية والعسكرية، ودفع الحكومات المتعاقبة على الساحة الرافدية إلى فرض سلطتها على المناطق المجاورة، وحتى الأبعد، وقد تكون الغاية لدى زعماء الوحدة من العمل التجاري الخارجي تحقيق وحدة مشرقية كانت التجارة الخارجية والأساليب العسكرية أهم أدواتها.
- بهذا الشكل استطاع الاتحاد العراقي القديم في إطار التبادل التجاري إقامة علاقات دولية في إطار سياسي واقتصادي معيّن، وفي المقابل لاحظنا أن التوسع الخارجي يهدف إلى الحصول على الإمكانات الاقتصادية المختلفة كي تجعل من موارد تلك الدول المستهدفة وخاصة الموارد الصناعية دافعاً يُعزز وحدتها، إذ تعزّز القطاع الصناعي من خلال تطور الحياة السياسية لبلاد الرافدين في طابعها الحدودي، ولتأمين الحياة الاقتصادية نجد دويلات المدن كما بينته النصوص

تسير أيضاً في اتجاه دعم عوامل التوحيد في الميدان السياسي، إذ كَوّن حكامها ما يُسمى بالمركزية الاقتصادية بتزويد المنطقة بالمعادن الضرورية.

• كانت الأسرة في المجتمع العراقي القديم مبنية على أسس الاتحاد العائلي والروابط القوية، لكن قد تساهم الأوضاع السياسية والاقتصادية والأحوال الاجتماعية علاوة على الحروب المدمرة في زعزعة استقرارها ووحدتها، وكما هو معروف فإنّ الأبناء الذكور من الأسر العراقية القديمة، لاسيما الفقيرة وغير المتّكئة اقتصادياً قد شكلوا عوناً مادياً لِأسرهم مع رب الأسرة والزوجة للوقوف ضد تشتت الوحدة العائلية، مشكلة منظمة اجتماعية تتكون من أفراد يرتبطون بروابط دموية وروحية واجتماعية وأخلاقية تتمتع بها وفق أنظمة وعلاقات وطقوس سلوكية يقرها المجتمع الموحد ويبرز وجودها.

• بالاستناد على الفكر الوحدوي في أبعاده الاجتماعية، يمكن وصف الحياة اليومية السائدة بين خليط السكان المحلي والأجنبي قد سادها نوع من الفوضى والاستقرار بحسب طبيعة الوضع السياسي والعسكري لكل حقبة وحدوية، لكنها تختلف ما بين الطبقات العليا في البلاد والطبقات الاعتيادية، وقد يعني استمرارية الوحدة لمدة طويلة من الزمن نجم عن اعتراف السكان بهذا الفارق.

• وفي المجال الاجتماعي دائماً، يهدف المشروع الوحدوي إلى دمج مختلف الجماعات المتعددة وغير المتجانسة، فهو يعمل على المساواة والتوفيق بين مختلف الفئات المختلفة طبقياً، وتكون الدولة نفسها الوكيل عن هذه العملية بوصفها حكماً أو فيصلاً محايداً وليس منافساً، لكن له مصالحه المعينة والخاصة التي تهدف إلى التمييز أيضاً بين الفئات الاجتماعية دون مراعاة لهذا التناقض في ظل الوحدة ودون مراعاة لفئة طبقية في المجتمع على حساب طبقية أخرى، والحد من التمايز الإقليمي المُشجّع على الانفصال داخل الوحدة الكبرى للبلاد، مع مراعاة مسألة الاختلاف العرقي والديني واللُّغوي بذوبان أفرادها في الطبقات الاجتماعية.

• لا ننسى أيضاً أنّ المجتمع الرافدي متعدد الإثنية وهو ما سبب في أن تكون السلطة منتشرة وموزعة بين أسر سياسية وجماعات نافذة في المجتمع، لذا برز دور عامل الوحدة لديهم بوصفه الحل الأمثل كرؤية سياسية قديمة ترمي إلى تنظيم العلاقات بين الجماعات المكوّنة للمجتمع

المختلف حتى لا تصبح علاقات عدائية تحظى بالتمايز، وبالتالي التوفيق بين المصالح المتباينة لتركيبية المجتمع الرافدي.

- انبثاق الفكر الوجدوي من طبيعة أنظمة الحكم، ومن طبيعة التركيب السكاني الذي ضم عناصر متباينة ومختلفة في العديد من المجالات، جعل هذا الخليط البشري يُشكل حاجزاً صلباً أمام تحقيق وحدة اجتماعية أكثر شمولية، فكان من بين مساعي الحكام التطلع على الوضع الاجتماعي ومراعاة كيفية استقراره مع السلطة من خلال الجمع بين مجموعات الشعوب، وبعث روح الوحدة في حسم المنازعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد حاولت مراعاة تقاليدها التي ما تكاد تتفق في طبائعها وتعايش حتى تختلف علاقاتها الاجتماعية.

- عمل المسار الوجدوي الرافدي القديم على تنظيم البنية الاجتماعية، لكنه في الوقت نفسه كانت الفئة المهيمنة في قمة السلم السياسي والاقتصادي هي النافذة في المجال الاجتماعي، وهو ما قد جعل باقي الفئات تعيش مع بعضها دون تصادم فيما بينها، لكنها قد تثور أحياناً ضد الأنظمة الحاكمة.

- ومن الأبعاد الوجدوية في المجال الاجتماعي تحقيق وحدة المجتمع من خلال توحيد القوى المتفرقة والتكتلات المتناحرة، التي فرضتها سلبيات الطبيعة البشرية، واختلاف اللغات والعادات وحتى المعتقدات، ومن بينها التعالي والرغبة في القيادة والتسلط، وكان في هذا التوحيد ضرورة إنسانية للحياة الأسرية واليومية.

- تركت الحركات الوجدوية أثارها في المجال الديني، إذ لاشك أن مختلف الأنظمة السائدة في مراحل تاريخ بلاد الرافدين نجد لكل منها إله رئيسي في مرحلة معينة من تاريخه، لكن ذلك لم يمنع من وجود آلهة ثانوية إلى جانبها، ويبدو أن فكرة الاتحاد الرافدي قد راعت التعددية الدينية في ظل الوحدة، فهو لم يفرض عقيدة واحدة كما هو الحال في النظام الوجدوي سواء في استخدام أسلوب الضم أو الدمج السياسي، حيث لوحظ احترام المعبودات السائدة في كثير من فترات تاريخ العراق القديم عند إلحاق مناطق معينة، وبالتالي تكون مشكلة الوحدة ذات طبيعة سياسية واقتصادية واجتماعية، إذ لم يستطع تأثيرها على المجال الديني بمعتقداته ومؤسساته أن يحدث فاعلية عليها سوى فرض التبعية أو فصلها عن السلطة السياسية.

• احتلت الأناشيد الوجدية دور هاماً في مدح تاريخ البلاد ونضاله الوجدوي وزعمائه اهتماماً كبيراً من طرف المجتمع الرافدي، إذ تكمن وظيفته داخل الوحدة الجغرافية والسياسية التي تتصف بالتعدد الديني، واللغوي، والإثني في إحياء التراث والتحسيس بالشعور الحماسي العام كما نراه اليوم في عصرنا الحالي.

• إن المراثي التي تنشد سقوط الدول والمدن إنما جاءت تخليداً لاسترجاع الذكريات التاريخية للنهضة الوجدية في مراحل معينة، وهي مراثي كانت توجه للمجتمع حول سياداتها القديمة، لكنها عاينت السقوط الواضح لدول وملوك الوحدة كأنموذج تاريخي، كما أنّ الغزاة الأجانب الذين ذكروا في هذه المراثي يمثلون أعداءً تقليديين للمنطقة، والتركيز على ذكرهم في المراثي ربما كان لاستذكّار حالة التحضر الوجدوي مقابل الواقع المتخلف والهمجي الذي يعتمد على الأعداء كأسلوب في التدمير والتخريب، إذ تعبّر مدوناتهم عن واقع حياتهم ومعاناتهم، التي عكسوها بالتشبيهات والنعوت المختلفة، والمستخلصة من تجربتهم الأدبية التي تعد حصيلة شعب بأكمله.

• أخيراً إنّ الفكر الوجدوي في بلاد الرافدين قد مرّ بمخاض عسير في محطات مسيرته التاريخية جميعاً، علاوة على حيلولة الثورات والعوائق المختلفة و الأيديولوجية الانقسامية في مراحلها المختلفة، إذ شكّلت عتبة تذبذب الأنظمة أساس الانقسام و ولدت التحالفات كبديل عن التوحيد السياسي، ومع هذا فقد أرسى الفكر الوجدوي القديم دعائم النظم السياسية التي أصبحت فيما بعد الأساس الذي انطلقت منه الأنظمة السياسية الوجدية على مرّ العصور التاريخية، كما أرجو أن أكون قد وفقت في عرض الموضوع في صياغة الفكري دون التركيز على الحوادث التاريخية من أجل تفهم الحاضر، لأنّ التاريخ يسرد أحداث نخبة قليلة العدد من رجالات هذا الفكر ضمن مجتمع يتجاوز العد، فجذور أنظمتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية تمتد عميقاً في تربة الأجيال الماضية، وعلينا إذا أردنا فهم وضعنا الحاضر أن نرجع إلى تلك الجذور التي جاءت منها وأن نتبع نشوئها إلى يومنا هذا، إذ نلاحظ في عصرنا الحالي الأهمية لهذه المواضيع باعتبارها من الأمور الفاعلة التي تحتلها الأمة، كما نتمنى أن يكون بمثابة رؤية تحليلية للغد، وكل أمني أن يهتم القارئ العادي والمتخصص الأكاديمي والمعنيون من الباحثين في التاريخ القديم بمثل هذه المواضيع المجسدة للفكر الوجدوي.



البيبليوغرافيا

أولاً-المصادر:

أ- المصادر الدينية:

- 1- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- 2-الكتاب المقدس (العهد القديم)، تر: مجموعة من علماء اللاهوت، دار الكتاب المقدس، بيروت، 1995.
- 3-الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد)، ط 8، دار الكتاب المقدس، مصر، 2012.

ب- المصادر العربية:

- 1- أورسيوس، تاريخ العالم، تر-تح: عبد الرحمان بدوي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.
- 2-زينوفون، حملة العشرة آلاف " الحملة على فارس"، تر: يعقوب أفرام منصور، (د.د.ن)، بغداد، 1965.
- 3-ل. ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين (الحضارتان البابلية والأشورية)، تر: محرم كمال، مر:عبد المنعم أبو بكر، ط2، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1997.
- 4-نوح كريم صمويل، من ألواح سومر، تر: طه باقر، مر: أحمد فخري، مكتبة المشي، بغداد، 1956.

ج-المصادر الأجنبية :

- 1-Diodore de Sicile, **Bibliothèque Historique**, trad par M.Ferd.hofer, tome1, Charpentier Libraire-éditeur, Paris, 1846.
- 2-Hérodote, **Histoires**, Livre I, traduit par : Legrand, Les belles lettres, paris, 1932.
- 3-Strabon, **la géographie de Strabon**, livre XVI, trad par: Amédée, Hachette, Paris, 1880.

ثانيا- المراجع:

أ- المراجع العربية:

- 1- أبو الصوف بهنام، قراءات في الآثار والحضارات القديمة، مر: الأب ألبير أبونا، منشورات دار نجم المشرق، بغداد، 2008.
- 2- أبو الصوف بهنام، العراق "رحلة الأرض والحضارة والإنسان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1993.
- 3- أبو الصوف بهنام، التاريخ من باطن الأرض "أثار وحضارات وأعمال ميدانية"، مطابع شركة الأدب، عمان، 2009.
- 4- إبراهيم نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم "حضارة الشرق القديم" (العراق- فارس)، ط2، ج6، دار المعارف، لبنان، 1967.
- 5- إبراهيم حياة محمد، نبوخذ نصر الثاني (604-604 ق م)، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983.
- 6- آل ثاني علي جاسم، الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ "صلات دلون بأمورو وبالأمويين"، ط1، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 1997.
- 7- آل جاسم محمد علي رضا، الائتمان والصيرفة في العراق القديم، مطابع دار التضامن، بغداد، 1964.
- 8- أحمد محمد خليفة حسن، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998.
- 9- أحمد محمد خليفة حسن، التفكير التاريخي والحضاري عند الشعوب العربية السامية القديمة، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2000.
- 10- أيوب إبراهيم رزق الله، التاريخ الروماني، ط1، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 1996.

- 11- أمهز محمود ، في تاريخ الشرق الأدنى، مطبعة سور الأذربكية، بغداد، 2010.
- 12- أبيض ملكة، التربية في الوطن العربي " منظور قومي تاريخي"، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011.
- 13- الأعظمي على ظريف، تاريخ الدول اليونانية والفارسية في العراق، مكتبة الثقافة الدينية، الإسكندرية، (د.ت.).
- 14- الأعظمي محمد طه، همورابي (1792-1750 ق.م)، شركة عشتار للطباعة والنشر، بغداد، 1990.
- 15- الأحمد سامي سعيد، المدخل إلى تاريخ اللغات الجزرية، منشورات إتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1981.
- 16- أعبيزة إدريس، البابليون والآشوريون تاريخ وحضارة "آداب الشرق القديم وتلاقح الحضارات"، ط1، مطبعة فضالة المحمدية، الرباط، 2005.
- 17- أشير أدي، تاريخ كلدوا، ج 1، دار سر كيس أغاجان، بغداد، 2007.
- 18- الإدارة الثقافية للأمانة العامة لجامعة الدول العربية، المعالم الأثرية في البلاد العربية، ج1، مطابع مذكور، القاهرة، 1970.
- 19- بكة نجاح، دراسات في محلمة جلجامش "بحث اجتماعي- تاريخي-تحليلي لتاريخ العراق من خلال الملحمه"، دار الطريق للنشر والتوزيع، بغداد، 2002.
- 20- باقر طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة "تاريخ العراق القديم"، ط2، دار المعلمين العالمية، بغداد، 1995.
- 21- _____، مقدمة في تاريخ الحضارات "الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين"، ط1، ج1، دار الوراق، بيروت، 2009.
- 22- _____، مقدمة في أدب العراق القديم، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1976.

- 23- —، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، تح: جواد مطر الموسوي وصباح جاسم الشكري وآخرون، ط1، بيت الحكمة، بغداد، 2010.
- 24- باقر طه وآخرون، تاريخ العراق القديم، ج2، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1980.
- 25- بهنسي عفيف، التراث الأثري السوري، مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2014.
- 26- البيطار نديم، المثقفون والثورة "كتاب الوحدة"، سلسلة ثقافتنا القومية، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، المملكة المغربية، 1987.
- 27- برو توفيق، تاريخ العرب القديم، ط2، دار الفكر، دمشق، 1996.
- 28- بشور وديع، سومر وأكاد (د-د-ن)، دمشق، 1981.
- 29- بشور أمل ميخائيل، تاريخ الإمبراطوريات السامية في بابل وأشور، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2008.
- 30- الجنابي قيس حاتم، تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2014.
- 31- الجبوري صلاح سلمان رميض، أدب الحكمة في وادي الرافدين، مر: فاضل عبد الواحد علي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000.
- 32- جبور باسم ميخائيل، ملاحم تاريخية من الأدب الأكادي، الهيئة العامة للكتاب، بغداد، (د.ت).
- 33- جميل فؤاد، الطوفان في المصادر "السومرية - البابلية - الآشورية - العبرانية"، المركز الأكاديمي للأبحاث، العراق، 2014.
- 34- جود الله فاطمة، سوريا نبع الحضارات، ط1، دار الحصاد، دمشق، 1999.
- 35- الحلو عبد الله، صراع الممالك في التاريخ السوري القديم بين العصر السومري وسقوط المملكة التدمرية، ط1، دار بيسان، بيروت، 1999.

- 36- الحسيني عبد الرزاق، العراق قديماً وحديثاً، ط 3، مطبعة العرفان، صيدا، 1958.
- 37- الحسيني عباس علي، مملكة إيسن بين الإرث السومري والسيادة الأمورية، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2004.
- 38- الحوراني يوسف، البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم، دار النهار للنشر، بيروت، 1978.
- 39- حنون نائل، المدافن والمعابد في حضارة بلاد الرافدين القديمة "دراسة عن الشعائر والعمارة في النصوص المسمارية والآثار"، ط 1، ج 1، دار الخريف للنشر والتوزيع، دمشق، 2006.
- 40- خليف بشار، نشوء فكرة الألوهية "مقاربة تاريخية فكرية"، مر: محمد محقل، ط 1، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2011.
- 41- _____، دراسات في حضارة المشرق العربي القديم، ط 1، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2004.
- 42- دلو برهان الدين، حضارة مصر والعراق "التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي"، ط 1، دار الفارابي، بيروت، 1989.
- 43- دروزه محمد عزة، تاريخ موجات الجنس العربي ودولها ومآثرها في بلاد الشام "سوريا ولبنان والأردن وفلسطين قبل العروبة الصّريجة"، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت).
- 44- داوود أحمد، تاريخ سوريا القديم "تصحيح وتحرير"، ط 3، منشورات دار الصفدي، دمشق، 2003.
- 45- الذنون عبد الحكيم، الذاكرة الأولى "دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القديم لبلاد الرافدين"، ط 2، دار المعرفة، دمشق، 1993.
- 46- _____، تاريخ الشام القديم، ط 1، دار الشام القديمة، دمشق، 1999.
- 47- _____، التشريعات البابلية، ط 1، دار علاء الدين، دمشق، 1992.

- 48- رشيد فوزي ، قواعد اللغة السومرية، ط1، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، 2004.
- 49- _____، سرجون الأكادي أول إمبراطور في العالم "الموسوعة الذهبية"، ط1، دار الثقافة، بغداد، 1990.
- 50- _____، سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة "القوانين في العرق القديم"، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988.
- 51- رزقانة إبراهيم وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، دار مصر للطباعة، القاهرة، (د.ت).
- 52- زايد عبد الحميد، الشرق الخالد "مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى منذ أقدم العصور حتى عام 323 ق م"، دار النهضة العربية، القاهرة، 1966.
- 53- زعرور إبراهيم، تاريخ الحضارة، دار الملايين، (د.د.ن)، دمشق، 2011.
- 54- سهيل قاشا الأب، تاريخ الفكر في العراق القديم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2008.
- 55- سهيل قاشا الأب، بابل والتوراة، دار أبعاد، بيروت، 2011.
- 56- سهيل قاشا، عراق الأوائل "حضارة واد الرافدين"، ط1، العارف للمطبوعات، بيروت، 2010.
- 57- سليمان عامر ، اللغة الأكادية "البابلية والآشورية"، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، الموصل، 2005.
- 58- سليم أحمد أمين، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم، العراق - إيران - آسيا الصغرى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000 .
- 59- _____، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، -مصر - العراق - إيران-، دار النهضة العربية، بيروت، 1998.

- 60- سليمان توفيق، دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة من أقدم العصور إلى عام 1190 ق.م "بلاد ما بين النهرين - بلاد الشام"، ط1، دار دمشق، سوريا، 1985.
- 61- سعد الله محمد على، في تاريخ الشرق الأدنى "مصر - سوريا القديمة"، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2001.
- 62- سكر عزمي، السومريون في التاريخ، ط1، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1999.
- 63- سوسة أحمد، تاريخ حضارة واد الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الأثرية والمصادر التاريخية، ج2، المجمع العلمي العراقي، بغداد، (د-ت).
- 64- سميسم حميدة مهدي، الحرب النفسية، الدار الثقافية للنشر، بغداد، 2004.
- 65- السعدي حسن محمد محي الدين، في تاريخ الشرق الأدنى "العراق - إيران - آسيا الصغرى"، ج2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995.
- 66- السواح فراس، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ط3، دار علاء الدين، دمشق، 1997.
- 67- شاهين شاكر، العقل في المجتمع العراقي بين الأسطورة والتاريخ، ط1، دار التنوية للطباعة والنشر، بيروت، 2010.
- 68- الشناوي محمد أيوب، الدين في الحضارات الشرقية القديمة وأثره على الديانات السرية والفلسفة لدى اليونان، ط1، دار الحضارة للنشر والتوزيع، مصر، 2002.
- 69- الشواف قاسم، ديوان الأساطير سومر وأكاد وأشور "الموت والبعث والحياة الأبدية"، ط1، ج4، دار الساقى، بيروت، 2001.
- 70- الشيخ وجيه و حسين السيد حسين، تاريخ الحضارات العام، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2008.

- 71- صافي عدنان، الجغرافية السياسية بين الماضي والحاضر، منشورات مركز الكتاب الأكاديمي، الإسكندرية، 1999.
- 72- صالح عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم "مصر-العراق"، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004.
- 73- صائب سعد، دور سوريا في بناء الحضارة الإنسانية عبر التاريخ القديم، ط 1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1994.
- 74- الطعان عبد الرضا، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد، بيروت، 1981.
- 75- عبده علي رمضان، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته منذ فجر التاريخ حتى مجيء حملة الإسكندر الأكبر "إيران-العراق"، ج1، دار نهضة الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002.
- 76- عبد المنعم أحمد خالد، همورابي "دراسة تاريخية"، ط1، جامعة عين شمس، بغداد، 2015.
- 77- علي فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1996.
- 78- علي فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000.
- 79- عزيز كارم محمود، أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، ط1، مكتبة النافذة، مصر، 2006.
- 80- عبد الحليم نبيلة محمد، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، دار المعارف، القاهرة، 1983.
- 81- عصفور محمد أبو الحسن، معالم حضارة الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1987.

- 82- عصفور محمد أبو الحسن، الشرق الأدنى قبل عصوره التاريخية، مطبعة المصري، القاهرة، 1962.
- 83- عبد الحي عمر صبحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى، بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مصر، 1998.
- 84- علي محمد عبد اللطيف محمد، تاريخ العراق القديم حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، دار الإسكندرية، القاهرة، 1977.
- 85- علي محمد عبد اللطيف محمد، سجلات ماري وما تلقى من أعضاء على التاريخ السياسي لمملكة ماري من حوالي 1820 إلى 1760 ق م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985.
- 86- علي سعيد إسماعيل، التربية في حضارات الشرق القديم، مطبعة أبناء وهباء، القاهرة، 1999.
- 87- علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، ج1، بيروت، 1993.
- 88- عطا الله فليب، نبوخذ نصر عظمة بابل وإحراق نينوى وتدمير مملكة يهوذا، ط1، دار الجيل، بيروت، 1994.
- 89- عياش عبد القادر، حضارة وادي الفرات "مدن فراتية - القسم السوري"، ط10، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1989.
- 90- فتوحى عامر حنا، الكلدانيون / الكلدان منذ بدء الزمان "بحث في الهوية القومية الكلدانية"، الجمعية الثقافية الكلدانية عنكاو، 2007.
- 91- فرزت محمد حرب، مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها القديمة قبل الإسلام، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1989.
- 92- محمد حياة إبراهيم، نبوخذ نصر الثاني (604-562 ق.م)، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد، 1983.

- 93- مهران محمد بيومي، دراسات تاريخية من القرن الكريم "العراق"، ج4، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995.
- 94- مهران محمد بيومي، مصر والشرق الأدنى القديم "تاريخ العراق القديم"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990.
- 95- مهران محمد بيومي، حضارات الشرق الأدنى القديم "الحياة السياسية الاقتصادية والتشريعية، ج1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2005.
- 96- المخلافي عارف أحمد إسماعيل، دراسات في تاريخ الشرق القديم "العراق وبلاد الشام"، ط1، ج2، المنتدى الجامعي للنشر والتوزيع، صنعاء، 2002.
- 97- مطر سليم، العراق سبعة آلاف عام من الحياة "تاريخ مختصر وشامل من العصر الحجري حتى العصر الحديث"، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013.
- 98- مرعي عيد و محمد حرب فرزت، دول وحضارات الشرق العربي القديم (سومر وأكاد- بابل و-أمورو و أرام)، ط2، دار طلاس، دمشق، 1990.
- 99- محروس إسماعيل حلمي، الشرق العربي القديم وحضارته "بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة"، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997.
- 100- المديرية العامة للمناهج، جغرافية العراق، ط34، بغداد، 2016.
- 101- مجموعة من المؤلفين، شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم، ترجمة أسامة سراس، دار علاء الدين، دمشق، ط2، 1993.
- 102- الماجدي خزعل، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1997.
- 103- المجذوب طارق و عكاشة محمد عبد العال، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2004.

- 104- نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق"، ج1+ج2، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985.
- 105- نخبة من أساتذة التاريخ، العراق في موكب الحضارة "الأصالة والتأثير"، ج1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1988.
- 106- نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، دار الفكر، دمشق، 1972.
- 107- الناصوري محمد رشيد، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، ج1، دار الجامعة العربية، مصر، (د.ت).
- 108- والي عبد الهادي محمد، تاريخ الفكر الاجتماعي، جامعة طنطا، القاهرة، 2005.
- 109- يحي أسامة عدنان، الآلهة في رؤيا الإنسان العراقي القديم "دراسة في الأساطير"، دار الصداقة، فلسطين، 2004.
- 110- ياسين خير نمر، جنوبي بلاد الشام "تاريخه وأثاره في العصور البرونزية، مطبعة الجمعية العلمية الملكية، عمان، 1991.
- 111- يحي لطفي عبد الوهاب، اليونان "مقدمة في التاريخ الحضاري"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991.

ب-المراجع العربية:

- 1- أسمن يان، الذاكرة الحضارية "الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى، تر: عبد الحليم عبد الغني رجب، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.
- 2- إيمار أندريه وآخرون، تاريخ الحضارات العام "روما وإمبراطوريتها"، تر: فريد م. داغر و فؤاد ج. أبوريحان، ج2، منشورات عويدات، بيروت، 1964.

- 3- أوتس جون، بابل تاريخ مصور، تر: سمير عبد الحليم الجلي، إصدار دائرة الآثار والتراث، بغداد، 1990.
- 4- اذاردود وآخرون، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) وفي الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، تر: محمد وحيد خياطة، ج2، دار الشرق العربي، بيروت، (د-ت).
- 5- بوتيرو جان، الديانة عند البابليين، تر: وليد الجادر، ط1، منشورات مركز الإنماء الحضاري، بغداد، 2005.
- 6- بوستغيت نيكولاس، حضارة العراق وأثاره "تاريخ مصور"، تر: عبد ارحيم الجلي، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 1991.
- 7- بارندر جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تر: إمام عبد الفتاح، مر: عبد الغفار مكاوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1993.
- 8- بيرنيا حسن، تاريخ إيران القديم من البداية حتى العهد الساساني، تر: محمد نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي، ط1، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، 2013.
- 9- بريستد جيمس هنري، انتصار الحضارة "تاريخ الشرق القديم"، تر: أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011.
- 10- بارو أندروه، سومر، تر: سركيس الطبر، المكتبة الشرقية، بيروت، 2011.
- 11- تويني أرنولد، تاريخ البشرية، تر: نيقولا زيادة، ج1، دار الأهلية للنشر والتوزيع، مصر، (د.ت).
- 12- جاكوبسن ثوركليد وآخرون، ما قبل الفلسفة "الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى"، ط2، تر: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980.

- 13- جوسان أندريه، طبقات المجتمع، تر: السيد محمد بدوي، مر: أحمد عزت راجح، ط2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، بغداد، 2011.
- 14- حتى فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تر: جورج حداد، مر: جبرائيل جبور، ج1، دار الثقافة، بيروت، 1951.
- 15- ديليتش فريدريك، بابل والكتاب المقدس، تر: إيرينا داود، ط1، دار العلم، دمشق، 1987.
- 16- دانيال غلين، الحضارات الأولى "الأصول والأساطير"، تر: سعيد الغانمي، ط1، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، دبي، 2009.
- 17- روسو جان جاك، في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، تر: عبد العزيز لبيب، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011.
- 18- سازونوف. أ و ك. ماتيف، حضارة ما بين النهرين العريقة، تر: حنا آدم، مطبعة دار المجد، دمشق، 1991.
- 19- ساكز هاري، عظمة بابل، تر: خالد أسعد وأحمد غسان سبانو، ط1، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2008.
- 20- ساكز هاري، عظمة آشور، تر: خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2011.
- 21- سارتون جورج، تاريخ العلم، تر: إبراهيم بيومي مذكوك وآخرون، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1963.
- 22- شتريك مكسيمليان، خطط بغداد وأنهار العراق القديمة "دراسة خطية تاريخية"، تر- خالد إسماعيل على، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1986.
- 23- كلينكل هورست، همورابي وعصره، تر: محمد وحيد خياطة، ط1، دار المنارة للدراسات والنشر والترجمة، دمشق، 1990.

- 24- كوفاليف.س/ دياكوف.ف، الحضارات القديمة، تر: نسيم وكيم اليازجي، ط1، ج1، دار علاء الدين، دمشق، 2000.
- 25- كيرشبادوم/إيفا كانجيك، تاريخ الآشوريين القديم، تر: فارق إسماعيل، ط1، دار الزمان، دمشق، 2008.
- 26- ليفراني ماريو، أوروك أولى المدن على وجه البسيطة، تر: عز الدين عناية، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية المتحدة، 2012.
- 27- لتتون رالف، شجرة الحضارة " قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث"، تر: أحمد فخري، مر: أحمد زكريا الشلق، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، (د.ت).
- 28- مورتكات أنطوان، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تر: توفيق سليمان، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1967.
- 29- موسكاتي سبتينو، الحضارة الفينيقية، تر: نهاد خياطة، مطابع دار العلم، دمشق، 2000.
- 30- _____، الحضارات السامية القديمة، تر: السيد يعقوبي بكر، مر: محمد القصاص، دار الرقي، بيروت، 1986.
- 31- ملرش.اي.ج.اي.ايل، قصة الحضارة في سومر وبابل، تر: عطاء بكرى، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971.
- 32- هاري وف. ساغز، الحياة اليومية في العراق القديم "بلاد بابل وأشور"، تر: كاضم سعد الدين، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2000.
- 33- ورت.أ.ب تشارلز، الإمبراطورية الرومانية، تر: رمزي عبده جرجس، مر: محمد صقر خلفجة، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1999.
- 34- وولي ليونارد، وادي الرافدين مهد الحضارات "دراسة اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ، تر: أحمد عبد الباقي، (د.د.ن)، بغداد، 1948.

ج- المراجع الأجنبية:

1-المراجع الفرنسية:

- 1- Contenau George, **Les Civilisations Ancienne de Proche-Orient**, PU F, Paris, 1945.
- 2- Homo Léon, **histoire D'orient**, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1945.
- 3- Lopez Eliane, **L'Histoire Des Civilisations**, édit Eyrolles, Paris, 2008.
- 4- Léonard Wooley Sir, **Les Sumériens**, Trad: de E.Lévy, Payot, paris, 1930.
- 5- Moscati Sabatino, **L'Orient avant les Grecs (Les Civilisations de la Méditerranée antique)**, presse Universitaire de France, Paris, 1963.
- 6-Miquell Pierre, **L'Antiquité- L'orient de L'égypte Ancienne à Alexandre le grand**, édition Fernand Nathan, paris, 1983.
- 7- Rutten Marguerite, **Babylone**, Presses Universitaires de France, Paris, 1958 .
- 8- Roux Georges, **La Mésopotamie Essai d'histoire politique économique et culturelle**, éditions du Seuil, paris, 1985.
- 9-Seux Marie-Josèphe , **Litterateur Ancienne du Proche Orient - Hymnes et prières aux dieux de Babylonie et d'Assyrie**, les éditions du Cerf, paris, 1976.
- 10-Schmokol Hartmut, **Le monde D'Ur Assur et Babylone**, éditions Correa, Buchet/ Chastel, Paris, 1957.
- 11- Thoarens Léon, **Panorama des Littératures- Mésopotamie, Egypte, Palastine, Perse, Grèce**, Marabout Université, Belgique, 1966.

2- المراجع الإنجليزية:

- 1-Anthonioz Stéphanie, **L'eau, enjeux politiques et théologiques**, Koninklijke Brill / Leiden, The Netherlands, 2009.
- 2-Algaze Guillermo, **Ancient Mesopotamia in the Dawn of Civilization**, the University of Chicago Press, U.S.A, 2008.
- 3- Arnold T. Bill ,**Who were the Babylonians**, Brill Academic, Leiden, 2005.
- 4- Bottéro Jean, **Mesopotamia: Writing-Reasoning and the Gods**, Trans by Zainab Bahrani and Marc Van de Mieroop, the University of Chicago Press, U.S.A, 1992.

- 5- Bertman Stephen, **Handbook to Life In Ancient Mesopotamia**, University of Windsor, U.S.A, 2003.
- 6- Braten Morten, **Ancient Kingdoms – Mesopotamia**, published by Wizards of the Coast, Canada, 2004.
- 7- Crawford Harriet, **The Sumerian World**, Routledge, U.S.A, 2013.
- 8- Charpin Dominique, **Writing-Law-and King ship in Old Babylonian Mesopotamia**, Trans by: Jane Marie Todd, The University of Chicago Press, U.S.A, 2010.
- 9- Champdor Albert, **Babylon**, Copyright © Elek Books Limited, U.S.A .1958.
- 10-Dalley Stephanie, **Myths from Mesopotamia: Création, the Flood, Gilgamesh, and Others**, Oxford University Press, USA, 1989.
- 11-Ezdard Dietz Otto, **Gudea and His Dynasty, the Royal Inscriptions of Mesopotamia Early periods** , Vol 3/1, University of Toronto Press, Canada, 1997.
- 12- Ezdard Dietz Otto, **Sumerian Grammar**, Brill Leiden, Boston, 2003.
- 13-Frankfort Henri, **King ship and The Gods**, The University of Chicago Press, U.S.A ,1978.
- 14- Fleming E.Daniel, **democracy's Ancient Ancestors Mari and Early Collective Governance**, cambridge university press , U.S.A , 2004.
- 15- Frayne Douglas, **Sargonic and Gutian Period (2334-2113 B.C)**, University of Toronto Press, Canada, 1993.
- 16- Frayne Douglas, **Old Babylonian Period**, University of Toronto Press, Canada, 1990.
- 17- Feldman H. Marian and Jack Cheng, **Ancient Near Eastern Art in Context**, Brill, Leiden-Boston, 2007.
- 18- Head Tom, **Ancient Mesopotamia**, Abdo Publishing Company, U.S.A, 2015.
- 19- Hollar Sherman, **Ancient Civilization-Mesopotamia**, Britannica Educational Publishing, New York, 2012.
- 20- Heimpel Wolfgang, **Letters to the King Mari**, Eisenbrauns Winona Lake, U.S.A, 2003.
- 21- Hamblin .j. William, **Warfare in the Ancient Near East to 1600 BC**, Routledge, U.S.A, 2006 .

- 22- Heimpel wolfgang, **Lettres to the King of Mari**, Eisenbrauns Winona lake, U.S.A, 2003 .
- 23- Kuiper Kathleen, **Mesopotamia: the world's earliest civilization**, Britannica Educational Publishing, New York, 2011.
- 24- Kramer Samuel Noah, **The Sumerians –Their History Culture And Character** , The University Of Chicago Press. U.S.A , 1963.
- 25-Leick Gwendolyn, **The Babylonians An Introduction**, Routledge, U.S.A, 2003.
- 26- Leick Gwendolyn, **Who's Who in the Ancient Near Eeast**, Routledge, U.S.A, 1999.
- 27- Luckenbill Daniel David, **Ancient Records of Assyria and Babylonia**, Vol- I, The University of Chicago Press,U.S.A, 1926.
- 28-Luckenbill Daniel David, **Ancient Records of Assyria and Babylonia**, Vol- II, The University of Chicago Press,U.S.A, 1927.
- 29- Luckenbill Daniel David, **The Annals of sennachrib**, the University of Chicago Press, U.S.A, 1924.
- 30- Langdon Stephen, **Building Inscriptions of the Neo-Babylonian Empire- Nabopolassar and Nebuchadnezzar**, part 1,Ernest Laroux, Paris, 1965.
- 31- Mcintoch .R Jane, **Ancient Mésopotamia (new perspectives)** , ABC-CLIO, Santa Barbara, California, 2005.
- 32-Maisels Charles Keith, **Early Civilization of the Old world-The formative histories of Egypt, the Levant, Mesopotamia, India and China**, Routledge, U.S.A, 1999.
- 33-Michalowski Piotr, **the Correspondence of the kings of Ur** ,Eisenbrauns, U.S.A, 2011.
- 34- Michalowski Piotr,**The Lamentation Over The Destruction of Sumer and Ur**, Eisenbrauns Winona Lake, U.S.A ,1989.
- 35- Mendelsohn Isaac, **Slavery in the Ancient Near East**, Oxford University Press , U.S.A, 1949.
- 36-Nadro Dan, **Ancient Mesopotamia**, Green haven Press, U.S.A, 2007.
- 37- Nadro Dan, **Life in Ancient Mesopotamia**, Reference Point Press, U.S.A, 2014.
- 38-Nadro Don, **The Greenhaven encyclopidia of Ancient Mesopotamia**, Ed :Gale, Cengage Learning, London, 2007.

- 39- Oppenheim Leo, **Ancient Mesopotamia-Portrait of a Deal Civilization**, The University Chicago Press, U.S.A, 1977.
- 40- Orlin L. Louis, **Life and Thought in the Ancient Near East**, the University of Michigan press, U.S.A, 2007.
- 41- Roux Georges, **Ancient Iraq**, third édition, Penguin books, Iran, 2000.
- 42- Reece Katherine, **Ancient Civilization- The Mesopotamians Conquerors of the Middle East**, Rourke, Florida, 2004.
- 43-Russell John Malcolm, **The Writing on the Wall -Studies in the Architectural Context Of Late Assyrian Palace Inscriptions**, Eisenbrauns, U.S.A, 1999.
- 44 -Roth. t. Martha, **law Collections from Mesopotamia and Asia Minor**, Second Edition, Society Of Biblical literature, U.S.A, 1997.
- 45-Somervill.A Barbara, **Great Empires of the Past: Empires of Ancient Mesopotamia**, Chelsea House publishers, U.S.A , 2010.
- 46-Snell C.Daniel, **A Companion to the Ancient Near East**, Blackwell Publishing, U.S.A, 2005.
- 47-Simons Geoff, **Iraq –From Sumer To Saddam**, Second Edition, Macmillan Press LTD , London, 1996.
- 48-Saggs , H.W.F , **The greatness that was Babylon- a sketch of the Ancient civilization of the Tigris-Euphrates Valley** , Hawthorn Books, U.S.A , 1962.
- 49- Samuel Mark, **From Egypt to Mesopotamia: A Study of Predynastic Trade Routes Studies in Nautical Archaeology**, Texas A&M University Press, U.S.A, 1998.
- 50- Trigger G. Bruce, **Early Civilizations: Ancient Egypt in Context**, The American University in Cairo Press, Égypt, 1993.
- 51- Van De Mierop Marc, **A History of the Ancient Near East (3000-323 BC)**, Second Edition, Blackwell, U.S.A, 2007.
- 52-Van De Mierop Marc, **Cuneiform Texts and the Writing of History**, Routledge,London, 1999.
- 53-Westbrook Reymond, **A History of Ancient Near Eastern Law**, vol1, Brill Leiden, boston, 2003.

د-الموسوعات:

1- بيلافسكي - ف.أ. ، أسرار بابل، تر: رؤوف موسى جعفر الكاظم ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2008.

2- الخوند مسعود ، الموسوعة التاريخية الجغرافية (القارات - المناطق - الدول - البلدان - المدن)، ج4، دار رواد النهضة، بيروت، 1995.

3- شاكر محمود ، موسوعة تاريخ الخليج العربي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2003.

4- شاكر محمود ، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم، ج1، دار أسامة، عمان، 2002.

5- الطعان عبد الرضا حسين وآخرون، موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ط1، دار الروافد الثقافية "ناشرون"، بيروت، 2014.

6- عبودي س. هنري ، معجم الحضارات السّامية، ط2، دار جُرس بُرس، لبنان، 1991.

7- نخبة من العلماء، الموسوعة الأثرية العالمية، تر: محمد عبد القادر، مر: عبد المنعم أبو بكر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997.

8- نخبة من الباحثين، موسوعة الموصل الحضارية"، ط1، مج1 ، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1991.

ه-الدوريات:

1- أحمد علي ياسين، النظرة الوجدانية عند الآشوريين، وقائع ندوة وحلة حضارة بلاد الرافدين، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 2001.

2-الأحمد سامي سعيد، الدولة الكلدانية زمن الملك نابولاصر ونبوخذنصر، ع29، مجلة المؤرخ العربي، الأمانة العامة للاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1976.

- 3- الأعرجي حسين سيد نور جلال، مفهوم العدالة في الخطاب السياسي في العراق القديم (3000-539 ق م)، مج7، ع3-4، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، بغداد، 2008.
- 4- الأعرجي حسين سيد نور جلال، أثر السياسة الاقتصادية على السياسة الخارجية للدولة الأكادية (2370-2230 ق م)، جامعة واسط، بغداد، 2008.
- 5- الأعظمي محمد طه، من المظاهر الحضارية العراقية القديمة "اختيار الموقع المستحكم طبيعياً"، وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، مطبعة الجمع العلمي، بغداد، 2001.
- 6- الأمير سعدون عبد الهادي برغش، التأثير النفسي للصراعات السياسية على العراق في تاريخه القديم، مج10 ع24، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، بغداد، 2014.
- 7- البديري أيا عايد والي، التركيب الإثنوغرافي لسكان العراق وتحليل أثره في بناء الدولة وإستقرارها، ع13، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، 2010.
- 8- التميم عبد الله علي محمد، النصوص المسمارية ومصادقيتها، ع3، مجلة آداب الفراهيدي، بغداد، 2010.
- 9- التركي قصي منصور، العلاقات السياسية العراقية الخليجية في الألفية الثالثة قبل الميلاد، ع6، مجلة دراسات التاريخية، بغداد، 2014.
- 10- الجميلي أحمد حسين أحمد، الصلات التجارية بين السومريين والمراكز التجارية في الخليج العربي (دلون-Dulmun/ملجان-Magan) أنموذجاً، ع9، مجلة آداب الفراهيدي، بغداد، 2014.
- 11- الجبوري سالم يحيى، الحرب النفسية في نصوص العصر البابلي القديم "المسوغات والأهداف"، ع9، مج16، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، بغداد، 2009.
- 12- الجبوري سالم يحيى، الوصف عند البابليين "دراسة أدبية"، ع14، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الإجتماعية، جامعة الموصل، بغداد، 2014.

- 13- الجواهري عماد، تقويم نمط الحياة الإقطاعية لنمط الإنتاج الآسيوي كما توضحها أوضاع شمال العراق في العصور القديمة، مجلة المؤرخ العربي، ع47، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1994.
- 14- حسين أثير أحمد، الموضوعية في كتابة التاريخ بأسلوب الشخص الثالث عند العراقيين القدماء، مج11، ع21، مجلة أبحاث ميسان، بغداد، 2015.
- 15- حسين جعفر و سلمان خيرى، العوامل الأساسية في وحدة العراق السياسية، مج14، ع5، مجلة تكريت للعلوم الإنسانية، بغداد، 2008.
- 16- حسين عامر ناجي، مجالس المدن في العراق القديم (3000-1000 ق.م)، ع14، مجلة كلية التربية "واسط"، بغداد، 2013.
- 17- حساني جهينة حامد، القراءة العلامة لبنية التوحيد في الحضارة الرافدينية، مج21، ع90، مجلة كلية التربية الأساسية، بغداد، 2015.
- 18- حسين نبيل نور الدين، أثر الاعتقاد الديني على شخصية الملك "شرو-كن الثاني/سرجون الأشوري"، ع2، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، بغداد، 2010.
- 19- الحديدي أحمد زيدان، الصراع الآشوري مع القبائل الكلدانية على السلطة في بابل، ع50، مجلة آداب بلاد الرافدين، بغداد، 2008.
- 20- حسين ياسين محمد، حقوق المرأة في حضارة وادي الرافدين، ع2، مجلة التراث العلمي العربي، بغداد، 2015.
- 21- الحديدي أحمد زيدان، منجزات الملوك الآشوريين العمرية في البلدان المجاورة ما بين 911-612 ق م، ع5، مجلة الدراسات التاريخية، 2013.
- 22- الحيدر حامد خيرى، فلسفة الثورة في الفكر العراقي القديم، مجلة الحوار المتمدن، (د.د.ن)، بغداد، 2015.

- 23- الحجامي عادل مكي عطية، تخطيط المدينة في الحضارة العراقية القديمة، مج1، ع2، مجلة كلية التربية للعلوم الصرفة، مطبعة جامعة ذي قار، بغداد، 2010.
- 24- حمود محمد الحاج، حقوق الإنسان في بلاد ما بين النهرين، مج16، ع3، مجلة المورد، بغداد، 1997.
- 25- خليل جابر إبراهيم، البيئة الجغرافية وأثرها في وحلة حضارة بلاد الرافدين " ندوة وحلة حضارة بلاد الرافدين"، مطبعة المجمع العملي، 2001.
- 26- خليل غيث حبيب، التكوين السكاني للمجتمع العراق القديم حتى سقوط بابل 539 ق.م، ع11، مجلة آداب الفن الفراهيدي، بغداد، 2009.
- 27- الخرسان محمد حلو داود، دور حضارة بلاد الرافدين في نشوء وتطور النظام المالي للدولة، ع17، مجلة العلوم الاقتصادية، جامعة البصرة، بغداد، 2006.
- 28- الديلمي محمد عيدان أحمد، الوحلة بين المنظور القومي والمنظور الإسلامي، ع12، مجلة العلوم الإسلامية، جامعة تكريت، بغداد، 2012.
- 29- روكان محمد كامل، سقوط أور ونهاية العصر السومري في حضارة بلاد الرافدين، مج12، ع4، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، 2009.
- 30- روضان حميدة كاظم، جدلية الموت والحياة في فنون الحضارات القديمة، ع18، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، بغداد، 2016.
- 31- الراوي شيبان ثابت مصطفى، التجارة عبر الفرات في بلاد الرافدين، ع2، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، بغداد، 2012.
- 32- الزبيدي أبا ذر راهي سعدون، لمحة في التنظيمات الاقتصادية لدولة سلالة أور الثالثة في ضوء النصوص المسمارية، ع9، مجلة الباحث، كلية التربية للعلوم الإنسانية، كربلاء، 2013.

- 33- سليمان عامر، بلاد عيلام وعلاقتها بالعراق القديم، مجلة آداب الرافدين، ع14، الموصل، 1981.
- 34- سليمان عامر، وحدة حضارة بلاد الرافدين في النظم الاقتصادية والقانونية، ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 2000.
- 35- سمار سعد عبود، الأحوال السياسية في "أوما" من العصر الأكادي حتى نهاية حكم سلالة أور الثالثة، ع6، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، بغداد، 2011.
- 36- شلال سعدون، الفهم الجغرافي للصراع السياسي، ع18، مجلة البحوث الجغرافية، بغداد، 2013.
- 37- صاحب زهير، مفهومية الشكل في الفنون التشكيلية السومرية، ع1، مجلة نابو للبحوث والدراسات، جامعة بابل، 2006.
- 38- الطّواش بلسم سالم وآخرون، التغيرات البيئية والمناخية وتأثيرها على التطور الحضاري خلال وسط إلى نهاية الهولوسين في مدينة بابل، مج54، ع1، المجلة العراقية للعلوم، بغداد، 2013.
- 39- عبد الله عدنان مكي، نشأة وتطور القرية في العراق، مج39، ج1+ج2، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد، 1983.
- 40- العبودي ستار نوري، الشخصية التاريخية للمجتمع العراقي، ع2، مجلة مركز بابل، بغداد، 2011.
- 41- علي ياسر هاشم حسين، عبارات التباهي والتفاخر عند بعض حكام وملوك بلاد الرافدين، ع107، مجلة الآداب، بغداد، 2014.
- 42- علي ياسر هاشم حسين، جوانب من الحرية في بلاد الرافدين، ع114، مجلة الآداب، بغداد، 2015.

- 43- علي عادل هاشم، سفن الخليج العربي أهميتها ودورها في بلاد الرافدين "دراسة في النصوص المسمارية"، مج1، ع3+4، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، بغداد، 2013.
- 44- عيسى هيفي سعيد، الأسواق في العراق القديم (2800-539ق م)، ع4، مجلة التربية والعلم، مج19، بغداد، 2012.
- 45- علي فاضل عبد الواحد، أعراس الإله تموز ومأساته في طقوس الزواج المقدس والحزن الجماعي، مج28، ج2، مجلة سومر، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1972.
- 46- علي فاضل عبد الواحد، المعتقدات السومرية والبابلية "تأثيرها في التوراة"، مج8، مجلة جمعية المؤرخين والأثريين في العراق، مطبعة الأمة، بغداد، 1990.
- 47- الفتلاوي أحمد حبيب سنيد، زاقورة ايتمنانكي "برج بابل"، مج1، ع11، مجلة العلوم الإنسانية، بغداد، 2012.
- 48- فاضل فاتن موفق، مضامين نصوص الصلوات في العصر الآشوري الحديث (911-613 ق م)، مج8، ع31، مطبعة جامعة الموصل، بغداد، 2012.
- 49- قذح محمود بن عبد الرحمان، الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في الخرافهم "عرض ونقد"، ع111، مجلة الجامعة الإسلامية، (دب)، (د.ت).
- 50- القيم علي، الوحلة الحضارية بين سوريا والعراق، ع511، مجلة الموقف الأدبي، سوريا، 2013.
- 51- القصير أحمد لفته رهمة، المضامين الاجتماعية لإصلاحات الحاكم السومري أورو-اينمكينا (2357-2365 ق م)، مج10، جامعة القادسية، بغداد، 2007.
- 52- الكبيسي خليل رجب حمدان، مرتكزات العلاقات الوجدانية بين المسلمين ومقوماتها، ع12، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإسلامية، بغداد، 2012.

- 53- كسار أكرم محمد عبد، الملك المؤله في بلاد الرافدين، مج11، ع3+4، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، 2012.
- 54- كريدي هديب وفاء ورافد كاظم، اليهود في بابل بين التبلور الفكري والنهج العدائي، مج8، ع1 مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، بغداد، 2005.
- 55- مجلة المؤرخ العربي، نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي "البيان الختامي للندوة"، ع39، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1988.
- 56- المياح على محمد، الموارد الاقتصادية ووحدة حضارة بلاد الرافدين "ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين"، مطبعة الجمع العلمي العراقي، بغداد، 2001.
- 57- الموسوي شوقي مصطفى علي، إشكالية المراثي واللامراثي في الفن السومري، ع4، مجلة نابو للبحوث والدراسات، بغداد، 2009.
- 58- مخط محمد ثامر، وآخرون، التطور التاريخي لقانون حقوق الإنسان في الحضارات القديمة والوسيط، مج2، مجلة الباحث، جامعة كربلاء، بغداد، 2012.
- 59- المتولي نواله أحمد المتولي، "دولة القطر الموحد في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد"، وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، مطبعة الجمع العلمي، بغداد، 2001.
- 60- المتولي نواله أحمد، مسلات الشوارع الملكية في نينوى بين النص الكتابي والمشهد الفني، مج1، جامعة الموصل، بغداد، 2012.
- 61- محمد عبد الله حسون، الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والحضارية للموقع الجغرافي للعراق، ع33، مجلة ديالي، بغداد، 2009.
- 62- محمد حسن جاسم و شيماء عصام البلداوي، الموسيقى والطرب في العراق القديم، ع46، مجلة مركز دراسات الكوفة، بغداد، 2017.

- 63- موسى عباس ندى، تأثير البيئة الطبيعية على شخصية الفرد العراقي، ع40، مجلة ديالي، 2009.
- 64- مدلول سهيلة كاظم، أسس التعليم في العراق ودوره في النهوض الفكري، ع123، مجلة الآداب، بغداد، 2017.
- 65- موسى جعفر زين العابدين و ميثم مرتضى مصطفى، إشارات كتابية مسمارية مهمة حول مدينة بابل، ع4، مجلة جامعة كربلاء العلمية، بغداد، 2014.
- 66- نوبصر مصطفى، أساليب توحيد الأمم وصدائها في أدبيات رواد الفكر القومي العربي الوحدوي، ع4، مجلة أفكار وأفق، جامعة الجزائر(2)، 2013.
- 67- نصيف صباح حمودي، البطل "دراسة تاريخ المفهوم فلسفياً"، ع5، مجلة السياسة الدولية، بغداد، 2006.
- 68- نور حسين سيد و سعدون عبد الهادي الأمير، العبادة السياسية في العراق القديم، ع26، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، بغداد، (د.ت).
- 69- النعيمي شيماء على، من النشاطات الاقتصادية لمعابد بلاد آشور في العصر الآشوري الحديث(911-612 ق.م)، ع30، دراسات موصلية، بغداد، 2010.
- 70- هلال زينب عبد الله و وليد سعدي الميالي، الملك لبيت عشتار في ضوء النصوص المسمارية المنشورة، ع202، مجلة الأستاذ، بغداد، 2012.
- 71- الهاشمي رضا جود، أصالة الحضارة العراقية القديمة وتأثيراتها، مج8، مجلة جمعية المؤرخين والأثريين في العراق، مطبعة الأمة، بغداد، 1990.
- 72- وهد جاسم شهد، الزراعة خلال العصر البابلي القديم، مج11، ع3 مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، بغداد، 2008.

73- الوائلي فيصل، من أدب العراق القديم، مج19، ج1+2، مجلة سومر، مديرية الآثار العامة، بغداد، 1963.

74- يحي أسامة عدنان، بلاد الرافدين في عصر فجر السلالات، مجلة كان التاريخية، ع6، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2009.

و- الأطاريح و الرسائل الجامعية:

ل. الأطاريح:

1- الأعرجي حسين سيد نور جلال ، جذور الفكر في العراق القديم وروافده ، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد ، بغداد، 2011.

2- جاسم صفوان سامي سعيد ، التجارة في بلاد آشور خلال الألف الأول قبل الميلاد في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الآثار القديمة، كلية الآداب، جامعة الموصل، بغداد، 2006.

3- حسان أحمد عبد الرحمن عابدين محمد ، المعاهدات الدولية" دراسة في تاريخ العراق القديم في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، أطروحة دكتوراه، جامعة الزقازيق، بغداد، 2006.

4- السناني رحمة بنت عواد بن أحمد ، تيماء تحت الحكم الكلداني في عصر الملك نابونيد، أطروحة دكتوراه، جامعة طيبة، المملكة العربية السعودية، 1430هـ/2009م.

5- الصافي رنا طعيمة حسين ، الأثر الجغرافي وأبعاده في بلورة الفكر الديني في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، أطروحة دكتوراه، جامعة الكوفة، بغداد، 2012.

6- العبادي معاذ حبش خضر ، المجالس في العراق القديم في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، بغداد، 2012.

الرسائل:

- 1-الأعرجي حسين سيد نور جلال، الخطاب السياسي في العراق القديم(3000-539 ق م)، مذكرة ماجستير، جامعة واسط، بغداد، 2005.
- 2-الشمري احمد مجيد راضي، التقلبات السياسية في الشرق الأدنى القديم للفترة 1200-911 ق م، مذكرة ماجستير، جامعة واسط، بغداد، 2016.
- 3-العيادي رامي عبد الحكيم قاسم، أفراد القوات المسلحة في عهد الملك حمورابي، مذكرة ماجستير ، جامعة الموصل، بغداد، 2006.
- 4-العيهار محمد، إرهابات التشريع في العراق القديم "الأسباب-النتائج -الإنعكاسات"، مذكرة ماجستير، جامعة وهران ، الجزائر، 2013.
- 5-معوشي سامية، مؤسسة المعبد ودورها في حضارة وادي الرافدين "سومر وبابل أنموذجا"، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر(2)، 2009.
- 6-محمد هيفاء أحمد عبد الحاج، ألقاب حكام وملوك العراق القديم، مذكرة ماجستير، جامعة الموصل، بغداد، 2007.
- 7-الهاشم ثريا عبد الله، الأمومة والطفولة في تشريعات بلاد الرافدين "2500-500 ق م، مذكرة ماجستير، جامعة الملك سعود، السعودية، 1433-1434هـ.

ز - المواقع الإلكترونية:

- <https://mariammagazine.de> / مقتطفات من التراث.
- https://upload.wikimedia.org/wikipedia/commons/thumb/5/5c/Cities_of_Sumer-ar.svg/1200px-Cities_of_Sumer-ar.svg.png.
- <http://all-generals.ru/assets/images/polkovodci/DM/SHUMER/Lugal-zage-si-jpg>.
- <http://arab-ency.com/img/res/6452/1.jpg>.
- <http://arab-ency.com/img/res/3420/1.jpg>.
- <https://i.pinimg.com>.

- <http://arab-ency.com/img/res/2353/1.jpg>.
- <https://upload.wikimedia.org>.
- <https://i.pinimg.com.jpg>.
- <https://66.media.tumblr.com>.
- <http://hisgeo.tn/images/13.jpg>.
- http://www.atthalin.fr/images_louvre/po_la-flieuse_neo_elamite_8s.jpg.
- <https://www.noonpost.org/sites/default/files/styles/article-main/public/field/image/sumerios>.

الفهارس

- 1- فهرس الأعلام.
- 2- فهرس الأماكن والمدن.
- 3- فهرس الشعوب والقبائل.

1- فهرس الأعلام:

-أ-

أسرحدون، 16، 122، 244.

أشور بانيبال، 16، 119، 122، 123، 133، 139، 155، 172، 182، 183، 198، 215.

إسكندر المقدوني، 22.

أوروسيوس، 26.

أشعيا، 26، 143.

أراميا، 26، 155، 173، 239.

أيوب، 78.

أنطوان مورتكات، 95، 101.

أوركاجينا، 98، 151، 178، 179، 251.

أتوحيكال، 102، 116، 121، 126.

أورنامو، 102، 126، 134، 174، 187، 195، 217، 218، 227، 238، 258.

إبي سين، 103، 116، 223، 251، 257، 259.

أشور أوباليط، 107، 129، 130.

أدد نيراري الأول، 107، 122، 182.

أسبيناز، 109.

إمار-سين، 116.

أجوم، 117.

أشور ناصر بال الثاني، 119، 122، 130، 142، 171.

أداد-نيراري الثاني، 119، 230.

- ايال - بيل، 122.
- إبي - إيل، 122.
- أي - أناتوم، 123.
- أور - زبابا، 125.
- أبق أدد الثاني، 126.
- أمرافل، 128.
- أريوك، 128.
- أوزا جابي، 141.
- أرخوليني، 143.
- أنميتينا، 150.
- أوشو، 150.
- إياناتم، 150.
- أور نانشة، 156، 178.
- اينشاكوشانا، 164، 206.
- إيني عشتار، 164، 206.
- أديني ابن داكوري، 166.
- أومانيجاس، 172.
- امبادارا، 172.
- إشمي دجان، 181، 224.
- إدين - داغان، 188.
- إما - نبو، 207.
- أورو - اينمكينا، 211.

انخيدوانا، 213، 234، 240.

أجا، 222.

اينمباراجيس، 222.

إشيبي إيرا، 223.

أياش تولا، 224.

أدد مُشامِر، 246.

ألولو، 246.

إنكيدو، 246.

اينمركار، 246، 247، 248.

أترخاسيس، 249.

-ب-

برعوشا، 22.

بيرسوس، 22.

بشار خليف، 100.

بارع، 128.

برعاش، 128.

بيل-ابني، 204، 205.

بوزور، 223.

-ت-

تويني، 62.

تريغان، 102، 126.

توكلتي نينورتا الأول، 107، 118، 122، 130.

تجلات فاللاس، 118، 131، 155، 198، 215، 228، 229.

توكلتي - نينورتا الثاني، 119.

تدعال، 128.

تام ماري تو، 133.

-ج-

جلجامش، 20، 222، 245، 246.

جوديا، 157، 170، 175، 238.

-ح-

حمورابي، 13، 16، 24، 79، 104، 105، 108، 109، 115، 116، 122، 127، 128، 129،

135، 138، 154، 158، 165، 181، 182، 196، 208، 214، 218، 219، 228، 235، 238،

243، 265.

حدد - عزز، 143.

حزقيا، 143.

-خ-

خوم بان كالداس، 133.

خلتيلودش، 145.

خبابا، 245.

-د-

ديودور الصقلي، 22، 108، 159، 230.

الديلمي، 40.

دانيال فليمنغ، 113.

دامق-إيلشو، 153، 154.

-ر-

ريم سين، 122، 127، 128، 159، 238.

ريموش، 137، 141.

ريتي مردوك، 145.

رضا جواد الهاشمي، 231.

-س-

سرجون الأكادي، 16، 95، 98، 99، 100، 101، 108، 116، 121، 124، 125، 126، 134،

137، 140، 141، 151، 152، 157، 169، 179، 191، 192، 193، 194، 210، 212، 213،

214، 217، 226، 227، 233، 234، 237، 240، 241، 252، 253.

سرجون الثاني، 16، 136، 139، 176، 177، 182، 198، 239.

سنحاريب، 16، 131، 132، 136، 144، 159، 160، 161، 171، 182، 207.

سميراميس، 22، 230.

سترابون، 23، 53.

ستيفان بيرتمان، 47.

سليم مطر، 67، 232.

سازونوف، 94.

سمسوايلونا، 129.

سيدجا، 141.

سميراميس، 159.

سهيلة كاظم مدلول، 190.

-ش-

شاكر شاهين، 25.

شمسو-إيلونا، 79.

شمش ابن بيت داكوري، 81.

شاركاليشاري، 101.

شوسين، 103، 116.

شمشي أدد، 106، 153، 196.

شلمنصر الأول، 107.

شولجي، 121، 174، 175، 188، 227.

شباب، 128.

شمئب، 128.

شلمنصر الثالث، 131، 142، 143، 166، 229، 230، 243.

شتى مردوخ، 144، 145.

شارا، 150.

-ص-

صمويل كريم نوح، 40، 116، 237.

صدقيا، 173.

-ط-

طه باقر، 116.

-ع-

- عزمي سكر، 67.
عامر حنا فتوحي، 126.
عبد السّاتر لبيب، 214.
عبد العزيز صالح، 218.
عبد الرضا الطعان، 220.

-ف-

- فليب حتي، 75.
فاضل عبد الواحد علي، 208.
فوزي رشيد، 241.

-ق-

- قرني، 223.

-ك-

- كاشتيلاش الرابع، 104، 117، 130.
كانداش، 117.
كدرلعومر، 128.
كاراخارداش، 129، 130.
كوريكالزو (الثاني)، 130.
كاكوج، 137.
كورش، 140، 145.
كودا، 205.

-ل-

لوكال زاكيزي، 16، 95، 96، 98، 99، 108، 114، 124، 151، 157، 191، 211، 212، 233،
237، 251.
ليونارد وولي، 91.
ليت عشتار، 122، 135، 153، 181، 204، 218، 238، 242، 243، 260.

-م-

ميناء، 36.
مردوخ -ابلا- ادنا الثاني، 80، 81، 143، 182.
ميسليم، 93، 150، 151.
ماتيف، 94.
محمد بيومي مهران، 96.
مانيشتوسو، 117، 141، 169، 170، 223.
موبلطات شيرو، 129.
ميروداخ بالادان، 131، 144.
ماداكاتو، 172.

-ن-

نبوخذنصر، 16، 23، 26، 109، 123، 134، 136، 144، 145، 155، 161، 172، 173، 189،
205، 215، 230، 231، 239، 244.
نوح، 27، 28.
نبو-زير-كيتي، 80.
نبو-زير-كيتي -ليشر، 80.

نرام-سين، 101، 117، 141، 169، 194، 223، 231، 252، 253، 254، 256.

نابوبلاصر، 108، 109، 230، 245.

نبونائيد، 123، 140، 184، 230.

نازي بوكاشالكشي، 130.

نازريبوكارش، 130.

نور هدد، 138.

ننجرسو، 150، 151، 179.

نرجال توكولتي، 246.

-ه-

هيروودوت، 22، 45، 207، 208، 230.

هروشيش، 26.

هاري ساكز، 139.

هورست كلينكل، 152.

همبانيمنيا، 161.

هورداي، 172.

-ي-

يان أسمن، 39.

يهوياقيم، 45.

يسمح أدد، 107، 224.

يارم-لم، 122.

ياموت بال، 128.

يورنابور ياش، 130.

يشمع دجان، 135، 238.

يخدون - ليم، 153، 159.

ياجيدليم، 159.

يهوياكين، 172.

يهودا، 173.

2- فهرس الأماكن والمدن:

- أ -

أربيل، 12، 161.

أكاد، 20، 44، 53، 54، 65، 73، 92، 100، 103، 116، 117، 118، 120، 124، 125، 127،
129، 130، 135، 144، 153، 154، 158، 169، 172، 174، 188، 190، 192، 193، 195،
227، 238، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257.

أورشليم، 23، 155، 172، 173.

أشور، 24، 44، 45، 52، 53، 76، 77، 106، 107، 118، 119، 122، 129، 131، 132،
133، 138، 144، 153، 155، 161، 176، 177، 186، 196، 197، 198، 208، 215، 219،
228، 229، 230، 239.

الأناضول، 40، 52، 54، 58، 108، 196.

أوغاريت، 41.

أوروك، 45، 66، 92، 104، 116، 127، 157، 158، 235، 237، 245.

آسيا الصغرى، 50، 55، 99، 103، 141، 164، 168، 234.

آسيا، 52، 195، 196.

إفريقيا، 52، 193.

أوروبا، 52، 55، 235.

أور، 65، 74، 102، 104، 113، 115، 116، 117، 122، 124، 126، 128، 129، 135،
137، 142، 153، 157، 158، 162، 174، 175، 180، 185، 187، 188، 195، 197، 204،
206، 214، 217، 218، 220، 223، 225، 226، 227، 235، 238، 242، 246، 247، 251،
252، 255، 256، 257، 258، 259.

- أشنونا، 65، 122، 126، 135، 138، 181، 186، 248، 249.
- أرمينيا، 66، 168.
- إيردو، 66، 95، 135، 158، 225، 248، 251.
- إيران، 72، 164.
- أوما، 93، 95، 123، 124، 126، 150، 151، 158، 185، 191، 211، 225، 251.
- إيسن، 104، 127، 135، 153، 154، 158، 181، 188، 223، 235، 238.
- الأهواز، 105.
- إنغار، 124.
- إيلي - تبا، 126.
- أدمة، 128.
- إبشالي، 141.
- أوان، 141.
- أرام، 143.
- أولا، 145.
- أد-نن، 151.
- أنطاكية، 164، 171.
- أفغانستان، 164.
- أكشاك، 165، 206.
- إبلا، 169، 193، 194.
- الأمانوس، 169.
- إنشان، 170، 259.
- أمورور، 171.

أرفاد، 171.

أرياموتي، 194.

أرواد، 198.

أدب، 225.

إرتة، 246، 247، 248.

إرك، 247، 248، 252.

ابزوباندا، 251.

أهوش، 251.

أي بابار، 251.

أولماش، 253.

أي كور، 255.

-ب-

بلاد الرافدين، 10، 13، 15، 20، 22، 23، 29، 37، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 47، 48، 49،

50، 51، 52، 53، 54، 55، 56، 57، 59، 61، 62، 68، 69، 72، 73، 74، 76، 79، 81، 83،

85، 86، 87، 88، 89، 90، 92، 96، 98، 103، 104، 108، 109، 110، 111، 112، 113،

115، 120، 129، 131، 134، 146، 147، 149، 153، 155، 158، 162، 164، 167، 169،

171، 173، 174، 191، 199، 202، 209، 221، 225، 230، 232، 233، 235، 237، 244،

250، 251، 257، 259، 261، 262، 264، 266، 269، 271، 272.

باريس، 13.

بابل، 23، 24، 25، 26، 28، 44، 45، 46، 58، 66، 75، 79، 81، 104، 105، 107، 109،

115، 117، 118، 122، 123، 127، 128، 129، 130، 135، 136، 138، 140، 143، 144،

155, 159, 161, 162, 166, 172, 174, 181, 182, 183, 185, 196, 198, 199, 204,
216, 220, 225, 228, 229, 230, 231, 233, 235, 236, 239, 245, 260.

بييلوس، 41، 171.

بغداد، 77.

بورسييا، 79، 158، 220، 229، 231.

بالع، 128.

باراخشي، 141.

بلوخستان، 168.

بوزريش داجان، 180.

بورشخندا، 194.

بادتيبير، 225.

- ت -

تل أبو حطب، 65.

تربيص، 122، 123.

تامار، 128.

توتول، 169، 194.

تاير، 171.

تيراش، 251.

- ث -

تُقَرَّ نَايم، 128.

-ج-

جبيل، 41، 198.

الجزيرة العربية، 54.

جوييم، 128.

جوادنا، 151.

جيكانا-ننما، 251.

-ح-

حملة، 44، 143.

حلف، 71.

حميرين، 77.

-خ-

الخليج العربي، 15، 47، 50، 52، 56، 59، 62، 66، 76، 79، 99، 102، 103، 108، 131،

141، 158، 164، 168، 169، 171، 190، 191، 192، 193، 195، 199، 245.

الخليج الفارسي، 50، 57، 58، 119، 131، 195.

خمازي، 116.

خانا، 159، 161.

-د-

دلهيم، 64.

ديالي، 65، 92.

دلون، 100، 168، 192، 193.

الدير، 124، 144.

دبروم، 126.

دمشق، 143.

دوسابارا، 180.

دور شروكين، 239

-ر-

روما، 38، 39.

رأس شمرا، 41.

-ز-

زاغروس، 53، 57، 119، 141، 164، 193.

-س-

سومر، 19، 20، 44، 53، 54، 58، 65، 71، 93، 99، 103، 116، 117، 118، 120، 126،

127، 129، 130، 135، 136، 137، 140، 153، 154، 156، 158، 172، 188، 190، 206،

217، 218، 227، 232، 236، 237، 238، 240، 245، 246، 247، 251، 252، 254، 259

سوبارتو، 45، 76، 116، 118، 128، 137.

سوريا، 46، 50، 99، 105، 143، 164، 168، 169، 234، 245.

سوسة، 53، 133، 170، 172.

سيليسيا، 53.

سييار، 64، 66، 73، 80، 162، 182، 183، 220، 225، 227، 231.

سامراء، 71.

سَنجَار، 77.

سدوم، 128.

سَعِير، 128.

سِوَا، 141.

سُورُو، 142.

سِيدُون، 171.

سِيمِيرَا، 198.

- ش -

الشرق الأدنى، 22، 29، 30، 34، 40، 42، 48، 50، 52، 76، 94، 103، 104، 107، 108،

109، 117، 146، 147، 261، 262، 269.

شَنْعَار، 44، 45، 128.

الشام، 50، 73، 74، 89، 100، 102، 146، 164، 198.

شُورْبَاك، 65.

الشرقاط، 77.

شَوَى قَرِيَتَايِم، 128.

شِيرِيكُوم، 170.

شُؤْبِر، 247.

- ص -

صِيدَا، 41، 171، 198.

صُور، 41، 171، 198.

صَبُويِم، 128.

صُوغَر، 128.

-ط-

طوروس، 50، 164، 193.

طورال، 57.

-ع-

العراق القديم، 10، 11، 12، 13، 15، 23، 27، 28، 29، 42، 45، 46، 47، 48، 53، 54، 55،

57، 58، 59، 62، 63، 69، 71، 72، 76، 102، 112، 139، 140، 146، 149، 154، 155،

156، 163، 169، 187، 190، 191، 192، 195، 202، 211، 220، 231، 232، 234، 244،

245، 264، 265، 267، 268.

عكا، 41، 54.

عيلام، 44، 49، 53، 54، 80، 99، 100، 103، 105، 125، 128، 133، 137، 140، 141،

145، 146، 161، 164، 172، 234، 244، 257.

عربستان، 53.

عمورة، 128.

عمان، 164.

عمرو، 198.

-ف-

فتروس، 44.

فلسطين، 46، 195.

فارس، 53، 54، 56، 58، 108، 141، 164، 169، 170، 234، 247.

فينيقيا، 53.

الفلوجة، 64.

فاران، 128.

-ق-

قبرص، 52، 171.

القوقاز، 66، 72، 164.

القفقاس، 119.

قطنا، 122.

قَادِش، 128.

قطانم، 224.

-ك-

كركوك، 12، 102.

كشديم، 44.

كوش، 44.

كاردويناش، 46، 116، 118، 129، 130، 131، 172.

كريت، 52.

كيش، 66، 80، 93، 124، 125، 137، 141، 144، 150، 158، 164، 165، 185، 193،

206، 214، 222، 223، 225، 233، 252.

كوئي، 80، 229.

كاسالو، 137.

كبادوقيا ، 164 ، 196 ، 197 ، 234 ، 237.

كرسو، 170.

كيماش، 170.

كركيمش، 171 ، 176 ، 177.

كايزا، 171 ، 198.

كولتيب، 196.

كزالو، 223.

كلاب، 248.

-ل-

لجش، 66 ، 93 ، 98 ، 113 ، 123 ، 124 ، 126 ، 150 ، 151 ، 156 ، 157 ، 175 ، 178 ، 179 ،

185 ، 211 ، 225 ، 240 ، 251.

لبنان، 164 ، 171 ، 198.

-م-

المشرق العربي، 11.

مصر، 36 ، 37 ، 39 ، 40 ، 41 ، 44 ، 119 ، 193 ، 198.

ماري، 49 ، 74 ، 107 ، 125 ، 128 ، 153 ، 159 ، 169 ، 186 ، 193 ، 194 ، 214 ، 224.

المحمرة، 56.

الموصل، 77.

ميلوخا ، 99 ، 168 ، 170 ، 193 ، 194 ، 253.

ملجان، 99 ، 100 ، 168 ، 170 ، 192 ، 193.

ميديا، 109.

مارتو، 75، 116، 194، 247، 253، 257.

مشفط، 128.

مالجيوم، 128.

محالاتا، 171، 198.

مايزا، 171، 198.

-ن-

نينوى، 12، 53، 108، 133، 161، 182، 228.

نفر، 64، 95، 135، 153، 158، 182، 183، 185، 207، 238، 251، 252، 254، 255،

256.

الناصرية، 65.

نيبور، 66، 80، 142، 158، 180، 181، 225، 228، 238.

نمرو، 166.

-ه-

الهند، 40، 52، 58، 164، 168، 193.

الهلل الخصب، 73، 90، 109.

هالمان، 230.

همازي، 247.

-و-

الوركاء، 45، 46، 65، 72، 99، 121، 124، 125، 135، 153، 164، 165، 180، 185، 204،

206، 211، 222، 227، 231، 245، 251.

- لا -

لارسا، 66، 122، 124، 127، 128، 135، 138، 157، 158، 159، 181، 227، 235،
237، 238.

- ي -

اليونان، 22، 28، 37، 38، 53.

اليمن، 78، 79.

يمخد، 122.

يارموتي، 169.

3- فهرس الشعوب والقبائل:

-أ-

الأوربيون، 22، 47.

الأشوريون، 23، 41، 45، 50، 52، 54، 70، 76، 77، 80، 81، 106، 107، 108، 109، 117،

118، 119، 122، 129، 130، 134، 139، 143، 144، 155، 166، 171، 183، 196، 197،

198، 208، 209، 215، 219، 224، 228، 230، 235، 244، 264.

الإغريق، 37، 41، 45، 47.

الأتروسكيين، 39.

الإخمينيون، 46.

الأكاديون، 54، 69، 71، 73، 98، 99، 101، 103، 111، 116، 135، 140، 165، 174، 187،

192، 233، 241، 257، 264.

الأموريون، 69، 74، 75، 103، 104، 128، 134، 142، 158، 198، 257.

الآراميون، 69، 80، 160.

أموكاني، 79، 81.

الأمريكيون، 88.

الإيميين، 128.

الأرمن، 160.

-ب-

البابليون، 20، 25، 41، 54، 70، 71، 75، 80، 105، 109، 139، 143، 204، 207، 214،

230، 235، 244، 251، 264.

-ج-

الجوتيون، 69، 102، 116، 118، 126، 140، 142، 152، 248، 252، 254، 256، 257،
261.

-ح-

الحيثيون ، 105، 230.

الحوريون، 105، 128، 129.

حالوبي، 142.

-د-

داكوري، 79، 81.

-ر-

الرومان، 22، 28، 38، 39، 41.

ريدوتي، 122.

الرفائيين، 128.

-ز-

الزوزيين، 128.

زيدا، 239.

-س-

السومريون، 18، 19، 20، 54، 70، 71، 72، 73، 75، 93، 94، 96، 97، 98، 99، 103، 105،

111، 116، 125، 135، 137، 142، 149، 157، 163، 164، 165، 168، 178، 195، 203،

204، 217، 227، 232، 233، 234، 235، 236، 241، 251، 257، 258، 259، 264.

السوبارتيون، 76، 194، 253، 259.

السبثيون، 78.

الساميون، 105، 137، 232.

ساغاتو، 239.

-ش-

شعالي، 80، 81.

شيلاني، 80، 81.

-ع-

العيلاميون، 13، 142، 144، 170، 194، 223، 224، 253، 257، 258، 259.

العبرانيون، 19، 23، 28، 44.

-غ-

الغاليين، 39.

-ف-

الفينيقيون، 38، 41، 58.

الفرس، 110، 145، 198، 230.

-ك-

الكاشيون، 46، 69، 105، 115، 116، 117، 130، 131، 134، 140، 182، 261.

الكلدانيون، 78، 79، 80، 81، 108، 109، 110، 160، 244، 265.

كرزيابكو، 144، 145.

-ل-

لولوبو، 144، 257.

-م-

الميديون، 159.

-ن-

النصارى، 26.

-ه-

الهندو-أوروبيون، 55.

-ي-

اليونانيون، 10، 19، 39.

اليهود، 23، 25، 26، 28، 53، 160، 172، 216، 239.

ياكين، 80، 81، 131.



فهرس المحتويات

أ.....	مقدمة.....
9.....	المدخل: قراءة في مصادر الدراسة.....
10.....	I -قراءة في مصادر العراق المحلية:.....
22.....	II -كتابات المؤرخون الكلاسيكيون:.....
23.....	III -الكتب المقدسة:.....
31.....	الفصل الأول: جغرافية و أساسيات الفكر الوجدوي.....
32.....	I .ماهية الفكر الوجدوي.....
32	1.المفهوم:.....
34.....	2 -أساليب الوحدة.....
36.....	أ. أسلوب التوحيد العسكري.....
39.....	ب. أسلوب التوحيد السلمي.....
43.....	II . أساسيات الوحدة:.....
43.....	1.التسميات.....
48.....	2. خاصية الموقع الجغرافي.....
56.....	3.الأقاليم.....
61.....	4.المناخ.....
63.....	5.الأنهار.....
68.....	III . التجمعات السكانية:.....
70.....	1. التجمع السومري:.....
72	2.التجمعات الجزرية:.....
73.....	أ. الأكاديون.....
74.....	ب. الأموريون.....

ج. الأشوريون.....	76
د. الكلدانيون.....	78
الفصل الثاني: السياسة الحدودية وتحدياتها.....	84
I-الحركات الحدودية.....	85
1-مراحل الحركات الحدودية.....	85
أ-المرحلة الأولى:الأبعاد التنظيمية للقرية والمدينة.	86
أ-1- القرية وشعور الانتماء:.....	86
أ- 2-المدينة وحدة سياسية:.....	88
ب-المرحلة الثانية: تطورات الحراك السياسي.....	92
ب-1-نظام الدولة المدينة:	92
ب-2-مرحلة الدولة الموحدة:.....	98
أولاً: الدولة الأكادية وجذور التوحيد:	98
ثانياً: دولة الإنبعث السومري الحدودية.....	101
ثالثاً: دولة بابل القديمة حاملة مشعل الوحدة	104
رابعاً: الدولة الأشورية الحديثة الموحدة	106
خامساً: الكلدانيون آخر سلالة موحدة	108
II-مظاهر الفكر الحدودي:.....	111
1-الألقاب الحدودية:.....	112
أ-لقبي أن EN و الانسي ENSI:.....	112
ب-لوكال /لوكال كالاما:.....	114
ج- ملك الجهات الأربع / ملك العالم:	116

120.....	2-الخطابات الوجدية:
121.....	أ-الخطاب السياسي:
123.....	ب- الخطاب العسكري:
134.....	ج-خطاب العدالة:
136.....	III-تحديات الفكر الوجداني
136.....	1-التحديات الداخلية:
140.....	2-التحديات الخارجية :
148.....	الفصل الثالث: الفكر الوجداني في ظل الحياة الاقتصادية
149.....	I. الأبعاد الزراعية.....
149.....	1-الأراضي الزراعية
155.....	2-مشاريع الري.....
162.....	II. الأبعاد الصناعية.....
163.....	1- الاحتكار الصناعي.....
167.....	2- الانفتاح الصناعي
173.....	III.الأبعاد التجارية.....
173.....	1. الإجراءات الاقتصادية.....
173.....	أ- وحدة المكييل والأوزان.....
178.....	ب- توحيد الضرائب.....

185.....	2. التجارة في بلاد الرافدين
185.....	أ. التجارة المحلية
189.....	ب. التجارة الدولية
201.....	الفصل الرابع: مظاهر الفكر الوحدوي في المجتمع الرافدي
202.....	أ - المجتمع الرافدي:
203.....	1- الحياة الأسرية:
209.....	2- النظام الطبقي:
209.....	أ- الطبقة الحاكمة:
216.....	ب- الطبقة المحكومة:
221.....	II. الحريات الاجتماعية
221.....	1- حرية إبداء الرأي
225.....	2- حرية المعتقد الديني
232.....	3- حرية اللغة
236.....	4- الأمن والاستقرار الوحدوي:
239.....	III - التراث الوحدوي:
240.....	1- الأناشيد والرموز الوحدوية:
245.....	2- الأساطير الوحدوية
250.....	3- مراثي المدن والدول:
263.....	خاتمة

273.....	-الببليو غرافيا.
303.....	-الفهارس.
304.....	1- فهرس الأعلام.
314.....	2- فهرس الأماكن والمدن.
326.....	3- فهرس الشعوب والقبائل.
330.....	-فهرس المحتويات.